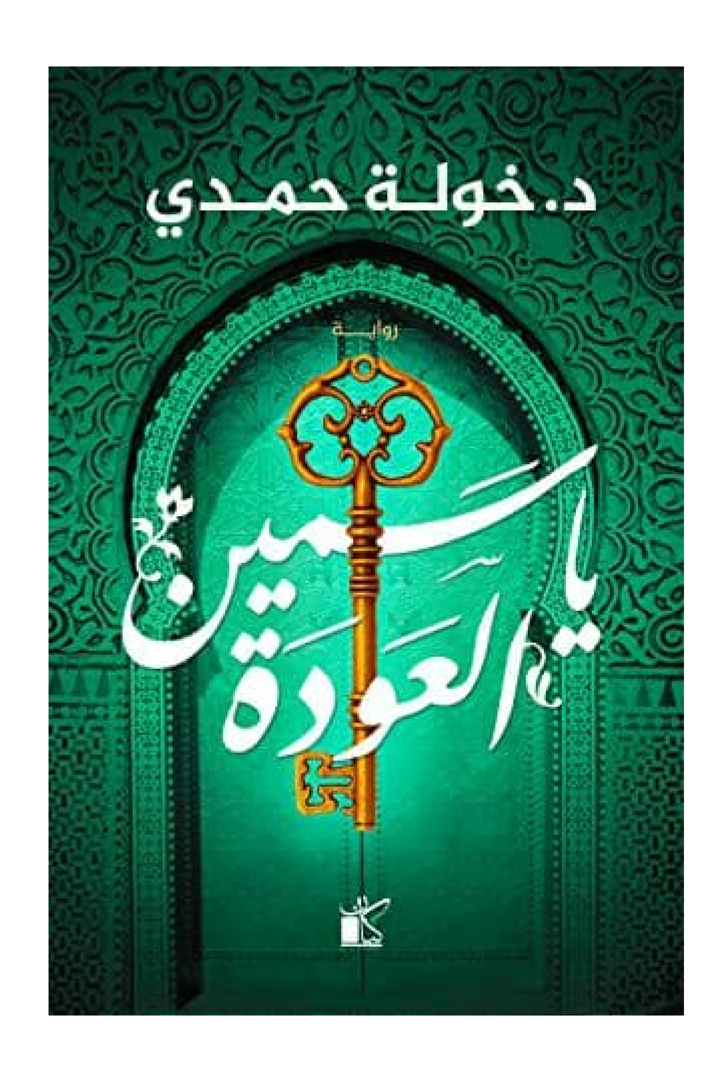


ياسمين العودة

د. خولة حمدي

إهداء

إلى مفاتيح صدئت بعيدًا عن أبوابها

عسى أن يجتمع كلّ مفتاح بقفله، ولو بعد حين

-١-

باريس، أبريل ٢٠٠٨

خلال السّنوات الأربع التي قضتها ياسمين في باريس أصبحت لديها عاداتها الباريسيّة الخاصّة بها؛ مثل المشي بين الأشجار الباسقة في حديقة «اللكسمبورغ» يوم الأحد، وتناول كوب من المثلّجات عند محلّ «أمورينو» الإيطالي المعروف في الحيّ اللاتيني، والجلوس لساعات على ضفاف نهر السّين ومراقبة السّفن السّياحيّة التي تمخر عباب الماء.

كما أنّها تبنّت بعض عادات هيثم التي أحبّتها فضمّتها إلى لائحة أنشطتها المفضّلة.. فتتسلّق كلما سنحت الفرصة هضبة «مونمارتر» الشّاهقة، لتجلس على الدّرجات الحجرية البيضاء التي تتقدّم كاتدرائيّة «القلب المقدّس»، وتتأمل بنايات باريس من علٍ، أو تنعزل أمام طاولة منفردة في ركن قصيّ من مطعم عربيّ –عرّفها عليه هيثم أيضا– في الطابق الأرضيّ للمركز التجاري الذي يتربّع وسط ناطحات السحاب، في منطقة «الديفونس» التي تعمل بها.

– طبق شاورما عربيّة، من فضلك!

وقفت لدقائق قليلة، تترقّب أن تجهز وجبتها، ثمّ رفعت الطّبق واتّجهت إلى مائدتها المنفردة، مثل العادة.

مطعم «البيت الصغير» لم يكن مميّزا إلى درجة كبيرة، بل لعله أقلّ أناقة من معظم المطاعم التي يتخم بها الطابق العلويّ للمركز التّجاري. كما أنّه يقدّم أكلات سريعة لا تمتّ بصلة إلى الأكلات العربية الدّسمة، دون أن يكون في مستوى منافسة العمالقة الأمريكيين المختصّين في المجال. لعلّ ميزته الوحيدة هي تخصّصه في الأكل «الحلال» ممّا يجعل طاولاته العائلية وشرفته المظللة تمتلئ كل ظهيرة بزبائن من نوع خاص: المسلمين!

كانت ترى أشكالا مألوفة في ذلك الفضاء الصّغير، تؤنس غربتها؛ بشرات متوسّطيّة لوّحتها الشّمس، سيّدات محجّبات يشبهنها، ورجالا يطلقون اللّحى، وألسنة تنطق العربيّة، وتلقي بتحيّة الإسلام.

كانت ياسمين تحمل كتبها ومسوّداتها وتقضي استراحة الغداء هناك، معظم أيّام الأسبوع، تدوّن أفكارها وتحليلاتها، وتسرح في موضوع أطروحة الدّكتوراه خاصّتها. أحيانا تنضمّ إليها ميساء –شقيقة هيثم– حين تنتهي دروسها الصّباحيّة في الجامعة مبكرّا، وحين لا تنشغل ياسمين نفسها بزيارة ميدانية أو اجتماع عمل أو غداء جماعي لموظفي الشركة. لكنّها لم تكن تتناول الأكلات السّريعة كل يوم، بل كثيرًا ما تجلب معها وجبة صحيّة منزليّة التحضير وتكتفي بطلب كوب من عصير البرتقال الطازج أو فنجان قهوة محلاّة، تحتسيه على مهل لتطيل الجلسة.

وأصبح هيثم يطلّ عليها من حين لآخر منذ اكتشف مخبأها ذاك، من باب الإحراج لا أكثر! وبصيغة أخرى، أصبح يعرف أين يجدها إن احتاج إلى مناقشتها في بعض تفاصيل حفل الزّفاف الذي غدا وشيكا.

لم يستعجلا الأمر. ربّما استعجل هيثم، لكن ياسمين لم تفعل. بعد أن أعطت موافقتها المنتظرة، أعلنت الخطبة الرسميّة بمباركة جميع الأطراف. كانت خطبة تقليديّة، استنكرتها بداية، ثمّ تقبّلت شخصيّة هيثم تدريجيا. المواقف التي جمعت بينهما جعلتها تستشفّ أصالة معدنه وصدق مشاعره تجاهها.

رغم محاولات زهور — والدة هيثم— وميساء شقيقته، وفاطمة — والدة ياسمين— بتحريض من هيثم تعجيل إجراءات الزواج، إلا أن ياسمين ثبتت على رأيها. بعد طلاق والديها، وطلاق والدها الثاني من زوجته الفرنسيّة إيلين، منذ فترة قصيرة، وجدت أن التأني أسلم للجميع. وفترة الخطبة في نهاية الأمر ما جُعلت إلا ليدرس كل طرف الآخر ويتحقّق من التوافق. ومع رسالة الدكتوراه، بدت بطيئة في دراستها.

لم يحاول البروفيسور كمال أبدا التأثير على موقف ابنته، لأنّه من جهة أدرى بالهوّة التي تفصل ميولاتها -الرّجعيّة المتخلّفة الأصوليّة- عن قناعاته -المتفتّحة المتحضّرة المتأثّرة بالثقافة الغربيّة- ومن جهة أخرى، كان على اقتناع بأنّ مسألة الزواج مسألة شخصية بحتة يتحمّل المعنيّ بالأمر مسؤوليتها الكاملة وعواقبها الوخيمة! وعليه أن يعترف، مع زواجين فاشلين في رصيده، لم يكن الطرف الأنسب لإسداء النّصائح بهذا الصّدد.

ولكن حين تعلّق الأمر بالحفل نفسه الذي استمرّ انتظاره ثلاث سنوات كاملة، لم يكتم البروفيسور كمال شروطه ومطالبه، فالعروس في نهاية الأمر ابنته! وشكل الاحتفال يجب أن يكون مناسبا لمقامه ومقام ضيوفه ذوي المراكز المرموقة!

بين العرس التقليدي الذي تمسّكت به زهور بيديها وأسنانها، وحفل الاستقبال الرسميّ الذي لم يتنازل عنه البروفيسور عالي الشأن، ضاعت جهود هيثم وياسمين التوفيقية. فاستقرّ الرأي في نهاية المطاف على الاحتفال المزدوج. عقد شرعيّ ووليمة في المسجد بعد عصر يوم الجمعة.. واحتفال نسوي بحت في السّهرة. ثم عقد مدنيّ في قصر البلدية صباح يوم السبت.. يليه عشاء رسميّ في مطعم باريسيّ فاخر.

– أنتِ هنا!

رفعت رأسها مبتسمة حين جاءها ذلك الصّوت المألوف.

– كأنّك لا تدري؟

رفع كفيه مدّعيا البراءة.

– جئت أطلب غدائي، لا غير.

– إذن خذ غداءك وارحل.

– تطردينني؟

– أحتاج بعض الهدوء لأركز.

– قاربت على الانتهاء؟

تصفّحت بحركة عابرة مسوّداتها التي تزيد على المائتي صفحة وقالت:

– ما زال الثلث.

– يا إلهي! إذن أتركك لعملك.. أريد أن أتزوّج في الوقت المحدّد!

التهبت وجنتاها حياءً، تجاهله هيثم وهو ينحني ليخرج من حافظته ورقة بيضاء مطويّة بعناية. وضعها على الطاولة في حركة بطيئة وقال بغموض متعمّد:

– حين تجدين بعض الوقت ألقي نظرة على هذه.

توتّرت أصابع ياسمين على الطاولة دون أن تجرؤ على لمس الورقة وتمتمت في ارتباك:

– ما هذه؟

– خارطة توزيع المدعوين على موائد المطعم.. ماذا ظننتها؟!

– لا شيء.

أخفى الابتسامة حتى لا يحرجها أكثر، مع أنه يتعمّد إحراجها ويمتعه أن ينجح فيه. يدرك أن حركته أوحت بمراسلة سريّة ما، لكنه يتجاهل مدّعيا البراءة. أضاف وهو يبتعد نحو نافذة تسجيل الطلبات:

– أخبريني حين تجهز قائمة ضيوفك.

حيّاها ثم وقف في طابور الانتظار موليا إيّاها ظهره ومفرجا عن ابتسامته التي جاهد لكتمانها أمامها. يخترع لنفسه أساليب مبتكرة لصنع جوّ خاصّ بينهما، يعوّضه عن الغزل الممنوع والأحاديث الغرامية المحرّمة التي يمارسها العشّاق العاديّون. سرّه أنها لم تغيّر مخبأها، بعد أن اكتشف بشيء من الغبطة ارتيادها لمطعمه المفضل والقريب من مقرّ عمله أيضا. أصبح ينتهز الفرصة ليحيّيها من حين إلى آخر. لا يكثر من الزيارات حتى لا تملّ مطاردته وتفرّ إلى غير رجعة.

أحيانا يسوق بعض زملائه إلى ذلك المطعم بالذات ويجلس في ركن بعيد متظاهرا بالجديّة، كأنه لم يلمحها. وأحيانا يتوقّف للسؤال عن أحوالها باقتضاب ثم يمضي إلى طاولته. لكنه في أحيان أخرى، لا يعلم أحد غيره عنها شيئا، يمرّ أمام المحلّ دون أن يدخله. يلقي نظرة سريعة ليطمئن إلى وجودها هناك ثم يبتعد.

تابعته ياسمين وهو يتّخذ موقفا في طابور الانتظار، وخفّت حمرة وجنتيها تدريجيّا. ثمّ ألقت نظرة على رسوم الموائد المستديرة التي خصّصت كل منها لخمسة أشخاص وعقدت حاجبيها.

كانت تظنّ الأعراس العربية أكثر تعقيدًا من غيرها حيث يمتدّ بعضها لأسبوع كامل بين عقد القران والولائم اليوميّة وحفلات الحنّاء النّسائيّة وصولا إلى السّهرة الأخيرة التي يجتمع فيها العروسان. لكنّ ذلك الأسبوع برمّته لا يضاهي تعقيد العشاء الرّسميّ الوحيد الذي يحرص عليه الفرنسيّون! فشتان ما بين العفويّة التي تجمع الأقارب والأحباب حول أكلة كسكسي تونسيّ بلحم الخروف منزليّة التحضير.. وبين الدّقة التي يجب توزيع قائمة المدعوّين بها على الموائد في حفل فرنسي! لا يوضع اثنان على خلاف على نفس الطاولة.. ولا يفرّق بين صديقين، ويجب الحصول بصفة مسبقة على تأكيد كلّ فرد مدعوّ.. وتعويض كل من يعتذر بالشخص الذي يليه على قائمة الانتظار، حتى لا يبقى مقعد واحد شاغر!

ثم تظهر معضلة جديدة لحشر المدعوّ الجديد في الطاولة المناسبة! وهكذا يستمر الضغط حتى اللحظة الأخيرة! لأنّ الطباخ سيعدّ مائة طبق مقبلات ومائة طبق رئيسي ومائة قطعة حلوى بلا زيادة أو نقصان! أطباق فرنسية فاخرة تناسب ذائقة ضيوف البروفيسور كمال!

مطّت شفتيها في ضيق. لقد حارب هيثم طويلا ليقنع صاحب المطعم بالتزوّد من لحم مذبوح على الطريقة الإسلامية، بعد أن رفض والد العروس إقامة العرس في مطعم عربي.

إنّها تقدّر له حقّا احتواءه لنزوات والدها، وتقبّله لشروطه المشطّة، إكراما لها.. وحفظا لماء وجهها.

كلّ ذلك يجعله يكبر في عينها. وتزداد غيظا لكونها ابنة البروفيسور كمال.. أو «سامي كلود» كما أخذ يسمّي نفسه منذ زواجه من إيلين كلود! فكّرت، هل تراه يغيّر اسمه ثانية بعد الطلاق؟! ابتسمت في تهكّم وهي تنهمك في رسم علامات على المقاعد. لقد تقاسمت وهيثم الطاولات العشرين بالتّساوي. ستمنح والدها أربع طاولات لضيوفه، لا أكثر. وتُبقي السّتة الأخرى لضيوفها وبعض معارف والدتها. صداقاتها محدودة في باريس، رنيم -شريكتها في السّكن- ومرافقها، دافيد المشرف على رسالتها، وحفنة من الزميلات.

ولأنّها لا تطمع بأن يرد كل من إيلين -طليقة والدها- وشقيقها باتريك على قائمة البروفيسور كمال، فيجب أن يكونا على قائمتها هي، فهما يعتبران من العائلة رغم كل شيء. إيلين كانت أكثر من صديقة، لقد قبلتها في بيتها وعاملتها بودّ، ولم تحمّلها وزر نزوات والدها. أما باتريك، فقد كانت البداية بينهما.. حسنا، فلتقلها.. سيّئة! لقد كان أكثر تحاملا من شقيقته. لكنّ الأمور قد غدت على ما يرام الآن. ماذا عن ابني إيلين، سارة وريان؟ على أيّة قائمة سيكونان؟

أسندت ذقنها إلى كفها وزمّت شفتيها في تفكير. إنّها تحاول إحسان الظنّ بوالدها، لكنّها ترجّح لؤمه! سيحاول استغلال كلّ الفرص لتوسيع قائمة ضيوفه. تتخيّله يبادرها في استغراب:

- ألم تضعي أخويك على قائمة ضيوفك؟ إنّهما على مسافة متساوية بيني وبينك من حيث درجة القرابة، فلا تتغابي يا عزيزتي!

وسيكون محقّا، بالتّأكيد. البروفيسور كمال دائما على حق. ثمّ أليس من المنطقيّ أن يكون ريّان وسارة على مائدة أمّهما وخالهما؟ إذن فلتبادر وتملأ الطّاولة بنفسها.. إيلين وباتريك، سارة وريان، والمقعد الخامس لصديقة باتريك. لا شكّ أنّه سيرغب في اصطحابها.

ماذا عن والدها.. هل تراه يصطحب صديقته الرّوسيّة الجديدة؟

حين رفعت رأسها، لمحت هيثم وهو يصافح رجلا ما. نقرت بقلمها على الطاولة ثم أخذت تدوّن على حاشية الورقة قائمة مرتجلة لمدعوّيها. لديها متّسع لخمس وعشرين اسمًا بعد. توقفت فجأة، ورفعت عينيها مجدّدا لتحدّق في الرّجل الذي يتحدّث إلى هيثم. كيف أخطأته في المرّة الأولى؟

ارتبكت. ماذا عليها أن تفعل؟ هل تقف لتحيّيه وتسأل عن حاله؟ أم أنّها ستعرّض نفسها لنوبة غيرة أخرى -غير مبرّرة- من هيثم؟

عمر الرّشيدي!

غار منه هيثم قبل أن يعرفه وقبل أن تقبل هي بخطبته لها. غار منه منذ عرف بوجوده. منذ عرف أنّها بكت لحبسه. ثمّ ظهرت تلك الغيرة للعيان في مناسبات عدّة بعد ذلك. حرص على متابعة تفاصيل القضيّة عن قرب حتى لا يغيب الرّجل عن عينيه. وحين أطلق سراح عمر قام هيثم عنها بتوصيل صكّ التّعويض الذي تركته رنيم.

ومنذ اللقاء الأول، نشأت صداقة ما بين الرجلين!

تكذب لو أنّها أنكرت تسلّل الذّكريات القديمة إلى فؤادها بين الفينة والأخرى. تستعيد تلك الأيّام البعيدة، حين كانت تركب المترو في «ليون» وتترقّب وصول «توأم عقلها».. لم تكن تعرف اسمه في تلك الآونة. كان مجرّد وجه، وعقل وكلمات! يشاركها ولعها بالقراءة، ويناقشها في كتبها المفضّلة، ثمّ يفترقان، بلا وعود أو عهود.

ولقد افترقا، إلى غير رجعة، ذات صباح.

ولم تدرك أبدا أنّ ما فرّق بينهما كان أبشع من أسوأ كوابيسها.. حتّى ملأ الخبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئيّة والمقروءة!

حادث مختبر الكيميائيات.. العمليّة الإرهابيّة المزعومة، وكبش الفداء: المتّهم العربيّ الذي كان حاضرا على عين المكان! لقد عاش عمر الكارثة، وحيدا، أصيب بحروق بالغة في الحادثة، وعانى من آلام فتّاكة.. ثمّ حين أخذ يتجاوز محنته، وجد نفسه في غرفة حجز انفراديّ، وقد وجّهت إليه تهمة التفجير الإرهابيّ!

تلمح تلك النّدبة البارزة أسفل عينه اليسرى. لم تفلح الجراحة في إخفائها. ستبقى شاهدة دائما على المأساة. استمرّت المحاكمة المضنية ثلاث سنوات كاملة، وقد استبسلت رنيم كمحامية دفاع، حتّى أثبتت براءته.. بعد حكم أوّل بالإدانة، واستئناف يائس! لقد صنعت تلك العزيزة المعجزة، وقد تورّطت في القضيّة حتّى النخاع، مهنيّا ووجدانيّا.

نعم، يا لقدرها! لقد تُيِّمَت هي ورفيقتها، شريكة سكنها، بالرّجل ذاته!

لكنّ الظروف كانت قد اختلفت. لم يكن عمر بحاجتها هي –ياسمين– في حبسه، لكنّه كان في حاجة إلى رنيم المحامية، إلى حماستها ومهارتها، ليستعيد حرّيّته.

هل كانت تضحية منها، أن تئد حلمها الوليد، وتفسح المجال لرنيم؟

وهل كان بيدها خيار آخر؟

إنّها لم تكن واثقة إن كان عمر يذكرها أصلا! وهل يفكّر من يعيش محنته في وجهٍ مجهولٍ كان يرافقه في رحلة المترو؟! وحدهم خاليو البال من الهموم يشغلون أنفسهم بالحوادث البسيطة العابرة ويشيّدون فوقها قصورا من الرّمال! وقد كانت هي خالية البال، مهيّأة الوجدان لاستقبال مغامرة عاطفيّة حالمة!

لذلك خيّرت أن تكون واقعيّة عمليّة، وتحفظ ماء وجهها.

تدرك الآن أنّها لم تره وجها لوجه، منذ سنة على الأقل. منذ الحفلة الصّغيرة، احتفاءً ببراءته، قبل سنتين، تقاطعت طرقهما بضع مرّات. لقاءات قصيرة خاطفة، لا تحتسب مقارنة بحوارات المترو الخالية.

في تلك اللحظة، ارتفع رنين هاتفها، فانشغلت به عن المشهد أمامها.

– ياسمين، أين أنت؟

ارتفع نبضها أكثر عن ذي قبل وهي تردّ في تلعثم:

– أنا في «البيت الصغير».. ماذا عنك؟

– سأكون عندك خلال دقائق.

أغلقت رنيم الخطّ قبل أن تتمكن ياسمين من التّعليق. هل كان عليها أن تخبرها أن هناك زائرا غير اعتياديّ في المطعم؟ حين رفعت ياسمين رأسها كان الرّجلان على بعد خطوتين من طاولتها. حيّاها عمر بأدب في حين ظلّ هيثم يمسك بكفه في ألفة وودّ.

- كيف حال رسالة الدكتوراه؟

- بخير.. قريبا أنتهي منها.

علّق هيثم في خفة:

- إنّها تتعمّد التّأخير لتثير أعصابي!

ضحك عمر في حين احتجّت ياسمين:

- إنّه يبالغ. هل تظنّني أستمتع بإطالتها؟

- مرحبا!

التفت الجميع حين جاءهم صوت رنيم الذي يتداخل فيه المرح بالتذمّر، وهي تهرول في اتجاههم. وصلت بحضورها الطاغي مثل باقة زهر بريّ فوّاحة، أو جوقة عصافير كناري صادحة!

- الزّحام اليوم لا يطاق، والجو خانق بشكل لا يصدّق.. ونحن ما نزال في شهر أبريل! ينتظرنا صيف حارّ أكثر من العادة!

كانت تتكلّم، وأناملها تعبث بخصلاتها المسترسلة على كتفيها، مثل خيوط حرير ملتفّة في نهاياتها، بينما تتراقص أقراطها الماسيّة الطّويلة في نعومة وجاذبيّة. حتّى في ضيقها وعصبيّتها، يتدفّق من كيانها سحر لا يقاوم. لطالما تساءلت ياسمين، هل يمكن لبشر أيّا كان، ألا يقع في غرام رنيم؟!

لم تكن رنيم قد انتبهت إلى الرجل الذي يقف إلى جوار هيثم فتصرّفت على سجيّتها. وما إن التقت العيون وحصل التعارف حتّى توتّر الجوّ فجأة. توقفت الكلمات على شفتيها وفقد وجهها ألوانه. كان عمر أسرع منها في تمالك نفسه. سألها بلهجة محايدة:

- كيف حالك أستاذة رنيم؟

تمتمت بصوت مختنق لا تدري كيف تجاوز حلقها:

- بخير، وأنت؟

- بخير. شكرا لسؤالك.

كان يبدو باردا ولا مباليا لدرجة لم تتحمّلها. دون أن تشعر، أخذت تعبث في عصبيّة بالخاتم في يسراها. في الأثناء، كان هيثم قد استلم زمام الحديث ليمحو سطوة الارتباك التي سيطرت على الجميع. تحدّث بأمور عامّة بعيدا عن المسائل الشخصيّة، ثمّ دعا عمر لحضور حفل الزّفاف.

- سأحجز لك مكانا على طاولة العزّاب، حتّى تلفت انتباه الفتيات العازبات!

ضحك هيثم لمزحته.. لكن أحدهم لم يجاره. ارتسمت ابتسامات متشنّجة على وجوه ثلاثتهم. كان يحاول إضفاء بعض المرح، لكنّ ردّات الفعل جاءت مضطربة ومرتبكة. بدا أنّ أيّا من محاولاته لم تنجح في تجاوز المرارة التي غدت مسيطرة على العلاقات التي جمعتهم في السّابق. قالت رنيم وقد أيقنت أنّ عليها الإفلات أوّلا:

- كان من الجميل رؤيتكم جميعا، لكن لديّ عمل مستعجل.. يجب أن أذهب الآن.

ثمّ أضافت مخاطبة ياسمين:

- أراكِ مساءً!

أومأت ياسمين بابتسامة، ولوّحت تودّعها. لم يحاول أحدهم استبقاءها. وكأنّ رحيلها كان أمرا ضروريّا ومسلما به. استدارت على عقبيها وابتعدت بخطوات متعثّرة حتّى توارت في زحام المركز التّجاري. بعد دقيقتين، قال عمر وهو يشير إلى كيس الطعام في يده:

– لديّ بعض الأعمال. سآخذ طبقي وأتناوله في الطريق.

أومأ هيثم متفهّما ثمّ رافقه حتى المخرج.

تنهّدت ياسمين حين أصبحت بمفردها. عادت إلى مخطط موائد الحفلة وخربشت على طاولة في أقصى اليمين اسم رنيم، ثمّ اختارت أقصى طاولة ناحية الشمال ودوّنت عليها اسم عمر.

-٢-

دخل عمر غرفة الفندق وهو يشعر بضيق شديد. وضع ملفاته على المنضدة القريبة وفكّ ربطة عنقه وفتح ياقة قميصه، ثمّ استلقى على السرير المزدوج وهو يتنهّد. لم يكن يرتدي البدلات الرّسميّة وربطات العنق حبّا بها، لكنّها الأنسب في وضعه؛ فالياقة العالية والأكمام الطويلة تغطي مساحات جلده المحترق بشكلٍ كافٍ.

رغم كلّ العمليّات الجراحيّة التي أجراها، فإنّه لم يحصل على جلد جديد بعد! ليس الأمر سهلا أو بسيطا.. وتلك الندبة أسفل عينه اليسرى، قد لا ينجح في إخفائها أبدا. لكنّ ضيقه اليوم لم يكن بسبب الحروق. لقد مضى ما يناهز السّنوات الأربع على الحادثة. لقد ألف حالته الجديدة وتعوّد مشهد الجلد المنكمش المجعّد المشوّه.

لم يعد ذلك يؤثّر فيه؟

ليس بالضبط. لكنّه تقبّل ابتلاءه وتعايش معه. لم يعد يثير ذعره مثل الأيّام الأولى لتخلّصه من اللفافات القطنيّة البيضاء. ولم يعد صدره ينقبض ويقشعرّ جسمه كلّما التقت راحة يده بملمس تضاريس جلده البشع. لم تعد مسامّ بشرته تؤلمه ولا جراحه تؤرق نومه. لكنّ الوجع الجسديّ لم يكن أقسى ما عاناه بعد الحادثة.

بعد النّطق بالحكم الأوّل، عرف كيف تكون الوحدة حقّا. امرأتان كانتا عونا له في فترة تنويمه في المستشفى، اختفتا في نفس الوقت تقريبا. كارولين ورنيم. الأولى لم يكن يعتمد عليها كثيرا، لكنّ زيارتها سرّت عنه بعض الشيء. أمّا الثانية، فقد كانت كلّ شيء.. المحامية والصّديقة والأمل!

لا يذكر أنّه قد وثق في أحد من قبل مثلما وثق بها. أو افتقد أحدا من قبل مثلما افتقدها. لم يكن هناك سبب أو مبرّر معقول واحد لرحيلها المفاجئ. وهي لم تكلّف نفسها حتّى أن تختلق واحدا! حتّى جورج –رئيس مكتبها– لم يملك أن يوضّح شيئا. قال إنّها رحلت.. فقط. هكذا وبدون مقدّمات.

غيابها خلّف فراغا فظيعا في وحدته. تزامن ذلك مع انتقاله إلى سجن الإقليم، حيث وضع في زنزانة انفراديّة. لم تختلف وحدته هناك عن وحدة المستشفى أو عن سجن الإيقاف. لكنّ الأمل هو الفارق. لم تعد رنيم تدخل عليه بأخبار جديدة وافتراضات

ونظريّات. في الحقيقة لم يعد يدخل عليه أحد.. عدا السّجان حاملا أطباق الطعام الهزيلة وغير المستساغة.

وطوال عدّة أشهر تلاعبت به الهواجس. توقّع الأسوأ. أن يكون مكروه قد أصاب بعض أفراد عائلتها، أو أن تكون مشكلتها الصحّية السّالفة قد غدت مزمنة وأقعدتها عن العمل، أو أن يكون المدّعي العام قد ورّطها في مخالفة ما حتّى يتمّ طردها من سلك المحاماة أو توقيفها عن ممارسة المهنة!

لم يكن هناك غير تلك الاحتمالات المفجعة التي بإمكانها إبعاد رنيم عن القضيّة. أو هذا ما ظنّه لزمن طويل. حتّى أخبره جورج بلهجة هادئة:

- رنيم رجعت إلى مصر.. لن تعود. هل تفهمني؟ أنا محاميك الآن.. سنقوم بعمل جيّد معا. ثق بي!

شرد عمر في صدمة. لقد انتبه في وقت مبكّر إلى ميله العاطفيّ إليه. لكنّه اعتقد طويلا أنّه سيتجاهل تلك المشاعر ويقمعها بمجرّد أن تنتهي المحاكمة. كان يحسب أنّه يمسك بزمام الأمور وسيتّخذ قرار الانسحاب بنفسه عن وعي كامل وقاطع، حين يصبح الوقت مناسبا. لكنّها لم تمهله. قرّرت عنه وانسحبت من تلقاء نفسها لتتركه في التّسلل! عاش انسحابها كخيانة قاسية، لم يتخطاها إلّا بصعوبة.

لكنّها كانت فرصة سانحة، ليمحّص قناعاته ومبادئه. لقد كان ذلك هو الصّواب. الظّروف الشائكة: الحبس والوحدة والحاجة إلى الرّفقة، هي سبب التباس مشاعره. ما أحسّ به ناحية محاميته ليس إلا امتنان.. وما كان منها ليس إلا شفقة وتعاطف. مهما بدا ذلك قاسيا، فإنّ وضوح الرؤية أمر محمود. رغم ما يخلّفه من فراغ في الوجدان، وخواء في الرّوح.

ثمّ ظهرت اليوم. مثل رؤيا انشقّ عنها الضّباب! ظهرت هكذا، في تلك الظهيرة، رآها للمرّة الأولى منذ إطلاق سراحه. للمرّة الأولى يجمعهما فضاء مختلف عن السّجن والمستشفى وقاعة المحكمة. لم تعد تربطهما علاقة المحامية وموكّلها. كانت مختلفة. لا يقصد شكلها، فهي جميلة ومتألقة كعادتها. لكنّها لم تكن واثقة ومتحدّية مثل رنيم التي عرفها. بدت مذعورة وهشّة. كأنّها رأت شبحا!

نعم، لقد كان هو ذلك الشّبح. ولقد آلمته نظراتها الفزعة تلك. لم تسعد برؤيته.

لم يكن ينتظر منها ترحيبا حارّا أو مشاعر جارفة، لكنّه تمنّى لو يفاجئ في عينيها شيئا غير الصّدمة! ياسمين —فتاة المترو— كانت سعيدة برؤيته خارج السّجن، فلماذا لم تُبد رنيم قدرا ضئيلا من السّرور، كصديقة؟

نعم، لقد انتبه إلى الخاتم في يمناها، فهي لم تقصّر في شدّ الانتباه إليه. لكنّ ذلك لا يبرّر شيئا على الإطلاق. لم يكونا عدّوين يوما.. لماذا إذن؟

***

لم تدر كيف تمكّنت من الوصول إلى شقّتها، فقد كان كلّ شيء في الطّريق ضبابيّا وغائما من خلال دموعها. لم ترجع إلى المكتب لأعمال تشغلها كما ادّعت. كانت قد فرّغت فترة الظهيرة من أجل بعض التسوّق، ولعلّها كانت لتسحب ياسمين من بين أوراقها لترافقها. لكنّ كلّ مخطّطاتها انهارت في اللّحظة التي التقت فيها عيناها بعينيه.

تجاوزت غرفة الجلوس وألقت حقيبة يدها بإهمال، ثمّ هرولت إلى غرفتها، وأغلقت بابها بإحكام، رغم أنّها كانت بمفردها في الشّقّة. اتّكأت عليه وأنفاسها تتهدّج في اضطراب. هل تحاول إيصاد أبواب قلبها، لتبقي مشاعرها الجارفة خارجه؟

كانت خائفة ترتعد، كأنّها ترفض حنينها إلى ماضٍ حسبته قد اندثر، حتّى داهمها على حين غرّة. ببطء شديد، انزلق ظهرها على امتداد الباب الخشبيّ حتّى استقرت جالسة على الأرض. حين لامس جسدها الجليز البارد، وضعت وجهها بين كفّيها وانخرطت في بكاء مرير.

كانت رؤية عمر اليوم أمرا غير متوقّع أو مأمول. مضت سنتان مذ رأته للمرّة الأخيرة في قاعة المحكمة، حين رافعت في قضيّته للمرّة الأخيرة. كان ذلك لقاءهما الوحيد خلال السّنوات الثلاث الماضية. لم تره قبلها أو بعدها، بعد أن فقدت كلّ السّيطرة على مجريات حياتها.

حين غادرت باريس قبل ثلاث سنوات، كانت تمنّي نفسها بعودة سريعة. إجازة قصيرة تقضيها مع عائلتها ثمّ تعود إلى عملها.. وإلى عمر. لكنّ أيّا من ذلك لم يحدث.

لقد تهت من ذاتك يا رنيم.. وفقدت البوصلة!

لقد كان رحيلها الأوّل اضطرارا.. لكنّ انسحابها من حياة عمر كان اختيارا. تستعيد الآن تفاصيل ذلك اليوم الأسود. يوم فرّت دامعة إلى المطار، بعد أن ساومت والدها على ثمن صحّتها. ستسافر إلى مصر، للنّقاهة، مقابل صكّ بقيمة خمسين ألف يورو! لقد أرادت لعمر أن ينتفع بذلك المبلغ، فيقوم بالجراحة التّجميليّة لندوبه إبّان الإفراج عنه.

كانت حالة كليتها الوحيدة المتبقّية قد تدهورت، بعد أن تبرّعت بكليتها الأولى، لحبّها الأوّل.. ميشال! تضحك الآن من نفسها. لشدّ ما كانت غبيّة! لقد تفانت في عاطفتها أكثر ممّا يقبله عقل. ضحّت بكلية، من أجل ميشال.. واقترضت مبلغا لا تقدر على سداده من أجل عمر!

والآن ماذا؟

لقد تخطّت كليهما.. أو هكذا حسبت.

***

القاهرة، أبريل ٢٠٠٥

حطت الطّائرة في مطار القاهرة عند العاشرة ليلا. كانت مرهقة من الرّحلة، مستنفدة الطّاقة بعد يومها المحتدم في المحكمة. قابلتها والدتها بحفاوة لم تعهدها، وعاملها الجميع برفق ومودّة.

– رنيم، حبيبتي.. ما بال وجهك بهذا الشّحوب؟

ابتسمت في تمويه:

– أنا بخير.

– ستكونين كذلك.. تحتاجين القليل من الرّاحة. أنت جادّة وصارمة بشأن العمل.. مثل والدك تماما!

لم تشعر يوما بالقرب من والدها. كانتا مثل غريبتين تحت سقفٍ واحد. طفلة، تركت تربيتها للمربيّة، ولم تصاحبها في مراهقتها وشبابها، بل انشغلت عنها بالنّادي وسيّداته الـ«هاي كلاس»، ومنافساتهنّ السّخيفة حول الموضة والمكياج والمجوهرات والممتلكات.. ولم تطمع في أن يتغيّر ذلك فجأة.

تبيّنت بعد ذلك أنّ التّغيير المفاجئ كان بناءً على توجيهات والدها بمقتضى نقاهتها الحديثة. كانت تلك التمثيليّة المرتجلة للانسجام العائليّ ضمن خطّة ستكتشف كنهها تدريجيّا.

أمضت أيّاما هانئة بين النّزهة على شاطئ البحر والاسترخاء المريح في غرفتها، في شاليه الإسكندرية. كانت استراحة مستحقّة، بعد جهد مضنٍ في قضيّتها الشّائكة. وقد ساعد الطقس الرّبيعي المشمس على تحسّن مزاجها بشكل كبير.

كانت العائلة كلّها قد رافقتها في إجازة جماعيّة، لأوّل مرّة منذ.. منذ الأزل! لا تذكر قطّ اجتماع عائلتها الصّغيرة المتنافرة من أجل الإجازة في العقدين الماضيين.. والداها وهي وشقيقتها رانيا.. ولا أحد غيرهم!

لكنّ بالها ظلّ مشغولا بشدّة. كانت تتفقّد رسائلها الإلكترونية عدّة مرّات في اليوم، وأملها في كلّ مرّة أن تصلها بشرى من جورج بشأن الاستئناف. كانت قد سجّلت شهادة كارولين وحارس الشّركة —التي يفترض بها أن تصنع فارقا واضحا— وعهدت إلى رئيسها في مكتب المحاماة أن يرفع الطّلب إلى المحكمة. لكنّ كارولين نفسها اختفت، والشّهادة لا قيمة لها في ظلّ غياب صاحبتها! وكان على جورج أن يسعى في إثرها. ومع تعاقب الأيّام دون وصول الخبر المرجوّ، أخذت تثير موضوع الرّحيل من جديد.

قالت ذلك الصّباح على مائدة الإفطار وهي تتصنّع الانشراح:

– الله.. لقد كانت إجازة رائعة.. مضى زمن بعيد مذ حظيت بالاسترخاء هكذا لأيّام طويلة دون أن أفعل شيئا!

رمقها والدها بنظرة جانبيّة وهو يلوك لقمة من الأومليت، ولم يعلّق. فأضافت:

– أظنّني قد أخذت نصيبا كافيا من الخمول.

استمرّ يتجاهلها وهو يشير إلى مدبّرة المنزل بأن تسكب المزيد من الشّاي في قدحه، بينما تكلّمت رانيا التي لم تفارق عيناها جهاز الهاتف بين يديها، لتقول في سخرية:

– أفصحي يا أختي العزيزة.. قولي أنّك ترغبين في العودة من حيث أتيت، فالتّلميح لن يجدي!

رمقتها رنيم بنظرة حادّة، وقالت في لين مخاطبة والدها:

– عندي قضايا معلّقة.. والعمل ينتظرني.

قال في لا مبالاة:

– سيتدبّرون أمرهم.

هتفت على الفور:

– إنّهم لا يفعلون! أنتظر منذ أيّام مستجدّات قضيّة هامّة.. هامّة جدّا.. لكنّهم لم يفعلوا شيئا بشأنها.. إن لم أهتمّ بالأمر بنفسي فسوف نخسر القضيّة!

ضرب بقبضته على المائدة في حزم:

– فلتذهب القضيّة إلى الجحيم! أنت لن ترجعي إلى فرنسا أبدا!

فغرت فاها غير مصدّقة. لكنّ والدها كان صارما أكثر ممّا توقّعت. استمعت إلى مرافعته الطويلة عن ضرورة نيل قسط وافر من الرّاحة لأنّها أهملت صحّتها طويلا وحمّلت نفسها ما لا تطيق، ثمّ أعلن بلهجة قاطعة:

– ستعودين إلى الإقامة مع العائلة بشكل نهائيّ في القاهرة.. فهذا مكانك الطّبيعي! تريدين مكتبا وقضايا هامّة؟ ستحصلين عليها.. لا تقلقي!

حاولت الاعتراض باستماتة:

– لكنّ مسيرتي المهنيّة في باريس كانت في أوجها.. والتخلّي عن نجاحاتي السّابقة في هذا التّوقيت الحسّاس يعني البدء من الصّفر!

– فليكن! لن تتغرّبي عنّا مرّة أخرى. لقد قررت وانتهى!

لم تنفع كلّ حججها: العقليّة والمنطقيّة، المهنيّة والذّاتيّة. كان والدها قد غدا أصمّ أمام رجائها غير المجدي. حين انصرف إلى حصّة الغولف خاصّته، التفتت إلى والدتها، تحاول استمالتها علّها تتكفّل بإقناعه، فقالت السّيدة ناريمان بابتسامة:

– عزيزتي، لقد أصبحت في سنّ ملائمة جدّا للزّواج، وعليك ألا تؤخّري ارتباطك أكثر ممّا فعلت.. ألا توافقينني الرّأي؟

كانت قد بلغت السّابعة والعشرين. وكان يفترض بها أن تتعرّف إلى شابّ «مناسب» من حيث المعايير المجتمعيّة. وبما أنّها لم تحضر عريسا اختارته بنفسها، فقد صار عليها أن ترضى بطريقة التعارف التقليديّة.. «زواج الصّالونات»!

عضّت على شفتها السّفلى وهي تزن كلماتها التّالية. الأمّهات غالبا متفهّمات لعواطف بناتهنّ. ربّما ليس والدتها هي، وربّما لم تختبر مدى تفهّمها من قبل. لكنّها قد تندم إلى الأبد إن هي لم تحاول. قالت في تردّد:

– في الحقيقة.. هناك شخص ما في حياتي!

التفتت إليها ناريمان بعينين متّسعتين دهشة وتحفّزا:

– حقّا؟ لماذا لم تنطقي منذ البداية؟ هل هو مصريّ؟ من أيّ عائلة؟ أيّ مركز يشغل والده؟

زفرت في ضيق. ما إن تشرع في الشرح، ستفقد مساندتها المحتملة على الفور.

– ليس مصريّا.. إنّه من المغرب! ولا أعرف شيئا عن عائلته، لكنّه دكتور في الفيزياء، ومتميّز في مجاله!

حدّثتها بشأن عمر وقضيّته التي كانت تعمل عليها في الفترة الماضية، عن الانفجار التّخريبيّ الذي حطّم حياته، وحبسه ظلما وبهتانا، ورجتها بأن تساعدها في إقناع والدها بالسّماح لها بالرجوع إلى باريس. وكانت حدقتا ناريمان تتّسعان صدمة وذهولا مع كلّ كلمة. حين أنهت رنيم روايتها، كانت ملامح ناريمان عابسة جادّة. لم يكن هذا ما توقّعته.

– دعيني أفكر.

لكن ما حصل فيما بعد، والذي اعتبرته رنيم خيانة لسرّها، كان أبعد ما يكون عن التفهّم والمساندة. فقد نقلت والدتها الحوار بتفاصيله إلى والدها، ليدلف إلى غرفتها في مساء اليوم ذاته، وقد انتفخت أوداجه واشتعلت عيناه حمما. صرخ فيها في جنون:

– مسألة العودة إلى باريس أصبحت طيّ النّسيان! ولا سبيل إلى مراجعة هذا القرار!

تكوّرت رنيم على نفسها في سريرها، مختنقة بالعبرة، وهي تستعيد كلمات والدها بحقّ عمر. كان ارتباطها به مرفوضا تماما، فهو لم يكن مصريّا أوّلا، وعائلته لا تنتمي إلى الطبقة المخمليّة ثانيا، وهو محكوم بالسّجن أخيرا. وتلك صفات لا يمكن تداركها!

-٣-

القاهرة، مايو ٢٠٠٥

مرّت رنيم بفترة انهيار وإحباط شديدين. انتهت الإجازة التي أثبتت عدم جدواها، ورجع الجميع إلى القاهرة، يجرّون أذيال خيبة وتشتّت وتنافر!

أغلقت غرفتها على نفسها وامتنعت عن الحديث إلى والديها. جربّت إضراب الجوع لأيّام معرضة عن أطباق الطعام التي كانت تجيئها مع الخادمة. ثمّ أيقنت بأنّها محاولة يائسة، فلم يكن ذلك ليزحزح والدها عن موقفه قيد أنملة.

لكنّ معنوياتها ارتفعت فجأة، حين وردها اتّصال مفاجئ من جورج:

– عزيزتي رنيم، أين أنت؟ عندي لك مفاجأة مذهلة!

– قل أيّ شيء يعيد إليّ الأمل يا جورج.. أتوسّل إليك!

ضحك وهو يقول في مرح:

– أين روحك القتالية يا أستاذة رنيم؟ لم أعهدك مستسلمة هكذا!

همست في مرارة:

– ذلك أنّني لم أعرف الإقامة الجبريّة ولا إضراب الجوع آنفا! دعك من هذا.. هل ظهرت كارولين؟

– ليس كارولين.. لكن هل تذكرين البروفيسور ستيفان غارديان؟

– بالتأكيد!

إنها تعرف كلّ شاهد في القضية، ماضيه وخلفيّته وبياناته الشخصيّة، وتحفظ كلّ كلمة قيلت في نصّ شهادته!

– لقد زارني بالأمس في المكتب.. هل تصدّقين أنّه جاء يبحث عنك، ليرفع قضيّة على شريكه كريستوف نوارو؟!

كريستوف وستيفان، كانا باحثين في نفس المركز الذي يعمل به عمر. كانا شاهدين رئيسيّين في القضيّة.. شاهدي إدانة! وجّها له تهمة سرقة تجاربهما البحثيّة وتخريبها، ممّا أدّى إلى حادثة الانفجار!

ستيفان الذي اكتشف من خلال محاكمة عمر وجود ملف أبحاث ثانٍ غير ذلك الذي سُرق منه، ذهب للقاء البروفيسور سامي كلود –كمختصّ مطّلع وأيضا كشاهد في القضيّة– وطلب الحديث معه عن أبحاث عمر.

كان عمر قد أرسل نسخة من أبحاثه إلى البروفيسور سامي كلود –والد ياسمين– قبل حصول الحادثة وتفجير المختبر. حين تيقّن ستيفان من وجود اختلاف جوهريّ بين البحثين، تذكّر أنّ شريكه كريستوف هو الذي أوحى إليه بإصرار أنّ الدكتور عمر كان يسعى منذ البداية إلى سرقة أبحاثهما المشتركة.. لذلك تسرّع ووجّه إليه تهمة السّرقة العلميّة في قاعة المحكمة!

لكنّ كريستوف الذي اطمأنّ إلى الحكم المسلّط على عمر، اختفى فجأة دون إعلام ستيفان بوجهته، وتجاهل أيّ تخطيط للعمل المرتقب لاستكمال خطوات مشروعهما المشترك.

كل ذلك أثار ريبة ستيفان.

فقام على الفور باتّصالات كثيفة بشبكة علاقاته في مجال الأبحاث العلميّة وقد استبدّت به الشكوك، حتى اكتشف نشاط كريستوف الجديد مع شركة سويسريّة لها فرع محليّ في منطقة «غرونوبل» الحدوديّة. ولم يطل تقصّيه حتى استوعب أنّ كريستوف باع حقوق بحثهما المشترك إلى تلك الشركة بالإضافة إلى أبحاث عمر التي استولى عليها!

ولأنّ الملفّات التي صارت بحوزته سريّة وحصريّة فقد أدرك أنّ عليه التصرّف بسرعة قبل أن تصبح المشاريع قيد التنفيذ. كان يريد الانتقام من كريستوف بأبشع الطرق، وكانت قضيّة عمر هي الفرصة المناسبة.

لم يكن واثقا من تورّط كريستوف في قضيّة التفجيرات، لكنّ بيعه مشروع عمر لشركة أجنبيّة كان كافيا للشك بشأنه. والقضيّة ستدمّر مستقبله المهنيّ وتنهي تعاقده مع الشركة السويسريّة. لذلك فقد دخل مكتب المحاماة ملوّحا بالمستندات الجديدة وهو يهتف:

– أين تلك المحامية؟

رحّب به جورج بشدّة حين علم فحوى الهديّة التي جاء بها ستيفان، ولم يتردّد بإعلامه عن شهادة الحارس بخصوص تواجد كارولين على عين المكان متكتّما عن اعترافاتها التي لم يكن بالإمكان توثيقها حتّى تلك اللحظة. لكنّ ستيفان صاح على الفور:

– يمكننا إثبات وجود علاقة وثيقة بين كريستوف وكارولين بسهولة. تواجد كارولين يوم الحادثة في الشركة وسرقة كريستوف لأبحاث عمر وبيعها لشركة أجنبيّة.. كلّ هذا يسمح بفتح ملفّ القضيّة من جديد!

هتفت رنيم غير مصدّقة:

– هذا مذهل يا جورج! يمكننا التقدّم بطلب الاستئناف حالا!

– متى ترجعين إذن؟

كتمت غصّة في حلقها وهي تقول في مرارة:

– ألم أخبرك؟ أنا رهن الإقامة الجبريّة! ابدأ الاستئناف بدوني.

***

تابعت رنيم المستجدّات عن طريق اتّصالات جورج المتواترة. صدرت بطاقة جلب دوليّة بحقّ كارولين، فتمّ إيقافها في مطار هيثرو البريطاني في غضون شهر واحد، في حين كان كريستوف يخضع للاستجواب بخصوص سرقة الملكيّة العلميّة. وما إن علمت كارولين بأنّ أمر كريستوف قد انكشف، تدفّقت الاعترافات من شفتيها بلا أدنى احتراز أو مواربة. لم تكن تدرك أنّ كريستوف يقاضى بشأن السّرقة وحسب وأن شهادتها هي التي ورّطته بصفة نهائية في قضيّة التفجيرات!

انتعشت رنيم في منفاها. كانت الأخبار تصلها أوّلا بأوّل. ورويدا رويدا بدأت تخرج من عزلتها وقد أعادت الأخبار الحياة إليها. وبدأت العمل على خطّة محكمة لم يكن لها من هدف وراءها إلّا إقناع والديها بالسّماح لها بالسّفر لحضور المحاكمة الجديدة!
صارت ترافق والدتها للأمسيّات الاجتماعيّة التي كانت تقدّمها خلالها بفخر على أنّها محامية ناجحة عائدة من تجربة باريسيّة متألّقة.

ثمّ كانت تلك السّهرة.

وصلت برفقة والدتها قبيل السّاعة العاشرة. كان بهو الفيلا التي تقام فيها حفلة «التّزاوج» تلك ممتلئا عن آخره، بالأمّهات الفخورات والشّبّان الأنيقين والفتيات المسرفات في الزّينة. وكانت ناريمان تحرص على الوصول متأخّرة عن الجميع، حتّى يكون لدخولها ورنيم أثر في نفوس الحاضرين، فتستدير الأعناق الفضوليّة والمفتونة لترقب باهتمام مقدم الحسناء التي تتكلّم الفرنسيّة! توصيها ناريمان بحرص:

– تكلّمي كأنّك في باريس! الفرنسيّة لغة راقية ونغمتها ذات رنين جذّاب.. ثمّ اعتذري بخفّة وقولي.. «لقد نسيت نفسي، باريس أصبحت جزءا منّي»!

فتقهقه رنيم في استمتاع! كانت خطط والدتها لاصطياد العريس تذهلها وتغرقها في ضحك هستيري. لكنّها كانت تتعمّد أن تفقدها أعصابها.. ففي الوقت الذي تخطو فيه ناريمان إلى البهو، رافعة ذقنها في خيلاء، تتخلّف عنها رنيم خطوتين، ثمّ تنسحب وتغيب وسط الجموع، قبل أن تتمكّن من تقديمها بالأسلوب المتغطرس الذي ترتضيه.

كانت قد تركت المقاعد الوثيرة المتفرّقة في البهو والشّرفة، وارتقت برشاقة –رغم فستان السّاتان الطّويل– لتجلس على حافّة الجدار المنخفض المطلّ على المسبح. التظاهر باللّباقة والتزام الإيتيكيت من أجل إغراء رجل ما –أو والدته– بالتقاط الطّعم لم يكن ضمن نواياها.

– هل تحتاجين شيئا من البوفيه؟

التفتت حين وصلها ذلك الصّوت الرّجالي. فألفت شابّا يرتدي قميصا أبيض وبنطالا أسود. بدا مثل نادل. قالت بعفويّة:

– عفوا.. هل الاستهلاك إجباريّ؟

حدّق فيها الشّاب في دهشة، ثمّ قال موضّحا:

– كنت أهمّ بإحضار شيء لنفسي، ولاحظت أنّك لا تحملين طبقا.. فعرضت الخدمة!

ضحكت من نفسها في حرج وقالت:

– أنا آسفة.. المطاعم في باريس لا تسمح لك بالجلوس ما لم تطلب شيئا.. لذلك اعتقدت أنّ الأمر ينطبق على هذه الحفلة.

ابتسم وهو يقول مداعبا:

– آها.. إذن الآنسة كانت تعيش في باريس؟

التهبت وجنتاها وقد ازداد حرجها. ها أنّها تطبّق دون قصد مخطّط والدتها في التّعريف بنفسها! قال وقد لاحظ ضيقها:

– الطّعام هنا جيّد.. في الحقيقة، لا أحضر إلّا من أجل الوجبات المجانيّة!

ضحكت غصبا عنها، ثمّ قفزت بخفّة عن الجدار وهي تقول:

– حسنا، لقد أقنعتني.. سأنتقي شيئا آكله!

ساراا باتّجاه البوفيه، اختار كلّ منهما بعض الأصناف، ثمّ عاد برفقتها إلى الجدار. شهاب.. كان ذلك اسمه. أسرّ إليها بأنّه يصحب والدته مكرها إلى تلك السّهرات، لأنّها لم تتوقّف عن محاولة إيجاد عروس من أجله. تحدّثا ببساطة عن كلّ شيء ولا شيء بدون تكلّف أو اهتمام. لم يسألها ابنة من تكون وماذا تعمل وهي لم تهتمّ بمقدار ثروة والديه والعلامة التّجاريّة لحذائه وساعته الأنيقين، وكان ذلك مناسبا لكليهما.

حين انتهت السّهرة، وحان موعد المغادرة، سألها ببساطة:

– هل أطمع في لقائك –صدفة– الأسبوع المقبل؟

ضحكت وهي تقول في غموض:

– ربّما!

حين انفردت بها ناريمان في السيّارة أخيرا، هتفت في استحسان:

– لقد رأيتك برفقة شهاب صادق.. بدوتما منسجمين!

قالت في لا مبالاة:

– إنّه شابّ لطيف.

– وعائلته ثريّة! إنّه مناسب من كلّ النّواحي.. دكتور جرّاح، لقد عاد لتوّه من أمريكا بعد أن أنهى تخصّصه!

قالت رنيم في سخرية:

– لقد أجدت التقصّي.. هل تعرفين مقاس حذائه؟

– كوني جادّة قليلا! والدته جاءت لتحدّثني بعد أن انتبهت إليك.. من الواضح أنك تعجبينها!

لم يكن ذلك ما خطّطت له. لقد أمضت أمسية جيّدة وحسب. هزّت كتفيها استهانة، بينما تواصل ناريمان:

– هل تعرفين أنّ والده يمتلك مصانع أحذية تصدّر إلى السّوق الأوروبيّة؟ وعمّه...

لم تعد تصغي عند ذلك الحدّ. سرحت بنظراتها عبر النّافذة. فكّرت في ضيق.. هل يعتقدون أنّ لقاءً عابرا في سهرة اجتماعيّة سخيفة، قد ينسيها عمر؟

***

تكرّر لقاؤها بشهاب «صدفة» بعد أسبوع. كانت تعرف عنه الكثير هذه المرّة، بقدر ما زنّت والدتها في أذنيها بشأنه.. وبدا أنّ والدته قد لقّنته كلّ المعلومات التي جمعتها عنها هي الأخرى! قال بتلقائية:

– محامية إذن؟

هزّت رنيم حاجبيها، وقالت بلهجة ذات معنى:

– هل يعترض الدّكتور الجرّاح على الاختصاص الأدبيّ؟

رفع كفّيه علامة الاستسلام وقال بأسلوب مسرحيّ:

– سأعترف بكلّ شيء.. إذا ضمنت محاكمة عادلة!

ضحكت، وقد بدا لها الحوار بشكل ما مكرّرا. لقد سمعت القصّة ذاتها، عن لقاء الرّجل « العلميّ» بالأنثى « الأدبيّة».. حين تعارف ياسمين وهيثم! علم الاجتماع والحاسب الآلي.. والآن، المحاماة والطبّ. ابتلعت مرارتها مع جرعة العصير وهي تقول في

نفسها ساخرة.. لقد قرع الحبّ بابي وبابك يا عزيزتي، لكنّنا انتهينا إلى زواج الصّالونات!

– ما رأيك في هذه اللعبة.. تحدّثيني عن أكثر قضيّة عملت عليها إثارة، وأحدّثك عن أكثر عمليّة جراحيّة أجريتها تعقيدا!

لم ترقها الفكرة. لم يكن يسلّيها أن تتحدّث عن قضيّتها الأهمّ –قضيّة عمر– في الوقت الحالي. لذلك قالت متظاهرة بالتقزّز:

– عمليّات جراحيّة ودماء وبطون مفتوحة وأعضاء خارج الجسم؟! لا شكرا، لست مهتمّة!

ابتسم شهاب، ثمّ قال بهدوء:

– لا تبدين في مزاج جيّد اليوم!

رشفت رنيم من عصيرها في صمت. شعرت بالضّجر فجأة، فقالت في ملل:

– لن تكون هناك «صدفة» أخرى.. لقد قرّرت التمرّد. لن أحضر سهرات سخيفة بعد الآن!

أومأ شهاب مؤيّدا:

– قرار شجاع!

– حظّا موفقا إذن.

– ماذا لو حذوت حذوك؟

رفعت حاجبيها:

– هل الابن المطيع قادر على التمرّد أيضا؟

– فلنقل أنّني وجدت بعض الحجج.. بفضلك!

– آها؟

– سأحتفظ بها لنفسي في الوقت الحالي.. لكنّني سأخبرك بكلّ شيء، إذا وافقت على لقاء آخر.

زوت ما بين حاجبيها في شكّ، فسارع يقول:

– كصديقين!

لم يكن لدى رنيم أصدقاء في تلك الآونة. كانت قد خلّفت ياسمين وعمر وجورج في باريس وانقطعت عن العالم منذ رجوعها. أمّا معارفها الجدد، فلم يثر أيّ منهم رجلا كان أم امرأة اهتمامها.. ما عدا شهاب. لذلك لم ترفض. قالت في تمنّع مصطنع:

– سأفكّر في الأمر.

– جميل.. نادي الفروسيّة؟ السّبت القادم.. على السّاعة الرّابعة عصرا؟

وقد كانت في الموعد. لم يمانع والداها أبدا، بل أبديا غبطة عارمة لعلاقتها المرتقبة بشهاب. رافقته رنيم بضع مرّات إلى نادي الفروسيّة، فتعرّفا على بعضهما بعضا بين الجولات على صهوة الجياد العربيّة الأصيلة.

كان شابا محترما وعلى قدر من الوسامة والجاذبيّة. لم يغازلها بوقاحة ولم يتبجّح بثروته ومكانته الاجتماعيّة، إضافة إلى كونه مستمعا جيّدا.. وهي كانت بحاجة إلى التّنفيس عن مكنونات صدرها. شكت له عناد والديها ومنعهما إيّاها من السفر للانتهاء من

قضيّتها، لكنّها سكتت عن مشاعرها الخاصّة تجاه عمر. فوجدت منه تشجيعا ومساندة.

ثمّ وصلتها دعوة مفاجئة من والدة شهاب على العشاء!

– لا تخشي شيئا.. إنّها مجرّد وجبة عشاء عائليّة!

قال مهوّنا عليها وهو يلمح صدمتها.

– ما الذي يظنّه والداك بشأني.. أصدقني القول؟

– إنّهما يظنّان ما يريدان أن يظنّاه. أوليس كلّ الأولياء بهذا الشّكل؟

طمأنتها ابتسامته. إنّها تعرف توقّعات والديها أيضا. لكنّ علاقتها بشهاب لم تتعدّ الصّداقة البريئة. أخذت نفسا عميقا وقالت:

– ما الذي سيحصل لو اعتذرت؟

– لا شيء! لا شيء حقا.. أنت لست مجبرة. لكن...

– لكن ماذا؟

– قبولك سيكون خدمة لي ولك.. لا مزيد من السّهرات الاجتماعيّة السّخيفة.. أليس كذلك؟

فكّرت للحظات. لقد كان محقّا. تنهّدت وهي تقول:

– أقبل وأمري لله!

حين أعلنت ذلك المساء أمام والديها أمر الدّعوة، قرأت علامات الفرح الطاغي على ملامحهما. كانت تلك خطوة مبشّرة. لقد باتت قاب قوسين أو أدنى من الارتباط المنتظر! لم تنم ناريمان تلك اللّيلة وهي تقلّب في خزانة رنيم، تنتقي عنها الفستان المناسب للقاء رسميّ بحماتها المستقبليّة!

في الأثناء، كانت إجراءات الاستئناف تتقدّم وأصبحت مسألة السّفر ملحّة أكثر. وقد كان توقيت الدّعوة مناسبا للغاية. حين رجعت من ضيافة عائلة شهاب، تحدّثت بإسهاب عن الاستقبال الفاخر والطعام الشهيّ والحفاوة البالغة.. تركت لوالديها المساحة الكافية ليهنّئا نفسيهما بالمصاهرة الثّمينة التي تلوح في الأفق. لكنّها بدت شاردة ومهمومة على مائدة الإفطار في الغد. استجوبتها ناريمان في شكّ:

– هل اتّصل شهاب؟ هل قال والداه شيئا بشأنك؟

هزّت رأسها علامة النّفي، فتنهّدت والدتها في ارتياح ثمّ رمقتها في عتاب:

– يفترض بالعروس الموعودة أن تكون أكثر تألقا.. أم أنّ السّهرة أرهقتك؟

تنهّدت رنيم في ضيق وهي تقول:

– لقد تحدّد موعد المرافعة في القضيّة بعد أسبوعين.

اختلست نظرة مترقّبة إلى والديها، وهي تضيف بزفرة حارّة:

– أشعر بأنّني إن لم أقف في قاعة المحكمة هذه المرة، لأنهي ما بدأته.. فسأندم بقيّة حياتي!

بشكل غريب –ومتوقّع في آن– كان والدها ألين عريكة وأكثر تفهما هذه المرّة:

– إن كان الأمر يعني لك الكثير، فلا بأس.. يمكنك المرافعة لمرّة أخيرة في هذه القضيّة!

قفزت غير مصدّقة لتعانقه بحماس وبهجة. صبرها وخطّتها المحكمة آتيا أكلهما أخيرا! لكنّها كانت تشعر بشيء من الضّيق لاستغلالها شهاب، من أجل تحقيق غايتها.

أعاد إليها والدها جواز سفرها في الغد بعد أن انتزع منها وعدا بأن تمكث أسبوعا واحدا، وترجع بعد النطق بالحكم مباشرة ودون تأخير. كانت تدرك أنّ علاقتها بشهاب هي الضّمان الرئيسي بالنسبة إليه وليس الوعد الذي قطعته!

***

سافرت إلى باريس مرّة أخرى.

عكفت مع جورج على إعداد المرافعة طيلة الأسبوع، وسمح لها هذه المرّة أيضا بأخذ الكلمة. كانت تبدي من الاستماتة قدرا لا يدع للشك في جدّيتها مجالا.

دمعت عيناها وهي تدلف إلى قاعة المحكمة من جديد بعد إجازتها القسريّة. ظهر عمر عند منصّة الدّفاع. كانت قد غابت عنه قرابة الشهور السّتة! قرأت في عينيه الدّهشة والمفاجأة، وهو يراها تتّخذ مجلسها إلى جواره، كأنّ شيئا لم يكن!

كأنّها لم تتركه كلّ تلك المدّة للهواجس تنهشه!

تلقي التّحيّة ببساطة، كأنّها قد تحدّثت إليه بالأمس!

تأخذ الكلمة ليصدح صوتها في قاعة المحكمة مثل الأيّام الخوالي! لم يكن يعلم كم تطلّب الأمر من تضحيات ومعاناة حتّى تقف ذلك الموقف من جديد. ولم يكن ليحزر كم جاهدت لتغلب عبرتها وتتماسك أمام القاضي والمحلّفين، ووجههُ النّاضح بالمرارة والقسوة يلوح لها مع كلّ التفاتة.

– شكرا لاستماعكم!

أنهت مرافعتها. ألقت بما في جعبتها على مسامع الحاضرين، ثمّ فرّت خارج قاعة المحكمة.. وقد غلبتها العبرة. وضعت كفّها على صدرها، تسيطر على اضطراب نبضها، ولهفة فؤادها وحرقة أنفاسها. لقد فعلت ما بوسعها، والأمر الآن بين يدي الله!

– لقد عاد المحلّفون!

ناداها جورج وهو يبتعد مهرولا.. لكنّها ابتسمت في وهن وقالت:

– اذهب أنت.

هل بوسعها أن تتحمّل الوقوف على المنصّة لحظة إضافيّة؟ ستخونها قدماها لا محالة، مهما كانت نتيجة الحكم!

*

سيطر الذّهول على مشاعره ذلك اليوم.

رآها تدخل قاعة المحكمة، بدت أكثر نحافة وأشدّ شحوبا. لم يخبره جورج بقدومها، ولم تشارك في جلسات التّحضير للاستئناف. وصلت من أجل المرافعة النّهائيّة.. دخلت مثل ريح عاصف، صدحت بخطبتها العصماء، بصوت واثق مزلزل، ثمّ دارت على عقبيها لتغادر بنفس الكبرياء والأنفة!

كأنّها تذكره بأنّها محامية لا أكثر، وأنّها تضع مسافة بينها وبين موكّلها الذي بدأت علاقتها به تحيد عن المسار الجادّ. لقد عادت من أجل المهمّة وحدها!

وهل يمكنه أن يلومها؟

لكنّ ذلك لم يكن كلّ نصيبه من الصّدمات!

في مقاعد الحضور في قاعة المحكمة، لمح وجها مألوفا آخر.. فتاة المترو! كانت تبتسم، وتشير إليه بكفّيها المضمومتين بتحدّ، أن اصمد!

ثمّ خرج المحلّفون، بعد مداولات قصيرة –مثل المرّة الأولى– للنّطق بالحكم. لقد كانت عودتهم السريعة سابقا نذير شؤم.. فهل تكون بشرى خير هذه المرّة؟

*

انتظرت رنيم خارج القاعة وهي تصارع متناقضات الإحباط والأمل داخلها. كانت أوفر ثقة هذه المرّة، لكنّ للانتظار رهبته.

فجأة، تعالت صيحات عالية في الدّاخل. فهوى قلبها عند قدميها. لم تتمالك نفسها، واتّصلت في لهفة بياسمين. قبل أن تنطق بكلمة واحدة، وصلها صوتها النّابض فرحا، يهتف في حرارة:

– مبارك يا رنيم مبارك! براءة!!

– حمدا لله!

تمتمت في تأثر وقد تركت العنان لدموع الارتياح وغشيتها السّكينة.

– لكن أين أنت؟ لا أراك في قاعة المحكمة؟

كفكفت رنيم دموعها ثمّ همست مودّعة:

– لا تقلقي بشأني.. ولا تنسي الأمانة!

ثمّ أنهت المكالمة، وأغلقت الهاتف.. ومضت إلى المطار.

***

براءة!

ظنّ أنّه لن يسمع تلك الكلمة أبدا.

انهار عمر على المقعد، وأجهش ببكاء مرّ. لقد انقضى الكابوس! أخفى وجهه بين كفّيه، فلامستا آثار الحريق على بشرته. هل انتهى الكابوس حقّا؟ إنّه هنا، في كل مكان من جسده، وهنا أيضا داخل صدره. تنهّد بحرقة. هذا الكابوس لا ينتهي.. ولن ينتهي أبدا.

لقد ترك بصمة أبديّة في كلّ إنش من كيانه!

أحاطت به جموع المهنئين، جورج في المقدّمة، ووجوه أخرى مجهولة، عرب وفرنسيّون، صحفيّون وناشطو حقوق إنسان، ومواطنون عاديّون، رجال ونساء.. وبين كلّ هؤلاء، كان وجه فتاة المترو يطالعه مطمئنا بابتسامة وديعة. تجوب عيناه بين السّحنات الأجنبيّة، ثمّ تعود لتحطّ على ملامحها الدّافئة والمطمئنة.

من الغريب أن يحفّ وجهها بمحنته ابتداءً وانتهاءً.

ياسمين. كان ذلك اسمها. وقد عرفه أخيرا. بعد سنتين. وبعد فوات الأوان!

كانت آخر شخص فكّر فيه قبل أن يحصل الانفجار، وبعد ما يقارب السّنتين، كانت أوّل الوجوه التي رحّبت به في عالم الطلقاء. لا شكّ أنّ فترة السّجن الطّويلة بلّدت إحساسه. لم يعرف أيّ نوع من ردود الفعل كان يجدر به أن يبدي.. لذلك فقد اكتست ملامحه بالذّهول وحده!

لم يدر كيف ومتى وصلتها أخباره حتّى جاءت من «ليون» –حيث خلّفها– لتحضر محاكمته. ولم يكن بوسعه أن يسأل، فقد كان برفقتها خطيبها. هيثم.

كان ثقب مظلم قد ابتلعه طيلة فترة الأسر ولم يلفظه سوى اليوم.. لكنّ الحياة خارج ثقبه الأسود كانت قد استمرّت، غير عابئة بغيابه! رغم ضبابيّة أفكاره وارتباك حواسّه أمام سمفونيّة المشاعر المتضاربة التي تعصف بوجدانه، فقد تساءل فجأة.. هل كان مقدّرا له أن يسجن حتّى تذهب هي في سبيلها؟

هل هذا ما يسمّونه «المكتوب»؟

ماذا تراه حلّ بها لو كان سبق القدر وتقدّم إليها قبل ساعات من الانفجار؟

لم يشأ أن يبحر في لجّة الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة، لأنّ أيّ شيء من ذلك لم يعد مهمّا.

– يجب أن نحتفل!

كان جورج من اقترح، وأيّده آخرون. أمّا هو، فقد كان مسيّرا، كأنّ الحدث لا يهمّه. يرى البِشْر على وجوههم، ولا يجد صدى له بداخله.

هل ماتت روحه أثناء المحنة، فما عاد يعرف سرورا ولا حياة؟

كانوا قد أعدّوا احتفالا من أجله. تناولوا وجبة معا في مطعم عربيّ قريب. كانوا جميعا سعداء ومنشرحين، وبدا هو تعيسا ومتعبا بشكل لا يمكن تفسيره! رغم الدّعوات السّخيّة التي تلقاها، انسحب وحيدا إلى غرفة فندق. أوصله جورج حتّى مكتب الاستقبال، وسلّمه تذكرة قطار ينطلق إلى «ليون» صباح الغد، كان قد طلبها منه.

قبل أن يرحل عن المطعم، لحق به هيثم عند ناصية الشّارع. وضع في كفّه ظرفا مغلقا، فحدّق به عمر متسائلا:

– ما هذا؟

– تعويض بسيط، عن كلّ الألم الذي عشته. لعلّه لن يمحو ما حدث.. لكنّه سيساعدك على بداية جديدة. تقبّله منّي، نيابة عن كلّ الأشخاص الذين لا تعرفهم.. لكنّ أمرك يهمّهم!

لبث فاغرا فاه لبرهة. هذا رجل غريب يراه للمرّة الأولى، لكنّ كلماته تبدو صادقة وقريبة من القلب. لم يكن قد استوعب الموقف بعد، حين أخرج هيثم بطاقته الشخصيّة ووضعها في كفّه أيضا.

– هذا رقم هاتفي.. اتّصل بي متى شئت. سيكون شرفا لي أن نصبح صديقين.

ابتسم في ودّ وامتنان.

لقد أحسنت فتاة المترو اختيار رجلها.

– ٤ –

بات في غرفة الفندق ليلة واحدة قبل أن يسافر إلى شقّته في ليون. اتّصل به جورج ذلك المساء، وتحدّثا طويلا. انتهت المحاكمة، لكنّ المعركة الحقيقيّة تبدأ الآن. قال جورج في تصميم:

– لا يجب أن يمرّ الحادث مرّ الكرام. بإمكاننا الإفادة من الأزمة، إذا عرفنا كيف نوجّه الدّفة لصالحنا. طبعا، لا أتحدّث عن التّعويض الذي قضت به المحكمة. كريستوف سيدفع.. لكنّه لن يكون الوحيد!

أصغى إليه عمر في اهتمام. كان منهكا من التّجربة القاسية، ولم يكن يحلو له الاستغراق في البكاء على الأطلال.. لكنّ اقتراح جورج كان يستحقّ الانتباه.

– هناك جبهتا هجوم يجب أن نقف عليها. الحادث والمسؤوليّة القانونيّة فيه، بالشّكل الذي عشته أنت يعتبر «حادث عمل».. الحادث مدبّر، نعم. لكنّ المواد الأوليّة متوفّرة في إطار العمل. وهو نتاج تجربة كيميائيّة، وهذا من صميم محيط العمل. الآن، المختبر قد تدمّر بالكامل، وشركة التّأمين ستنتهي قريبا إلى دفع التّعويضات للمتضرّرين. هناك عائلات الضّحايا.. وأيضا، يجب أن يكون لك نصيب لا بأس به منها! للضّرر الجسديّ والنّفسيّ سويّا! سنطالب بأكبر قيمة ممكنة.. رقم بستة أصفار، إن كنت تفهمني!

سكت جورج برهة، يترك لمحدّثه مهلة لاستيعاب الفكرة:

– أمّا الجبهة الثّانية، فهي مهاجمة مؤسّسة النّيابة العموميّة، ومن ورائها الدّولة الفرنسيّة! محاكمة الضّحيّة بتهمة الإرهاب وسنتا سجن لمصاب بحروق من الدّرجة الثالثة.. لا يمكن غضّ الطّرف عن هذا! سنرفع قضيّة بتهمة التحيّز والتّعامل بأسس عنصريّة.. القذف وتشويه السّمعة، وسنثبت الضّرر النّفسي الذي عانيت منه طيلة سنتين من الحبس الظالم.

أومأ عمر في تركيز، بينما تابع جورج:

– هناك سابقة قضائيّة تحضرني.. في ١٩٩٣، اختُطف موظّفون ديبلوماسيّون من القنصليّة الفرنسيّة بالجزائر، واتّهم في تلك الحادثة نشطاء من المعارضة الجزائريّة يقيمون في باريس.. حوكموا على الفور، ودسّت وثائق تثبت إدانتهم لتوريطهم. منذ سنوات قليلة، في ٢٠٠٢، ثبت التّدليس في الأدلّة وأعلنت براءة المتّهمين، ثمّ حكمت المحكمة بتعويض هائل.. ملايين اليوروات! هل فهمت ما أعنيه؟

قضى عمر أسبوعين في ليون، رتّب خلالهما أموره دون حماس أو اهتمام. تخلّص من محتويات الشّقة وأثاثها. جمع حاجياته الأساسيّة وكتبه ومراجعه العلميّة في حقيبتين، وسافر إلى المغرب.

حطّ في «مراكش»، عند شقيقته عائشة. كان أصغر إخوته الأربعة. أنجبته والدته على كبر، بعد ثلاثة ذكور وأنثى واحدة. ثمّ رحل والداه وخلّفاه مراهقا يافعا، لتعنى عائشة بأمره مثل ابنها البكر.

نام نوما عميقا، في ليلته الأولى في مراكش، على حشيّة صوفيّة ملقاة فوق حصير حلفاء، في غرفة المؤونة من منزل شقيقته! اختار تلك الغرفة القصيّة، ليكون بمفرده. كانت أطول نومة عرفها، منذ أمد بعيد. ولم يكن يريد أن يستيقظ. لم يكن هناك ما يدعوه إلى الاستيقاظ!

لم يكن قطّ اجتماعيّ الطّبع، وقد اعتاد العزلة والعتمة فترة الحبس. كان قليلا ما يغادر الغرفة النّائية التي تقع في الفناء الخلفيّ للبيت، ولم يكن أحد يقتحم عليه منفاه..

باستثناء عائشة، حين تحضر له طعامه أو تذكّره بدوائه، أو تحاول مسامرته.. فلا تجد منه إلّا إعراضا.

يطلّ عليه ولداها اليافعان من حين لآخر في فضول، يسترقان النّظر عبر شقّ الباب إلى الخال المهاجر الذي لم يزرهما منذ سنين، ثمّ يتهامسان بشأنه لبرهة قبل أن ينسحبا دون التجرّؤ على مخاطبته.

– ألن تنضمّ اليوم إلينا على المائدة؟

استوى جالسا حين انفرج الباب وعبر شعاع الشّمس التي غدت في كبد السّماء مساحة انزوائه.

– إخوتك هنا.. اتّصل بي حامد مساء أمس حين عرف بعودتك. إنّهم قلقون بشأنك!

ابتسم في سخرية. ليسوا مثالا للعائلة المتلاحمة. حتّى أنّ غيابه لثلاث سنوات متتالية لم يثر قلقهم أو حتّى فضولهم! لا شكّ أنّهم تهامسوا فيما بينهم كما يفعلون دائما:

– عمر محظوظ.. إنّه يتنعّم بجنّة أوروبا، بينما نحن مدفونون بالحياة!

أومأ في استسلام:

– سآتي بعد قليل!

ترك مرقده بعد انصرافها. جرّ قدميه باتّجاه صنبور المياه بالحوش الخارجيّ. غمر وجهه بالماء، ومسح على شعره، علّ برودته اللّاذعة تنبّه حواسّه الخاملة. رفع رأسه إلى السّماء. إنّها رحبة وشاسعة، يحلّق فيها الطّير بجناحين مشرعين، وينطلق إلى الحرّيّة.. أما أنت يا عمر –فرغم حرّيّتك التي تحسب نفسك استعدتها– مكبّل بأصفاد من نوع آخر.

لقد خرجت من السّجن المادّي، لكنّك محبوس وراء قضبان اليأس. ما أنت اليوم؟ لم تعد سوى بقايا شابّ محطّم، معطوب الجسد والرّوح.

عبر الفناء ومشى في اتّجاه الصّالة المفتوح بابها، وقد انسدلت ستارة تخفي الوجوه وتسمح بتسرّب الأصوات.

– ما الذي جاء به؟ هل تكلّم عن التّركة؟

كان ذلك صوت أخيه الأكبر حامد! ما زال على جشعه القديم.. لا يعنيه شيء، عدا التّركة. لقد تنازل لهم عمر عن حقّه المشروع في إرث والده، يوم قرّر السّفر والانتفاع بمنحة اليونسكو.

قال حامد يومها:

– من يرد نصيبا من الأرض عليه أن يرويها بعرقه! أنت تريد أن تكون مهندسا أو دكتورا أو ما شئت من المهن «النّظيفة»، تحفظ كفّيك من التجعّد والجفاف والعمل الشاقّ في القيظ والصقيع.. وتقبض نصيبك من ريعها آخر السّنة؟ لا يا أخي، هذا ليس عدلا! نحن ضحّينا، وقرّرنا البقاء في الأرض، نعزقها ونحرثها ونسقيها ونحصدها.. أمّا أنت فلا تريدها، لذلك ارفع يديك عنها، الآن وإلى الأبد!

وقد فعل.

لقد اختار طريقه آنذاك، ولم يتراجع. لكنّ رجوعه المباغت –وقد فقد عمله واعتلّ جسده– لا شكّ يخيفهم! ابتسم في تهكّم. ليسوا خائفين عليه، كما يجدر بالأشقّاء أن

يفعلوا، حين يكون أصغرهم في محنة، بل منه! مدّ ذراعه ليرفع السّتارة، لكنّه تسمّر مكانه حين وصله صوت عائشة، دافئا وصارما، كما عرفها دوما، أمّا رؤوما وأختا حانية:

– أخوك ليس بحاجة إلى مالك يا حامد.. بل إلى قلبك، وحضنك، ووقفتك إلى جانبه! أهذا كلّ ما تفكّر فيه الآن؟ التّركة؟ لولا ذكرى المرحوم أبي، وقدرك كأخ أكبر، لما سمحت لك أن تخطو داخل بيتي مرّة أخرى!

تدخّل عمّار، مهدّئا النّفوس المتوتّرة:

– رويدك يا عائشة.. حامد لا يقصد ذلك.. قلبه أبيض، لكنّ لسانه بريء منه!

همّ حامد بالاعتراض، فشدّ سعيد على ذراعه وأشار عليه بالسّكوت، فتابع عمّار:

– المهمّ الآن، ما الذي يحتاج إليه عمر؟

– لا أحتاج شيئا منكم!

دخل عمر وفي عينيه نظرة كبرياء مترفّعة. تشنّجت الملامح وغامت النّظرات بدخان النّفور والارتياب.

– تعال وسلّم على إخوتك يا عمر.. نتغدّى ثمّ نتحدّث.

كانت عائشة من تكلّم.

– نسلّم ونتغدّى، لكن لا نتحدّث! مشاكلي أحلّها بنفسي. اطمئنوا، لم آت لأعكّر صفو حياتكم. إنّها مجرّد زيارة عابرة.. اعتبروني ضيفا، عابر سبيل.. أمكث أياما، ثم أمضي لشأني!

– بل هذا بيتك يا أخي.. تأتي متى أردت وترحل متى أردت!

كانت عائشة قد ورثت منزل والديهم، بعد أن تنازلت بدورها عن نصيبها من الأرض الفلاحيّة. رنا إليها عمر في امتنان، في حين تململ الإخوة في ضيق. تناولوا الغداء في صمت، ثمّ رحلوا. علم أنّه لن يرى أحدهم قريبا.

***

– يجب أن تخضع للعلاج يا عمر!

كانت عائشة تلحّ عليه للمرّة الألف.

أمضى شهورا لا يفعل شيئا. كأنّه قد ألِف الوحدة والفراغ، ولم يعد بإمكانه العيش خارجهما. كأنّ الاحتكاك بالعالم الخارجي يفسد توازنه الهشّ.. أو شبه التّوازن المرتبك الذي انتهى إليه.

لوقت طويل، لم يفكّر في الصكّ البنكي ذي السّتّين ألف يورو الذي سلّمه إياه هيثم قبل رحيله. نام الصّك بين دفّتي كتاب، حتى اتّصل به جورج ليبشّره بحصوله على التعويض المرجوّ!

– اخصم أتعاب المكتب أوّلا.

– طبعا، سأفعل.

ضحك جورج، وقد سرّه أنّ جهده ورنيم لم يذهب هباءً. كانت القضيّة تعيينا من مكتب المدّعي العام، بمقابل زهيد. ولم يكن يأمل حين قبلها أيّة أرباح حقيقيّة. ومع ذلك فقد جارى رنيم في حماسها. وبهذا التّعويض المجزي، لن تذهب سنتان من العمل المضني في مهبّ الرّيح.

– هل ستزور باريس قريبا؟
– لا أدري بعد.
– عليك أن تحضر بنفسك، من أجل إنهاء المعاملات والتّوقيع على الاستلام.
إن كان قد نجح في إخفاء الصّك عن عائشة، فلم يكن بمقدوره إخفاء أمر الاتصال الذي كان تحت أسماعها. فلم تدّخر جهدا في إقناعه بضرورة خضوعه إلى الجراحة.
– ستشفى، وسترجع مثل سابق عهدك.
– أنا بخير هكذا.
كان قد انتهى إلى حال من البلادة واللا مبالاة بوضعه ممّا جعله في منأى عن التفكير في تجميل شكله.
– لست بخير! أنا أراك، وأعلم أنّك لست بخير.
تردّدت قليلا، ثمّ أضافت:
– حتّى لو تقبّلت ما حصل وتعايشت معه.. فماذا عن زوجة المستقبل؟
رفع حاجبيه في سخرية مرّة:
– زوجة المستقبل؟ عمّ تتحدّثين؟
– أنت في الثّانية والثلاثين.. ما يزال العمر أمامك. عليك أن تفكّر في المستقبل!
أصغى في ألم. وهل ما زالت في نفسه رغبة بالزّواج؟ هذا الجسد المشوّه وهذه الرّوح الذّاوية لم يعودا يصلحان لشيء.. وخاصّة لبناء عائلة!
لكنّها لبثت تلحّ وتلحّ. تزنّ عند أذنيه مثل نحلة عاملة مجدّة، حتّى استسلم لرغبتها. سيعود إلى باريس، يلتقي جورج ويستلم التعويض.. ثمّ يبدأ رحلة الجراحة التّجميليّة المضنية!

–٥–

باريس، ديسمبر ٢٠٠٥.

أحكمت ياسمين إغلاق معطفها حين لسعتها البرودة القارسة، ثمّ سارت باتّجاه محطّة قطار الأنفاق. توقّفت عند مكتبة المحطّة. كانت تطالع الواجهة في اهتمام، حين رنّ هاتفها. كانت ميساء.
– هل وصلت؟
– ليس بعد.. لقد غادرت المكتب للتوّ.
– لا تتأخّري.. سيبرد العشاء.
– حسنا.
كانت ميساء تهمّ بإغلاق الخطّ، حين استوقفتها ياسمين في حرج:
– ميساء.. قولي.. أيّ نوع من الكتب يفضّل أخوك؟
– كتب؟!
انفجرت ميساء ضاحكة.

– هيثم، يقرأ؟ ما عدا كتب البرمجة، لا أذكر متى رأيته يقرأ آخر مرّة.. لحظة تذكّرت! لقد كانت قصّة «ذات الرّداء الأحمر»!

ضحكت ياسمين بدورها، ثم قالت في فتور:

– حسنا.. اذهبي في سبيلك إذن!

– إن كنت تفكّرين في هديّة، فسأخبرك بما يعجبه.. ألعاب الفيديو!

– ماذا؟

هتفت ياسمين في صدمة، ثمّ قالت منهية الموضوع:

– أراك لاحقا إذن.

أنهت الاتّصال وسرحت من جديد عبر الواجهة. كانت مدعوّة للعشاء في منزل الخالة زهور، وهي دعوة متكرّرة، قبل الخطبة وبعدها. لكنّها أصبحت تستثقل الزّيارة، التي اكتست طابعا رسميّا نوعا ما، ولم تعد بالعفويّة التي كانت عليها آنفا. تكلّف الخالة زهور نفسها مشقّة بالغة من أجل إكرام وفادتها، وتقضي ساعات في المطبخ لإعداد أصناف كثيرة!

لم تحبّ ياسمين التحوّل الذي عرفته علاقتها بأفراد العائلة.. وقد غدت ترهب موقعها ك«كنّة» مرتقبة، تزور بيت حماها! فكّرت في اقتناء هدية. كانت مولعة بشراء الكتب، لديها أكوام منها في غرفتها، لم تسعها مكتبتها الصّغيرة، فكدّستها قرب الجدار. لكنّ يبدو أنّ هيثم لا يشاركها ولعها بالقراءة.

دلفت إلى المحلّ الصّغير، قلّبت في ركن ألعاب الفيديو كما أشارت عليها ميساء. لم تكن خبيرة بها، وكان من الصّعب أن تنتقي قرصا مناسبا. بعد دقائق طويلة من التّحديق في علب الألعاب، استدارت من جديد لتواجه الكتب.

توقّفت فجأة عند عنوان شدّها بشكل خاصّ: «التعافي من الصّدمة». قرأت العنوان الفرعي باهتمام: كيف تتجاوز الصّدمات النفسيّة. أمسكت الكتاب بين كفّيها وأخذت تقلّب صفحاته باهتمام، ثم توقّفت عند النصّ القصير على الغلاف الخلفيّ:

«قد تكون تعرّضت لحادثة سيّارة، لاعتداء أو كارثة طبيعيّة. منذ ذلك اليوم، اختلف كلّ شيء. «لا تفكّر في الأمر!»، «لقد انتهى».. تسمع تلك النصّائح من محيطك. الكلمات سهلة، لكنّ النّسيان مستحيل. القلق يسيطر عليك، ولا أحد يتفهّم جراحك الدّاخلية».

حسمت أمرها. دفعت ثمن الكتاب ووضعته في حقيبتها، ثمّ مرّت على المخبز واختارت قطع كعك من أجل زيارتها.

***

كانوا جميعا متحلّقين حول مائدة العشاء، العمّ عبد الحميد والخالة زهور، هيثم وميساء ووائل آخر العنقود.. بالإضافة إلى ياسمين ضيفة الشرف. لكزت ميساء ياسمين بمرفقها، وأشارت بسبّابتها باتّجاه والدتها، فهزّت ياسمين رأسها في إشارة مطمئنة، وهي تهمس:

– سأحدّثها بعد العشاء.

أخذ هاتفها يهتزّ في حقيبتها بصمت. ألقت نظرة سريعة، كان الرّقم مجهولا. عقدت حاجبيها في حيرة، ثمّ اعتذرت ووقفت لتردّ على الاتّصال.

- الآنسة ياسمين؟

- نعم؟

- أتّصل بشأن الإعلان.

- آه، نعم!

كانت قد كتبت إعلانا من أجل غرفة رنيم التي غدت شاغرة، وعرضته عند بقّال الحيّ وفي مدخل البناية. لم يعد بإمكانها تحمّل كلفة الشقّة بمفردها. رنيم كانت تدفع ما عليها في الفترة الأولى، لكن بعد انتهاء المحاكمة، وتيقّنها من استحالة عودتها، أعلمتها بأنّ الشقّة باتت لها وحدها الآن. لذلك فقد صار عليها أن تجد شريكة سكن جديدة.. أو تنتقل إلى شقّة أصغر.

- هل يمكنني أن ألقي نظرة على الشقة؟

- نعم بالتّأكيد.. متى يناسبك؟

- غدا، في الرّابعة عصرا؟

- بالتأكيد.

عادت إلى مجلسها، تحت نظرات هيثم المتابعة لتحرّكاتها. قالت ببساطة:

- ربّما أكون قد وجدت مستأجرة للغرفة أخيرا.

يراودها إحساس دائم بأنّ عليها طمأنة هيثم بشأن علاقاتها واتّصالاتها. لم يكن في صالحها التصرّف بغموض.. فذلك يفتح باب الغيرة.

- ماذا؟

هتفت ميساء بانزعاج. هزّت ياسمين كتفيها وأومأت في اعتذار، بينما اكتست ملامح ميساء ضيقا غير مفسّر.

كانت تحاول منذ شهور إقناع والديها بالسّماح لها بالسّكن مع ياسمين. لكنّهما لم يقتنعا أبدا. كانت قد أنهت دراستها الجامعيّة منذ ستّة أشهر.. ولم تجد عملا بعد. شرعت في تعلّم التّصميم والخياطة، وتحلم بافتتاح متجر لملابس المحجّبات. وحتّى يأتي ذلك الوقت، كانت تمنّي نفسها ببعض الاستقلاليّة عن والديها.

حاولت ياسمين أن تخفّف عنها، فقالت:

- هل يمكن لميساء أن تمكث عندي في العطلة؟

- حسنا، لا بأس.

قالت زهور بابتسامة. بينما عقّب هيثم:

- متى ستقابلين المستأجرة؟

- غدا عصرا.. لماذا؟

- من الأفضل ألا تكوني بمفردك.. من يدري.

- هيثم على حقّ.. العالم لم يعد آمنا يا ابنتي.

قال هيثم من جديد:

- سأوصل ميساء عندك قبيل الرّابعة إذن.

هزّت رأسها موافقة وواصلت الأكل في صمت، وإحساس بالدّفء يملؤها. كان يشعرها باهتمامه بشتّى الطّرق، وكان يسبقها دائما في التّفكير بأمنها وسلامتها. لو كان الأمر بيده، لما سمح لها بالإقامة بمفردها في تلك الشّقة.

– سلمت يداك يا خالتي!

– عسى أن يكون الطعام قد أعجبك؟

– جدّا.. لا آكل جيّدا إلّا حين أزوركم!

– إذن سأعدّ لك بعض علب الغداء، تأخذينها معك.

حاولت ياسمين أن تمتنع، لكنّ الكلمة الحاسمة كانت لزهور. قال هيثم مداعبا:

– أمّي تحبّك أكثر ممّا تحبّني! لا نصيب لي من علب الغداء؟

قالت زهور في لهجة جافّة:

– العلب لمن يقدّرها حقّ قدرها! ألست تأنف أن تتناول طعام البيت أمام زملائك؟

هتف وائل ذو الأربعة عشر ربيعا:

– راحت عليك يا زهور! سيأتي يوم يأخذ فيه علب ياسمين إلى العمل ولا يتذمّر!

ضحكت ميساء وقالت:

– علب ياسمين؟ عسى أن تجد ياسمين وقتا لتطبخ لنفسها!

قالت زهور في جدّيّة:

– وهل ستستمرّ في دراستها إلى الأبد؟ قريبا تأخذ الشّهادة وتقرّ في بيتها.

قالت ذلك في لهجة حاسمة، ثم وقفت. تبادل هيثم وياسمين نظرات صامتة ومتوتّرة، ولم يعقّب أحد. تنقّلت ميساء وياسمين بين مائدة الطّعام والمطبخ تجمعان صحون العشاء.. ثمّ أحضرت زهور العصير وقطع الكعك إلى غرفة الجلوس. قالت ميساء في لهجة مشاكسة:

– تخيّلوا.. ياسمين كانت تريد شراء كتابٍ لهيثم!

انفجر الجميع ضاحكين، بينما ازداد خجل ياسمين. أضاف وائل:

– أذكر حين طلبت منّا المعلّمة تلخيص رواية السّنة الماضية، قال هيثم: لا تضيّع وقتك في القراءة، وشاهد الشّريط!

تعالت الضّحكات من جديد، بينما راقبهم هيثم بابتسامة غامضة، ثم قال بهدوء:

– قد أفاجئكم جميعا.. لقد اشتريت كتابا الأسبوع الماضي!

حدّقوا فيه في عدم تصديق، ثمّ قالت ميساء متحدّية:

– هل هو كتاب برمجة حاسب؟

هزّ رأسه علامة النّفي.

– ماذا إذن؟

– ثقافة عامّة!

– لا أصدّق.. ما الذي حصل لك؟

رمى نظرة سريعة على ياسمين ثم قال:

– هناك مرّة أولى لكلّ شيء!

صفّر وائل في إشارة ذات معنى ثم قال:

– الحبّ يصنع المعجزات!

لمزته زهور ليكفّ عن مشاغبة شقيقه الأكبر، ثمّ ساد صمت قصير، ريثما راح كلّ منهم يتناول قطعة الكعك الخاصّة به. ثمّ، ومثل كلّ مرّة، انسحب الجميع واحدا إثر الآخر من غرفة الجلوس، ليتركوا لهيثم وياسمين مساحة كافية لحديث خاصّ. قال هيثم أخيرا وعلى شفتيه نفس الابتسامة المستمتعة:

– في المرّة القادمة، إذا فكّرت في شراء هدية.. لا تستشيري ميساء.

ازداد وجهها احمرارا واضطربت أنفاسها. قالت مغيّرة الموضوع بعد أن رشفت من كوبها ببطء شديد:

– ما اسم الكتاب الذي تقرؤه إذن؟

اتّسعت ابتسامة هيثم، وتنهّد وهو يقول:

– ظننت أنّك لن تسألي أبدا!

وقف على الفور وغاب للحظات داخل غرفته، ثمّ عاد وبين كفّيه كيس ورقيّ ملوّن.

– لقد أنهيته.. يمكنك استعارته!

تسلّمت الكيس في دهشة. لقد فاجأها بمبادرته غير المتوقّعة. كانت تفكّر في إهدائه كتابا، فانتهى بها الأمر بتلقي كتاب منه! في الساعة التّاسعة، أوصلها هيثم وميساء إلى شقّتها، مثل كلّ مرّة تزورهم فيها. كان هيثم صامتا طيلة الطّريق، بينما كانت البنتان تخطّطان لعطلتهما المشتركة في شقة ياسمين.

حين اختلت ياسمين بنفسها أخيرا، فتحت الكيس وأخرجت الكتاب. قرأت العنوان، ثمّ اتّسعت عيناها ذهولا، وقد أدركت سرّ ابتسامة هيثم:

«أسرار الحياة الزوجية الناجحة»!

***

كان يوم الخميس يومها المفضّل في الأسبوع. غالبا ما ينصرف دافيد مبكّرا، من أجل اجتماعات خارج الشّركة، ويسمح لها بأخذ استراحة طويلة فترة الظّهيرة. كانت السّاعة قد تجاوزت الثانية ظهرا، حين استقرّت في مقعدها الاعتياديّ في مطعم « البيت الصغير».

تفصلها ساعتان عن موعدها مع المستأجرة المحتملة. كانت قد واعدت ميساء وهيثم على اللّقاء في المطعم، ثم يرافقانها إلى الشقّة. تصفّحت أوراق عملها في ملل، ثم رفعت عينيها إلى واجهة المطعم الزّجاجيّة. كان الثّلج قد أخذ يتساقط في الخارج. انتابها الحماس فجأة. جمعت دفاترها واتّجهت إلى الشّرفة الخارجيّة. وقفت في الجزء المكشوف، وهي تعرّض كفّها العارية لندف الثّلج النّاصعة التي تنحدر ببطء نحوها، فما أن تلمس بشرتها الدّافئة حتّى تذوب على الفور وتصير قطيرات ماء.

كم تحبّ الثّلج، والبرودة!

لبثت ساهمة لبرهة، وقد غابت في لجّة أفكارها. ثمّ تنهّدت وهي تعود لتستقرّ على أحد مقاعد الشّرفة. كانت تلمح من مجلسها ناطحات السّحاب الباسقة التي تحفّ السّاحة مترامية الأطراف، ومدخل محطّة قطار الأنفاق الذي يهرع إليه المارّة للاحتماء من تهاطل الثّلج المتزايد.

أخرجت من حقيبتها الكتاب الذي اقتنته بالأمس، وارتسمت على شفتيها ابتسامة. ستأخذ استراحة في الهواء المنعش، وتقرأ فيه قليلا.

لا تدري على وجه الدّقة ما الذي جعلها تختار ذلك الكتاب بالذّات. لا يمكنها أن تنكر، لقد سيطر على تفكيرها منذ قرأت العنوان. «التعافي من الصّدمة». ومن غيره عاش مأساة أليمة وصدمة عظيمة؟ لقد تساءلت كثيرا، بعد أن عرفت ما مرّ به من أهوال، كيف تصير الحياة في عيني من يُبتلى مثله؟ أيّ كوابيس يرى أثناء نومه، وأيّ هواجس تلازمه في نهاره؟ ولأنّ خيالها القاصر لا يمكن أن يحيط بالواقع مهما حاولت، فقد انكبّت على الكتاب، تسائله، علّه يعرف أكثر ممّا تعرف!

– التعافي من الصّدمة!

رفعت عينيها مفزوعة، حين وصلتها تلك الكلمات بصوت مألوف. حدّقت في الرّجل الماثل أمامها، في ذهول وارتباك. كان معطفه الصّوف الطّويل مغطّى الكتفين بطبقة رقيقة من الثّلج، وبدا شعره الأسود مبتلّا لامعا، كأنّه يقف هناك منذ أمد.

لم تكن تتخيّل! لقد كان هو، مرّة أخرى. يقرأ عنوان كتابها بصوت مسموع، لتلتقي العيون بعد لحظات وقد غشيتها الدّهشة.

– عمر!

***

عبَرَ الممشى الفاصل بين محطّة القطار والمركز التّجاري على مهل. كان الثّلج يتساقط، وكانت البرودة اللاّذعة التي تصاحبه منعشة لحواسّه. لقد فقد القدرة على تحسّس الأشياء في مناطق عدّة من جسده، فلم تعد بشرته تميّز البرد أو الحرّ.. إلّا في درجاته القصوى. وهذه البرودة التي يفرّ منها النّاس فيلجؤون إلى الشرفات المسقوفة أو باطن الأرض، هي نعيم بالنّسبة إليه!

أغمض عينيه، مستسلما، مثل شجرة مغروسة في السّاحة، فتغمرها طبقة بيضاء ناعمة من النّدف الهشّة، ووجهه إلى أعلى، يستقبل هبات السّماء.

حين فتح عينيه، تراءت أمامه لافتة المطعم المضيئة: «البيت الصّغير».. لقد كان هناك بالأمس، ولم يكن الطّعام سيّئا. السّاعة اقتربت من الثالثة، وهو لم يتناول غداءه بعد. ساقته قدماه خطوة بعد خطوة في اتّجاه المبنى. وفي الشّرفة الخارجيّة المقابلة، ظهر أمامه شبحها. تلك الفتاة ذات الحجاب، المنكبّة على كتاب، تقرأ وكأنّه كل عالمها، فلا تشعر بشيء ممّا حولها.

يستحضر في لا وعيه مشهدا مماثلا. فتاة المترو، تقف قبالته، وجهها غائب وراء كتاب، وكفّها تمسك بالعمود المعدنيّ، تحاول الحفاظ على توازن هشّ تتلاعب به هزّات المترو المتكرّرة مع كلّ فرملة مفاجئة. ثمّ بغتة، يختلّ توازنها ويسقط الكتاب، ويظهر وجهها الصّغير المرتبك.

– التّعافي من الصّدمة!

وقفت ياسمين مثل الملسوعة، وسقط الكتاب على الأرض. تقدّم عمر في هدوء، وانحنى ليلتقط الكتاب الذي تدحرج عند قدميه، على قيد خطوتين من مجلسها.. وفي ذاكرته –وذاكرتها– يتكرّر المشهد بحذافيره.

– «الهويّات القاتلة»!

لقد كان كتابها الأوّل نبوءة لمستقبله. فهل تواصل فراستها، ويجد التّعافي له سبيلا؟ يبتسم، في مزيج من الحنين والمرارة، والسّرور، للقائها غير المتوقّع. بدت وجنتاها متورّدتين.. بفعل البرودة ربّما؟

– عمر.. أنت في باريس؟!

– نعم، وصلت منذ أسبوع.

يسمع رنين اسمه على لسانها، للمرّة الأولى. ياسمين. لا يجرؤ على النّطق باسمها، حتّى بينه وبين نفسه. يخشى أن يطرق أبوابا لا يجوز له عبورها. لا يزال الكتاب بين راحتيه، يتشاغل به، غاضّا بصره عنها.

– لم أتوقّع رؤيتك هنا!

– أنت تعرف هذا المطعم؟

– لقد اكتشفته منذ يومين.. هيثم دعاني على العشاء!

– آه!

هيثم! لقد رآته بالأمس، كانت ضيفة في بيت أهله، ورافقها إلى الشّقة مساء.. لكنّه لم يقل حرفا واحدا عن لقائه وعمر!

– هل يتعلّق الكتاب ببحثك؟

يحاول أن يجد تفسيرا منطقيّا لوجود ذلك الكتاب بين يديها. تفسير لا يأخذ أفكاره إلى مسارات الممكن والمأمول لكنّها قالت في ارتباك واضح:

– لا!

اكتفت بالنّفي، دون إثبات من أيّ نوع. كأنّها تحتفظ ببقيّة الإجابة لنفسها. كأنّها تخفي شيئا لا تريد أن تواجهه به، أو لا تجرؤ حتّى على مصارحة ذاتها به. ولم يكن يجدر به أن يسأل أكثر. فلا معنى لأيّ شيء ممّا يراوده من رجاء. قال بما وسعه من رباطة جأش:

– أتركك لقراءتك إذن.. سأطلب غدائي.

كان يهمّ بوضع الكتاب على الطاولة المنخفضة إلى جوارها، والانسحاب قبل أن يفقد السّيطرة على.. كلّ شيء! لكنّها بادرته بسرعة:

– يمكنك الاحتفاظ به!

رفع بصره إليها مبغوتا. بينما كانت نظراتها تلتصق بالأرض، في حرج جليّ.

لقد أدركت أنّها ما اشترت الكتاب إلا من أجله. هل كانت تأمل رؤيته قريبا؟ لم يكن هناك ما يدعوها إلى الاعتقاد بعودته، ناهيك عن لقائه صدفة! لكنّ كلّ ما رجته وهي تلتهم صفحات الكتاب، أن تجد تلك الكلمات طريقها إلى عمر.. وأن تطبطب عليه، وتسرّي عنه، ويجد سبيلا إلى التّعافي.

– اعذرني.. عليّ الانصراف الآن!

التقطت حقيبتها، وولّت مدبرة على الفور، دون أن تسمح له بردّ أو اعتراض.

لبث برهة بعدُ، في الشّرفة المكشوفة، بعد أن اختفت عند مدخل المحطّة، والكتاب بين يديه. لا يمكنه تفسير ردّ فعلها، إلا بأ لم ينهش صدره من الدّاخل.

لقد فاتك القطار يا عمر!

*

- تأخّرت عليكم؟

ظهرت عند شرفة المطعم محمّلة بأكياس مشترياتها، بابتسامة معتذرة. تطلّعت حولها في حذر. لم يكن هناك سوى هيثم وميساء بانتظارها. لقد انصرف، كما أملت.

- وصلنا منذ خمس دقائق وحسب.. هيّا حتّى لا تتأخّري عن موعدك!

- هاتي عنك.

تركت هيثم يأخذ عنها الأكياس، ويسبقهما إلى المرآب، بينما سارت إلى جوار ميساء على مهل.

- كيف تتوقّعين أن تكون، المستأجرة؟

- لكنتها بدت لي أجنبيّة.

- عربيّة، ربّما؟

- ربّما! حين نطقت اسمي، بدت الحروف ليّنة على لسانها.. تعرفين، ليس مثلما ينطقه الفرنسيّون!

- فهمت.

توقّفت السيّارة قرب رصيف البناية، وصعد ثلاثتهم إلى الشقّة في الطابق الثالث. عند المدخل، كانت هناك سيّدة في منتصف العمر، تضع قبّعة صوفيّة على رأسها. استدارت باتّجاههم، وسألت:

- ياسمين؟

- نعم! أنت.

- سكينة.. اتّصلت بك من أجل الغرفة!

- أهلا بك! تفضّلي.

بدت في منتصف الأربعينيات وعلى قدر من الجمال، وكانت لكنتها العربيّة المشرقيّة واضحة الآن، وفي عينيها غلالة حزن غامضة. فتحت ياسمين الباب ودلف أربعتهم. جلس هيثم وميساء في الصّالة، بينما قادت ياسمين سكينة في جولة بين الغرف.

- أنت المستأجرة؟

فكّرت أنّها ربّما تزور الشقة نيابة عن ابنتها. كانت في سنّ مناسبة لتكون لديها ابنة يافعة ترتاد الجامعة.

- نعم، أنا.. لعلّك توقّعت طالبة جامعة؟

ضحكت سكينة، بينما قالت ياسمين في حرج:

- بالفعل.. الموقع قريب من الجامعة، لذلك توقعت طالبة غالبا.

- أنا مدرّسة أطفال.

سألت ياسمين في حذر:

- هل لديك عائلة في فرنسا؟

فهمت سكينة السّؤال، فقالت:

- كانت.. أنا مطلّقة.

- آه، أنا آسفة.

- لا عليك.

لم تكن تتخيّل أن تكون شريكتها الجديدة في السّكن سيّدة تكبرها بعقدين ربّما. لعلّ ذلك لن يكون مريحا كما ترجو. لعلّها من النّوع الذي يأوي إلى السّرير في وقت مبكّر ولا يحبّ الإزعاج؟ أو العكس، ربّما تتلقى الكثير من الزّيارات؟ لو كانت طالبة فتيّة، سيكون بوسعها أن تفرض القوانين التي تناسبها، لكن ماذا عن سيّدة في عمر والدتها أو تكاد؟

عضّت على شفتها السّفلى في تفكير. لم تكن في وضع يسمح بكثير تردّد. تحتاج شريكة سكن تخفّف عنها حمل الإيجار الثقيل. وهذه السّيدة العربيّة تفي بالغرض!

– هل أعجبتك الشقة؟

– ممتازة. متى يمكنني الانتقال؟

– متى أردت.

– الأسبوع المقبل إذن!

تصافحتا واتّفقتا على تسجيل العقد في الوكالة العقاريّة بداية الأسبوع.

*

«السّؤال الذي يُطرح في أغلب الأحيان في وجه الصّدمة هو «لماذا». «لماذا تعرضت للإساءة والاعتداء أو لماذا تعرّضت لهذا الحادث؟ لماذا، لماذا، لماذا؟»».

الأشخاص المرنون يتجاوزون الإجابات المشعرة بالذنب من «لماذا» إلى «من أجل ماذا». بمعنى آخر: فيم سيفيدني هذا الحدث؟ بما أنني لا أستطيع محوه من حياتي، فما الذي يقدّمه لي؟ الصدمة تسلب الرّاحة النّفسية لكنها تثري الشخصية، وتبصّر بمعنى كلّ ما يحيط بك».

أغلق عمر الكتاب، وبقي السّؤال يتردّد في رأسه. ما هي العبرة التي عليه استخلاصها من التّجربة؟ وما هي المعاني التي عليه إبصارها في الأشياء من حوله؟ أين يمكنه أن يضع طاقته المتبقيّة؟ لأيّ هدف؟

لم يتمالك نفسه، شرع في القراءة على الفور، قبل أن يصل إلى غرفة الفندق. شيء ما كان يدعوه إلى الغوص في الكتاب، دون تأخير.. العنوان الواعد، وحماسة فتاة المترو!

كان قد غدا ثريّا بين عشيّة وضحاها، بفضل التّعويضات الهائلة التي تلقّاها. لم يكن عليه العمل لكسب قوت يومه! بإمكانه اقتناء مزرعة شاسعة في ريف مراكش، وإدارتها بقيّة حياته! بوسعه شراء سيّارات فارهة، أو السّفر حول العالم!

لكنّ أيّا من ذلك لن يهب حياته معنى!

إنّه لا يرى بعد كيف يمكن للحادث أن يصنع منه شخصا أفضل.

خطا باتّجاه بهو الاستقبال ثمّ ركب المصعد حتّى الطّابق الخامس. دلف إلى غرفته، نزع عنه المعطف الثّقيل وربطة العنق، واستوى جالسا على المقعد الوثير قبالة الشرفة، واستمرّ في القراءة.

«يقال غالبا أنك لست مرنا بمفردك. من خلال الشهادات والسّير الذاتية والدّراسات العلمية، حدّدت ثلاث قيم أساسية مساعدة: اللّطف والتعاطف وتلقّي الحبّ من الأقرباء أو من شخص خارجي...».

تنهّد وأغمض عينيه.. استحضر في ذهنه وجه شقيقته عائشة.. ووجه صاحبة الكتاب! قليلة هي النّفوس المتعاطفة من حوله. لكنّه ما فتئ يتلقّى الاهتمام.

«كيف تصرّف طاقتك في مسار نافع؟ البعض يشارك الآخرين تجربته لمساعدتهم على تجاوز صعوباتهم، والبعض الآخر ينشئ جمعيّة خيريّة أو ينضمّ إليها، للدّفاع عن حقوق الأفراد المشابهين له...».

فكّر في سخرية.. هل توجد جمعيّة تُعنى بالنّاجين من الانفجارات الكيميائيّة والمتّهمين بتدبيرها؟ أو ضحايا العنصريّة والحوادث الكبرى؟ لعلّ عليه أن يُنشئ واحدة!

انتبه على رنين هاتفه معلنا وصول رسالة. تطلّع إلى الشّاشة، ليُبصر رقم عائشة. ابتسم في حنان، وهو يطالع كلماتها:

«كتب الفاروق عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه يقول: (أمّا بعد، فإنّ الخير كلّه في الرّضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر)».

حدّق في الرّسالة طويلا، يستشعر كلماتها بكلّ جوارحه. هذا حديث عمر بن الخطّاب، سميّه. وهذه رسالة تخاطبه دون غيره، كأنّما كتبت من أجله!

هذا قضاء الله عزّ وجلّ قد أصابه.. وليس من قضاء الله هرب! لقد تمرّغ في نعمه في سابق أيّامه، فحمد الله دائما.. والآن هو يعيش هذه البليّة، عليه أن يحمد الله أيضا.. ويرضى بما قسمه الله له من خير وشقاء!

تدحرجت العبرات على وجنتيه بهدوء. التّنظير سهل، لكنّ داخله يحترق، لم تنطفئ ناره بعد.

لقد قرّر سلوك تلك الطّريق الآن، يهدهده حلم بأنّ الغد سيكون أفضل. لم يصل إلى مرحلة اليقين. لا يؤمن بمستقبله كما يجدر به أن يفعل.

لعلّه لم يرض بعد.. لكنّه سيصبر!

-٦-

نانت، ديسمبر ١٩٩٥

فتحت سكينة الصّنبور فتدفّقت المياه بقوّة داخل الحوض. عرّضت كفّها للتيّار تتحسّس حرارته ثمّ حرّكت المقبض لتتحكّم في مقدار السّخونة. حين اطمأنت إلى اعتدالها، تركت الماء يجري ليمتلئ الحوض. رفعت صوتها منادية:

- هيا يا أولاد، حان موعد الاستحمام!

جرى الولدان في أنحاء الدّار محدثين الكثير من الصّخب، ثم تدافعا باتجاه الحمّام وهما لا يكفّان عن الصّراخ. حدجتهما سكينة بنظرة صارمة وألزمتهما النظام، فاستسلما ليديها تنزع عنهما ثيابهما، ثم قفزا داخل الحوض في مرح طفولي.. يتراشقان بالماء ويعبثان بفقاعات الصابون. ابتسمت سكينة وجلست على مقربة، تراقبهما وهما يلهوان. ستعطيهما بعض الوقت قبل أن تليّفهما وتغسل شعريهما.

كان جاسر قد بلغ الخامسة من عمره. ولد خجول وساكن معظم الأحيان. لكنّ رامز المشاغب الذي يصغره بسنة ونصف، كان يثير في شقيقه روح المرح والمشاكسة، فتسري فيه عدوى الصّخب حين يلتقيان في لعب أو شجار. كانا كلّ حياتها وشغلها شبه الوحيد طوال اليوم. حين رضيت بترك عملها كمدرّسة ابتدائية في حلب السوريّة

ومرافقة زوجها في هجرته إلى مدينة نانت الفرنسية، كانت تعلم يقينا أنها ستودّع الحياة الاجتماعية والعلاقات الأسرية إلى أمد غير قصير. ولم يكن جهلها المدقع باللغة الفرنسية ليخفّف عنها وطأة الغربة والفراغ.

اشترى لها نجيب، زوجها، كتابا خفيفا بعنوان «الفرنسية للمبتدئين»، كانت تقرأ فيه بضع صفحات كل صباح. لكنّ فرص التطبيق كانت شبه منعدمة. فهي لم تكن تغادر الشقة إلا لتقصد البقالة القريبة، حيث لم تكن تضطر إلى كلام كثير. يكفيها أن تدقق في المعروضات وتقرأ لافتات الأسعار ثم تحسب المبلغ الجملي في ذهنها حتى لا تتلكأ أمام الصّندوق.

حين دخل جاسر المدرسة التحضيرية منذ سنتين، صارت تراجع معه دروسه وتتعلّم منه. أدهشتها طاقة استيعاب الصغير وتعلمه اللغة بشكل سريع. كان في كل مرة يفاجئها بكلمة جديدة لا تنتمي إلى معجمها البسيط، فاتخذت قرارا بمتابعة دروس في اللغة.

كان عليها أن تقنع نجيب بإعطائها تلك الفرصة، وأن تجد حاضنة للأطفال في أوقات غيابها.. وها أن ستة أشهر قد مرّت منذ بدأت دروسها، شعرت فيها بعودة الحياة إلى قلبها. تلك الدّروس جعلتها تتعرّف إلى صديقات جديدات، بعضهن عربيّات، والأخريات صينيات، روسيات، تركيات.. البعض جاء فرنسا للدراسة أو العمل، والبعض الآخر مثلها ربّات بيوت. تلك الفسحة الدوريّة كانت بالنسبة إليهن كلهنّ ملاذا آمنا، يتبادلن فيه أفكارهن وهمومهن، بفرنسية مبعثرة وعبارات مهشّمة الأوصال، دون أن يقاطعهن أحد بسيل من الكلمات غير المفهومة! بقليل من الإشارات ومزيج من لغاتهن الأصلية، كنّ يتمكنّ من التواصل، ويتقدّمن في تعلم الفرنسية بشكل متفاوت.

ارتفع رنين هاتف الشقة فجأة. كانت سكينة قد انتهت من غمر الولدين بشامبو الشعر ولم تليّفهما بعد. لكنّ الهاتف كان أكثر إلحاحا. غسلت كفيها وجففتهما ثم قالت محذرة:

- لا تغادرا الحوض.. سأعود سريعا.

تناهت إليها أصوات العراك والتناقر المرح التي تواصلت بعد مغادرتها وهي ترفع السّماعة من غرفة الجلوس.

- مرحبا داليا.. كيف حالك وكيف الأولاد؟ اعذريني، انشغلت قليلا فلم أتصل هذا الأسبوع...

انهمكت في حديثها مع شقيقتها المتّصلة من البلد، فقد كانت أخبار الأهل في البلد دائما لذيذة. قالت أكثر من مرّة وهي تهمّ بقطع المكالمة «الأولاد في الحوض، يجب أن أنهي تحميمهما»، لكنها كانت تستجيب إلى نكتة أخرى أو خبر آخر تلقيه داليا فتضحك من جديد وتستمرّ المكالمة.

فجأة، سمعت دويّ ارتطام عنيف ثمّ علا نحيب طفل مفجوع من بعيد. في منتهى الهلع، أفلتت سكينة سماعة الهاتف وركضت إلى الحمّام وقلبها يكاد يتوقّف عن النبض. وسط الحوض، لمحت جاسر الذي التصق بالحائط وهو يرتجف فرقا ونشيجه المتواصل يمزّق نياط قلبها. للوهلة الأولى، لم تر رامز. كادت أنفاسها تنقطع وهي تبحث عنه

بعينيها لتطمئن إلى سلامته. ثمّ ارتدّت نظراتها إلى الأرض المبلّطة، قرب المغسلة. هناك عند قدميها، كان جسد الولد هامدا بلا حراك، وعند رأسه بقعة دم سوداء، كانت تتّسع.. وتتّسع.

صاحت. ولولت. ثمّ انحنت على الجسد الصغير ترفعه بيدين متعرّقتين. تحسّست وجها لما تفارقه الحرارة وصدرا لم تعد تراوده الأنفاس، ثم نكشت شعرها بكفين مخضبتين بدمائه الزكية.

لا تدري كم مضى من الوقت وهي تبكي بشكل هستيريّ، قبل أن تنتبه إلى ولدها الآخر الذي شحب من أثر الصّدمة. تحرّكت بإلهام من الله. أخرجته من الحوض ووضعت بعض الثياب عليه، ثمّ لفت رامز في لحاف خشن وجرت بهما خارج الشقة. لم يكن هناك وقت للاتصال بأحد. إن كان هناك أمل بإنقاذه، فهي وحدها القادرة على ذلك. هلع سائق سيارة الأجرة حين قفزت أمامه على الطريق وهي بذلك الشكل المرعب من الفوضى والانهيار.

– إلى أقرب مستشفى...

دعت الله كثيرا طوال الطريق وهي تضمّ رامز بكفّ، وتضغط على كتف جاسر المصدوم بكفّ أخرى. حين دخلت إلى قسم الطوارئ، انهارت على الأرض وهي تصرخ وتشير إلى الجسد المسجى بين ذراعيها:

– أنقذوا ولدي.. أنقذوا ولدي...

لم تكن تعلم أنّ الرّوح قد فارقته منذ دقائق عدّة.

-٧-

أدارت المفتاح في قفل الباب، ثمّ دلفت إلى الشقّة. ألقت حقيبة يدها على الطاولة المنخفضة وارتمت على الأريكة في إعياء. ثمّ ما لبثت أن انتبهت حين تسرّبت إلى أنفها رائحة شهيّة لا تدري مأتاها.

– ياسمين! لقد رجعتِ مبكّرا!

وقفت ياسمين في دهشة حين وصلتها تلك الكلمات، وقد التبس عليها الأمر. لا ليست رنيم! لمحت سكينة، في مريلة المطبخ، وابتسامة مرحّبة على شفتيها. لقد نسيت أمرها!

– سيكون الغداء جاهزا خلال دقائق.

لقد وقّعتا العقد، وسلّمتها نسخة من مفتاح الشقّة. لم تدرك في غمرة انشغالها أنّها ستكون قد انتقلت بالفعل. ابتسمت وقد أخذ تعبها يتلاشى تدريجيّا. لم يكن هناك أفضل من وجبة شهيّة لتنفض عنها وعثاء يومها!

اقتربت في فضول لتسند مرفقيها إلى المائدة وتلقي نظرة على ما أعدّته سكينة. في ذهنها، كانت تسترجع في حنين تفاصيل حياتها السّابقة ورنيم، لكن مع قلب الأدوار! لم تكن رنيم تدخل المطبخ إطلاقا.. وكانت هي تستقبلها بأطباقها البسيطة فتلمح علامات الانبهار في عينيها. الآن جاء دورها لتحدّق مأخوذة في ما أعدّته سكينة.

– ما هذا؟

– كبّة مقليّة!

– وهذا؟

– يبرق!

– وتلك؟

– مسقعة بذنجان!

ضحكت سكينة أمام دهشة ياسمين وقالت:

– أنت لا تعرفين شيئا عن الطبخ السّوري؟

هزّت ياسمين رأسها نفيا.

– قد أعلّمك إذا أردت.

تناولت ياسمين قطعة كبّة حارّة وتذوّقتها في حذر، ثمّ التهمت ما تبقّى في تلذّذ.

– أريد أن أتعلّم هذه!

أعدّت سكينة المائدة، وجلستا تأكلان وتتحدّثان في حميميّة، مثل صديقتين قديمتين. لم تجد ياسمين صعوبة في تقبّل شخصيّة سكينة، رغم فارق السنّ، بل لعلّها ألفتها قريبة من شخصيّتها.. هادئة ورصينة، حانية ومرحة.

– هل لديك أطفال؟

سألتها في فضول بينما تتناول قطعة الكبّة الرّابعة. سكتت سكينة، وشعرت ياسمين بانقلاب سحنتها. غامت نظراتها فجأة وخفت بريق عينيها. تنهّدت بحرارة ثم تمتمت:

– نعم.. ثلاثة أطفال.

كانت المرارة والحسرة جليّتين في صوتها. همست ياسمين:

– لا شكّ أنّ العيش بعيدا عنهم مؤلم!

عند تلك الكلمة، فقدت السّيطرة على انفعالاتها. غطّت سكينة وجهها بكفّيها وتركت العنان لدموعها المكتومة وصارت تنتحب بنشيج متقطّع. احتضنتها ياسمين مواسية، وهي لا تدرك ما عليها فعله. استكانت المرأة بين ذراعيها، في استسلام. مضت دقائق طويلة، وسكينة لا تكفّ عن البكاء. لعلّها كابرت طويلا، دون أن تجد كتفا تبكي عليها. تركتها ياسمين تنفّس عن حزنها، ولم تقاطع عبراتها، حتّى هدّأت أخيرا وانتظمت أنفاسها.

رفعت سكينة رأسها وقد تورّمت عيناها واشتدّ احمرار أنفها.

– أنا آسفة.

– لا تكوني! إذا أردت التحدّث، سأكون في الاستماع.. وإن لم ترغبي، فلن أسألك شيئا.

ابتسمت سكينة في امتنان، وبدا عليها التّفكير. ثمّ قالت في شبه ابتسامة:

– إنّها قصّة طويلة!

بادلتها ياسمين الابتسامة وقالت:

– وغدا إجازة! أمامنا سهرة طويلة.

***

«اسمي سكينة، من مواليد حلب، سنة ١٩٦٦. عشت حياة بسيطة ولا شيء مثيرا فيها مع عائلتي المكوّنة من والديّ وشقيقي سامر وشقيقتي داليا. كان حلمي أن أصبح

مدرّسة أطفال، وقد أصبحت. أحببت الأطفال كثيرا واستمتعت بتعليمهم وملاعبتهم وانتظرت بفارغ الصبر أن يأتي أطفالي إلى الدّنيا.

في سنّ الثانية والعشرين تزوّجت. وبعد سنتين، جاء ابني جاسر إلى الدّنيا. بعد سنة ونصف كنت حاملا بطفلي الثاني رامز، حين قرّر زوجي أنّ علينا السّفر إلى فرنسا حيث حصل على فرصة عمل ممتازة. تغيّرت حياتي منذ ذلك الحين.

في مدينة نانت الفرنسيّة، بدأت تعلّم لغة أهل البلاد. زميلاتي في الدّراسة كنّ معارفي الوحيدات. زوجي كان يخجل من تقديمي لأصدقائه الفرنسيّين وزوجاتهم، لأنّني أنطق بشكل معوجّ على حدّ قوله. لكنّني كنت راضية وقانعة. كان ولداي يكبران وسعادتي بهما تكبر. كانا كلّ حياتي. لذلك حين حصلت الفاجعة، فقدت صوابي مرّة واحدة.

كان رامز في الثالثة والنصف من عمره حين حصل الحادث المشؤوم. تركت الولدين يلعبان في حوض الحمّام وخرجت لأردّ على اتّصال من شقيقتي داليا. في غيابي، حاول رامز الخروج من الحوض ليجلب لعبة سقطت على الأرض أثناء لهوه مع أخيه. لكنّ قدمه زلّت على البلاط الزلق المبتلّ وارتطم رأسه بمغسلة السيراميك. كانت الوفاة آنية. جاسر أصيب بصدمة بالغة.

حين سمعت صراخه هرعت إلى الحمّام، حملت الولدين وهرولت إلى المستشفى. هناك أخبروني بأنّ رامز قد توفي، ونوّموا جاسر على الفور للعلاج من الصّدمة. لم أره بعد ذلك لوقت طويل.

بينما كنت منهارة في غرفة الانتظار، وصل موظّفان من إدارة الإرشاد الاجتماعيّ. رجل وامرأة. طرحا عليّ الكثير من الأسئلة. رغم مصابي تمكّنت من لملمة فرنسيّتي المبعثرة وكوّنت جملا مفهومة. لم أدر كم مضى من الوقت قبل أن يصل زوجي. كنت قد طلبت من استقبال المستشفى أن يتولّوا الأمر، لأنني لم أدر بأيّ وجه سألقاه. حين وصل، كان وجهه محتقنا من الغضب والبكاء معا. صرخ فيّ أمام النّاس وحمّلني المسؤوليّة. ولم يكن الوحيد.

في الغد، عاد موظفا الإرشاد الاجتماعي. لم يكن قد سُمح لي برؤية جاسر بعد. في هدوء تامّ بسطا كمّا من الأوراق أمامي. كان من المطلوب منّي أن أتنازل عن حضانة جاسر لصالح الدّولة!

كنت ألتفت إلى زوجي كالمستغيث، لأنّني لم أكن أفهم شيئا، لكنّ عينيه الزّائغتين عبّرتا عن ذعر يماثل ذعري. كان ما فهمته صحيحا. المرشدة الاجتماعيّة قضت بأنني أمّ مهملة. إهمالي ذهب بحياة ابني الأوّل، ولمصلحة الطفل الثّاني، سيتمّ الاحتفاظ به في رعاية الإرشاد الاجتماعيّ، ريثما يجدون له عائلة حاضنة! أضافت ببرود أنني سأكون محظوظة إن لم تقع محاكمتي ومعاقبتي بالسجن!

كنت على مشارف الانهيار.

يا أيّها النّاس! أيّها البشر! لقد فقدت ولدا للتوّ! أنا أمّ ثكلى، ولدها رحل دون أن تقدر على فعل شيء لإنقاذه، فهل تداوون جراحي بأخذ الولد الثّاني منّي؟

تمرّغت في الأرض، ندبت وجهي بأظافري، تمسّكت بثياب المرشدة، ورجوتها، توسّلت إليها أن تترك لي جاسر. رامز رحل، لم يعد باليد حيلة. لكن جاسر؟ لماذا يحرمونني منه بتلك البساطة؟ زوجي كان يجلس جامدا كالصخرة. حين غادرت المرشدة وهي ثابتة

على موقفها لا تتزحزح، نظر إليّ في حقد لم أتصوّر أنّه قادر على مثله وقال: أنت السّبب!

وهكذا، بين عشيّة وضحاها فقدت الولدين.

بعد صدور الحكم الرّسميّ بسحب حضانة جاسر منّي، وكّلت محاميا ورفعت دعوى لاسترداده. أقول رفعتُ، لأنّ زوجي كان كالمغيّب عن الواقع. صار يغيب كثيرا عن البيت ولا يكاد يكون هناك حديث بيننا. سندي الوحيد وجدته في زميلات الدّراسة. من بينهنّ كانت هناك فتيات جامعيّات ولهنّ علاقات اجتماعيّة ومهنيّة، فأرشدنني إلى محامٍ قبل تمثيلي أمام المحكمة بأجر زهيد. في الأثناء، لم يسمح لي برؤية جاسر مرّة واحدة. كان قد مكث في المستشفى لفترة غير قصيرة للعلاج النّفسيّ من الصّدمة. ثمّ انتقل إلى العيش عند عائلة فرنسيّة لا أطفال لديها.

بعد مرور شهرين، رأيته في المحكمة للمرّة الأولى. كان يبدو بصحّة جيّدة ومُعتنى به. حين رآني، ركض في اتّجاهي وهو ينادي «ماما»، لكنّ أمّه الجديدة منعته، فبكى. رأيت ولدي يبكي، فبكيت.

تعامل زوجي مع المسألة بفلسفة غريبة. كان يمكّنني من المال الكافي كلّما طلبت، لدفع نفقات المحامي والإجراءات القضائية، لكنّه لم يكن يرافقني إلى المحكمة أو يحضر الجلسات. كان سلوكه متباعدا بشكل مغيظ، كأنّ الولد لم يكن ولده!

بعد أسابيع من شبه القطيعة بيننا، فاجأني بالتّعبير عن حقيقة شعوره بعد أن برد الغضب وخفّت حدّته مع تعاقب الليل والنّهار. قال إنّه يؤمن بأنّ ما يحصل معنا هو عقاب إلهي، على أخطاء ارتكبناها وذنوب اقترفناها. وأنّ علينا التّوبة والرّجوع إلى الله حتّى يعود لنا جاسر!

أدهشني تأويله. في نظر الجميع، كنت أنا المسؤولة عن الحادثة، وهذا هو ذنبي الجليّ. فما ذنبه هو في الأمر حتّى يتقبّل المصاب بكلّ تلك السّكينة؟ شككت في تلك الفترة بأنّه كان على علاقة بامرأة أخرى خارج إطار الزّواج، وقد أنّبه ضميره حتّى أيقن بأنّه قد نال جزاءه الذي يستحق.

لئن لجأ زوجي إلى الإيمان ليصبّر نفسه على المأساة التي حلّت بنا، فإنّني قد سخّرت كلّ دقيقة من وقتي لاسترجاع ولدي. ليس الإيمان أن تسلّم وتستسلم وتقبع مكتوف الأيدي في انتظار المعجزة التي تعلن عن الصّفح! كان إيماني الذي يحرّكني حتّى أنبش السّماء والأرض في سبيل استرداد الحق المغتصب. ألم يكن حرماني من ولدي ظلما سافرا لا جدال فيه؟

لم أكن أضرب أولادي قطّ أو أؤذيهم جسديّا أو معنويّا بأيّ شكل من الأشكال!

كان ما حصل حادثة! حادثة يا عالم!

إذا تعرّض شخص ما إلى حادث سيّارة، فمات أحد أولاده ونجا الولد الآخر، فهل يسحبون منه الحضانة لأنّ سلوكه يمثّل خطرًا على الأطفال؟ أم يعتبر الجميع ما حصل حادثة فيعزّونه في الفقيد ويهنئونه بسلامة الناجي؟

كنت أفقد صوابي أحيانا في قاعة المحكمة حين يتمادى المدّعي العام في اتّهامي بالإهمال وعدم المسؤوليّة. كانت حادثة واحدة، تعلّمت منها درس عمري، لكنّهم كانوا مصرّين على إعدامي أخلاقيّا وتدميري نفسيّا.

بعد شهور، سمحوا لي برؤية جاسر. كانت مقابلات قصيرة ومرتّبة بمواعيد محدّدة وقصيرة المدى، وتحت مراقبة لصيقة من «والدي» جاسر الحاضنين. في اللقاء الأوّل، كان الأمر صادما.

جاسر كان ينادي تلك المرأة «ماما»، ولم يعرف بما يجب عليه أن يناديني!! كنت وجها مألوفا بالنّسبة إليه، لكن يبدو أنّ كلاما كثيرا قيل له في غيابي وجعله يحار بين الذّكريات القديمة التي يسجّلها دماغه عن «أمّه السّابقة» وبين المعطيات الجديدة التي تجعلني شخصا غريبا وغير مرغوب فيه ربّما!

كان عليّ أن أعمل على استرداد ثقته في تلك اللقاءات الموجزة والمتباعدة.. لكنّ إحساسا بداخلي تنامى يوما بعد يوم بأنّني كنت أفقده وإلى الأبد.

العائلة التي عُهد إليها بجاسر كانت مسيحيّة محافظة. جعلني ذلك على الأقلّ أطمئن إلى أنّ ابني لن ينشأ ملحدا أو منحرفا بسبب تربية متهاونة أو مائعة. مع أنّني كنت أؤمن أنّها تربية «مؤقتة» إلى حين عودته إليّ. الوالدان كانا دمثين ومتفهّمين، لكنّهما كانا يعملان على الاحتفاظ بجاسر نهائيّا، ووجودي بقربه على الدّوام كان بالنّسبة إليهما عاملا مشتّتا ومثيرا للضّيق. بعد فترة، طلبا منّي أن أتوقّف عن المجيء، لأنّ جاسر كان يعاني من كوابيس بعد كلّ زيارة، فيستيقظ من نومه مرتعبا يصرخ. كانت رؤيتي تعيد إلى ذاكرته تفاصيل الحادثة وما تلاها من صدمة!

كان قلبي يتمزّق وأنا أجدني أضطرّ إلى استراق النّظر إلى ولدي من بعيد وهو يلعب في الحديقة أو يسير في طريقه إلى المدرسة.. كان عقابا شديدا، أن أظلّ بمنأى عن حياته، وأترك له المجال لينساني، وينسى مأساة طفولته معي...

بعد ثلاث سنوات، كانت حياتي —حياتنا الزوجيّة— قد استعادت قدرا من الاستقرار. المأساة وما تبعها أضفيا على علاقتنا نوعا من الرّوحانيّة. طريقة تناول زوجي للأزمة كانت التوجّه إلى التّوبة وطلب الغفران والتأمّل واللجوء إلى الله.

كنت امرأة مؤمنة، لكنّ علاقتي بالله كانت على الفطرة، بدون قوّة أو حرص. كانت فرصة لنراجع أنفسنا ونحاسبها على السّنوات الضائعة. في تلك الفترة التزمت بالحجاب الإسلاميّ.

بعد مرور ثلاث سنوات، أنجبت ابنتي ميار. فترة حملي بها كانت تتصّف بالسّكينة والطمأنينة. كنّا قد قرّرنا أن نعوّض بها حرماننا الذي طال وننشّئها تنشئة حسنة وننسى آلام الماضي. مجيئها المرتقب زاد من لحمتنا وتماسكنا وأعاد إلينا إيمان أحدنا بالآخر، كأنّها طفلنا الأوّل.

كان ذلك قبل أن نستيقظ من أوهامنا الواهية.

بعد أسبوعين من ولادة ميار، دخلت علينا المرشدة الاجتماعيّة لانتزاع الأمل الأخير. كان عليها أن تأخذ ميار أيضا وتضعها عند عائلة حاضنة أخرى! كنت غبيّة حين اعتقدت أن تهمة «الأم غير الصّالحة» ستسقط عنّي بالتّقادم! لكن بدا أنّه لا مفرّ من أن تتبع كلّ أولادي تلك اللعنة. «لعنتي». لعنة سمّمت حياتي وانتهت بي إلى فقدان الأمل.

بعد أسبوع من أخذهم لميار، غادر زوجي البيت دون رجعة. طلب الطّلاق دون مقدّمات. لم تعد هناك حياة ممكنة بيننا. المشكلة هي أنّني كنت متمسّكة باسترجاع

جاسر ومن بعده ميار، وهذا يقضي ببقائي في فرنسا حتّى أطالب بحقي فيهما أمام المحاكم الفرنسيّة. وطالما بقيت على الأراضي الفرنسيّة فلن يمكنني أن أنجب أطفالا آخرين وأستبقيهم، إلا إذا امتنعت عن تسجيلهم في ملفّات السّجل المدني!

كانت الطريق مسدودة. زوجي تعب وملّ وزهد فيّ وفي الأولاد. كلّ تلك الرّوحانيات والأواصر المتينة انهارت في ساعة. الساعة التي تلت خروج ميار من البيت.

بعد الطلاق واختفاء زوجي الغامض، تابعت رحلتي وحدي. عرفت فترة من الضياع والتشرّد بعد أن انقطع عنّي مورد رزقي الوحيد: مرتّب زوجي. لم تكن النفقة الضئيلة التي تفضّل عليّ بها من باب الشّفقة لا أكثر —كطليقة بدون أولاد— لتكفي إيجار الشقة الواسعة التي كنا نستأجرها في الماضي. اضطررت إلى تركها بسرعة. بقيت لبضعة أسابيع عند صديقات، كنّ هبة من الله في وقت المحنة تلك. ثمّ بدأت مهمّة البحث عن عمل. كانت الدّعاوى السّابقة لاسترجاع جاسر قد أرهقت ميزانيتنا المتواضعة، وطليقي لم يكن مستعدّا لتشتّت جديد بين المحاكم من أجل ميار. كان قد استسلم قبل المعركة. أمّا أنا فما إن وجدت عملا حتّى اتّصلت بالمحامي من جديد!

تمكّنت من إيجاد وظيفة كمدرّسة في قسم الحضانة التّابع لمدرسة عربيّة في نانت. انتقلت بعدها للعيش في شقة مشتركة مع مدرّستين أخريين. فضلا عن كسب مورد مالي يسمح لي باستئناف القضايا، مكنني العمل من الانغماس في أشياء أخرى تخفّف من حسرتي، وخاصّة الاتّصال اليوميّ بالأطفال. كنت أحتضنهم واحدا واحدا، أمسح على رؤوسهم في حنان وأوزّع عليهم الحلوى، ألاعبهم في شغف وأستمتع برفقتهم التي ملأت فراغي وسدّت ولو جزئيا الثغرة العميقة في فؤاد الأمّ الثكلى في أولادها الثلاثة التي كنتها.

الإجراء الوقائي الذي قمت به آنذاك، كان أن ترجّيت صاحب العمل ألا يسجّلني ضمن الموظّفين الرسميّين لديه. لم أكن آمن أن تدخل عليّ المرشدة في أيّ وقت من الأوقات وتدّعي أنّني خطر على أطفال الآخرين مثلما كنت خطراً على أطفالي! ومع أنّني شرحت أسبابي الحقيقية دون مواربة، فقد وجدت من صاحب العمل تفهّما وتعاونا لا مثيل لهما. أصبحت المدرسة وأهلها عائلة جديدة بالنسبة إليّ. كانوا يعرفون جميعا بمأساتي ويتعاطفون معها، وقد نصحتني إحدى الزّميلات حينها بالتّوجّه إلى جمعيات حقوق الإنسان ومختلف المنظّمات الإنسانيّة، فبدأت رحلة جديدة من المناشدات والمراسلات.. دون جدوى.

في ذلك الوقت، كنت قد أخذت أزور جاسر من جديد. كان قد نسيني تقريبا أو يكاد! لم تعد رؤيتي تثير لديه الكوابيس أو الهواجس. في الحقيقة لم تعد تثير أية عاطفة كانت. كنت أقدّم إليه كصديقة للعائلة ليس ملزما بالجلوس إليها بصفة خاصّة. كنت أراقبه في معظم الأحيان وهو يلعب أو يحلّ دروسه وأتحدّث إلى حاضنته التي تجيب على أسئلتي في اقتضاب وتململ منتظرة انصرافي بفارغ الصبر.

كان ذلك واضحا.. لم أعد أمّه!

زياراتي باتت تعدّ نوعا من التّطفّل على الحياة العائليّة المستقرّة التي ينعم بها ثلاثتهم. أفهموني ذلك بطرق شتّى، بالتلميحات والنّظرات أوّلا، ثمّ بالقبلات الحانية التي يتبادلونها

بينهم دون أن أدعى إلى المشاركة فيها، ثمّ بصريح العبارة أخيرا حين قالت لي السيّدة يوما:

– إنّ الولد يكبر وهو في صحّة جيّدة وكلّ حاجاته ملبّاة، وأنت لم تعودي تعنين شيئا له. فلماذا لا ترحلين؟

بكيت تلك الليلة كثيرا وأنا أكتم شهقاتي عن جارات السّكن. لم تكن قد قالت شيئا جديدا عليّ، كان ذلك واقعا أعيشه، لكنّني رفضت الاعتراف به حتّى ذلك الوقت.

«لم أعد أعني له شيئا».

فكّرت حينها، لو أنّ والده كان أكثر شجاعة وتمسّك به مثلي، ربّما ظلّت صورتنا في ذهنه أكثر تكاملا كزوجين وأبوين، لكنّ وجهي وحده كان مرتبطا بالصّدمة التي يريد نسيانها.. وقد نجح في ذلك.

كانت معركتي الباقية هي ميار. لم تكن مصدومة ولا تحمل عنّي ذكريات سيّئة. لكنّها أيضا لا تحمل عنّي أيّ نوع آخر من الذّكريات! أخذوها من أحضاني في أيامها الأولى. لعلها افتقدت رائحتي التي تشتاق إليها بالغريزة، لكنّها بالتأكيد ستكون قد نسيتها حين طال البعاد.

ميار، كنت حريصة على رؤيتها مرّة في الأسبوع. رغم أنّها تقيم على مسافة ساعة مع عائلتها الجديدة، ورغم ما يكلّفني إياه النّقل من مصاريف، إلاّ أنّني لم أخلّف موعدا واحدا إلا لظروف طاغية. ورغم أنّه لم يكن يسمح لي بلمسها أو حملها بين ذراعيّ، لأنّني «خطر» عليها بالطبع. كنت أكتفي بالجلوس قرب سريرها، أنحني باتجاهها بقدر لا يتجاوز الحدّ المسموح به، وأهمس لها بكلّ الأحاديث التي أريدها أن تحفظها في ذاكرتها، عني وعن أبيها وأخيها، عن بيتنا الصغير الذي لم يعد له وجود، وعن وطننا سوريا الذي أرجو أن آخذها إليه يوما.

حاضنتها كانت واضحة في تعليماتها منذ البداية. قالت:

– لا تطلبي منها أن تناديك ب»ماما» حتّى لا تختلط الأمور عليها. أنت صديقة، تأتين لملاعبتها ثمّ تعود كلّ منكما إلى حياتها. فهمت؟

وكان يجب أن أفهم وأنفّذ. طوال سنوات، كنت غريبة متطفّلة على حياة ولديّ. حاولت العائلة أن تجعلني أرجع إلى حلب بعد أن فقدت الدّعوى إثر الأخرى، لكنّني كنت أرفض بشدّة وأبكي كلّما أثار أحدهم الموضوع. إلى أن جاء سامر إلى فرنسا ليقنعني بالرّجوع معه.

أخذته معي في زيارة للولدين. على طريق العودة قلت له:

– هل هناك أمّ في العالم تتخلّى عن أطفالها بإرادتها؟ وهل تدّخر جهدا لاسترجاعهم ما دام يتردّد في صدرها نفس؟

فبكى، وبكيت. ثمّ سافر إلى سوريا بدوني.

اليأس الجارف دفعني إلى الإقدام على عمل جنوني، في صائفة سنة ٢٠٠١. كانت ميار قد أتمّت سنتها الثالثة، وكان قلبي يحترق من أجلها كلّ يوم. كنت أدرك أنّهم سيطلبون منّي قريبا أن أخفّف الزيارات، لأنها ستدخل المدرسة وتختلط بعالم آخر، فتزداد بعدا عنّي. فقرّرت أنّ الأمر لن يكون كذلك!

في غفلة من حاضنتها التي تركتني لبرهة مع ميار في الشرفة ودخلت إلى المطبخ، أقدمت على الفعل الممنوع.. حملت ميار بين ذراعيّ دون تفكير وركضت باتجاه الباب لا ألوي على شيء. اختطفت ابنتي!

لم أكن أدري أين يمكن أن أذهب أو أخفيها عن الأنظار. ركبت سيّارة أجرة وميار لا تكفّ عن البكاء والتخبّط بشكل يجلب الانتباه، ثمّ توجّهت إلى محطّة القطارات لأشتري تذكرة إلى أيّ مكان.. كنت أفكّر في الابتعاد بها لا غير. لكنّها كانت محاولة يائسة حقّا، لأنّ حاضنة ميار انتبهت إلى غيابها بعد مضي خمس دقائق على مغادرتنا فقط. اتّصلت على الفور بالشرطة وإدارة الإرشاد الاجتماعيّ، فلم يكن من الصّعب عليهم إيقافي على رصيف المحطّة وأنا أهمّ بالرّكوب إلى باريس.

كدت أواجه عقوبة السّجن. لكنّ المحامي أثبت أنّني كنت أمّا مكلومة تعاني من حالة انهيار، فاكتفت المحكمة بالحكم عليّ بالابتعاد الكليّ عن أولادي والتوقّف النهائي عن رؤيتهم وزيارتهم!

لم يعد مسموحا لي بالاقتراب من مكان سكنهم أو دراستهم لمسافة مائة متر! فعرفت انهيارا حقيقيا حينها. كنت على مشارف الجنون، وكدت أغرق في وحل الإدمان بعد أن أصبحت أعيش على الأقراص المنوّمة التي تبقيني هادئة ومسالمة...».

زفرت سكينة في ألم، ولم تكن ياسمين تجد الكلمات المناسبة لتخفّف عنها. لم يكن هناك من كلام قد ينجح في مواساة أمّ حرمت من أطفالها الثلاثة!

- مرّت أربع سنوات مذ حرمت من رؤية ولديّ.. كنت خلالها كالميتة! لكنّني استيقظت من سباتي منذ شهرين.. أتدرين لماذا؟

هزّت ياسمين رأسها في حيرة، فتابعت سكينة وشبح ابتسامة يزيّن ثغرها:

- لقد اكتفيت من البكاء على الأطلال، وصار عليّ أن أنظر إلى المستقبل.. والمستقبل الذي كان بعيدا منذ أربع سنوات، قد غدا قريبا الآن.. خلال شهور، سيبلغ جاسر سنّ الثامنة عشرة! سيصبح راشدًا في نظر القانون، وسيكون بوسعي أن أخاطبه دون أن يمنعني أحد! لقد تقصّيت أخباره، وعلمت أنّه التحق بالجامعة في باريس.. فجئت أجدّ في إثره! سأبحث عنه، وأجده.. وحين يبلغ السنّ القانونية، سأكون في انتظاره!

-٨-

وفت بوعدها وعادت إلى مصر.

لكن بدا أنّ روحها قد فارقتها هناك، في قاعة الرّحيل بمطار باريس «أورلي». عادت وقد فقدت اهتمامها بكلّ الأشياء وكلّ الأشخاص. انقطعت عن السّهرات والحفلات وأيضا عن نادي الفروسية، وعن شهاب.

عاينت عائلتها في حيرة وضعها الجديد. لقد استماتت في المحاولة حتّى حصلت على فرصة السّفر. لكنّها رجعت وكأنّها لم تربح القضيّة! وكأنّها لم تصنع معجزة! وكأنّها لم تقلب الموازين في المحاكمة الأكثر شهرة في فرنسا ذلك العام وربّما منذ حادثة تولوز سنة ٢٠٠١(1). لم يعد لديها هدف تحارب من أجله. لم تعد الحياة تعني لها شيئا.

لكنّ شهاب أدهشها بإصراره. معرفتهما السّطحيّة العابرة لم تعن لها شيئا، لكنّها مثّلت أكثر من ذلك بالنسبة إليه. بعد محاولات واتصالات كثيرة فاشلة، ترك لها رسالة صدمتها.

«أنا أعرف كلّ شيء!».

اتّصلت به على الفور وهي تقول في عداء لا مبرّر له:

– ما الذي تعرفه بالضبط؟

قال ببساطة:

– هناك شخص ما يهمّك أمره في باريس.. لكنّ أمرا ما حصل. قد يكون تركك، وقد تكون عائلتك غير راضية عنه.. لكن كل ذلك لا يهمّ. لقد عدتِ الآن، وحياة أخرى جديدة تنتظرك هنا. وأنا أريد أن أساعدك على النسيان وتجاوز هذه التجربة!

ألجمتها المفاجأة. لأوّل مرّة كانت تشعر بأنّ دواخلها مكشوفة. بل أكثر من ذلك، كان بإمكانها أن تثق بذلك الشّخص وتصارحه بما يعتمل داخلها.. كصديق قبل كلّ شيء.

– نادي الفروسيّة إذن؟

تنهّدت في ضيق. لقد ملّت كلّ شيء، ولم يعد هناك ما يسترعي انتباهها.

– لم تعد بي رغبة في ارتياد الأماكن الاعتياديّة.. أريد أن أفعل شيئا مجنونا! أريد إثارة غير مسبوقة! هل تفهمني؟

– أفهمك تماما.. ترقّبي اتّصالي!

كانت تشعر بالفضول. ما الذي قد يفاجئها به شهاب؟

اتّصل بها بعد يومين، فرافقته إلى الجيزة. على مقربة من الأهرامات الأسطوريّة، انطلقت بهما طائرة صغيرة خاصّة حتّى حلّقت فوق المنطقة الأثريّة الفرعونيّة. حدّقت رنيم في الفضاء الشّاسع تحتها، عبر بوّابة الطائرة المشرعة، وهتفت ليصله صوتها رغم هدير المحرّك المرتفع:

– هذا جنون!

ضحك شهاب وهو يهتف بدوره:

– أليس هذا ما أردته؟ إليك بعض الإثارة يا عزيزتي!

– لم أكن أفكّر في هذا!

كانت تنزل بالمظلّة للمرّة الأولى في حياتها. لقد كانت مجنونة حقّا لتجاري شهاب! أخذت نفسا عميقا، والهواء الجارف يطيّر شعرها ويهزّ توازنها.

– أنت جاهزة؟ سنقفز!

– لا أستطيع!

– بلى تستطيعين، تمسّكي بي. لن تكوني بمفردك!

رنت إلى عينيه الواثقتين. كان عليها أن تسلّمه أمرها، رغم ارتجافها. أومأت في توتّر، وتركت كفّها بين أصابعه تقبض عليها بقوّة.. ثمّ، كانت تحلّق! كانت لحظة ساحرة. وجهها إلى الأرض، تبصر أهرامات الجيزة العملاقة، وقوافل السيّاح تتهادى على ظهور الجمال تخترق الصّحراء الغامضة، والقاهرة ومعمارها الكثيف في الأفق البعيد.

نظرت في اتّجاه شهاب، فألفته يبتسم مشجعا. رغم أنّها معلّقة بين السّماء والأرض، وتندفع نحو القاع بسرعة هائلة، فإنّها كانت تشعر بالارتياح بشكل غريب. كانت تطمئنّ إلى شهاب. أيقنت بأنّها قد غدت تثق به. ربّما أكثر من أيّ شخص آخر في محيطها.

– انتبهي، سنهبط!

شدّ المقبض المتّصل بحقيبة ظهره، ففعلت مثله، لتنفتح المظلّتان فوقهما دفعة واحدة، ويتباطأ النّزول فجأة. أخذ جسدها يتأرجح برفق وهي تقترب من المساحة الرّملية القفرة التي اختاراها للهبوط، ثمّ ما لبثت قدماها أن لامستا الرّمال السّاخنة، وتدحرجت في فوضى، حتّى استقرّت ساكنة وقد لفّتها المظلّة بشكل لولبيّ، وهي تقهقه في جنون.

هرول شهاب إليها ما إن استعاد توازنه وهتف في قلق:

– أنت بخير؟

– أنت مجنون! وأنا أحبّ هذا!

ثمّ استغرقت في الضّحك مجدّدا.

***

بفضل شهاب، استعادت توازنها سريعا.

كانت قد علمت عن طريق جورج برحيل عمر إلى المغرب. أيقنت حينها أنّ عودتها إلى باريس لن تغيّر شيئا. لقد فقدته إلى الأبد، دون أن تودّعه حتّى. عزاؤها الوحيد هو أنّها منحته حريّته كما وعدت. وهكذا بدأت تعوّد نفسها على فكرة البداية الجديدة، ورغم صعوبة الأمر اتخذت قرارًا صارمًا بنسيان عمر وكلّ ما يتّصل به.

امتنعت عن الرّدّ عن ممثلي القنوات الفضائية والصّحافة الدّوليّة الذين طاردوها للحصول على حوار حصريّ بخصوص دورها في القضيّة. ويبدو أنّ عمر اعتمد سياسة التّعتيم ذاتها، فلم تظهر تصريحاته في وسائل الإعلام. لكنّها علمت عن طريق جورج أنّه نجح في الحصول على تعويض من الدّولة الفرنسيّة عمّا طاله من أذى نفسيّ وجسديّ. فاطمأنّت إلى أنّه لن يحتاج إليها بعد ذلك.

بدأت مرحلة جديدة من حياتها، بخطى متعثّرة. لم تجد صعوبة في الحصول على وظيفة في مكتب محاماة معروف في القاهرة، فساعدها العمل على تجاوز أزمتها النّفسيّة. وكان شهاب متواجدا ومتفهّما بشكل محرج، لكن دون ضغط أو مضايقة. كانت تدرك أنانيّتها في تلك العلاقة. كانت تتلقّى عنايته واهتمامه، لكنها غير قادرة على العطاء بدورها!

رنيم التي تعوّدت أن تكون الطرف المضحّي والمعطاء، وجدت نفسها شحيحة فجأة أمام سخاء شهاب! لم يكن هناك إلا تفسير واحد.. لم تكن مشاعرها تجاهه بالقوّة الكافية.

في ذلك الوقت، كانت العودة إلى باريس قد غدت طيّ النسيان. لم تكن تجرؤ على التفكير فيها حتّى في خلواتها. في الحقيقة، لم يعد هناك حافز. لكنّ شهاب استمرّ يفاجئها. قال ذات يوم، بينما كانا يتمشّيان على ضفاف النّيل، ويقضمان أكواز الذرة:

– هل تشعرين بأنّك مراقبة؟

هتفت في ضيق:

– طول الوقت! أترى ذلك الرّجل الذي يرتدي نظارات سوداء؟ إنّه وراءنا منذ شارعين على الأقل!

همس وهو يطالع الرّجل بنظرة خاطفة:

– أنت جادّة؟

– وأكثر! أشعر باستمرار بأنّ هناك عينين خفيّتين تتابعان أدنى حركة أبديها.. لن أفاجأ إذا عرفت أنّ أبي وضع مراقبا لي!

– وما رأيك في من ينقذك من كلّ هذا؟

ضحكت في مرارة وقالت تجاريه:

– سيكون بطلي بلا شكّ!

تنحنح متظاهرا بالتّفكير ثمّ قال:

– هذا لقب جدير بالمحاولة! إذن إليك الأمر.. وصلني منذ أيّام عرض لزمالة في مستشفى أوروبيّة.. وقد أضطرّ إلى السّفر...

قالت في شرود، وعيناها تتعلّقان بصفحة الماء والسّفن السياحيّة:

– آه.. هل ستغيب كثيرا؟

– عشرة أشهر.

– إنّها مدّة طويلة!

– نعم إنّها كذلك.. ما رأيك إذن؟

– لا شكّ أنّها فرصة جيّدة.. لمستقبلك المهنيّ. أليست كذلك؟

– إنّها كذلك بالفعل.. إذن؟

ضحكت في حرج وقالت:

– ماذا الآن؟ هل تطلب إذني للسّفر؟

– ليس تماما.. أسألك إن أردت مرافقتي!

التهبت وجنتاها فجأة وقالت بتلعثم:

– ماذا تعني؟

– ليس بالشّكل الذي فهمته!

ضحك ثمّ أردف في استمتاع:

– لم تسأليني، أين تكون الوظيفة؟

– أين قد تكون؟

– في باريس!

التفتت إليه في تحفّز واهتمام، ثمّ ما لبثت حماستها أن فترت، وردّت في برود:

– لِمَ لا؟!

لم تعد باريس بنفس الجاذبيّة في عينيها. لقد فقدت كلّ رونقها، حين تنازلت عن ماضيها هناك، بكلّ زخمه وآلامه. عقد شهاب حاجبيه في شكّ. هل زهدت رنيم باريس حقّا؟ هل يعني ذلك أنّ ما من شبح علاقة ينتظرها هناك؟ لكنّه كان يدرك في قرارة نفسه أنّها لن تتخلّص من عقدة الماضي إلا بمواجهته.. ولن تستعيد حرّيّتها حقيقة إلا حين تطلق سراح عقلها من سجن الذّكريات.

- ماذا قلتِ إذن.. هل تأتين؟ نتخلّص من الرّقابة لبعض الوقت؟

- هل تعني...؟

أومأ برأسه علامة الإيجاب، ثمّ أخرج من جيبه علبة مخمليّة حمراء، فهتفت رنيم في ذعر:

- لا، أنت لا تعني هذا! قل لي أن العلبة فارغة.. أو فيها أيّ شيء، عدا ما يفترض به أن يكون!

أشار إليها بهدوء:

- على رسلك.. لا تنسي بأنّك مراقبة! ردّة الفعل العصبيّة هذه لا تناسب الموقف!

ضحكت رغما عنها، بينما واصل شهاب:

- هذا الخاتم ليس قيدا.. إنّه طوق نجاة! نتظاهر بالارتباط، ونسافر إلى باريس.. عشرة أشهر، فترة حرية تستحق التّضحية، أليست كذلك؟

كانت تقلّب الفكرة في رأسها في حيرة. لكنّها لم تجد بدّا من الهتاف:

- أنت مجنون! لا أدري لماذا تفعل هذا؟

فتح شهاب العلبة وابتسامة مغرية تزيّن شفتيه. اتّسعت عينا رنيم ذهولا وإعجابا. كان خاتما ماسيّا ذا حجر كريم بحجم حبّة البازلاء! كان مدهشا وبريقه الأصليّ لا يقاوم. دون أن تشعر، أمسكت بالعلبة وهي تقول:

- شهاب، هذا الخاتم يساوي ثروة!

- إنّه كذلك!

رفعت عينيها إلى وجهه وهي تردف:

- سأقول شيئا، وحاول ألا تأوّله بشكل خاطئ.. أيّ امرأة عاديّة كانت لتشعر بأنّها أميرة إلى جوارك.. محظوظة هي التي ستحظى بودّك!

ابتسم في فتور، ثمّ قال:

- أيّ امرأة.. باستثناء رنيم شاكر، تقصدين؟

- قلت امرأة عاديّة.. وأنا لست عاديّة!

- يا لغرورك يا عزيزتي!

انفجرت ضاحكة، ثم قالت في مرارة:

- لقد فهمتني خطأً.. قصدت أيّ امرأة طبيعيّة، سليمة التّفكير صحيحة العقل.. لكنّني امرأة معقّدة! هذا كلّ ما في الأمر.

- ستشفين.. أعدك بذلك!

تنهّدت، ثمّ حاولت أن تستعيد ابتسامتها:

- دعك منّي الآن، المهم هو أنّ هذا الخاتم آسر حقا! هل يمكنني أن أجربّه؟

ترك العلبة بين يديها بابتسامة جذلى:

- إنّه لك، على أيّة حال!

- يمكنني أن أستعيره لفترة؟

قالت وهي تضع الخاتم في بنصر يمناها وترفع كفّها ليتألّق بريقه تحت شعاع الشّمس.

- هل يعني هذا أنّك قبلت العرض؟

– نعم، قبلت.. أقول نعم!

ثمّ أضافت:

– لن تكون هناك خطبة رسميّة، أليس كذلك؟

– يمكننا أن ندّعي ضيق الوقت، على أن نحتفل بعد فترة البعثة.

– ترتيب جيّد. شهاب صادق، أهنّئك! لقد فكّرت في كلّ التفاصيل بشكل مدهش.

سارت أمامه وهي تتأمّل الخاتم مأخوذة، وتفكّر في رحلتها المرتقبة إلى باريس.

بينما سيطرت فكرة واحدة على عقل شهاب. أمامه عشرة أشهر، ليجعلها تغيّر رأيها، وتحتفظ بخاتمه إلى الأبد!

(1) حادث صناعي كان يعتقد بكونه هجوما إرهابيا، قبل أن تثبت التحقيقات غير ذلك.

-٩-

طرقت الباب بشكل موقّع، وانتظرت وعيناها تتّقدان حماسة. وما إن فتحت دفّة الباب، حتّى قفزت وهي تهتف:

– مفاجأة!

لكنّها تسمّرت مكانها حين لمحت الوجه الغريب الذي استقبلها. قالت في حرج:

– أليست هذه شقّة ياسمين؟

ابتسمت سكينة وهي تقول:

– نعم، إنّها كذلك.. لكنّ ياسمين ليست هنا!

شعرت رنيم بالحرج. لقد رفضت عرض شهاب بمرافقته إلى الفندق، وهرولت من المطار مباشرة إلى الشقّة.. لتقف ذلك الموقف المروّع بحقائبها الثّقيلة أمام سيّدة غريبة تطالعها في فضول.

– تفضّلي، ياسمين لن تتأخر.

– هل يمكنك الاتّصال بها؟ لقد وصلت إلى البلاد للتوّ، وليس بحوزتي خطّ هاتف بعد!

– بالتّأكيد سأفعل.. هل أساعدك في إدخال الحقائب؟

أفسحت لها سكينة المجال لتسحب أغراضها واحدا إثر الآخر وترصفها في مدخل الشقة. رفعت رنيم عينيها لتجوبا في أنحاء الصّالة التي تركتها منذ سنتين. كانت هناك لمسات غريبة في كلّ مكان. ليست لمسات ياسمين بكلّ تأكيد.. إطارات ملوّنة تزيّن الجدران ومفارش «كروشيه» مبسوطة على المناضد ومساند المقاعد.. ونباتات زينة!

عادت لتراقب السيّدة التي تروح وتجيء في المطبخ والهاتف عند أذنها. هل هي شريكة سكن جديدة؟ يا للهول! أنت تحرجين نفسك يا رنيم! ياسمين تخطّتك، لقد استبدلتك! وأنت تحسبين أنّ رؤيتك ستشكّل فرقا بالنّسبة إليها! جلست على الأريكة وهي تستشعر الضّيق يتنامى في صدرها.

- ياسمين في الطّريق، ستكون هنا خلال دقائق.

أومأت برأسها شاكرة. ربّما عليها أن تنصرف؟

- هل تشربين الشّاي؟

- شكرا.. لا تتعبي نفسك!

- ما من تعب يا عزيزتي.. لقد جهّزته بالفعل، فلم لا تشاركينني هذا القدح؟

عادت وهي تحمل صينيّة عليها أكواب الشاي وقطع كعك. ابتسمت رنيم رغما عنها. لقد وجدت ياسمين القرينة المناسبة لها! استرجعت بحنين جارف لحظاتهما الحميميّة في تلك الشقة. لم تكن أيّ من أمسياتهما تخلو من شاي ياسمين وكعكها.

- رنيم، لا أصدّق! هذه أنت!

دلفت ياسمين عبر الباب، وهرولت إليها تعانقها. بين أحضانها، شعرت رنيم بأنّ غربتها تلاشت، وأنها قد وصلت إلى أرض الوطن! لقد تغيّرت أشياء كثيرة في غيابها، لكن ياسمين هي هي. وأحيانا يُختزل الوطن في حضن دافئ وقلب صادق.

- لماذا لم تخبريني بمجيئك؟

- اسمها مفاجأة يا عزيزتي!

- وهذه مفاجأة رائعة ومدهشة! هل تعودين للاستقرار في باريس؟

- ربّما أفعل.. سأكون هنا لمدّة عام على الأقل.

- هذا مدهش.. لا أستوعب أنّك عدت حقيقة!

عانقتها من جديد، ثمّ جلستا جنبا إلى جنب على الأريكة، بينما غابت سكينة داخل الغرفة. أشارت رنيم برأسها وهمست:

- شريكة سكنك الجديدة؟

- نعم، سكينة تشاركني الشقة منذ سنة ونصف!

أطرقت رنيم في حرج:

- كان غباءً منّي أن أتوقع أن تظلّ الغرفة في انتظاري.

- أنت تعلمين، الإيجار مرهق لميزانيتي.. لست محامية مشهورة، بل مجرّد طالبة دكتوراه!

ثمّ ما لبثت أن شهقت بصوت عالٍ وعيناها تقعان على كفّ رنيم التي يزيّنها خاتم ماسّي مذهل. هتفت غير مصدّقة:

- لقد فعلتها! لا أصدّق، رنيم شاكر.. لقد خُطبت دون علمي! هذه خيانة!

ضحكت رنيم وهي تقول في لا مبالاة:

- ليس بالأمر الجادّ.. إنّه.. مجرّد هديّة!

- هل جننت؟ خاتم مثل هذا؟ أيّ رجل يقدّم لامرأة خاتم «سوليتير» مذهل، إن لم تكن نواياه تجاهها جليّة؟!

هزّت رنيم كتفيها استهانة وقالت:

- ربّما هو كذلك.. لكنّني لا أشعر بشيء بعد.

- ماذا تعنين؟

تنهّدت رنيم وأخذت تشرح:

– ياسمين، أنت تعرفينني جيّدا.. حين أتورّط في علاقة، فإنّني أفعل كلّ شيء.. أقدّم كلّ شيء.. أضحّي بكلّ شيء! لكن مع شهاب، لا أشعر بأنّني قد أفعل هذا. رفقته ممتعة وشخصيّته جذّابة، وهو يفعل الكثير من أجلي. لكن.. في داخلي، لا أجد صدى لمشاعره!

ابتسمت ياسمين وهي تربّت على كفّها:

– ذلك لأنّك تعيشين علاقة طبيعيّة، أخيرا! علاقة لا تقوم على التّضحيات، لا تشعرين فيها بالخطر باستمرار، ليست سلامتك أو سلامته على المحكّ، ليست هناك مسألة حياة أو موت! هل تدرين؟ هذه هي العلاقة الصحيّة المثاليّة! هذا الرّجل يعاملك كأميرة.. وعليك أن تقدّري ذلك، وتسعدي به.. لا أن تسعي وراء إثارة موهومة، لأنّ الحياة العائليّة النّاجحة تحتاج استقرارا ورتابة!

حدّقت رنيم فيها بعمق ثم همست:

– هل هذا ما تشعرين به مع هيثم؟ هل يعاملك كأميرة؟ ولذلك قبلت الزّواج به؟

ارتبكت ياسمين وتورّدت وجنتاها.

– نوعًا ما.. نعم، إنّه يهتمّ لأمري. لكن ليس ذلك كلّ شيء.. إنّه رجل مناسب من كلّ جانب.. هناك تكافؤ بيننا، وارتياح متبادل...

هتفت رنيم غير مصدّقة:

– ارتياح؟ آه يا عزيزتي، خلال ثلاث سنوات لم تتجاوزا خانة الارتياح؟ أنت ميؤوس منك!

ضحكت ياسمين ثمّ قالت:

– المشاعر تأتي بعد الزّواج يا عزيزتي، فلا داعي لاستعجالها قبل الأوان!

مطّت رنيم شفتيها في غير اقتناع. إنّها تحبّ ياسمين، لكنّها تدرك مدى التّباعد بين أسلوبيهما وطرق تفكيرهما!

أردفت ياسمين مغيّرة الموضوع:

– دعك منّي، لقد تورّطت وانتهى الأمر! الزّفاف خلال أشهر قليلة. والآن، أخبريني كلّ شيء عن شهاب هذا.

فوجئت بسكينة وقد خرجت من غرفتها وهي تسحب حقيبة صغيرة. وقفت على الفور لتسدّ طريقها وهتفت في استغراب:

– إلى أين، في مثل هذا الوقت؟

قالت سكينة بابتسامة حانية:

– لقد فهمت أنّ هذه رنيم، شريكتك السّابقة في السّكن.. لا شكّ أنّ بينكما أحاديث كثيرة وتحتاجان إلى الخصوصيّة. سأترككما على راحتكما إذن، بإمكاني قضاء الليلة عند بعض الأصدقاء.

هتفت ياسمين بلهجة قاطعة:

– لن يحدث هذا.. هذه شقّتك كما هي شقّتي، لن تغادري هكذا. رنيم ستشاركني الغرفة الليلة، ريثما نجد تدبيرا مناسبا.

وقفت رنيم في حرج:

– بإمكاني الذّهاب إلى الفندق، إن كان وجودي يسبّب لكما الضّيق.

نهرتها ياسمين في صرامة:
- لن يغادر أحد.. هل سمعتما؟ سنتدبّر أمرنا في الفترة المقبلة.. يمكن أن نتعايش ثلاثتنا.. ثمّ، بعد أشهر سأكون أنا المغادرة على أيّة حال.. ويمكن لرنيم أن تأخذ غرفتي.
سكتت رنيم في انزعاج. لم يكن ضمن خطّتها أن تشارك شقّتها مع سيّدة غريبة. لكنّها مضطرّة إلى التّنازل الآن. قالت بابتسامة مجاملة:
- يمكنني النّوم على الأريكة.. إنّها مريحة كفاية.
نهرتها ياسمين:
- لن ينام أحد على الأريكة! سأشتري مرتبة أضعها على الأرض في الغرفة.. وستأخذين أنت السّرير. هل اتّفقنا؟
أومأت رنيم في استسلام.
لم تكن تتوقّع أن تكون في علاقة ثلاثيّة من جديد فور عودتها إلى باريس.. وهذه المرّة، تنافسها امرأة على صداقة ياسمين!

-١٠-

أدار عمر المفتاح في القفل ودفع الدّفة ثمّ أفسح لهيثم المجال وابتسامة واسعة تزيّن محيّاه.
- بسم الله.. ما شاء الله!
أجال هيثم نظراته في أنحاء البهو الواسع الذي استقبله حال ولوجه الشقة في استحسان وإعجاب ظاهرين. تقدّم بضع خطوات وهو يمرّر كفّه على الصناديق الكرتونية الكثيرة التي ملأت المساحة متكدّسة بعضها فوق بعض.
- يبدو أنّك لم تضيّع الوقت!
كان الحماس يفيض من قسمات عمر الذي سبقه إلى الدّاخل وهو يشير إلى قطع الأثاث التي لم يتمّ تركيبها بعد والأجهزة الكهربائية التي كانت قد أخرجت من علبها للمعاينة.
- لم أعد أستطيع الانتظار. لقد توقّفت حياتي لوقت طويل، والآن أريد أن أستأنف العمل على الفور! سيأتي العمّال بعد ساعتين لتركيب الأثاث ووضع التّجهيزات في مكانها.. وحالما تصلنا الموادّ الأوليّة وتجهز التّصاريح اللّازمة من الجهات المختصّة سنتمكّن من بدء العمل.
- ممتاز!
بعد سنوات من الرّكود والقعود، كانت عزيمة عمر في أوج تألّقها. في أيّام قليلة، خطّط ورتّب لأكبر مشروع يباشره في حياته. مختبره الخاصّ. بالأمس كان مجرّد فكرة عارية عن الواقعيّة. مرّة أخرى، يلمس بالدّليل الواضح أنّ الإرادة حين تقترن بالموارد الماديّة الكافية، لا يمكن أن تقف أمامها أيّة عقبة.

حانت من هيثم التفاتة إلى الغرفة الدّاخليّة التي كان بابها مواربا. من خلال الفتحة، لمح مرتبة لشخص واحد وضعت على الأرض ولحافا مكوّما في فوضى فوقها. سأل عمر في فضول:

– هل تركت الفندق؟

ضحك عمر في استمتاع وقد أدرك ما يعنيه وقال:

– لم أعد أستطيع الصبر! أنام في الليل وأنا أحلم بالمختبر وأستيقظ صباحا لألقي نظرة على أدواتي الحبيبة التي أهملتها لوقت طويل. لذلك انتقلت إلى هنا. ما رأيك في شقة العزوبيّة الجديدة؟

– أنت لا تتعلّم الدّرس، أليس كذلك؟

كان القلق باديا على ملامح هيثم وهو يحدج مخاطبه بنظرة جادّة. ابتسم عمر في تفهّم وقال في هدوء:

– تقصد الحادث؟ لا تخف، لن أقيم هنا بصورة دائمة.. فقط في الفترة الأولى حتى أرتّب أموري.

ثم تحرّك ليسبقه إلى الدّاخل. أزاح الستائر وفتح النافذة ليجدّد هواء الغرفة، في حين انحنى هيثم على مجموعة الكتب التي صفّت في عناية قرب ركن النّوم المرتجل في مكتب رئيس المختبر المستقبليّ.

– ماذا تقرأ؟

– كتاب عن التّعافي.. أعيد قراءته للمرّة العشرين ربّما. أشعر بالارتياح كلّما قلّبت صفحاته!

هزّ هيثم رأسه وأخذ يتصفّح الكتاب في اهتمام. فجأة، توقّفت حركته وتسمّرت نظراته على الصّفحة المفتوحة أمامه في شكّ. بهدوء، تناول القصاصة المطويّة التي يستعملها عمر كفاصلة كتاب تحدّد الصّفحة التي توقّفت عندها قراءته. ترك الكتاب جانبا وفتح الورقة حتّى فردها تماما. لم يخطئ حدسه. رفع رأسه باتجاه عمر الذي كان منهمكا في ترتيب بعض الأوراق التي نثرها النسيم المتسلل من النافذة على الأرض، وهتف في ذهول:

– عمر، ماذا يفعل الصّك البنكي الذي سلّمتك إياه منذ سنتين هنا؟

رفع عمر رأسه ليلقي نظرة عابرة على الصّك بين يدي هيثم وقال في خجل:

– أعلم أنكم تكبّدتم عناءً من أجلي، لكنّني.. لم أتعوّد قبول الصّدقة! والحقيقة أنني كنت أفكّر من زمن في كيفيّة إعادة الصكّ إلى أصحابه.

استمع إليه هيثم في صمت ثمّ هزّ رأسه في تفهّم. على كلّ حال لم يعد الآن في حاجة إلى المبلغ، فقد حصل على حقّه في المحكمة. قال دون تفكير:

– هاته إذن.. سأعيده إلى رنيم.

توقّفت يدا عمر عن الحركة والتفت إلى هيثم في استغراب عند ذكر ذلك الاسم غير المتوقع.

– ما علاقة رنيم بالأمر؟

لم يقدر هيثم على الإنكار بعد أن زلّ لسانه.

– لقد كانت فكرة رنيم.. قبل رحيلها. لم تكن تعلم أنك قد تحصل على تعويض كافٍ، فبادرت إلى جمع التبرّعات. أظنّ أنّها ستعرف كيف تعيد المبالغ إلى أصحابها.

أنصت عمر باهتمام، ثمّ ابتسم وقال:

– بل دعه معي.. سأعيده إليها بنفسي. أظنّني لم أشكرها بشكل لائق عن كلّ ما فعلته من أجلي.

***

حين غادرا الشقة كان الوقت عصرًا. عرّجا على الجامع القريب، للصّلاة. كان عمر قد اختار ضاحية «إفْرِي» الجنوبيّة لإقامة مختبره لبعدها عن زحام العاصمة، بالإضافة إلى موقعها قرب مدرسة للمهندسين، وجامع كبير.

تصافحا عند باب المسجد ثم افترقا. كان عمر يهمّ بالعودة إلى شقّته، حين اقترب منه أحد المصلّين وحيّاه بابتسامة. كان يلمح بعض الوجوه المعتادة، كلّما ارتاد الجامع في الأسابيع الأخيرة. يبادلهم التحيّة ولا يسترسل في الحديث. أومأ برأسه مثل العادة، لكنّ الرّجل كان قد قرّر غير ذلك. وقف يسدّ سبيله وقال بحفاوة:

– لقد عرفتك منذ رأيتك قبل أيّام! لكنّني تردّدت.. أنت الرّجل الذي تعرّض لمحاكمة منذ سنتين، أليس كذلك؟

ابتسم عمر في حرج. صافحه دون حرارة، وهمّ بالانسحاب. لم يكن يشعر بالارتياح لتلك الشّهرة غير المرغوبة التي تزجّ به في مواقف غير متوقّعة مع الغرباء. لكنّ الرّجل تمسّك بكفّه وهو يقول:

– معرفة الرّجال أمثالك شرف عظيم والله! أنت مدعوّ على الشاي عندي، تفضّل معي، أرجوك!

حاول عمر الإفلات، لكنّ الرّجل أقسم بأغلظ الأيمان، وجرّه خلفه جرّا إلى بيته القريب.

دلف عمر في حرج إلى الشقة الواقعة في الطابق الأول. كان البناء محاذيا للجامع، على مبعدة شارعين وحسب. وكان المنزل بسيطا ودافئا، مثل بيوت البلد. شعر عمر بالألفة على الفور، وهو يتّخذ مجلسه على المقاعد الواطئة المرصّفة على السّجّاد الصّوف. اختفى الرّجل لثوانٍ وجيزة، ثم أقبل متهلّل الأسارير، ولسانه لا يفتر عن ترديد عبارات التّرحاب والاحتفاء.

– هل أنت متزوّج يا بنيّ؟

تمتم عمر في حرج:

– لا يا عمّ.

– وهل لديك عائلة هنا؟

– لا والله، لقد انتقلت إلى الحيّ منذ وقت قصير، وأنا أقيم بمفردي.

– كان الله في عونك يا ولدي! اعتبرنا أهلك منذ اليوم. مهما كان ما تحتاجه، لا تتردّد في طرق هذا الباب، فستجد أصحابه تحت أمرك!

– جزاكم الله خيرا.

أطرق عمر في تأثّر، بينما تابع الرّجل:

– مخاطبك محمّد الغزيّ.. من فلسطين.

أشرقت ملامح عمر وهو يردّد في سرور:

– ونعم النّاس أهلنا في فلسطين!

تعالت طرقات خافتة على باب الغرفة، ثمّ دلفت فتاة شابّة تضع عباءة واسعة وخمارا. ألقت التحيّة بنبرة خافتة، ثمّ وضعت طبق الشاي على المنضدة القريبة.

– سلمت يداك يا ابنتي.

لم ينطق عمر بكلمة حتّى انصرفت الفتاة، ولم يرفع عينيه عن السّجاد أمامه حياء.

– ابنتي الوحيدة، آية.. لديها ماجستير في اللغة الإنجليزية!

– ما شاء الله.. بارك الله لك فيها.

– لقد ربّيتها مثلما نربّي بناتنا في البلد، على الحشمة والرّزانة.. في بلاد لا تعرف الله، إنّها لمهمّة شاقّة والله!

– أي والله!

– حتّى لو أجبرتنا الظّروف على ترك أوطاننا، فإنّنا لا نتنازل عن مبادئنا.. البنت دخلت الجامعة، لأنّني لا أرضى لها بالدّونيّة في زمن يقدّس العلم.. لكنّها اختارت البقاء في البيت بعد ذلك، فنحن لا نرضى لبناتنا التعرّض للفتن والاختلاط بالأجانب دون حاجة...

أومأ عمر دون أن يعلّق، وقد بدأ إحساس بالضّيق يساوره، بينما استمرّ الرّجل يعدّد مميّزات ابنته ومناقبها وما بذله في تربيتها وتعليمها.

تمتم عمر معتذرا:

– أستأذن منك يا عمّ محمّد.. وبارك الله فيك على الضّيافة. لكنّني على موعد مع عمّال التّركيب، سيكونون في الشقّة قريبا، ويجب أن أكون في استقبالهم.

– طبعا، بالتّأكيد.

وقف الرّجل ليرافقه حتّى المدخل، ثمّ قال وهو يصافحه:

– في المرّة القادمة، أودّ أن نتحدّث عن مشروعك البحثي.. لقد سمعت الكثير من الصّحافة، لكنّني مهتمّ بالاستماع إلى الفكرة منك مباشرة.

رفع عمر حاجبيه دهشة. لم يكن يتوقّع اهتماما علميّا من الرّجل. ضحك العمّ محمّد أمام نظرته الدّهشة وقال:

– أنا مهندس كهرباء يا ولدي.. لكنّ سنوات العمل في الصّيانة وتركيب التّجهيزات أبعدتني عن الجزء الإبداعيّ في الهندسة.. أشتاق إلى حديث علميّ يجمعنا.

ظهر الاهتمام في عيني عمر وهو يقول بحرارة:

– حتما، يسعدني أن نتحدّث بالأمر في وقت قريب.

***

رغم غيابها الطّويل، استقبلها جورج بحفاوة وترحاب. زارت المكتب ذلك الصّباح، محاولة ألا ترفع سقف توقّعاتها. تظاهرت باللّا مبالاة حين بادرها مستفسرا:

– هل قرّرت بشأن العمل؟

– لقد وصلت منذ أسبوعين، لم أرتّب أموري بعد. أحاول الاستمتاع بباريس دون ضغوطات!

– أنت تعلمين أن مكانك محفوظ بيننا.. إذا شئت العودة، الباب مفتوح لك في كلّ وقت!

لمحت علامات الامتعاض على ملامح شريكته فيفيان. لم تحبّها المرأة أبدا. لكنّها كانت في حاجة إلى العمل الآن. إن واصلت على ذلك النّسق المنفلت، فستبدّد مدّخراتها القليلة في وقت قياسيّ. رسمت على وجهها ابتسامة لبقة وهي تقول:

– أنا ممتنة لك جدّا يا جورج.. متى يمكنني العودة إلى العمل؟

– الآن إذا أردت!

ضحكت ثم أضافت:

– أنت عمليّ جدّا.. هل لديك قضيّة من أجلي؟

– لقد حزرت يا عزيزتي. هناك قضيّة مناسبة لك تماما، تحدّ من النّوع الذي تحبّينه! هل نواصل الحديث في مكتبك؟

ابتسمت وهي تلقي نظرة عابرة على وجهه فيفيان المتمقع، ثمّ حيّتها بإيماءة وهي تتبع جورج إلى مكتبها القديم. سرعان ما انهمكت في مطالعة تفاصيل القضيّة ومعاينة الأدلّة والوثائق، ثمّ اتّصلت بمكتب المدّعي العام لتطلب موعدا للقاء موكّلها. رمقها جورج بنظرة رضا، ثمّ انسحب وقد اطمأنّ إلى استجابتها الفوريّة لمحفّزات العمل.

خلال أسبوع واحد، كانت قد انغمست في نشاطها وكأنّها لم ترحل قطّ. استعادت عاداتها القديمة بلا أدنى صعوبة، كان ذلك مكانها الطبيعيّ الذي تجد فيه راحتها.

كانت تهمّ بمغادرة المكتب ذلك المساء بعد يوم مضنٍ من الأشغال التي لا تتوقّف، حين ارتفع رنين الهاتف. تردّدت للحظات، ثمّ عادت أدراجها ووضعت حقيبة يدها على المقعد وهي ترفع السماعة:

– مرحبا.

– أستاذة رنيم؟ أخيرا تمكنت من الاتّصال بك!

– معذرة، من المتحدّث؟

– ماتيلد دوبري، يا عزيزتي! هل أخبروك باتصالي؟

زوت رنيم ما بين حاجبيها وقد تعرّفت على صوت الشقراء المبحوح. نعم، أخبرها جورج باتّصالاتها الكثيرة والمتكررة التي أمطرت بها المكتب لفترة طويلة. ظنّت الأمر قد انتهى وأصبحت قصّتها ضمن الماضي. لكن يبدو أنّ مقدّمة برامج تلفزيون الواقع لم تكن قد يئست أو نسيت. قالت ماتيلد قاطعة الصمت:

– لديّ عرض رائع لك أستاذة رنيم، سيغيّر خطتك المهنيّة بمائة وثمانين درجة!

قالت رنيم في حزم:

– شكرا لعروضك، لكنني راضية بخطتي الحالية، والتي تقتضي عدم التّواصل مع وسائل الإعلام والحفاظ على سريّة القضايا التي أعمل عليها.

– ربّما تدركين أنني أريد منك لقاءً حصريّا بخصوص القضية الشهيرة التي لم تحظ إلى حدّ الآن بتغطية إعلامية لائقة، بعد مرور سنتين.. لكنّني أعرض عليك وظيفة أيضا، تدرّ الذّهب!

– أرجوك سيدتي، لن يكون هناك لا لقاء ولا وظيفة. والآن اعذريني، فعليّ المغادرة.

لم تنتظر تعليقا من مخاطبتها، بل أنهت المكالمة وهي تطلق زفيرا منهكا. لم يكن عليها أن تردّ. لطالما كانت المكالمات المتأخرة مصدر متاعب.

لقد عادت إلى باريس للتوّ، وهذا الطلب بتقديم حوار صحفي عن قضيّة عمر لم يأت في الوقت المناسب. في الحقيقة، لم يكن هناك وقت مناسب مطلقا لمثل هذا الأمر. تشك بأنّها سترفض ولو بعد عشر سنوات. لقد كان لقاؤها به صدفة منذ يومين في «البيت الصّغير» مربكا كفاية.

فتحت باب الشقة ودلفت إلى الرّدهة وهي تزفر مجدّدا. كانت على موعد مع شهاب لتناول العشاء. ستغيّر ثيابها وتخرج مرّة أخرى. يعلم الله كم تحتاج حمّاما ساخنا وحصّة تدليك في تلك اللحظة لتستعيد استرخاءها ومزاجها الطيّب. لكنّ المفاجأة التي كانت تنتظرها في مطبخ الشّقة لم تكن تنبئ بقرب الفرج.

- انظروا من جاء!

حدّقت في الفتاة التي وقفت خلف المصطبة وهي ترتدي مريلة الطبخ وتضع قفازات الفرن في عدم تصديق.

- ألا ترحبين بي؟

نقلت نظراتها بينها وبين ياسمين وسكينة المبتسمتين، ثمّ هتفت في صدمة:

- رانيا؟ كيف وصلت إلى هنا؟ ما الذي جاء بك؟

- أبي أعطاني العنوان! وجئت بسيّارة أجرة، مثلما يفعل النّاس.

- بسيّارة أجرة؟ وأبي، أين هو؟ هل جاء معك؟

- طبعا لا! لم أعد طفلة!

نهرتها ياسمين على الفور وهي تجذبها من ذراعها لتجلسا معا على الأريكة:

- كفى يا رنيم، هل ترحبين بشقيقتك هكذا؟

انتبهت رنيم في تلك اللحظة إلى الحقائب الكثيرة التي كانت متراصّة عند الباب. وقفت على الفور وهي تشير إليها في ذعر وهتفت:

- ما كل هذا؟ كم ستبقين هنا؟

- رنيم!

احتجت ياسمين بينما ابتسمت رانيا في زهوّ وهي تقول:

- سأدرس اللغة الفرنسية في جامعة باريس ديديرو لمدّة سنة واحدة.. ثم أفكر في الاختصاص الذي يناسبني.

- يا إلهي! سنة كاملة؟

قرصتها ياسمين بقوّة هذه المرّة، فصرخت رنيم من الألم، في حين قالت ياسمين بلهجة ودودة:

- رانيا كانت تساعد سكينة في إعداد العشاء.. أظننا سنتّفق كثيرا ونمضي أوقاتا ممتعة.. نحن الأربعة!

- هل تقولين أنّها ستقيم معنا؟ أين؟ هناك غرفتان فقط في الشقة! أنا وأنت نتشارك غرفة الآن، هل نسيت؟

قفزت رانيا في اتجاهها وهي تهتف:

- يمكنني النّوم على الأريكة، لا تقلقي بشأني!

يا لتلك الأريكة التي ما تنفكّ تجد متطوّعين للنّوم عليها! حدجت رنيم أختها في عدم تصديق. هل ترضى الصغيرة المدلّلة بهذا القدر الضئيل من الرّفاهية؟ قاطعت ياسمين أفكارها وهي تقول:

– يمكنني أن أترك لكما الغرفة وأنام على الأريكة، فأنا سأغادر على أيّة حال خلال شهور قليلة.

– هل حقا تفعلين؟

تدخلت رنيم بسرعة لتبدّد وهم شقيقتها التي لم تفرّط في مبادرة ياسمين السخيّة:

– لا لن تفعل، أيتها الاستغلالية الصّغيرة! إن كنت تريدين البقاء فستنامين على الأريكة!

حدجتها بنظرة غاضبة، ربّما تنجح في تنفيرها منذ البداية فتغادر قبل انقضاء الفترة!

تدخّلت سكينة على الفور:

– هناك ترتيب مناسب، ستأتي ياسمين إلى غرفتي.. وتتشاركين أنت وشقيقتك الغرفة الثانية.. ما رأيكنّ؟

– من قال بأنّني مستعدّة لمشاركة غرفة مع هذه المزعجة!

كانت تعتبر شقيقتها الصّغرى فتاة مدلّلة عديمة النفع. السّنوات التّسع التي تفصل بين ولادتيهما، كانت كافية لينسى والداها قواعد التربية الحكيمة –التي لم يمتلكاها يوما بالمناسبة، نظرا لاعتمادهما على المربية منذ ولادة رنيم– ويغرقان الصغيرة التي جاءت في وقت كادا ييأسان فيه من إنجاب طفل ثانٍ بدلال لا مثيل له.

وكان فارق السنّ بالإضافة إلى الغيرة التي تمكّنت من رنيم حين وجدت شقيقتها تنعم باهتمام لم تعرفه هي في طفولتها، كانا عاملين باعدا كثيرا بين البنتين.

ثمّ جاء رحيل رنيم للدّراسة في الخارج ثم العمل ليصنعا قطيعة شبه نهائية بينهما. لم تكن هناك اهتمامات مشتركة ولا حتى مجاملات مصطنعة. في الحقيقة، كانتا قد تبادلتا قدرا ضئيلا من الكلمات العاديّة التي يتبادلها حتى الغرباء في فترة الإقامة الإجبارية التي فرضت على رنيم في السّنتين الماضيتين، من قبيل «صباح الخير»، «تصبح على خير»، «هل حضر الغداء»، «شكرا».. ربّما كان جدالهما ذلك المساء يحقق رقما قياسيّا من حيث الكلمات المتبادلة.

لذلك فإنّ زيارة رانيا المفاجئة وقرارها بالإقامة معها، كانا في غاية الغرابة والإزعاج. تساءلت رنيم حينها كيف سمح والداها لصغيرتهما المدللة بالابتعاد عنهما؟ لئن كانت تجربتها الدّراسية والمهنيّة مرضيتين، فإنّ سلوكها العاطفيّ لم يكن مثالا يحتذى بالنسبة إليهما، فكيف يعهدان إليها بمهمة الاهتمام بالشقيقة الصغرى؟

أم أنّ شهاب هو الضّمان الأوحد، مرّة أخرى؟

آه، لقد عرفت! لقد حسبت نفسها فرّت من الرّقابة، فأرسلا مراقبة لمتابعتها عن كثب!

تذكرت مع ذلك الخاطر موعدها مع شهاب. وقفت على الفور وهي تقول في فتور:

– عذرًا يا فتيات، تناولن العشاء من دوني.. لديّ موعد.

هتفت رانيا على الفور:

– مع شهاب.. طبعا! بما أنّنا حضّرنا الطّعام، ما رأيك في دعوته للعشاء معنا؟

ضحكت رنيم، وهي تلقي نظرة ساخرة على شقيقتها. رجل؟ في هذه الشّقة؟ يا للصّغيرة السّاذجة. إنّها لا تعرف ياسمين وسكينة بعد! لا تعرف أنّ العالم الذي خطت إليه بمحض إرادتها مختلف عن عالمها الصّغير المثاليّ في القاهرة. قالت في لهجة متشفّية:

– الإقامة هنا ترضخ لقوانين صارمة.. سأترك لياسمين تلقينك إياها. إذا قبلت بعدها بالبقاء، فسنتحدّث!

ثمّ سارت إلى الغرفة متجاهلة علامات الصّدمة الجليّة على ملامحها.

*

– مرحبا شهاب، هل يمكنني أن أراك اليوم؟

جاءها صوت شهاب ملولا باردًا على الطرف الآخر للخط:

– آسف رانيا، لديّ مناوبة ليليّة ابتداءً من السابعة مساء.. ربّما في فرصة أخرى.

– أكيد.

ردّت في فتور ثمّ أنهت الاتّصال. هل هو جادّ في انشغاله بالعمل، أم أنّه سيلتقي رنيم الليلة ولا يريدها أن تفسد عليهما الأمسية؟ ربّما أكثرت من الاتصالات بشكل لافت حتّى بات يتهرّب منها!

منذ صغرها كانت تميل إلى الأكبر سنّا. ربّما لأنّ والديها أنجباها على كبر في حين كان أبناء الأصدقاء والمعارف قد قطعوا سنوات في رحلة العمر مخلفين إيّاها وراءهم، فنشأت في سباق مع الزمن، تجاري الكبار وتقلدهم مستعجلة الوقت الذي تصبح فيه ندّا لهم.

حين بلغت الخامسة عشرة، كانت تصاحب طلاب الجامعة. ولم يكن أحدهم يعتبرها «طفلة» أو «صغيرة». كانت تعرف ماذا تفعل وكيف تتكلّم وتفكّر أيضا. شعرها المجعّد الكستنائيّ القصير ونظاراتها الجادّة الأنيقة، فساتينها الضيّقة والسترات الرسميّة التي تضعها عليها، أحذيتها ذات الكعوب العالية وتبرّجها الخفيف اللافت.. كلّ ذلك كان يضفي على شكلها نضجا غير مبتذل، فتبدو ببساطة في مكانها الطبيعي بين شباب العشرينيات.

في المقابل، كانت تضيق ذرعا بطلاب الثانوية الذين يسعون لمصادقتها وكسب ودّها، فتهشّهم من حولها كالذّباب. لم يكن ذلك تكبّرا منها بقدر ما كان استياءً من الحاجز العمريّ الذي يبقيها سجينة لسنوات طويلة في مدرستها الدّاخليّة مع أطفال في أجساد مراهقين لا يعرفون من الدّنيا أكثر من ألعاب الفيديو ومباريات كرة القدم.

حين انتهت من دراستها الثانوية، أيقنت أنّها فرصتها للانطلاق وفكّ القيود. كان أصدقاؤها «الكبار» قد تجاوزوا مرحلة الجامعة وانتشر معظمهم في أرجاء الأرض، وهي تدرك أنّ عليها أن تقوم بالمثل حتّى لا ينتهي بها المطاف مع نفس السّفهاء الذين يتلكأ النّضج داخلهم مثل سلحفاة بطيئة.

اختارت باريس، لأنّها علمت يقينا أنها الوجهة المضمونة التي لن يمانع والداها بشأنها. ثمّ لأنّها سترى شهاب مجدّدا ومثل العادة. خلال السّنتين الماضيتين، كانت تقحم نفسها في الجلسة حين تصادف زيارته لتناول العشاء أو قضاء السّهرة مع أفراد العائلة عطلتها الأسبوعيّة.

كان نوعا من الأشخاص الناضجين النادرين الذين يحوّلون انتباه الحضور إليهم دون جهد يذكر. كان يكبرها باثنتي عشرة سنة. وهي وقعت في شرك جاذبيته دون مقاومة. ولم تكن الوحيدة، فكلّ العائلة كانت تحت تأثير شخصيّته السّاحرة.

تعترف في داخلها أنّ فكرة الاستحواذ على انتباه خطيب شقيقتها كانت سيّئة منذ البداية. تعلم أنّها لن تحتلّ مكانة رنيم في حياته ببساطة. فهناك اعتبارات اجتماعيّة ورسميّة تقف حاجزا أمام تحقيق رغبتها، بغضّ النّظر عن التحدّي الكامن في محاولة استمالته عاطفيا في المرتبة الأولى. تعلم أنّها ستكون مجازفة خطيرة لن تضع العلاقات الأسريّة على المحكّ وحسب، بل لعلها قد تقضي على كلّ فرصها في الحصول على حريّتها وإطالة الإقامة في باريس لسنوات أخرى. إنّ كلمة واحدة من شهاب لوالديها عن سلوكها المشين أو غير اللاّئق سيهوي بها إلى قعر سحيق قد لا تنهض بعده مطلقا. كانت تفكر في صرف النظر عن الموضوع، لكنّها كانت تنتظر تسلية أخرى تملأ فراغها وتحوّل انتباهها. إلى أن تأتي تلك التسلية، ستستمرّ في مضايقة شهاب وتعكير مزاج رنيم.

قفزت من مكانها حين سمعت باب غرفة رنيم يفتح. كانت شقيقتها في كامل زينتها وقد استعدّت للخروج. عاودتها الشكوك السّابقة. هل يخطّطان للقاء بعيدا عن عينيها الفضوليّتين؟

– إلى أين؟

التفتت رنيم في ارتباك حين وجدت رانيا تقف أمامها قاطعة عليها الطريق. قالت في ضيق:

– للتسوّق.. برفقة ياسمين.

– هل يمكنني أن آتي؟

– طبعا.. إذا أردت.

– سأكون جاهزة خلال دقائق!

زمّت رنيم شفتيها في امتعاض. تدرك أنّ عواقب موافقتها تلك ستكون وخيمة.

*

– تخيّلي.. لم يعجبها شيء! كلّ شيء كان باهظا أو مكشوفا أو مبالغا فيه!

انبرت رنيم تشكو ياسمين إلى سكينة على مائدة العشاء. لقد أمضت ثلاثتهما ساعات يجبن بين محلاّت ثياب الزّفاف، وعدن بخفي حنين. بينما لم يحز أيّ التّصاميم على إعجاب ياسمين، فقد وجدت رنيم صعوبات جمّة في إيقاف رانيا عن اقتناء كلّ ما تقع عليه عيناها من فساتين السّهرة.. لتنتهي الجولة بشجار شرس بين الأختين.

وضعت رانيا السّماعات في أذنيها وانسجمت مع التّسجيل المنبعث من هاتفها. كانت تلك طريقتها في الإعلان عن غضبها ومقاطعتها لشقيقتها.

قالت سكينة مقترحة:

– ما رأيك في التّفصيل؟

– تفصيل؟

- نعم، تفصّلين الفستان الذي يناسبك تماما.. أنا أعلم أنّ أغلب الفساتين المعروضة ليست محتشمة، بالإضافة إلى أسعارها المشطّة.. إن استقرّ رأيك على تصميم ما، فيمكنني تفصيله من أجلك.

حدّقت فيها ياسمين غير مصدّقة:

- هل أنت بارعة في ذلك؟

حدجتها سكينة بنظرة متعالية ومستنكرة، كأنّه من الجرم التّشكيك في مهارتها. قالت في ثقة:

- سأفرّجك على بعض تصميماتي، ثمّ يمكنك أن تقرّري.

اختفت سكينة داخل الغرفة لبرهة، ثم عادت وبين كفّيها ألبوم كامل. هتفت ياسمين وهي تشاهد الصور في انبهار:

- أنت مذهلة.. هل يوجد شيء لا تجيدينه؟ سكينة، أنت صندوق مفاجآت!

ابتسمت سكينة في مرارة، ثم قالت:

- كيف حسبتني أعلت نفسي في السّنوات السبع الماضية؟ بعد أن تركت التدريس في «نانت»، فعلت كلّ شيء ممكن، الطّبخ وتوزيع الأكل على المطاعم العربيّة، ثمّ تعلّمت التفصيل والحياكة.. الأزياء الشرقيّة التّقليديّة كانت مطلوبة وأسعارها جيّدة...

ثم أضافت في حماسة:

- أعرف محلّ أقمشة في حيّ « بَارْبَاس»، صاحبه مغربيّ، لديه أقمشة « سواريه» مذهلة ونماذج مدهشة للـ«قفطان» الفاخر، يمكنك إلقاء نظرة عليها.. هل فكّرت فيما سترتدينه في العشاء الرّسميّ؟

حدّقت فيها ياسمين في ذهول، بينما استمرّت سكينة تشرح ما عليها فعله. قفطان لعقد القران وفستان أبيض بسيط بتطريز ناعم للعشاء.

- سأعتمد عليك إذن!

هتفت رنيم في استياء:

- لا أقصد الإهانة عزيزتي سكينة.. لكن ياسمين، أنت في باريس، عاصمة الموضة! تتركين كل التّصاميم الفريدة والمميّزة، وتخيطين ثوب زفافك؟

فترت حماسة سكينة على الفور. قالت معتذرة:

- رنيم على حق.. هذا زفافك، وأنت تستحقين الأفضل.

أخذت تجمع صور التّصاميم في إحباط، فسارعت ياسمين لتمسك بكفّها وتقول:

- أبدًا.. كلّ هؤلاء المصمّمين المحترفين لا يستوعبون حاجتي وفساتينهم الفاخرة لا تناسب ذائقتي.. بالعكس، أنت تنقذينني من هذا المأزق! أريد أن أعتمد عليك في هذا.

حدّقت ياسمين في عينيها بقوّة، فابتسمت سكينة في امتنان، بينما هزّت رنيم كتفيها في ضيق وهمست:

- أنت حرّة!

تدخّلت رانيا فجأة لتسأل في فضول:

- هل هذا ما تفعلينه طوال النّهار؟ تصمّمين الملابس؟

ارتبكت سكينة، وقالت في حرج:

– لم أعد أفعل ذلك الآن.. هناك مسألة أخرى تشغلني، لذلك أخذت إجازة من العمل هذه الفترة.

هتفت ياسمين فجأة:

– رنيم! هل يمكن أن أتحدّث إليك؟ بعد إذنك سكينة، كيف لم يخطر لي هذا من قبل.. رنيم محامية فذّة، وقد يكون بمقدورها المساعدة!

تعلّقت النّظرات بوجه سكينة الشّاحب. تمتمت في فتور:

– لقد جرّبت المحامين.. الكثيرين منهم، لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعا.

لكنّ ياسمين تابعت بحماس:

– ليس كلّ المحامين سواسية! أنت لا تعرفين رنيم.. حين تضع هدفا نصب عينيها فإنّها تجد السّبل لتحقيقه لا محالة!

توردت وجنتا رنيم خجلا من إطراء ياسمين، ثمّ تنحنحت وهي تقول:

– ما المسألة إذن؟

كانت سكينة تصارع التردّد والحرج. لم تعد تريد أن يتعلّق قلبها بالآمال الكاذبة. لقد جرّبت كلّ شيء ممكن، وهذه المحامية الشابّة هل تكون أقوى حجّة من أولئك المتمرّسين الذين سلبوها مدّخرات عمرها دون تحقيق شيء يُذكر؟ هل تلقي بنفسها في دوّامة الأمل والخيبة التي لا تنتهي، مرّة أخرى؟

وقفت رانيا وهي تضع سمّاعات أذنها من جديد، وقالت قبل أن تغيب داخل الغرفة:

– تبدو مسألة قانونية مملّة.. أنا في غنى عن هذا!

أطرقت سكينة مفكّرة، ثم استجمعت شجاعتها وهي تقول بصوت أجشّ:

– إليك القصّة من البداية.

استمعت إليها رنيم في اهتمام بالغ وهي تقصّ تفاصيل الحكاية المؤلمة، حتّى إذا فرغت من اعترافاتها، قالت في جدّيّة:

– لا يمكنني أن أعدك بشيء الآن.. مضى زمن طويل مذ درست قانون الحضانة.. أحتاج إلى مراجعة المراسيم الحديثة بالتّفصيل، والاطّلاع على السّوابق القانونية والقضايا المشابهة.. ما رأيك لو تمرّين عليّ بالمكتب بعد يومين؟ سأكون قد استعلمت أكثر بشأن القضيّة.

أومأت سكينة في قلّة حيلة.

ستجرّب المحاكم مرّة أخرى، طالما لم تفلح رحلة بحثها عن جاسر حتّى ذلك الوقت.

-١١-

– ديانا!

وقفت رنيم على الفور وهي تلمح الشابة المقعدة تدلف إلى المكتب وهي تدفع عجلات مقعدها المتحرّك. عانقتها بودّ وهي تقول في لهجة معاتبة:

– ما الذي جاء بك؟ قلت أنّني سأتّصل حالما أصل إلى شيء ما.

– لم أستطع الانتظار.

كانت عيناها دامعتين ومحتقنتين.

تعرّفت إلى ديانا منذ ثلاث سنوات، حين كانت شاهدة على زواجها من شابّ جزائريّ وصل إلى فرنسا على متن أحد مراكب الموت. لعلّ وحدة ديانا الفتاة المقعدة، وحاجة نادر إلى أوراق إقامة رسميّة كانتا البندان الأول والثاني لإتمام زواج حسبت رنيم أنّ مصيره الحتميّ هو الفشل. لذلك لم تفاجأ كثيرا حين وردها اتّصال ديانا بالأمس، تنبّئها باختفاء زوجها بعد أن اختطف طفلهما!

– لقد حاولت الاستعلام عن حركات السّفر عن طريق أحد المعارف في المطار.. سأوافيك قريبا بما توصّلت إليه.

– الأستاذة رنيم موجودة؟

تجاوزت ماتيلد دوبري مكتب الاستقبال دون أن تنتظر ردّ السكرتيرة واقتحمت مكتب رنيم وهي تطرق الأرض بكعبها العالي في مشية متغطرسة. وقفت رنيم وراء مكتبها وطالعت الشقراء ذات النظرات الحادّة المليئة بالثقة وقالت في استياء:

– سيّدة دوبري، هل يمكنك الانتظار خارجا ريثما أنهي هذا الحوار مع موكّلتي؟ أرجو منك إظهار بعض الاحترام لهذا المكتب وعملائه.

– يا إلهي.. إنّها ماتيلد دوبري الحقيقية! من برنامج «الحقيقة الكاملة»!

ابتسمت ماتيلد في زهوّ وهي تلحظ علامات الإعجاب واللهفة في ملامح ديانا التي استدارت بكرسيّها المتحرّك لترمق النجمة التلفزية عن كثب. نقلت ديانا نظراتها بين رنيم التي أربكها تدخلها وبين مقدّمة برامج «تلفزيون الواقع» فخطرت ببالها فكرة لم تكن لتراودها حتّى في أحلامها، لكنّ يأس اللحظة وظهور الأمل المفاجئ أسعفاها لتنطق بتلك الكلمات الجريئة دون تفكير كثير:

– ربّما يمكنها أن تساعد في البحث عن خليل! يا إلهي، سيّدة دوبري، يجب أن تساعديني في إيجاد ابني.. أرجوك!

– سيكون ذلك من دواعي سروري، أخبريني عن تفاصيل الأمر!

قالت ماتيلد ذلك وقد التمعت في عينيها نظرة ظافرة ثم اتجهت إلى المقعد الشاغر قبالة ديانا دون انتظار إذن من رنيم التي وقفت متردّدة لا تدري بما تستقبل مبادرة ماتيلد المثيرة للشكوك.

– نحن متزوّجان منذ ثلاث سنوات.. ولدي خليل يبلغ من العمر سنتين. أمس اختفى هو ووالده مع حقيبة ملابس. أشكّ بأنّه خطفه وسافر إلى الجزائر، حيث لا يمكنني أن أصل إليه.

– آه سيّدتي، هذا أمر فظيع.. أنا وبرنامجي تحت أمرك. نحن في خدمة مواطنينا في مثل هذه الحالات الحرجة.. ثمّ إنّني جئت اليوم إلى الأستاذة رنيم لأنّني أحتاج وجودها في برنامجي، فإن وافقت على الحضور ستكونين أنت وهي ضيفتين عندنا لنبثّ شكواك على الهواء، حتّى تكون عمليّة البحث أكثر نجاعة!

كانت تمسك بكفّ ديانا التي كاد الأمل المتدفّق إليها عبر كلمات المذيعة يجعلها ترفرف في مكانها.

– كلّ هذا رهن موافقة الأستاذة رنيم على التعاون معنا.

كانت عيونهما تتجه الآن إلى رنيم تنتظر ردّها، ديانا في رجاء المتّهم الذي ينتظر حكما بالبراءة، وماتيلد بابتسامة واثقة جريئة تمنّت رنيم لو تصفعها من أجلها. كانت

تساومها بزجّها في موقف حرج أمام موكّلتها. بعد صمت قصير، قالت في شبه استسلام لم تعترف به نظراتها المتحدّية:
– ما المطلوب مني بالضبط؟
انفرجت أسارير ماتيلد التي وقفت من مجلسها في حماس وهي تهتف:
– أن تسمحي لي بتحويلك إلى نجمة تلفزيّة!
– عفوا؟
كانت ماتيلد قد تابعت عن كثب مراحل قضيّة عمر وشهدت مرافعات رنيم الحماسيّة كلّها. وجدت في تلك المحامية الشابة ذات الجمال الشرقيّ الجذّاب، شخصيّة مختلفة وحضورا لافتا. كانت تستحوذ على الانتباه حين يصدح صوتها في قاعة المحكمة، وكانت نظراتها المفعمة بالصّدق تؤثّر وتشدّ وتنثر شعاعا من الدفء. مواصفات نادرة وموافقة لما يطلبه الجمهور! تابعتها مرّة بعد مرّة ورغبة عارمة في ضمّها إلى فريق برنامجها تلحّ عليها. لكن غياب رنيم وجفاءها مع وسائل الإعلام كانا يؤجلان مشروعها إلى وقت غير معلوم.
– أحتاج وجها جديدا في برنامج «الحقيقة الكاملة» وأنت مناسبة جدا لهذا الدّور! إن تمّ الاتّفاق بيننا، فسنسجّل الحلقة الثانية للموسم الجديد عن موضوع اختطاف الطفل.
حانت منها نظرة إلى ديانا. لم تكن تريد لأيّ كان أن يؤثّر على قرار يخصّ حياتها المهنيّة، لكنّ نظرات ديانا المستعطفة أجهزت على البقيّة الباقية من مقاومتها. سألت فجأة وقد أدركت أنّ في الأمر خدعة ما:
– ماذا عن الحلقة الأولى؟
– لا تكوني ساذجة يا عزيزتي.. الحلقة الأولى ستكون عن قضيّة عمر الرّشيدي طبعا! لقاء حصريّ وأخبار مقرمشة خاصّة بالبرنامج!
لوت رنيم شفتيها في امتعاض. هذا هو الفخ إذن. لم تيأس ماتيلد بعد، ولعلها ستستنفد كلّ حيلها للحصول على مبتغاها. لم تكن قد نظمت الردّ في ذهنها بعد، حين طرقت السكرتيرة الباب وقالت:
– الدكتور عمر الرّشيدي هنا.
– دكتور عمر الرشيدي! إنّه يوم سعدي لا محالة! فليتفضل على الفور!
ألقت ماتيلد دوبري التّعليمات إلى موظّفة الاستقبال، كأنّها صاحبة المكان ثمّ هبّت لتستقبل عمر في ترحاب بالغ وابتسامة واسعة تشقّ وجهها. نظر إليها عمر في دهشة، ثمّ التفت إلى ديانا ورنيم في شكّ. تكلّمت ديانا أوّلا وقد استوعبت هويّته على الفور:
– دكتور عمر! وددت لو التقينا في ظروف أفضل.. نادر لا ينسى أبدا صنيعك معه ويتحدّث عنك باستمرار.
شرحت رنيم الموقف بكلمات مختصرة لتبدّد الالتباس. استمع إليها عمر في دهشة متزايدة، قبل أن تقاطعها ماتيلد من جديد:
– دكتور عمر، إنّ لقاءنا اليوم هنا رسالة من القدر، أليس كذلك؟
حدجها عمر بنظرة مرتابة كأنّه يتساءل في سرّه «من هذه المجنونة؟» ثمّ سأل ديانا:
– إذن، هل تمكنتم من الاتّصال بنادر؟

– للأسف، هاتفه مغلق منذ الأمس.

تمتمت ديانا بصوت متهدّج ملؤه التأثر، فأخذت رنيم الكلمة رغم حرجها وقالت في هدوء:

– إنّها عمليّة اختطاف واضحة. اتّصلنا بالبنك، فتبيّن أنّه قد قام بسحب كامل مدّخراته منذ يومين. طلبت من بعض معارفي في شرطة الحدود التأكّد من سفره خارج البلاد.. ننتظر أن يأتينا الخبر بين لحظة وأخرى. ديانا ترفض التّبليغ عن عمليّة الاختطاف. لكنّ بما أنّ المختطف هو الأب، ولم يحصل طلاق أو خلاف على الحضانة، فإنّ الشّرطة لن تأخذ البلاغ على محمل الجدّ قبل بعض الوقت...

تنحنحت ماتيلد وقالت وقد اكتسى صوتها مسحة من الجدّيّة:

– اتفقت مع السّيدة ديانا والأستاذة رنيم على تصوير حلقة خاصّة عن عمليّة الاختطاف وتعميم صورة خليل ووالده على القنوات التّلفزية، فربّما يمكننا ذلك من جمع بعض الشهادات من أشخاص رأوهما في مكان ما.

ثمّ أضافت في فخر بفكرتها الجديدة العبقريّة:

– وإذا تبيّن أنّ والده قد أخذه إلى الجزائر بالفعل، فتسافرون جميعا —على نفقة البرنامج— مع فريق تصوير لمتابعة رحلة البحث!

تجاهلها عمر والتفت إلى ديانا ليقول في استهجان:

– هل تريدين أن تظهر حياتك الخاصّة على شاشات تلفزيون الواقع والتشهير بزوجك ووالد ابنك؟ تعلمين أنّها وسيلة فجّة لاقتحام خصوصيّات النّاس وانتهاك حميميّتها!

كان يعلم أكثر من أيّ شخص آخر نتائج تلك الشّهرة غير المرغوبة التي قد تستمرّ سنوات، دون أن يكون بمقدرته فعل شيء لعكس التأثير المشؤوم! اعترضت ماتيلد في حرارة:

– هذا البرنامج سيمكّن الأمّ من كسب تعاطف الرّأي العام وبالتّالي الضغط على السّلطات، سواء الفرنسيّة أو الجزائريّة للتّدخّل من أجل استرجاع ولدها! راجعوا تاريخ برامج تلفزيون الواقع لتدركوا نسبة الجرائم التي أسهمت في حلّها.

التمعت عينا ديانا بعبرات نديّة وهمست في مرارة:

– حين تفقد الأمّ ولدها، فإنّ أية وسيلة تمكّنها من استرجاعه هي وسيلة جيّدة.

أردف عمر في غير اقتناع:

– إن كانت السّيدة تريد المساعدة، فليكن بتوظيف موارد البرنامج للتقصّي عن مكان نادر بأسرع وقت، ولتبقى الكاميرات مطفأة!

مطّت ماتيلد شفتيها في امتعاض، ثم قالت:

– أنا مستعدّة لكلّ ما تريد.. لم أرد إلا المساعدة. طالما توافق والأستاذة رنيم على تصوير الحلقة!

– عن أيّ حلقة تتحدّثين؟

هتف عمر في احتجاج، فرمقته ماتيلد بنظرة مستعطفة:

– ستفعل ذلك من أجل قضيّة عادلة. هذه الأمّ تحتاجك لاسترداد ولدها!

ثمّ لوّحت بكفّها ودارت على عقبيها لتترك الغرفة، وهي تدرك تماما أنّ ديانا ورنيم ستنهيان مهمّة إقناعه.

عمّ الوجوم لبرهة بعد أن غاب ظلّ ماتيلد دوبري عن المكتب. كانت ديانا أوّل من بادر بقطع حبال الصمت:

– أنا آسفة من أجل الإحراج الذي تسبّبت به.. لكنّني في حاجة إلى مساعدتك الآن! آمل أن تقدّر موقفي، أنا أمّ فقدت صغيرها، ولن أفوّت أيّ فرصة تساعد على استعادته!

أصغى عمر في تفكير. لم يكن الانصياع إلى رغبة المذيعة الفضوليّة من دواعي سروره. بل لعلّ ذاك الطلب يحطّم السّاتر الذي بناه طيلة غربته، كحدّ فاصل بين المجالين العام والخاصّ الذي يحرص عليه.. وقد ازداد حرصه بشكل حادّ بعد الحادثة! لكنّ الظّرف الإنسانيّ الذي يواجهه يدفعه دفعا إلى مراجعة حساباته. كان في موقف عسير، بين التّضحية بخصوصيّة حياته الشّخصيّة والتنكّر لأمّ مكلومة ترجو منه الغوث. حسم أمره أخيرا:

– فليكن. إن كانت تلك المقابلة ستمكّنك من استعادة خليل، فلا بأس.. أنا أوافق!

تهلّلت أسارير ديانا وهتفت غير مصدّقة:

– هل حقّا تفعل؟

– بشرط واحد.. ابقي بعيدا عن استديو التّصوير! بإمكان ماتيلد دوبري أن تساعدك بأشكال كثيرة غير عرض مأساتك العائليّة على الفضائيّات!

أطرقت ديانا في ألم، ثمّ قالت:

– لم أفكّر في ذلك إلا كحلّ نهائيّ إذا سُدّت السّبل.. لكنّك على حقّ. أنا مدينة لك بهذا أيضا.. طالما لم أعرف حقيقة الأمر، فسأمنح نادر فرصة للمصالحة. لن أفسد كلّ شيء بإقحام الإعلام في مشاكلنا.

أومأ عمر في استحسان.

– آمل أن تصلك أخبار مطمئنة قريبا.

تدخّلت رنيم منهية المسألة:

– جيّد.. سأنبئ ماتيلد باتّفاقنا إذن.

حيّتها ديانا بحرارة، ثمّ دفعت بعجلات كرسيّها المتحرّك مغادرة. ساد الصمت من جديد حين خلت الغرفة إلا من رنيم وعمر. عندئذ اقترب عمر من المكتب بهدوء، وقال وهو يضع الصّكّ البنكيّ على سطحه:

– جئت لأعيد إليك هذا.

– آه!

فوجئت رنيم بالصّكّ البنكيّ أمامها، بينما واصل عمر في بساطة:

– أنا ممتنّ جدّا لكلّ من اهتمّ لأمري وساهم في جمع هذا المبلغ.. لكنّني لم أفكّر لحظة واحدة في قبوله، سواء قبل حصولي على التعويض أو بعده.

هزّت رأسها في تفهّم وابتسامة صغيرة تطلّ على شفتيها. كان يجب أن تدرك ذلك. عمر لن يقبل شفقة ولا صدقة من أحد. قالت وهي تتنهّد:

– حسنا إذن.. لك ذلك. سأعيدها إلى أصحابها.

– هناك شيء بعد.

رفعت عينيها إلى وجهه، فالتقت بنظراته المباشرة. كانت قسماته تنضح سكينة وطمأنينة. لم يبق أثر للّهجة العدائيّة التي لمستها في لقائهما السّابق، في « البيت الصّغير».

– لقد أدركت أنّني لم أشكرك بالشّكل اللاّئق على كلّ الجهود التي بذلتها.. من أجلي.

قالت على الفور مخفية ارتباكها:

– جورج أخبرني أنّك دفعت الأتعاب، مع أنّه لم يكن ينبغي أن تفعل.

– المال ليس كلّ شيء! نعم، لقد دفعت.. لكن شعرت أنّ من واجبي أن أعبّر عن امتناني بشكل شخصيّ.. ولذلك أنا هنا اليوم. لقد سارت القضيّة على ما يرام، والفضل كلّه يعود إليك.. وقد استعدت حريّتي وقدرا من صحّتي وحصلت على تعويض مادّي مجزٍ أيضا.. ولا شيء من كلّ هذا يدعو إلى التوتر الذي أشعر به في حضورك.. ألست محقّا؟

رمشت رنيم في اضطراب. لقد كانت كلماته بسيطة وصريحة. ولقد كان على حقّ. لقد تخطّت كلّ ذلك، هكذا عاهدت نفسها، لكنّها تتلكّأ في التّنفيذ. وها هو عمر نفسه يدعوها إلى التّجاوز والتّطبيع!

هل سيكون بوسعها أن تعامله بشكل طبيعي، مثل أيّ موكّل سابق قد تلتقيه صدفة في وقت لاحق؟ إنّها تعلم – وهو يعلم بالتّأكيد– أنّ صداقتهما وياسمين وهيثم ستجعلهم يجتمعون في مناسبات كثيرة مقبلة، فلا شكّ أنّ تصفية الحسابات هو الخيار الأمثل.

قالت وقد تمالكت نفسها:

– نعم، أنت محقّ.

– جميل. سأنصرف إذن وأنا مرتاح البال.

شيّعته بنظراتها حتّى اختفى، ثمّ تهالكت على مقعدها في إنهاك. حدّقت في الصكّ الذي يستقرّ على مكتبها ثمّ ابتسمت وهي تقول في تهكّم:

– ها أنّك قد قبضت خمسين ألف يورو بيسر يا رنيم!

قاطع صوت السكرتيرة استغراقها:

– أستاذة رنيم.. السّيدة سكينة في قاعة الانتظار.

– دعيها تدخل.

خطت سكينة في ارتباك داخل المكتب الفاخر، وجلست على المقعد المقابل لرنيم. بدت المحامية الشابّة مشوّشة وقد غلبها السّرحان.

– هل جئت في وقت غير مناسب؟

نفضت رنيم عنها بقايا الاضطراب، وتناولت ملفّ قضيّة سكينة وهي تستعيد تركيزها:

– لا، أبدا.. لقد فكّرت مليّا في قضيّتك. في الحقيقة، لم أجد أيّ ثغرة قانونيّة في الملفّ تمكّن من استئناف الحكم.

أطرقت سكينة في إحباط. لم يكن عليها أن تضع آمالا عريضة على محاولة رنيم. لقد سبق أن طرقت كلّ الأبواب.. فما الجديد الذي بوسعها أن تأمله؟!

لمعت فكرة جنونيّة في رأس رنيم بشكل مفاجئ، فهتفت وقد اشتعلت جذوة حماسها:

– لكن أمامنا وسيلة أخرى، بعيدا عن المحاكم.. وهي تتطلب شجاعة كبيرة منك. فهل أنت مستعدّة؟

حدّقت فيها سكينة غير مصدّقة. هل تقول أنّ هناك حلّا ممكنا؟ أشرقت سحنتها وهي ترنو إلى رنيم في لهفة، مثل غريق يتعلّق بقشّة:

– أنا مستعدّة لكلّ شيء!

– إذن أنصتي جيّدا.. سأخبرك بما علينا فعله.

-١٢-

حين دلفت رانيا إلى الشقّة كانت السّاعة قد اقتربت من الثامنة مساءً. ألفت ياسمين بمفردها في المطبخ، بادرتها حال وصولها:

– هل تناولت عشاءك؟ أحضّر بعض الشطائر الخفيفة.. تشاركينني؟

أومأت رانيا شاكرة، ووقفت تراقبها وهي تنهي ترصيف الشطائر مع السلطة في الأطباق.

– ظننتني سأمضي الأمسية وحيدة.. جيّد أنّك جئت مبكّرا. اجلسي، سيبدأ البرنامج بعد حين.

لوت رانيا شفتيها في امتعاض. البرنامج! ما بالهم جميعا يترقبونه بكلّ هذه اللّهفة؟ شهاب أيضا اعتذر عن الخروج الليلة –مرّة أخرى– لأنّه سيشاهد البرنامج! وما معنى أن تظهر رنيم على التلفاز؟ ستتحدّث عن العمل، وهذا ليس مسليّا. زفرت وهي تلقي بحقيبتها وترتمي على الأريكة، ثمّ جاءت ياسمين لتستقرّ إلى جوارها ومعها أطباق الأكل. بعد لحظات، ظهرت شارة برنامج «الحقيقة الكاملة»، ثمّ احتلّ وجه ماتيلد دوبري الشاشة.

– مرحبا بكم مشاهدونا الكرام في هذا الموسم الجديد من برنامجكم «الحقيقة الكاملة». كما وعدتكم، سيظهر هذا الموسم بشكل مميّز من خلال مواضيع شيّقة وتقارير حصريّة. وأبدأ بتقديم الوجه الجديد الذي سيرافقنا بتحليل قانونيّ محترف طيلة حلقات هذا الموسم.. رحّبوا معي بالأستاذة رنيم شاكر.

تحرّكت عدسة الكاميرا لتستقرّ على وجه رنيم التي جلست بهدوء إلى المائدة المستديرة التي تجمع ضيوف البرنامج وابتسامة وديعة على شفتيها. كانت تبدو أنيقة مثل عادتها، وقد أضافت إليها لمسات مصفّفة البرنامج تألّقا وجاذبيّة. هزّت رأسها محيّية مضيّفتها، بينما كانت ماتيلد تقدّمها وتتحدّث عن مسيرتها المهنيّة بعبارات رنّانة لا يخفى فيها الإعجاب. بعد دردشة خفيفة بين المرأتين، تحوّلت الكاميرا إلى وجه عمر الذي كان يجلس غير بعيد عنهما إلى نفس الطاولة.

– يشرفنا اليوم بحضوره أيضا، الدّكتور عمر الرشيدي الذي شغلت قضيته الرأي العام الفرنسيّ منذ سنتين، لكنّه ضنّ علينا بأيّ ظهور إعلاميّ.. لذلك نحن ممتنّون له كثيرا لتواجده بيننا اليوم.

وابتسمت ماتيلد محيّية ضيفها وهي تدرك أنّها في تلك اللحظة قد سجلت نقطة فارقة لصالحها ستثير غيظ منافسيها من الإعلاميين الذين سعوا لشهور طويلة إلى هذا اللقاء الصّحفي الحصريّ. أخذت تطرح أسئلتها على عمر تباعا، فجاراها بلباقة ودون حماس.. حتّى ظهرت في عينيها تلك النظرة العابثة وهي ترمق ضيفيها بنظرة شاملة وتقول بمرح:

– بالإضافة إلى القضيّة الشّائكة التي لا شكّ تثير الاهتمام، أعلم أن مشاهدينا يتحرّقون شوقا لمعرفة بعض التفاصيل الشخصيّة عن ضيفينا الخاصّين اليوم.. وهذا سؤال وردنا من المشاهِدة ساندرين على الفيسبوك تقول: «هل هناك علاقة عاطفية بين الأستاذة رنيم وموكّلها الدكتور عمر؟».

ضحكت ماتيلد متظاهرة بالمزاح، ثمّ أردفت:

– لم أكن لأتجرّأ على طرح السّؤال ذاته، لكنّ اختفاءكما عن العيون كلّ هذا الوقت ثمّ ظهوركما معا على نفس الركح التلفزيّ يساهم في ترويج هذا النوع من الشائعات.. كما أنّني حين زرت الأستاذة رنيم في مكتبها، كان الدّكتور عمر موجودا هناك، فيا لها من صدفة! إلا إذا لم يكن الأمر مجرد شائعة بالطبع.

التمعت في عيني ماتيلد نظرة دهاء بينما ازدادت عينا عمر قتامة وهو يتحفّز للإجابة. لكنّ رنيم التي بدا أنّها تعوّدت أخذ الكلمة نيابة عنه في قاعة المحكمة، سارعت برسم ابتسامة مهادنة وهي تقول في بساطة:

– من الطبيعي أن تنتشر هذه الشائعات وتروج هذه التساؤلات حين تكون المحامية شابة وموكلها في مقتبل العمر أيضا، وحين يحدث اختفاء يخيّب أمل وسائل الإعلام، تكثر الأقاويل.. لكن دعيني أوضح لك وللمشاهدين أمرا، فاختفائي واختفاء الدكتور عمر كانا لسببين مختلفين وكل منا قضى فترة انسحاب في بلد مختلف، فالدكتور عمر كان في حاجة إلى فترة نقاهة مطولة للعلاج من مخلفات الحادثة الجسديّة والنّفسيّة في المغرب، بينما دعتني أسباب عائليّة إلى الالتحاق بمصر لفترة غير قصيرة، ومن ثمّ التجهيز لزواجي المرتقب...

– آه، هذا رائع! لقد لفت انتباهي خاتمك المميّز، تهانينا القلبيّة أستاذة رنيم على زواجك القريب وكل أمنيات السعادة لك ولشريك حياتك.. فاصل قصير ونعود.

استندت رنيم إلى جدار الممرّ وأخذت ترشف قهوتها المرّة ببطء. لم تكن تتصوّر أن يكون البثّ المباشر مرهقا إلى تلك الدّرجة. كان عليها أن ترسم ابتسامة على الدّوام وتجد الإجابات المناسبة والمقنعة بشكل يحميها ويحمي عمر. دون وعي منها كانت تتصرّف كأنّها محاميته من جديد. فلتعترف، لم تكن يوما غير ذلك. لذلك، فإنها تتخذ وضعية الدّفاع تلقائيا. وتلك الـ«ماتيلد»، إنّها مزعجة بشكل لا يُحتمل! ما إن لمحتها قادمة من مقصورة استراحتها حتّى هبّت تقطع طريقها.

– عزيزتي رنيم، أرجو أن تكوني مستمتعة بالحلقة! حوار لطيف، أليس كذلك؟

قالت رنيم في ضيق:

– ليس هذا ما اتّفقنا عليه! طلبت حوارا بخصوص القضيّة، لذا التزمي رجاء بموضوع الحلقة.. ليس من حقّك طرح أسئلة شخصيّة!

– هوّني عليك يا عزيزتي.. نحن نقدّم ما يطلبه المشاهدون، والجمهور يهتمّ للتّفاصيل الجانبيّة والحكايات السرّيّة الخاصّة بالضيوف...

– لا يهمّني ما يطلبه المشاهدون. أليس دور الإعلام الارتقاء بالذّوق العامّ وتوجيهه؟

ابتسمت ماتيلد في تملّق وقالت مهدّئة:

– أنت على حقّ، لا مزيد من الأسئلة الشخصيّة.. أعدك!

قالت ذلك وهي تمدّ كفّها مصافحة، علامة الصّلح. زفرت رنيم في ارتياح، ثمّ تبعتها إلى استديو التّصوير. لم يكن عمر قد غادر مقعده، واكتفى بكوب ماء ارتشفه بهدوء ليغالب اضطرابه. ابتسمت وهي تستقرّ على المقعد المجاور وقالت مطمئنة:

– لم يبق الكثير.. سينتهي الحوار خلال دقائق قليلة!

هزّ رأسه في تفهّم ولم يعلّق.

بعد لحظات، كان العرض المباشر يُستأنف. زجرت نفسها مرّات عدّة ذلك المساء بعد كل تدخّل بالغت فيه في حمايته.. ربّما يظنّها تحسبه غير قادر على التعبير عن نفسه، أو تشك في بلاغته وملكته اللغوية؛ لكنه حين أخذ الكلمة وتحدّث بإسهاب عن يوم الحادثة وما تلاها من تأثير نفسي وجسديّ عليه، أبكى الحاضرين والمشاهدين بأسلوبه البسيط وكلماته التلقائية المعبّرة. لم يكن محاميًا مفوّها، لكنّه بدا إنسانيًا إلى أبعد الحدود.

انتهى البثّ المباشر، لكنّ مهمّة ذلك المساء لم تنته. غادرت رنيم مقعدها، وخطت باتّجاه الممرّ. لكنّ ماتيلد بدت منشغلة بإعطاء تعليمات لطاقمها من أجل التسجيل التّالي. وقفت تهزّ ساقها في توتر وترقّب. مرّ بها عمر في طريقه مغادرا استديو التّصوير.

– كنتِ رائعة هذا المساء!

– شكرا.. وأنت كذلك.

– حسنا، لقد انتهينا من هذا.. أرجو أن يكون ما فعلناه مفيدا لقضيّة ديانا.. تمنّياتي لها بالتوفيق.

– سأبلغها أمنياتك.

هزّ رأسه في تحيّة صامتة، ثمّ استدار ليغادر مبنى المحطّة.

زفرت رنيم في ارتياح. لم يكن ما فعلته هذا المساء يختلف كثيرا عن مرافعتها في المحكمة. لقد كانت ماتيلد بمثابة المدّعي العام، والجمهور مثل هيئة المحلّفين! ولم يكن عمر سوى موكّلها مرّة أخرى. ابتسمت وهي تفكّر بأنّها تشعر بالسّلام داخلها أخيرا. لم يكن من العسير أن تراه وتحادثه كما خالت.. طالما حافظت على الأسلوب ذاته. ستقنع بموقع المحامية، وتبقيه في خانة الموكّل. تلك قسمة عادلة!

نظرت إلى ساعتها. لقد تأخّر الوقت، وهي ما تزال تنتظر فراغ ماتيلد من مكالمة هاتفيّة لتحادثها بشأن ديانا، وبأمر آخر يشغلها. لكن ما بال موكّلتها قد تأخّرت؟

رنّ هاتفها بلحن مميّز، فابتسمت وهي تردّ على اتّصال شهاب:

– كنتِ مذهلة اليوم!

– أحقّا؟

– هل تشكّين؟ أنت نجمة الحلقة دون منازع! لعلّ منتج البرنامج يستغني عن ماتيلد دوبري ويرشّحك مكانها!

أرضت كلماته غرورها وأشبعت كبرياءها، لكنّها هتفت ضاحكة:

– لا تبالغ!

– أنا لا أفعل! إنّه إحساسي الصّادق! ماتيلد عجوز يجب أن تحال إلى التقاعد، وتترك المجال للمواهب الشّابة!

ضحكت ثانية في تسلية، ثمّ ساد الصّمت للحظات قبل أن تقول في لهجة معتذرة:

– شهاب!

قاطعها على الفور:

– لا تقولي شيئا.. لا أحتاج إلى توضيح.

كانت تدرك أنّ تبجّحها بخاتمه على الهواء وهي بعد لم تُجب طلبه يعتبر وقاحة لا مثيل لها! لكنّها كانت في مأزق، وكان عليها أن تبدو مقنعة أمام عيني ماتيلد الطّفيليتين والماكرتين!

– اعتبريني حارسك الشخصي.. كيسك الهوائيّ.. أو حتّى ترسانتك المسلّحة! يمكنني تلقّي الضّربات مكانك متى شئت!

ضحكا معا، ضحكات رغم مرحها الظاهر في طيّاتها كثير من الكآبة. تساءلت رنيم في حيرة، ما الذي يدفع رجلا مثل شهاب إلى الرّضا بصداقة مهينة كتلك التي تبقيه في خانتها؟ إنّه يستحقّ الأفضل.. وإدراكها ذلك يؤنّب ضميرها المتغابي!

– هل تناولت عشاءك؟

– أخذت وجبة خفيفة قبل الحلقة.

– هل تودّين مشاركتي عشاءً متأخرا؟ لديّ مناوبة ليليّة تبدأ بعد ساعتين.

– ما زلت في المحطّة، أمامي بعض العمل بعد.. شكرا لدعوتك اللّطيفة، لعلّنا نفعلها في فرصة أخرى!

كانت تعتذر عن لقائه معظم الوقت. بعد أن لعبت دور الدّليل السّياحيّ خلال أسابيعه الأولى في باريس، أخذت تنسحب تدريجيّا. صارت تكتفي بالاتّصالات المتفرّقة، من طرفه غالبا. كان ذلك أفضل بالنّسبة إلى مفهوم «الصّداقة» الذي تحاول إرساءه بينها وبينه. كان الأمر مختلفا في القاهرة. لقاءاتهما كانت مهربا لها من جحيم المراقبة العائليّة، ووسيلة إقناع للحصول على حرّيّتها! أمّا وقد غدت طليقة، فهي تحافظ على مسافة أمان حتّى لا يعلو سقف توقّعاته تجاهها!

انتبهت في تلك اللحظة إلى جلبة في الممرّ بينما ارتفع صراخ امرأة فجأة. أنهت الاتّصال على وعد لقاء قريب ككلّ مرّة، ثمّ اندفعت في اتّجاه الصّوت في فضول، فألفت سكينة تتخبّط في صراع مع أذرع رجال أمن المحطّة التلفزيّة الذين يحاولون جرّها خارج المبنى!

هتفت حين لمحتها:

– أستاذة رنيم.. أستاذة رنيم!

هرعت رنيم إليها في جزع، بينما خرجت ماتيلد وقد استرعى الصّراخ انتباهها.

– ما الذي يحدث هنا؟

– هذه موكّلتي، كنت في انتظارها بالدّاخل.. لكنّ أمن الاستديو منع دخولها!

حدّقت ماتيلد في شكل سكينة، ثمّ رجعت بنظراتها إلى رنيم في انزعاج:

– لم نتّفق على المزيد من الحالات الإنسانية!

– لم نفعل.. بعد!

تدخّلت سكينة في لهفة:

– سيدة دوبري.. أرجوك، يجب أن تستمعي إليّ.. أنا أمّ يائسة، وأنت أملي الأخير...

لم تكن أذرع رجال الأمن الصّلبة قد تركتها بعد، ولم يبد على ماتيلد الاهتمام بذلك. قالت في برود مخاطبة رنيم:

– أستاذة رنيم، لقد وافقت على مساعدة السّيدة ديانا، لكنّ برنامجي ليس جمعيّة خيريّة! وهذا الشّكل.. أقصد هذه السّيدة، ليست مناسبة للبثّ المباشر!

ما إن نطقت بتلك الكلمات الجافّة حتّى أخذ رجال الأمن يجرّون سكينة في اتّجاه المخرج.

تدخّلت رنيم في اندفاع:

– اتركوها، أنتم تؤلمونها.. ماتيلد، الأمر هامّ ومستعجل.. وديانا تراجعت عن طلبها بالظهور على الهواء. سكينة في حاجة إلى هذه الفرصة أكثر منها!

كانت رنيم تدرك أنّ تفاعل ماتيلد مع قضيّة ديانا لم يكن إنسانيّا بقدر ما هو مهنيّ واحترافيّ. كانت ديانا وجها مثاليا لتأثيث البرنامج.. شقراء فرنسيّة عاجزة، وزوجها أجنبيّ خائن! أمّا ملامح سكينة العربيّة وهندامها الذي يشي بهويّتها فلا يخدمان قضيّتها في شيء!

– حسنا سأستمع إلى قصّتها!

تأففت ماتيلد واستدارت على الفور لتعود إلى مقصورتها. هرولت سكينة خلفها وهي تسوّي قبعة رأسها التي مالت جانبا لتكشف جزءا من شعرها بعد صراعها لأذرع رجال الأمن. قالت حين استقرّ المقام بماتيلد أمام طاولة زينتها ومصفّفة الشعر تعمل خلفها بدقة لتغيير التسريحة قبل تسجيل ومضة الحلقة الجديدة:

– لقد أخذوا مني ولديّ يا سيّدتي، ومنعوني من رؤيتهما منذ سنوات!

قالت ماتيلد في لا مبالاة:

– من فعل ذلك؟ زوجك؟ عائلتك؟

كانت قد استسلمت لأصابع المصفّفة وأغمضت عينيها في شبه استماع.

– إنّها الدّولة الفرنسيّة.. قالوا إنّني أمّ غير جديرة وسلبوني نور حياتي.

قاطعتها ماتيلد بجفاء دون أن تفتح عينيها:

– وما الذي يمكننا فعله إن كان القضاء قد سحب منك ولديك؟ لا شك أنك كنت مهملة بشكل كبير...

– كانت مجرّد حادثة! لكنّ أحدا لم يستمع إليّ طيلة أربع عشرة سنة!

تدخّلت رنيم لتسرد تفاصيل القصّة بما أمكنها من اختصار، ثمّ قالت برجاء:

– لقد استنفدت كلّ السّبل.. ابنها الأكبر قد بلغ سنّ الرّشد منذ سنة، وهي تحاول الوصول إليه...

هتفت سكينة مؤيّدة:

– لست أطلب استرجاع حضانة الولدين، بل مجرّد رؤيتهما. لقد انقطعت أخبارهما عني منذ زمن.. لا أعرف أين يقيمان ولا كيف تكون ظروفهما. صحيح أنّهما لم يعودا بحاجتي، لكنني بحاجتهما.. أريد رؤيتهما وسرد الحقيقة على مسامعهما وأطلب الصّفح...

كانت سكينة قد أخذت تبكي بحرقة بينما رسمت ماتيلد تكشيرة متأفّفة. همست رنيم في حدّة:

– لقد وعدت بتخصيص حلقة لخدمة إنسانيّة لقاء الحوار مع الدّكتور عمر! ديانا تراجعت عن تسجيل الحلقة الخاصّة بها، وهذه الأمّ المكلومة أحقّ من أيّ شخص آخر بهذه الفرصة! أقول هذا لكوني شريكة جديدة في إعداد البرنامج.. إلا إذا كنت تودّين الاستغناء عني ونحن لم نبدأ بعد؟

انتبهت ماتيلد إلى التّهديد المبطّن في كلمات رنيم. زفرت في ضيق ثمّ قالت في برود:

– حسن، سنسجّل شهادتها.. لكن إن لم أجدها مقنعة بشكل كافٍ فلن يتمّ بثّها. فهمت؟

انهارت سكينة على الأرض وقد خانتها قدماها من فرط سعادتها، في حين ابتسمت رنيم في رضا.

***

– هدوء.. استعداد.. نبدأ خلال ٣، ٢، ١، تصوير!

ازدردت سكينة ريقها الجافّ ثم أخذت نفسا عميقا. التفتت إلى رنيم تستقي من عينيها شجاعة وطمأنينة، فشحنتها نظرتها الواثقة بالطاقة الكافية لتنطلق تحكي قصّتها. استمرّت في سرد محطّات مأساتها، متحرّية الوضوح والدّقّة.. ولم تكن ماتيلد في حاجة إلى حثّها لاستثارة تفاعل المشاهدين، فقد كانت لهجة سكينة، رغم تماسكها، عنوانا للصّدق والشّفافيّة.

– إنّي أعيش منذ أربع عشرة سنة في انتظار هذا اليوم. لقد بلغ ولدي جاسر السّنة الماضية الثامنة عشر، سنّ الرّشد. لقد أصبح ولدي حرّا في قراراته واختيار مسار حياته في نظر القانون الفرنسيّ. منذ أكثر من سنة أحاول الوصول إليه، بلا جدوى.. يمكنني أن أتوجّه اليوم إلى جاسر بالخطاب دون أن يمنعني أحد، لأنّه لم يعد طفلا يُخشى عليه من تأثير «أمّ غير صالحة». جاسر، هذه الرّسالة موجّهة إليك. إن كنت تسمعني يا ولدي، فلتعلم أنّني لم أدّخر جهدا في البحث عنك منذ غيّرت «عائلتك» مكان سكنها. لكنّني قليلة الحيلة، قصيرة الذراع. لم يعد أمامي سوى هذا الحلّ حتّى أصل إليك. جاسر بنيّ، تريد دليلا على أنّني أمّك؟ تعال لأريك ألبومات الصّور التي جمعتنا في حلب ونانت قبل عامك الخامس، وأتحدّى من يدّعون أنّهم عائلتك أن يظهروا صورة واحدة لك قبل هذه السنّ! جاسر، أرجوك أن تسمع منّي وتعرف حكايتي وما عشته من عذاب قبل أن تحكم عليّ. فإنّي بعد كلّ هذه السّنوات لم أعد أطلب من الدّنيا سوى أن أحتضنك وأختك وأطلب منكما الغفران.. فقد تشرّدتما بسببي.

*

وقفت رانيا إلى جوار ياسمين أمام المغسلة وراقبتها وهي تنهي جلي صحون العشاء. قالت على حين غرّة:

– رنيم لم تقل الحقيقة!

استدارت ياسمين تجاهها في استغراب:

– ماذا تقصدين؟

– لم تقل الحقيقة، بشأن علاقتها بموكّلها.. الدّكتور عمر!

ازدردت ياسمين ريقها في ارتباك، ثمّ قالت في هدوء وهي تعود إلى صحونها:

– وما أدراك؟

دنت رانيا منها أكثر، كمن يهمّ بالبوح بأسرار خطيرة، ثم قالت بلهجة لا تخفى فيها نبرة الإثارة والاستمتاع:

– لقد أخبرتْ والدتي عنه.. وتسبّبت في أزمة عائليّة حقيقيّة! والدي منعها من العودة إلى باريس لاستكمال المحاكمة، فأضربت عن الطّعام! لقد كانت يائسة.. ومثيرة للشّفقة.

ارتجفت ياسمين رغما عنها، لكنّها قالت ببساطة وهي تجفّف كفّيها:

– لقد كان ذلك في الماضي.. الآن هي مرتبطة بالدّكتور شهاب.

– من يدري!

– ماذا تقصدين؟

هزّت رانيا كتفيها وهي تستطرد:

– لقد عادت إلى باريس الآن.. والتقت حبيبها القديم! ربّما تعود المياه إلى مجاريها.. ألا تظنين؟

غابت ياسمين للحظات في أفكارها. رنيم لم تحدّثها قطّ عن تلك الفترة من حياتها، إبّان عودتها إلى القاهرة. لم تعرف أبدا عن خلافها مع عائلتها. لقد عادت فجأة وفي بنصر يمناها خاتم خطبة.. وظلّت حيثيّات تحوّلها من حال إلى حال طيّ الكتمان. قد تكون رانيا محقّة. ربّما تعود المياه إلى مجاريها.. فرنيم ليست مقتنعة بشهاب بشكل تامّ، ولقاءاتها المتكرّرة وعمر قد تفتح الأبواب المغلقة. ابتسمت وهي تقول ببساطة:

– ما يمكن أن يحصل ليس من شأني ولا من شأنك. فلنترك رنيم تتدبّر أمر علاقاتها!

هزّت رانيا كتفيها ثمّ انسحبت لترتمي على الأريكة مجدّدا، تقلّب بين المحطات التلفزيّة.. بينما وقفت ياسمين ساهمة لبضع لحظات إضافيّة.

رنيم وعمر.. لقد استحسنت تلك العلاقة في وقت ما، وأهدتها مباركتها. كانت تبدو مثاليّة في ذلك الوقت. لكنّها في هذه اللحظة، تشعر بضيق مفاجئ. مع إنّه لا يحقّ لها أن تنزعج! ما شأنك يا ياسمين لو أنّ رنيم تركت شهاب وارتبطت بعمر؟ لقد تسلّلت إليها قناعة خفيّة منذ ذلك الوقت، بأنّ علاقتهما مصيرها الفشل.. وأنّ الأمور سارت إلى الأفضل. وهي تنكر على نفسها ضيقها، فيزداد الكدر تراكما على صدرها.

*

دلفت رنيم وسكينة إلى المصعد. ترافقتا إلى الشقّة بعد الانتهاء من تسجيل شهادة سكينة. ضغطت رنيم على رقم الطابق في شرود، في حين كانت سكينة تسألها في توتّر للمرّة المائة:

– هل سيبثّون التّسجيل في الحلقة القادمة؟ هل تظنّين ماتيلد دوبري تفي بوعدها؟

قالت رنيم في ثقة:

- ستفعل. أعدك بذلك! سأفعل كلّ شيء حتّى يتمّ البثّ!

قبل أن يتحرّك المصعد، فوجئتا بسيّدة تهرول باتّجاههما وهي تسحب حقيبتين ثقيلتين. هتفت تستوقفهما:

- هلّا انتظرتما، رجاء!

انضمّت إليهما السيّدة داخل المصعد، وهي تشكرهما بابتسامة ممتنّة. كانت في منتصف العقد الخامس ربّما. تضع نظّارات طبيّة على عينيها، ويغطّي شعرها وشاح حريريّ أنيق. طالعتها رنيم في فضول وتساؤل. لم تر مسلمين كثرًا في المبنى السّكنيّ. سألتها:

- أيّ طابق؟

- الرّابع!

ما لبثت الدّفتان أن أقفلتا وبدأ الصّندوق المعلّق رحلة صعوده.

سألتها سكينة في ألفة:

- هل أنت في زيارة لأحد سكّان الطّابق الرّابع؟

- نعم، ابنتي تقطن هنا.

- آها

تبادلت سكينة ورنيم نظرة متسائلة. أيّ ساكنات الطّابق تصلح هذه السيّدة والدة لها؟

- هل تقيمان هنا أيضا؟ أنتما عربيّتان، أليس كذلك؟

- نعم، أنا من سوريا.. وهي من مصر.. نحن شريكتا سكن.

- آه، يا إلهي.. أنت سكينة! وأنت رنيم، أليس كذلك؟

حدّقتا فيها في استغراب، في حين واصلت فاطمة بابتسامة منشرحة:

- أنتما شريكتا ياسمين! أنا والدتها.

ثمّ التفتت إلى رنيم وأضافت:

- لقد ظننتك رحلت.. وسكينة حلّت مكانك!

ابتسمت رنيم في حرج:

- لقد عدت منذ وقت قصير.

حين توقّف المصعد في الطّابق الرّابع، سحبت سكينة ورنيم الحقيبتين عن طيب خاطر وسبقتاها إلى باب الشقّة. همست رنيم لسكينة في غفلة من فاطمة:

- يبدو أنّها ستقيم هنا!

هزّت سكينة كتفيها وسبقتها لفتح الباب. استقبلتهما ياسمين بالدّهشة، وهي تلمح الحقائب التي دفعتاها إلى مدخل الشقّة، ثمّ ما لبثت أن هتفت في ذهول:

- أمّي!

- مفاجأة، أليست كذلك؟

عانقتها فاطمة في حنوّ، واستكانت كلّ منهما في حضن الأخرى لبرهة، قبل أن تقول ياسمين في عتاب:

- لماذا لم تخبريني بقدومك، كنت لأستقبلك في المطار!

- لا داعي للعناء يا حبيبتي، أعرف الطّريق بمفردي.

ثمّ انتبهت إلى حضور رانيا الجالسة في الصّالة.

– أرى أنّك التقيت بسكينة ورنيم.. وهذه رانيا شقيقة رنيم!

حيّت فاطمة صديقات ابنتها وتلقّت عبارات التّرحيب، ثمّ انتحت بها جانبا:

– لم أكن أدرك أنّ الشقّة مكتظّة إلى هذه الدّرجة! حسبت سكينة شريكتك الوحيدة في السّكن.. أظنّ حضوري دون استئذان لم يكن بالفكرة السّديدة!

ابتسمت ياسمين مطمئنة إيّاها:

– لا تقولي هذا.. سنتصرّف.. نحن نتصرّف دائما!

– قد يكون من الأمثل أن أستجيب لدعوة زهور.. لقد عرضت استقبالي في منزلها. هيثم وعبد الحميد ينامان في الشّقة الجديدة، بعد تجهيزها.. لكنّني فضّلت أن نكون معا لأطول وقت ممكن.

– حسنا فعلتِ.. سنفعل إن شاء الله. اطمئنّي، سنجد ترتيبا مناسبا.

قادتها إلى غرفتها المشتركة وسكينة، لتستريح من وعثاء السّفر، ثمّ عادت إلى الصّالة حيث ألفت الفتيات يتشاورن. والدتها حضرت من أجل مناقشة رسالة الدّكتوراه وستمتدّ إقامتها حتّى حفل الزّفاف. بادرت سكينة على الفور:

– سأنام على الأريكة، لا بأس بذلك.

أردفت رنيم بسرعة:

– لن تضطرّي لذلك سوى لأيّام قليلة.. سأسافر قريبا

– تسافرين؟ إلى أين؟

ابتسمت عند سؤال رانيا وقالت:

– مهمّة عمل.. سأغيب لأسبوع أو أكثر.. حسب الظّروف! ستكون ياسمين مسؤولة عنك في غيابي.. هل فهمت؟

– لا تقلقي، رانيا أمانة عندي.

– آسفة لأنّني سأفوّت مناقشة رسالتك.. لكنّني سأكون هنا من أجل الزّفاف.

– لا بأس بذلك.

عانقتها ياسمين في امتنان، ثمّ قالت معتذرة

– آسفة يا فتيات، سأثقل عليكنّ خلال الشّهر المقبل.. لكنّها ستكون الأيّام الأخيرة على كلّ حال.. اعتبرنها هديّة زواج!

كانت تحاول إضفاء بعض المرح، لكنّ رنيم لكزتها بمرفقها وقالت في ضيق:

– هذا ليس مسليّا.. البقاء في الشقّة بعد رحيلك لن يكون له الطّعم ذاته.. سكينة، لا أقصد الإساءة! لكن تلك هي الحقيقة.

ابتسمت سكينة وهي تحتضن ياسمين بدورها:

– لن أناقضك، لأنّ هذا ما أشعر به أيضا.

***

دفعت رنيم باب الشقة بقدمها ثمّ ثبّتته بكتفها قبل أن تمرّر رزمة الأوراق التي تثقل ذراعيها عبر الفتحة، ثمّ اندفعت إلى الدّاخل لتلقي بحمولتها على طاولة الصّالة المنخفضة.

– أين الجميع؟

بادرت رانيا بالسّؤال وقد ألفتها وحيدة أمام شاشة التّلفاز.

– لقد خرجت ثلاثتهنّ إلى المتجر.. يقتنين لوازم تحضير الأكل الخاصّ بحفل ياسمين!

رفعت رنيم حاجبيها في دهشة. كأنّ أطنان الحلويّات التي أحضرتها فاطمة معها من تونس لا تكفي! لقد سحبت الحقيبة بنفسها وعاينت ثقلها. تكاد تقسم أنّها دفعت الكثير نظير الوزن الزّائد. على طاولة المطبخ، كانت الصّناديق الملأى مرصفة بعناية. ليس الأمر مجرّد توهّم من طرفها!

– ما هذا؟

سألتها رانيا في فضول وهي تلتقط قرصا مضغوطا كان يعلو كومة الأوراق وتقلبه بين أصابعها للحظات. استوت رنيم واقفة وهي تلهث ثمّ قالت في شيء من الغموض:

– عمل.

– تأخذين معك كلّ هذا في رحلتك؟

– ليس كلّه.. عليّ أن أسهر الليلة لإتمام بعض الأمور المتعلّقة وأترك مذكّرات مفصّلة لجورج، فيتولى شأنها في غيابي.

– أنت لن تغيبي طويلا، أليس كذلك؟

– لا أدري.

التفتت إليها رانيا في جزع:

– ماذا تقصدين؟ الرّحلة لأسبوع واحد، أليست كذلك؟

– الرّحلة الرّسميّة، نعم.

نظرت إليها رانيا في غضب. إنّها تتعمّد الغموض وتتصرّف كشخصيّة مهمّة وهذا يثير حنقها. لكنّ رنيم تجاهلتها ومضت إلى البرّاد لتتناول مشروبا مثلجا. وهي تتساءل في سرّها دهشة.. منذ متى تهتمّ رانيا لحضورها من غيابها؟

لكن سرعان ما انسحبت أفكارها إلى ما يشغلها.. كانت قلقة بشأن سكينة. لم تكن تريد أن تهمل قضيّتها، وماتيلد لا تبدي الحماس المطلوب. لذلك كان عليها أن تعمل منفردة. من ناحية أخرى، تدرك أنّ استرجاع الطفل المخطوف لن يكون بالأمر السّهل. نادر لن يسلّم بسهولة ومهلة الأسبوع قد لا تكون كافية.

– ما هذه الصورة؟

انتبهت حين رفعت رانيا ورقة بيضاء عليها رسم بقلم أسود لوجه شابّ. لم يكن الأمر سرّا، فسكينة تسعى إلى بثّ نداء على قناة فضائيّة. لكنّها لرغبة خفيّة في إغاظة شقيقتها قالت متعمّدة الغموض:

– شابّ مفقود.

ضحكت رانيا في سخرية:

– هل تمزحين؟ وهل يفقد الشباب في هذه السنّ؟ إنّهم يهربون أو يختفون.. لكنّهم بالتأكيد لا يُفقدون! لا تضيّعي وقتك في البحث عنه.

زفرت رنيم في انزعاج ثمّ قالت في تأنّ:

– المسألة أكثر تعقيدا ممّا تظنّين.

رأت الترقّب والاهتمام في عيني شقيقتها فواصلت:

– الولد فُقد منذ أكثر من عشر سنوات. وهذه صورة تقريبيّة لشكله الحاليّ.

- تقريبيّة؟

- نعم. طلبت من رسّام محترف أن يرسم تصوّرا لملامحه الحاليّة حتّى تساعدنا في البحث.

- ولماذا انتظر أهله كلّ هذه المدّة للشروع في البحث عنه؟

أنهت رنيم مشروبها ووضعت الكوب إلى جوار المغسلة ثمّ قالت في نفاد صبر:

- ليس لديّ وقت لأشرح، الكثير من المهام تنتظرني. إن كنت مهتمّة بمعرفة التفاصيل، انتظري الحلقة المقبلة من برنامج «الحقيقة الكاملة»!

ثمّ أزاحت كومة الأوراق لتحملها من جديد قبل أن تتوارى خلف باب غرفتها. مطّت رانيا شفتيها في ضيق ثمّ تناولت جهاز التحكّم وعادت لتقلّب بين القنوات التلفزية.

-١٣-

- حيّا الله جارنا الدّكتور!

استقبله العمّ محمّد بحفاوة كدأبه في كلّ مرّة تتقاطع سبلهما دخولا إلى المسجد وخروجا.

- لقد وعدّتني بجلسة نتحدّث فيها عن مشروعك، لكنّنا لم نفعل!

- اعذرني يا عمّ محمّد، لقد انشغلت في الأيّام الماضية.. فلم تسنح الفرصة.

- ها أنها قد سنحت إذن. هيّا بنا.. الشاي ينتظرنا.

ساقه من ذراعه فغمر الحرج عمر ولم يملك أن يرفض. دلفا إلى المجلس ذاته، فنادى المضيف ابنته لتحضر إبريق الشّاي. ما هي إلا لحظات حتى ظهرت الفتاة. أطرق عمر غاضا طرفه حتّى وضعت الصّينيّة وهي تلقي التحيّة بصوت رخيم خجول، وانصرفت.

- ها، أخبرني إذن.. كيف هو المحرّك الذي تعمل عليه؟

تلاشى الحرج حين تحوّلت دفّة الحديث إلى العمل. كان عمر يجد في نفسه الانطلاق والارتياح كلّما انبرى يشرح لكلّ مهتمّ تفاصيل مشروعه الطموح.

- ما شاء الله.. وفّقك الله يا بنيّ وييسّر أمرك!

أمّن عمر على دعائه بحرارة. كان يحتاج بشدّة إلى التيسير في حين تبدو كلّ الأبواب موصدة في وجهه.

- بالمناسبة.. لقد رأيتك في حلقة برنامج الحقيقة الكاملة! لست من متابعي البرنامج.. ماتيلد دوبري تلك الحرباء المتلوّنة، لا أرتاح إليها ولا أحتمل النظر إلى وجهها! لكنّني سمعت البقّال يتحدّث عن الحلقة، فشاهدت الإعادة! والله يا ولدي أنت فخر لنا كعرب ومسلمين.. بيّضت وجوهنا في إعلامهم الأسود، بيّض الله وجهك!

ابتسم عمر وقد تنامى حرجه، بينما تابع الرّجل:

- والطّفلة ابنتي، لقد استمرّت في البكاء حتّى انتهاء الحلقة! إنّها رقيقة وسريعة التأثّر.

أطرق عمر في ارتباك ولم يعلّق. نظر إلى ساعته، ثمّ تململ في جلسته، فقال العمّ محمّد:

– لقد اقتربت صلاة العشاء.. هلمّ بنا إلى المسجد.

ترافقا ببطء، وقد انقطع الشّيخ فجأة عن الحديث وكأنّه قد أنهى كلّ ما بجعبته، فاحترم عمر صمته. حين بلغا مدخل الجامع، أمسك محمّد كفّ عمر بين راحتيه وقال بلهجة عميقة:

– لم أرد إحراجك وأنت في بيتي، ورأيت أن أؤجّل الحديث حتّى نوشك على الافتراق.. يقال إنّ خير البرّ عاجله.. ويقال أيضا «اخطب لابنتك قبل أن تخطب لابنك».. وأنا لي ابنة وحيدة، ونحن في هذه الغربة ليس من اليسير أن أجد لها زوجا مناسبا، وإنّني أحببتك وارتحت إليك منذ رأيتك.. وكلّما جلست إليك وسّعت لك مكانا أرحب في قلبي!

تلجلج عمر ولم يدر بما يردّ ذاك العرض المباشر وغير المتوقّع، فتابع محمّد:

– لقد طلبوها منّي كثيرا، مذ بلغت الثامنة عشرة.. لكنّها لم تكن ترضى! ليس لأنّها متطلّبة، فالقليل يكفيها.. لكنّ ذلك القليل المطلوب شحيح عند شباب اليوم! المعدن الأصيل عملة نادرة.. وحيث إنّي أقدّر خصالك.. فإنّي أعرضها عليك، إذا ارتأيت أن تتّخذها زوجة.

همهم عمر في ارتباك:

– ولكن.. يا عمّي...

رفع محمّد كفه مقاطعا:

– أعلم أنّك لا تفكّر في الزّواج الآن.. لكن لا أحد يدري أين يكون النّصيب وكيف يكون. تعال وانظر إليها.. «فإنّه أحرى أن يؤدم بينكما». فإن حصل قبول فبها ونعمت.. وإن لم يحصل، فأنت ولدي اليوم وغدا.. وهذا لن يفسد الودّ الذي بيننا.

أمام صمت عمر، استطرد الرّجل:

– لن أستعجلك.. فكّر في الأمر. فإذا رضيت بجلسة تعارف أهلا بك متى رغبت.

حين انفرد عمر بنفسه، فكّر طويلا. ما الذي يجعل ذاك الرّجل يلاحقه ويعرض عليه ابنته؟

لقد كان ثريّا، ثريّا جدّا.. بقدر لا يُدركه هو نفسه. الرّقم الضخم ذو الأرقام الثّمانية الذي يظهر في دفتر حساباته البنكيّة يفوق قدرته على الاستيعاب. لكن لا أحد من حوله يعرف مدى ثرائه.. باستثناء جورج! حتّى الذين عرفوا بحصوله على تعويض، لا يعرفون الرّقم بالتّحديد.

لم يتبدّل شيء في شكله وهندامه ليعكس وضعه الجديد. إنّه ما يزال يركب المواصلات العامّة معظم الوقت، رغم اقتنائه لسيّارة تقبع غالب الوقت في المرآب! لم يكن يصرف إلا بمقدار الحاجة، كما تعوّد أن يفعل.. وحدها الجراحة تقضم قضمات صغيرة كلّ حين وحين من صندوق الكنز العظيم. حتّى مصاريف المختبر، فإنّه يسحبها بحساب، ويدوّنها بحرص، حتّى لا تأخذه الغفلة ويستنزف رأس المال قبل أن يبدأ العمل الفعليّ.

لذلك، لم يجد عرض الرّجل معقولا ولا مقنعا. أنت تبحث لابنتك عن أفضل «الصّفقات» لا أردئها.. وهو يعدّ نفسه قد غدا صفقة «رديئة»! بضاعة معطوبة! لماذا قد ترغب به فتاة غريبة، جميلة ومثقّفة فوق ذلك؟

كانت تلك الأفكار تروح وتجيء في رأسه بلا توقّف. قال أبوها إنّها بكت تأثرا بقصّته. فهل تكون الشّفقة سببا مقنعا؟ وهل تبني الشّفقة بيتا؟ أيّ غباء هذا؟ تتأرجح انفعالاته بين الغضب والرّيبة والعجب والفضول. ثمّ بعد مغالبة طويلة لهواجس نفسه وتساؤلاتها، قرّر قطع الشكّ باليقين. لم يجد بدّا من قبول الدّعوة. سينظر إليها ويسمع منها. لا عيب في ذلك. لم يكن واثقا ممّا يريده منها، لكنّ الفضول غلب على كلّ الانفعالات الأخرى.

بعد يومين، جلس على المقعد الوثير في حصّة «العلاج النّفسيّ»، وسأل الطبيب:

– هل يصحّ أن أرتبط بإحداهنّ في هذا الوقت؟

ابتسم المعالج وقال مشجعا:

– الدّعم المعنويّ وتلقي الحبّ.. من أبرز أسباب الشّفاء السّريع!

تردّد عمر، ثمّ قال بلهجة مهزومة:

– لكنّني لا أشعر بالثّقة! لا زلت أخشى نظرة الآخرين. لا أحد بلغ منّي من الحميميّة أن أكشف ندوب جسدي أمامه.. باستثناء الأطبّاء!

– ندوب روحك هي التي تحتاج إلى التّعافي في أقرب وقت.. أمّا الجسد فسيأخذ ما يأخذه من الزّمن ليفعل.

عبَر الطريق نفسها برفقة جاره حتّى باب الدّار. ذهب بإرادته الكاملة هذه المرّة. دخل المجلس ذاته، وأطرق مترقّبا، بينما غاب الرّجل في الدّاخل يستدعي ابنته. خرجت هذه المرّة، بدون دلّة الشّاي وطبق المرطّبات. ألقت السّلام بصوت حيّي خفيض، وجلست على بعد مترين منه، ثمّ اختفى والدها ليترك لهما حريّة التّعارف.

لم يغضّ بصره هذه المرّة. رفع عينيه ونظر إليها. كان يُدرك من لمحات سابقة إبّان دخولها على مجلسه ووالدها أنّها ذات جمال. لكنّها بدت أكثر من ذلك هذا المساء.. ليس لأنّها تجمّلت، فقد كانت بشرتها خالية من الأصباغ. ربّما لأنّه يرمقها بعين أخرى، وقد كان يصرف تفكيره عنها في السّابق.

كانت ذات ملاحة وبهاء. بشرتها بيضاء كالحليب الصّافي، عيناها عسليّتان وسيعتان مكحولتان، وقوامها رشيق متناسق. لم يقف على عيب خلقيّ بيّن. دون مقدّمات، رفع كمّ قميصه ليكشف عن ذراعه اليمنى، وتظهر آثار الحروق على بشرته. قال بهدوء:

– ثلث جلدي مغطى بندوب كهذه.

فاجأتها حركته الفجّة، فصرفت بصرها عن ذراعه في حرج، ثمّ قالت:

– هل تحاول تنفيري؟

– بل تحذيرك!

– لستُ أجهل قصّتك.

– وماذا تقولين إذن؟

– من منّا ليس ناقصا؟ إن كان نقصك جسديّا، فغيرك روحه ناقصة، أو عقله ناقص.. وإنّي أفضّل النقص الماديّ على المعنويّ.

رفع حاجبيه في انتباه. كانت فلسفتها تدهشه. ورغم جدّية الكلام، وجد نفسه يطرب للهجتها المشرقيّة العذبة. تساءل في سرّه، هل يمكن التّوافق والتّلاقي بين المشرق والمغرب؟

بينما واصلت آية:

– حين رأيتك في اللّقاء التّلفزيّ، لم تُظهر أدنى ضعف. لقد سحقتهم بلا تردّد.. تفوّقت عليهم وألجمتهم وكانت لك الكلمة الأخيرة!

قال في مرارة:

– هكذا نكون أمام الأغراب.. نضع قناعا ونحبس حقيقتنا في قمقم، فلا نريهم نقاط ضعفنا ولا نكشف دواخلنا.. لكن إزاء المرأة التي ستشاركني حياتي، أريد أن أكون على سجيّتي.. شفافا وطبيعيا.

– ما الذي تخشاه إذن؟

– شيئان لا ثالث لهما.. الشّفقة والنّفور!

أخذت نفسا وتريّثت، في حين علت ملامح عمر علامات التوتّر.

– أمّا النّفور فلا مكان له، وإلا ما كان بيننا هذا اللّقاء.. وأمّا الشّفقة، فلا أرى لها داعيا.. كلّنا مبتلى، لكنّنا غالبا ما نرى ابتلاءنا أعظم من حجمه الحقيقي، فتهون أمامه ابتلاءات الآخرين.

– ما ابتلاؤك أنت؟

– انتمائي إلى وطن أسير!

عقد ما بين حاجبيه وقال في حيرة:

– لا أراه عيبا!

– ليس عيبا.. بل حمل ثقيل.. وليس كلّ الرّجال بقادرين على مشاركته.

– ألا يقول المنطق أن ترتبطي بفلسطينيّ مثلك.. يدرك حملك ويراه بنفس العين؟

في حركة غير متوقّعة، سحبت آية سلسلة حول عنقها، كانت تخفيها في طيّات ثيابها. في طرف السلسلة يتدلّى شيء يختلف عن الحلية الذهبيّة المعتادة. رفعت كفّها وهي تحتضن بين أناملها مفتاحا معدنيّا صدئا وقالت بلهجة صارمة:

– هل تدري ما هذا؟

أومأ عمر علامة الإيجاب، وهو يحدّق في المفتاح الأثريّ مأخوذا: «مفتاح العودة». لم تكن مجرّد أسطورة، حكاية المفاتيح تلك! لقد كانت حقيقة.. مفاتيح الدّور التي سُلبت حين استوطن الاحتلال الصّهيونيّ قرى فلسطين ومدنها، يحتفظون بها ويتوارثونها جيلا بعد جيل، عسى يكون لهم في العودة نصيب.

– هذا مفتاح بيت جدّي رحمه الله.. لعلّ أحدنا لا يعرف أين يقع البيت بالتّحديد.. لكنّنا نحتفظ بالمفتاح والصّور القديمة.. ونتعهّد الحكاية بالرّعاية، فنسقي الذّكريات بالدّمع والحنين، كي لا ننسى من نكون، وما هي قضيّتنا.

تأمّل في كلماتها في اهتمام، وقد بات مشدودا إلى حديثها. بعد الوجه الحسن، والصّوت الحسن، قابله حديث حسن.. ووجد نفسه يستزيد منه. ارتجفت أصابعه المتشابكة في حجره، بينما كانت آية تواصل:

– ليس كلّ الفلسطينيّين سواسية.. مثل كلّ شعب من شعوب هذه الأرض، فيهم الصّالح والطّالح، فيهم البرّ والفاجر، وفيهم الصّادق والخائن.

ابتسم عمر وقال:

– في وجداننا كلّ فلسطينيّ شريف.. وكلّ ما يأتي من تلك الأرض المباركة مقدّس!

- لكنّ الواقع غير ذلك.. نحن شعب قد تفرّقنا في أصقاع الأرض منذ أكثر من نصف قرن، وكثير منّا للأسف رضوا بأوطان بديلة وفترت همّتهم، وما عاد لهم مطمع في أرض أجدادهم! أنا لا أريد أيّا من هؤلاء.. أتوق إلى صاحب الهمّة العالية! وقد حسبتك صاحب همّة عالية.. فهل أنت كذلك؟

أصابه سؤالها المباشر في مقتل. هل أنت صاحب همّة عالية يا عمر؟ ردّد فؤاده رجع الصّدى، وغاب في دهاليز روحه يفتّش عن همّته ليقيس مدى ارتفاعها. حين ثاب إلى رشده، كان أهدأ بالا وأهنأ حالا. قال وقد غشيته سكينة عجيبة:

- عسى أن أكون كذلك!

قالت في هدوء:

- سأهبك فرصة لتثبت نفسك إذن!

شعر عمر بأنّ مقاليد القرار قد تفلّتت من يده في تلك اللحظة، وغدت بين راحتيها.. كأنّما هي تتماهى مع مفتاح بيت جدّها الصّدئ.

-١٤-

زيتونة صغيرة خضراء غير ناضجة، قطفت قبل الأوان وطحنت في المعصرة طويلا — أكثر ممّا يجب أو تتحمّل- حتّى استنفد لبّها زيته كلّه إلى آخر قطرة! هكذا كانت تشعر.

بعد كلّ سنوات الدّراسة الطويلة التي مرّت بها، نضبت طاقتها. لم يعد بداخلها زيت تحرقه لتضيء الدّرب. لم يبق في داخلها سوى الخواء. من العجيب أن تستسلم للتّعب ولم تعد تفصلها سوى أيّام معدودة عن موعد مناقشة رسالتها!

لقد مرّت بالكثير. بعد روزلين كانت هناك سبع وثلاثون حالة درستها. لم يكن هناك المزيد من الأجساد المتدليّة أو السيقان المتأرجحة. لم ترَ جثّة واحدة إضافيّة. مقابلاتها مع «الحالات» التي تفوّقت فيها نزعة الحياة على الموت كانت بحضور طرف آخر من مسؤولي الرّعاية النفسية أو الصحيّة. أما تلك التي قضت نحبها، فلم تكن في حاجة إلى رؤيتها. اكتفت بلقاء أفراد العائلة والأصدقاء وزملاء العمل المقرّبين. في رحلتها تلك رأت الكثير من البؤس واليأس والتعب من الحياة. لكنّها بقيت صامدة، مبتسمة ومواسية. وحمدت الله في كلّ مرّة لأنّها لم تُبتلَ بمثل تلك الآلام.

وهي بصدد الانتهاء من تلك الدراسة/المغامرة، كان تركيزها ينسلّ من الحالات وعلاجها إلى ذاتها ومشكلاتها الشخصيّة الصغيرة. من المثير للسّخرية أنّها وقد أوشكت على تقديم اقتراح لحلّ أزمة وجوديّة مستعصية تؤرق كبار المسؤولين في الشركات الكبرى الفرنسيّة، تقف عاجزة أمام حلّ أزمتها الصغيرة التي لا تتجاوز ذاتها! ربّما هي ليست أزمتها وحدها، بل هي أزمة كلّ فتاة مسلمة تلبس الحجاب وتحاول الحصول على فرصة عمل في ذلك المجتمع المتعصّب لمرجعيّة الدّولة اللّا دينيّة، لكنّها مسؤولة في تلك اللحظة عن نفسها فقط. في انتظار أن تصبح في موقع يسمح لها بحمل عبء مشكلات

الأخريات! نعم، كان ذلك ما يطأ على صدرها بحذاء عسكريّ غليظ يكاد يقطع تنفّسها. كانت خائفة ممّا بعد المناقشة.

في الفترة السّابقة، أجرت عديد المقابلات التي كانت كلّها تقريبا تنتهي بنفسة الحركة المناورة، حين يخرج مسؤول التعيين نسخة من «القانون الداخلي» للمؤسسة وقد ظلل عليها الفقرة الخاصّة بـ«الإشارات الدينية المستفزّة» أو «الزّي الموحّد»، أو «لائكيّة المؤسّسة».

أكانت تقدّم بطلاقة وثقة أطروحة عن حماية حياة الآخرين وإنقاذهم من اليأس الجارف الذي يودي بالأخضر واليابس.. ليسألوها عن لباسها؟

منذ سنوات طويلة، حين اتّخذت القرار بالالتزام بالحجاب الإسلاميّ، قالت لها ألسنة صديقة مهتمّة لأمرها: لن تجدي عملا! لكنّها كانت تردّ في ثقة: الرّزق بيد الله!

تتمنّى اليوم لو أنّها تمتلك نصف تلك الثّقة. لقد وهنت من المحاولة وتكرار الهزيمة. الثّقة، التوكّل، الصبر.. أصبحت أكثر ضعفا من حمل ثقل تلك الكلمات.

في سنوات دراستها الجامعيّة الأولى، كان عليها أن تراوغ أمن الجامعة الذين يتلقّون تعليمات متباينة في كلّ مرّة. تارة يتساهلون ويتركونها ورفيقاتها يمررن، وأخرى يقفون بالمرصاد ويتحيّنون فرصة الانقضاض على كلّ «قطعة قماش» زائدة عن الحاجة. كانت أيّاما عصيبة، تسلّحت فيها بالأوشحة الإضافية لتعوّض تلك «المصادرة» بعد تجاوز «حواجز التفتيش»، وبمناديل الموضة صغيرة الحجم التي ترضى عنها الإدارة أكثر من غيرها، وبالمناديل الشعبيّة التقليديّة المثيرة للضحك بألوانها الفاقعة وحتّى بـ«السفساري» الحريري الذي ينزلق عن الرّأس ويكشف شيئا ممّا يُراد إخفاؤه إذا ما أوقفت لإبراز بطاقتها الجامعيّة أو هويّتها...

كلّ تلك المحن خلّفتها أقوى عزيمة وأشدّ بأسا. ربّما لأنّها لم تكن وحيدة. كانت العشرات بل المئات في جامعتها وفي المؤسّسات الجامعيّة المجاورة يتعرّضن إلى نفس التّنكيل والتضييق. كنّ يتقابلن كثيرا في قاعات انتظار «غرف الاستجواب» عند مدير الجامعة أو الناظر، فتشدّ بعضهن من أزر بعض ويتبسمن في استهانة، ثمّ يسخرن من سخافة ما قيل خلف جدران الغرف المغلقة.

لم تكن قد وصلت إلى الجنّة المنشودة حين عبر المتوسّط إلى ضفّة «بلد الحريّات وحقوق الإنسان». تهالكت حتّى عثرت على فرصة الدكتوراه، وعانت خلالها من الملاحظات الجانبيّة المخزية ومن النظرات المستهجنة. لو لم يكن شخص مثل دافيد مسؤولا عن بحثها، ربّما كانت طُردت أو قدّمت اعتذارا منذ زمن طويل. ألم يكن ذلك رزقا من الله؟ إذن لماذا هذا اليأس المفاجئ؟

– انتهيت من التقرير النهائيّ إذن؟

أومأت ياسمين برأسها وهي تشير إلى النّسخة الورقيّة ذات الطّباعة الفاخرة على مكتبها:

– لقد أرسلت نسخا بريديّة إلى أعضاء اللّجنة.

تناولها دافيد باهتمام، ثمّ هتف في حماس:

– تهانينا!

ابتسمت في مزيج من الارتياح والإشفاق. ارتياح ممّا مضى وإشفاق ممّا هو آت!

– المثول أمام اللجنة خلال أيّام!

– ستكونين جاهزة، لا تخشي شيئا.

استوى على المقعد المقابل لمكتبها وسألها بلهجة جادّة:

– هل فكّرت بما بعد المناقشة؟

– يجب أن ندرك أنّ مقرّ العمل هو المسؤول الأوّل دائما عن الصحّة الجسديّة والنفسيّة لموظفيه.. المؤسسة التشغيليّة هي مكان للتواصل الاجتماعي والحصول على الدّعم والشحن بالطاقة الإيجابيّة للأشخاص الذين يعانون من ضيق وكرب، بما في ذلك في حياتهم الخاصّة! وإذا حصل العكس، فيجب أن يسائل المسؤولون أنفسهم.. ما الذي قمنا به بشكل خاطئ؟

تنهّدت. لقد انتهى الأمر.

تعالى التصفيق في أرجاء القاعة في حين تجمّعت عبرات الارتياح في عينيها. أمسكتها عن الهطول. ليس بعد. ما زالت هناك أسئلة لجنة التحكيم.

***

– كنت رائعة!

– تهانينا.

– بحث موفق!

وزعت الابتسامات في جذل وهي تتلقى عبارات التهنئة. تحسّ بخدر في حواسها وخمول في أطرافها بعد انتهاء جلسة الاستماع التي دامت ساعة ونصف الساعة، تلتها نصف ساعة إضافية في انتظار قرار لجنة التحكيم. تقدّمت أفواج المهنّئين من زملاء وأساتذة وأصدقاء وأفراد عائلة إلى القاعة المخصّصة للاحتفال وهي تتوسّطهم مثل فراشة منطلقة لا يسع العالم سعادتها.

– من هنا أرجوكم.

وقفت ميساء برفقة سكينة على رأس المائدة، تقدّمان خدمة البوفيه، بينما انتصبت فاطمة وزهور عند مدخل القاعة تستقبلان المهنّئين، كأنّما هما تتدرّبان على سيناريو حفل الزّفاف القريب!

كانت فاطمة قد أحضرت في حقيبتها أطنانا من الحلويات التونسية وانشغلت برفقة سكينة على امتداد اليومين الماضيين بتحضير أصناف المعجّنات، لإمتاع ذائقة الحضور المخضرمين، من تونسيّين مغتربين تفصلهم سنوات عن آخر وجبة تقليديّة أصليّة، وسائحين قدامى تربطهم بأرض الفينيقيين ذكريات عطلة ما بطعم البقلاوة شديدة الحلاوة وكعك اللوز قليل السّكر.

بدا أنّ المأكولات التي نسقت على طاولة البوفيه بشكل جذّاب لم تترك مساحة كافية في حقيبة سفرها حتى لحاجياتها الشخصية القليلة. وكانت تلك كلّ متعتها، أن تضفي لمسة أمومة على حفل ابنتها الوحيدة.

– الآن وقد انتهى كلّ هذا، سنتفرّغ لحفل الزّفاف.

كانت زهور تغمز ابنها وهي تمسك بكفّ ياسمين من جهة وتحتضن كتف صديقة عمرها فاطمة من جهة أخرى. التّحصيل العلميّ مهمّ، نعم. لكنّه لم يكن يوما على لائحة أولويات زهور ومثيلاتها من الأمّهات العريقات في التقاليد. كان تعليم ياسمين

الجامعي كافيا جدّا، فما حاجتها للدّكتوراه؟! أوليس مكان المرأة في نهاية الأمر بيت زوجها ومهمّتها الأسمى تربية الأولاد والعناية بعشّها؟ لم تصدّق أنّ العقبة التي فرضتها ياسمين في سبيل إتمام مشروع الزّواج قد انزاحت أخيرا.

ابتسم هيثم أمام التهاب وجنتي ياسمين، بينما تابعت زهور مخاطبة فاطمة:

– لم أرد مضايقتك وأنا أعلم مدى انشغالك بالتّحضير لأمسية اليوم.. طالما أنّك وياسمين متفرّغتان الآن، سنتحدّث بالتّفاصيل على العشاء.

أومأت فاطمة توافقها، ثمّ انسجمتا في حديث جانبيّ.

– أخيرا تمكّنت من المجيء!

استدار هيثم ليستقبل عمر في حفاوة، ثمّ قال عمر موجّها كلماته إلى ياسمين:

– تهانيّ الحارّة! أعتذر منك جدّا.. لم أستطع التفرّغ قبل هذا الوقت.. ثمّ تهت في ممرّات الجامعة حتّى بلغت الموقع.. أظنني فوّتُّ الأهمّ!

ابتسمت ياسمين مهوّنة، ثمّ أشارت في حركة مازحة إلى البوفيه:

– بالنسبة إلى أمي وخالتي زهور أظنّك وصلت في الوقت المناسب!

رغم الاهتمام الذي حاولت السيّدتان إبداءه، فإنّ مللهما الواضح قد افتضح من خلال وشوشاتهما المطوّلة خلال عرضها. لا يمكنها أن تلومهما. فلطالما كانت المحاضرات والخطابات التي تتجاوز مدّتها ربع السّاعة مصدر ملل لها هي نفسها. أما الاجتماعات المفتوحة حول أكلة خفيفة ودردشة أخف، لم تكن لتثير ملل أحد...

– أنا أيضا وصلت!

– رانيا، يا إلهي! ماذا فعلت بشعرك؟

لفّت رانيا حول نفسها في حركة استعراضية لتهب ياسمين صورة أشمل. كانت قد استغلّت غياب شقيقتها الكبرى لتمنح نفسها شكلا جديدا، جذابا وأنيقا. كان الشعر الكستنائي المجعّد الذي يصل إلى نصف الظهر قد ترك مكانه لخصلات ناعمة شقراء قصيرة لا تكاد تلامس العنق.

– ما رأيك؟ هل يناسبني؟

همست ياسمين في جدّيّة:

– هذه القصّة أكبر من سنّك. رنيم لن تكون مسرورة أبدا!

لكنّها سرعان ما تغاضت عن تأنيبها واستدارت تقدّمها لهيثم ووالدته:

– هذه رانيا شقيقة رنيم.

انتبهت رانيا إلى الرّجل الواقف جوار هيثم. هتفت غير مصدّقة:

– يا إلهي، أنت الدّكتور عمر الرّشيدي! أنت تماما كما على التلفاز!

حاولت أن تبدو أكثر نضجا وهي تقدّم نفسها هذه المرّة:

– أنا رانيا، شقيقة رنيم.. رأيتكما في البرنامج التلفزي، «الحقيقة الكاملة». تهانينا لبراءتك.

– أهلا بك.. وشكرا.

– أصبحت مشهورا الآن!

داعبه هيثم بقوله متضاحكا، في حين ابتسم عمر في حرج ولم يعلّق. استطردت رانيا محاولة الاستحواذ على انتباهه:

– رنيم ليست هنا.. لقد سافرت في مهمّة عمل.

هزّ عمر رأسه في صمت. خمّن أنّها قد غادرت برفقة ديانا إلى الجزائر، بينما واصلت رانيا في فضول:

– لم أكن أعلم أنّك على معرفة بياسمين أيضا.. بالمناسبة أنا أشاركهما السّكن الآن.

– آه.. هذا جيّد.

ضايقتها لا مبالاته. لم يكن مهتمّا أو متجاوبا مع حديثها. لكنّها بدت مصرّة على استدراجه.. كانت الخطّة واضحة في رأسها. ستبعد رنيم عن شهاب، وعمر وسيلتها المثالية!

– رنيم تتحدّث عنك كثيرا!

ابتسم في لباقة وقال دون حماس:

– آه.. هل تفعل حقّا؟

– دكتور عمر.. ما الذي تفعله هنا؟

قاطعهما سامي كلود وهو يصافح عمر بحرارة. تراجعت رانيا في ضيق، بينما تساءل هيثم في دهشة:

– أنتما على معرفة سابقة؟

ضحك عمر وقال:

– إنّها قصّة طويلة.. لنقل أنّنا زملاء في مجال الكيمياء! لكنّني لم أتوقّع لقاءه في هذا المكان.. كان آخر عهدي به قاعة المحكمة حين شهد البروفيسور في قضيّتي.

تولّى هيثم التقديم:

– البروفيسور سامي، والد ياسمين!

– حقّا؟ فرصة سعيدة يا سيّدي!

ضحك سامي ثمّ سأله مداعبا:

– وأنت كيف وصلت إلى هنا؟

– هيثم صديق مقرّب.

– آها.

اكتفى بذلك القدر، ورأى من الحكمة ألّا يشير إلى معرفته بياسمين. تصافح الرّجلان مرّة أخرى، وقد علت ملامح عمر الدّهشة. كانت مصادفة لا تُصدّق. تبادل ثلاثتهم بعض المجاملات اللّبقة قبل أن يهمس سامي إلى عمر:

– هل يمكن أن أتحدّث إليك على انفراد؟

أومأ عمر دون تردّد، وتبع البروفيسور إلى الممرّ خارج القاعة، بعيدا عن ضوضاء المدعويّن.

– هل تواصل العمل على مشروعك؟

– أحاول أن أفعل.. لقد ابتعدت عن المختبر لوقت طويل، لكنّني أنوي الاستئناف في القريب.

– تعلم أنّني متحمّس جدّا لأبحاثك، إن احتجت أيّ مساعدة، فأنا في الخدمة.. وإن رأيت أن نتعاون في أعمال مشتركة في المستقبل، فسيكون هذا من دواعي سروري.

ردّ عمر في لباقة:

– أشكر كثيرا اهتمامك.. لكنّني أفكّر في إقامة مختبر خاصّ. أنت تعلم، لقد سئمت من العمل لدى الآخرين.. لا أريد للمفاجآت الكريهة أن تتكرّر!

ابتسم في مرارة مسترجعا تجربته القاسية. لكنّ سامي قال في حذر:

– أعلم أنّك مفعم بالحماس.. لكنّ الأمر ليس بهذه السّهولة. هل تقدّمت بطلب إنشاء المختبر؟

– نعم.. منذ شهرين تقريبا.

– هل جاءك ردّ؟

– ليس بعد.

– ولن يأتي في القريب! سيماطلون.. وحين تقصد الوزارة للاستفسار، سيطلبون وثائق إضافيّة.. والمزيد من الوثائق في كلّ مرّة.. ستكون هناك وثيقة ناقصة، مهما تفانيت في توفير ما يطلبون!

عبس عمر في انزعاج. لقد تأخر عن المناقشة لأنّه أمضى السّاعتين الماضيتين في شجار مع موظّفي وزارة الصّناعة، بعد أن ادّعى الموظّف ضياع ملفّه! كان عليه أن يعيد استخراج الوثائق من الصّفر، لأنّ الملف اختفى من مكتب الموظّف فجأة وبلا تبريرات. لقد حسب الأمر حادثة ما.. لم يعتقد البتّة أن يكون مستهدفا! حتّى وهو يستمع إلى البروفيسور سامي، لم يشأ أن يصدّق. هل يمكن أن يصل بهم التّآمر إلى تلك الدّرجة؟

بينما واصل سامي:

– هل تقدّمت بطلب الجنسيّة الفرنسيّة؟

– لا، لم أفعل.

– إذن افعل في أقرب فرصة.. وحين تفعل، فكّر في تغيير اسمك بالمرّة.

رفع عمر حاجبيه في ضيق.

– لا تهتمّ بما يقوله الآخرون وبأحكامهم المسبقة.. فكّر في نفسك وفي مختبرك. حين تنجح سينحنون أمامك احتراما.. إنّه مجرّد اسم في هويّتك الفرنسيّة، لكنّه سيفتح أمامك الأبواب المغلقة! ستبقى عمر في حياتك العاديّة، بين أصحابك وأفراد عائلتك، وستكون كما يريدون لك أن تكون على الورق، لتحظى بالفرص التي تستحقّها!

ابتسم عمر وهو يكتم سخريته، ثمّ تجرّأ على السّؤال:

– هل هذا ما فعلته أنت.. بروفيسور كلود؟

ابتسم مداريا تشنّجه وقال:

– لست نادما على تغيير اسمي.. لكنّ لو عاد الزّمن بي إلى الوراء لاخترت اسم عائلة آخر، غير اسم زوجتي السّابقة!

ثمّ ضحك في صخب، قبل أن يضيف:

– فكّر جيّدا بما قلته.. لقد أسديت لك النّصيحة بإخلاص، لأنّني أتمنّى لك النّجاح.. ولا تنسَ، اطرق بابي إذا احتجت أيّ شيء!

صافحه عمر شاكرا، ثمّ شيّعه بنظرات ذاهلة. هل يعقل أن يكون هذا والد ياسمين؟

***

حين عادت ياسمين من جولتها حول البوفيه، كانت فاطمة وزهور قد ابتعدتا وانضمّ والدها إلى دافيد وهيثم في نقاش سياسيّ محتدم. رغم النّضج الظاهر في علاقة الطّليقين،

إلا أنّ كليهما يتجنّب التواجد بجوار الآخر قدر الإمكان. فالجروح القديمة قد تلتئم، لكنّها تترك علامات شائهة يصعب تجاهلها رغم مرور الوقت.

بادرها والدها ما إن لمحها مقبلة:

– والآن ماذا ستفعلين؟

– لست أدري بعد.

– هل يُعقل هذا؟ كان يجب أن تشرعي في البحث منذ شهور!

تمتمت ياسمين في حرج:

– فعلت.. ولكن...

تدخّل دافيد على الفور:

– والآن يا دكتورة، هل حسمت أمرك بشأن العرض؟

– آه، هناك عرض إذن!

غمر الارتياح ملامح سامي، وهو يرنو إلى دافيد في اهتمام، في حين امتقعت ملامح هيثم الذي كان يتابع الحديث ملتزما الصّمت. واصل سامي في حماس:

– كنت متأكدًا من وجود عرض ما.. هذا عهدي بمشرفي البحوث المميّزين، لا يتركون طلابهم يواجهون مصيرهم دون مساندة.

– لا تضغط عليّ أكثر يا بروفيسور.. لقد فعلت ما بوسعي، والرّأي لابنتك في نهاية الأمر.

تدخّلت ياسمين وهي تلمح هيثم بنظرة مرتبكة:

– المشكلة أن الوظيفة في مدينة «ليل».

– وماذا في ذلك؟

– ستكون ظروف العمل متطلّبة والتّنقل بين باريس وليل مرهقا.

– هذا طبيعي يا عزيزتي.. هذا مستقبلك وسيستلزم منك بعض التّضحيات في البداية. كلّ الدّكاترة الجدد يضطرون إلى قبول وظائف بعيدة عن عائلاتهم لسنة أو سنتين حتى يكتسبوا تجربة كافية ويتسنّى لهم المنافسة على الوظائف الأفضل.. لا تكوني قصيرة النظر فتفقدي وظيفة مميّزة.

– أخبرها يا بروفيسور! هذا ما أحاول إقناعها به منذ أسابيع!

ابتسمت ياسمين دون أن تعلّق وقد اجتمع ضدّها والدها ومشرفها. كانت تقدّر رأي كلّ منهما فيما يخصّ المسائل المهنيّة وتدرك أنّهما يملكان معا ما يكفي من التجربة ليفيداها بخلاصة ما ينبغي الإلمام به. وها هما معا يؤكّدان أنّ عليها القبول حتّى لا تتجمّد مسيرتها المهنيّة التي لم تبدأ بعد.

– سأفكّر بالأمر.

نطقت بتلك الكلمات ثمّ رنت إلى هيثم، فانقبض صدرها. كانت ملامحه جامدة بشكل مخيف. كان عليها أن تشاوره بشأن العرض.. لكنّها لن تفعل أمام والدها. استقلاليّة الرّأي وخصوصيّة المشروع المهنيّ وبناء مسار شخصيّ محترف، كلّها مصطلحات تدري كم يقدّسها. تحفظ عبارته الأثيرة: «لا تدعي أحدا يفسد عليك مستقبلك. سينتهي بك الأمر إلى الحقد عليه». هربت بنظراتها حتّى لا تواجه أحدهما.

لكنّها لم تدرك فداحة خطئها إلّا حين انسحب هيثم دون أن ينطق بكلمة واحدة تعليقا على الحوار الذي دار أمامه.

زفرت في ضيق.. ثمّ اعتذرت من والدها ومشرفها لتلحق به. حثّت الخطى وهي تتلفّت حولها مفتّشة عنه، لكنّها لم تجد له أثرا. تسارعت نبضاتها في ذعر. هل يكون قد انصرف مغاضبا؟ لامت نفسها. كان يجب أن تشاوره في مسألة عملها قبل ذلك. لماذا انتظرت اللحظة الأخيرة؟

لطالما كانت أولويّاتها محدّدة وواضحة. العائلة أوّلا. قناعة تغذّيها بداخلها بكلّ ما أوتيت من قوّة، رغم مرارتها الموروثة وتاريخ عائلتها المناقض. تحتفظ بأمل وليد بأن مصيرها مع هيثم سيكون مختلفا. لكن ماذا عن مستقبلها المهنيّ؟ هل درست كلّ هذه السنوات لتستلم شهادة تزيّن بها الجدار وتقبع في المنزل؟ كان عليها المحاولة. هيثم نفسه لن يرضى لها الاستسلام. ألم يردها لشخصيّتها المقاتلة؟

لكنّ ذلك الموضوع ظلّ معلّقا. لم يسألها صراحة ما الذي تنوي فعله بعد الدّكتوراه.. وزهور لم تتوقّف من التّصريح والتّلميح بأنّها لن تضطرّ إلى العمل بعد الانتهاء من الرّسالة! لقد أخطأت، لكنّها خشيت أن يثير النّقاش توتّرها. حسبت أنّها تجنّب نفسها الصّدام، حتّى تفرغ من رسالتها. لكنّ الوقت تأخّر كثيرا.. والآن بات الصّدام وشيكا!

تنفّست الصّعداء حين لمحته يقف خارج القاعة، إلى جوار عمر. تقدّمت نحوهما في حرج وقالت مستأذنة:

– هل يمكن أن نتحدّث قليلا؟

أشاح هيثم بوجهه وقال في جفاء بيّن:

– اهتمّي بضيوفك الآن.. سنتحدّث لاحقا.

تردّدت لبرهة. لم يكن من الحكمة الإصرار.. خاصّة أمام عمر. أطرقت في ضيق، ثمّ تراجعت إلى داخل القاعة. طالع عمر سحنة هيثم التي علاها الكدر، ثمّ تساءل في اهتمام:

– هل هناك ما يضايقك؟

زفر هيثم في إعياء ولم يردّ، واستمرّت أصابعه تعبث بالمنديل الورقيّ في كفّه في عصبيّة واضحة، فتابع عمر:

– أيّا ما كانت المسألة، فيمكنها الانتظار.. لا تعكّر صفو اللّيلة.. هذا يومها، واحتفالها، فلا تفسد الأمر!

زفر هيثم من جديد، وابتسم رغم ضيقه وهو يقول:

– أنت على حقّ.. يمكنها أن تنتظر.

***

غادر المدعوّون والمهنّئون، ثمّ اجتمعت العائلة في منزل زهور من أجل العشاء. اعتذر سامي عن الانضمام رغم إصرار عبد الحميد، وتنفّست فاطمة الصّعداء حين خلت القاعة من «الغرباء»!

تفانت زهور في إعداد وجبة تليق بالمناسبة، لكنّ الجميع كان متخما بالأصناف التي قدّمت في البوفيه. استمرّت الدّردشة حول المائدة لبرهة، بين زهور وفاطمة غالبا، بينما

بدا هيثم وياسمين صامتين بشكل مريب. أخيرا، اعتذرت فاطمة لإعيائها من الحفل وترتيباته طيلة الأيّام السّابقة، وتواعدت وزهور على لقاء قريب للمزيد من التّخطيط.

رافقهما هيثم في سيّارته إلى الشّقة مثل كلّ مرّة. كان يحاول الالتزام بنصيحة عمر، بعدم تعكير صفو اللّيلة، لكنّه لم يقدر على تجاهل الكدر الذي يثقل صدره، فآثر الصّمت.

حالما خطت فاطمة إلى داخل الغرفة، التفتت إلى ياسمين وهتفت بتحفّز:

– والآن، ستخبرينني.. ما الذي حصل بينك وبين هيثم؟ هل تشاجرتما؟

زفرت ياسمين، وهي ترتمي على سريرها وقالت في ضيق:

– ليتنا فعلنا!

هبّت فاطمة في هلع:

– ماذا تقصدين؟

– لقد رفض الحديث إليّ!

– بشأن ماذا؟

سردت ياسمين على مسامعها تفاصيل الحوار الذي دار ذلك المساء بين والدها ومشرفها، فجزّت فاطمة على أسنانها وهي تقول في غيظ:

– آه منك يا كمال، آه! تريد أن تفسد البنيّة على زوجها!

اعترضت ياسمين بحرارة:

– لم يقل عيبا! لقد تغرّبت وأنفقت سنوات حتّى أنهيت الرّسالة، فهل يعقل بعد هذا أن أجلس مكتوفة اليدين، وأضحّي بمستقبلي المهني؟

بهتت فاطمة وانعقد لسانها لبرهة. لم تحسب أنها ستسمع يوما تلك الكلمات على لسان ياسمين، ابنتها المطيعة والهادئة والرّصينة! الحصول على شهادة الدّكتوراه مدعاة للفخر بالتّأكيد، لكنّ هدفها الأوّل من إرسال ياسمين إلى فرنسا كان زواجها وهيثم! أمّا الرّسالة والدّكتوراه فإنجاز جانبيّ وثانويّ في نظرها.

– ألم نتّفق أنّ مصير المرأة أن تقرّ في بيتها؟ ما العيب في حصولك على الشهادة، بل كلّ شهادات الدّنيا، ثمّ التفرّغ لبيتك وأطفالك؟

– نعم، أقدّر كلّ ذلك.. لكنّني أصبو إلى إحداث تغيير أعمق في المجتمع.. أن أكون فاعلا، لا مفعولا به! لقد عشت يا أمّي تجربة لا تصدّق.. لقد رأيت أشخاصا يلقون بأنفسهم إلى الموت، وقد عملت على بحث قد يغيّر مصيرهم، ينقذهم من براثن اليأس، ويهبهم حياة أفضل! لقد جرّبت أن أكون إنسانا مؤثّرا.. وأنا أحبّ هذا، ولست مستعدّة للتخلّي عن هذا المسار!

أطرقت فاطمة في ذهول، ثمّ قالت:

– لكنّ هذا يعني التّضحية باستقرارك العائليّ!

– لقد ضحّيتِ أنت بمستقبلك المهنّي، فهل أنقذ ذلك استقرارك العائليّ؟

صدمت فاطمة. لم تتوقّع أن تعايرها ابنتها يوما بفشل زواجها! امتقع وجهها وهي تقول في دفاع:

– لقد فعلت ما رأيته مناسبا، ولست أندم! لقد ربّيتك ورعيتك وتفرّغت لك.. حتّى أفرح بك، لا كي أستمع إلى وعظك وتقريعك!

سارعت ياسمين تحتضنها وهي تقول في اعتذار:

– لم أقصد أن أجرحك.. لكنّني لا أريد أن أكون نسخة مكرّرة منك يا أمّي! لا أريد أن أختصر حياتي في الدّوران في فلك الزّوج والأطفال.. فحتّى إذا خلا البيت منهم ألفيت نفسي وحيدة!

ارتجفت فاطمة. لقد كانت تعاني الوحدة بالفعل، مذ أسلمت وحيدتها إلى الغربة.. لكنّها لم تعترف بضعفها أبدا. لم تخل سريرتها مكشوفة لابنتها إلى تلك الدّرجة!

ارتفع رنين هاتف ياسمين فجأة. تطلّعت إلى الشّاشة، ثمّ ردّت على الفور.

– ياسمين.. هل يمكن أن نتحدّث؟

– لحظة واحدة.

غادرت إلى الشّرفة، لتحظى ببعض الخصوصيّة. وقفت في الظّلام، وأخذت نفسا عميقا، تستعدّ للمواجهة.

– نعم.. أنا أسمعك.

لم يكن هيثم قد انصرف بعد أن أوصلهما عند البناية. لبث في مكانه، متفكّرا. غادر السيّارة، ودار حولها مرّات ومرّات.. لكنّه لم يتمكّن من صرف تفكيره عن الأمر. كان لا بدّ من المواجهة.. اليوم!

كان جلّ ما حزّ في نفسه تجاهل الجميع لوجوده في ذلك الحوار: ياسمين ووالدها ومشرفها.. لم يدر بخلد أحدهم أنّه طرف معنيّ بالقرار! لقد كان هناك، واقفا بينهم، لكنّه بشكل ما شفّاف لا يُرى! كان يكفيه أن تلتفت إليه وتقول جملة واحدة: هيثم، ما رأيك؟ لكنّها لم تفعل!

لم تكن فكرة عملها تضايقه بشكل خاصّ. يعلم كم تحبّ مهنتها، وكم تفانت في بحثها. كان يُدرك أنّها بالتّأكيد ستسعى إلى المضيّ قدما.. لكنّها لم تقل ذلك صراحة. وهو لم يشأ أن يوتّرها بالحديث عمّا بعد الدّكتوراه. في الحقيقة اعتقد أنّها قد تؤجّل البحث عن عمل إلى ما بعد الزّفاف!

رفع عينيه إلى البناية حين تسلّل نور باهت من باب موارب، فلمح شبحها يظهر في شرفة الشّقة في الطابق الرّابع. حاول الحفاظ على هدوء صوته وهو يقول:

– لماذا لم تخبريني؟

جاءه ردّها بسرعة:

– لأنّني نويت الرّفض! لقد صرفت النّظر عن العرض تماما، ولم أفكّر فيه على الإطلاق في الفترة الماضية.. قبل أن يعيد دافيد إثارة الموضوع اليوم!

ارتبكت الحروف على لسانه. لم يكن ذلك مسار الحديث الذي توقّعه. لكنّه شعر بالارتياح. لم تكن تنوي تحدّيه أو تخطّيه. تلاشت كلّ هواجسه على الفور، ووجد نفسه يسألها باهتمام:

– لماذا؟

– لأنّ الوظيفة في «ليل».. ولا أحسبني سأتحمّل السّفر اليوميّ الطّويل!

وكأنّ كلماتها كانت بلسما لجراح كرامته التي التأمت في التوّ واللّحظة. قال يجسّ نبضها:

– وهل كانت الوظيفة لتهمّك، لو كان موقعها قريبا؟

تنهّدت. لقد كتمت عن الجميع خيباتها المتكرّرة، حتّى عنه.. لكنّ كأسها أترعت وفاضت وقد غدت تواجه شبح البطالة بيدين عاريتين.

– لقد أجريت المقابلات إثر المقابلات.. لكنّ الفرص شحيحة لمن هي في مثل وضعي.

أدرك ما ترمي إليه. تمهّل لحظات، يدرس اقتراحا مفاجئا لم يخطر له ببالٍ قبل:

– وماذا لو انتقلنا للإقامة في «ليل»؟

– ننتقل إلى «ليل»؟ وماذا عن عملك؟

قال ببساطة:

– أسافر أنا إلى باريس كلّ يوم.. أو أعمل عن بعد.. أو أبحث عن وظيفة أخرى في «ليل».. سنجد حلّا!

شعر بالرّجفة في صوتها، تأثّرا وفرحا.

– هل أنت جادّ؟

ابتسم في رضا، وهو يطالع شبحها في الشّرفة المظلمة. تمنّى لو يرى عينيها، وملامحها التي طغى عليها البِشر.

– كلّ الجدّ.

– ماذا عن الشّقة التي استأجرتها؟

– نستأجر غيرها في «ليل».

– خالتي زهور.. لن يسرّها الأمر. ستحسبني أحاول سرقتك منها!

– أولستِ قد فعلت وانتهى الأمر؟!

ابتسم حيال صمتها المحرج، ثمّ أضاف:

– ستتفهّم الأمر.. وحتّى إن لم تفعل، ستقدّر. هذه حياتنا.. أنا وأنت.

استمرّ الصّمت من جهتها. لولا أنّه كان يراها ماثلة أمام عينيه في الشّرفة لحسب مكروها أصابها.

– ياسمين.. هل تسمعينني؟

– نعم.

أدرك مدى حرجها، فقرّر إنهاء الاتّصال.

– لا تخفي عنّي شيئا بعد الآن.. هل اتّفقنا؟

– اتّفقنا.

– تصبحين على خير إذن.. سنتحدّث في التّفاصيل مرّة أخرى.

– وأنت من أهل الخير.

أنهت الاتّصال وقد تورّدت وجنتاها ودمعت عيناها. ظلّت واقفة في الشّرفة لبعض الوقت، وطبول صدرها تدقّ بعنف. يلفّها إحساس دافئ بالطمأنينة. هل هذا ما يسمّونه مودّة ورحمة.. أم هو غير ذلك؟

همست لنفسها في سعادة:

– هيثم.. كم أنا محظوظة بك!

-١٥-

وصلت رانيا إلى مبنى جامعة باريس ديدرو قبل موعد حصّتها الصّباحيّة بوقت كافٍ. تسكّعت لبضع دقائق عبر السّاحة المبلّطة، ثمّ قادتها قدماها إلى درج لولبيّ يؤدّي إلى المكتبة القابعة في الطابق الأوّل.

تمشّت ببطء بين رفوف الكتب وهي تحاول فكّ شيفرات العناوين الفرنسيّة التي لم تكن مألوفة لديها بعد. مارست تلك اللعبة لدقائق إضافيّة قبل أن يصيبها الملل. تناولت قاموسا إنجليزيا – فرنسيا وجلست إلى أقرب طاولة. زفرت وهي تشرع في تصفّح المجلد الضخم. لا تدري من أن تبدأ. لم تكن جادّة حتّى ذلك الوقت في تعلّم الفرنسيّة، مع أنّه هدفها الرّئيسي من المكوث في باريس. لم تنتظم في دروسها بالشكل المطلوب واكتفت بمتابعة موقع الدّروس الإلكتروني بشكل متقطّع. كان عليها أن تحدّ من اللّهو وتركّز على التّعلّم. لكنّ نزعة داخليّة جامحة كانت تتغلّب على كل محاولاتها العابثة وتدفعها إلى مزيد التّسلية على حساب مستقبلها.

رفعت رأسها عن الكتاب وجالت بنظراتها عبر القاعة الفسيحة التي تناثر على طاولاتها بعض الطلاب المبكّرين أمثالها. سرحت للحظات. لم تكن تتحمّل التفكير الجادّ لوقت طويل، إلا إذا تعلّق الأمر بتسلية ما.

توقّفت عيناها عند الشّاب الجالس على بعد طاولتين من موقعها. تأمّلت ملامحه المنهمكة لبرهة وكأنّ شيئا غريبا فيها يجذبها. هل كانت ملامحه العربيّة هي التي شدّتها؟ لم تكن واثقة. لمحته يرفع رأسه عن أوراقه فأشاحت بوجهها بسرعة قبل أن يضبطها تتأمّله. عادت إلى القاموس وقرأت فيه بضع كلمات مصحوبة بترجمتها.

فجأة، رفعت رأسها وعادت لتحدّق في الشّاب من جديد. تذكّرت. لقد رأت وجهه قبل ذلك في مكان ما.

الرّسم!

كان الرّسم الذي لمحته بين أوراق رنيم يحاكي وجه الشاب الماثل أمامها، عدا قصّة الشعر والقرط المتدلي من أذنه اليسرى.

لم يدم تفكيرها طويلا قبل أن تخطر ببالها تسلية جديدة. تصفّحت القاموس بسرعة وأخذت تدوّن الكلمات المطلوبة على قصاصة ورق. رفعت الورقة أمامها وقرأت الجملة الفرنسيّة التي خطّتها بصوت منخفض. أعادت قراءتها مرّتين لتحفظها، ثمّ غادرت مكانها. وقفت أمام طاولة الشاب. تنحنحت. ما إن رفع نظراته إليها حتّى قالت في ثقة:

– عائلتك تبحث عنك.

– عفوا؟

كرّرت بنفس اللهجة الثابتة بفرنسيّة شبه مستقيمة:

– عائلتك تبحث عنك.

- عائلتي؟ هنا في الجامعة؟

سكتت للحظات تفكّر. «عائلة» و«جامعة» كانت كلمات مفهومة بالنسبة إليها، لكن ترتيب جملة صحيحة للردّ كانت مسألة أخرى.

- هل أنت موظّفة استقبال؟

غدت المهمّة أصعب مع التّركيب المعقّد لجملته الثانية. أشارت إليه بكفّها أن ينتظر وهرولت إلى طاولتها. فتحت القاموس من جديد وعادت لتبحث عن ترجمة كلمات لردّها. رجعت إليه بعد دقيقتين وبيدها القصاصة. قرأت:

- أمّك تبحث عنك منذ عشر سنوات. أنت ضائع.

رمقها في حذر كمن يواجه مجنونا وقال في سخرية:

- أنا لست ضائعا. أظنك أخطأت الشخص يا آنسة.

زوت ما بين حاجبيها محاولة استيعاب كلماته السّريعة التي تفوق قدرة فهمها المحدودة للغة. ظنت أنها قد استشفت المعنى بشكل تقريبي فهرولت من جديد نحو طاولتها. انتظر في صبر دقيقتين إضافيتين حتّى عادت تحمل ردّا آخر:

- أنت تشبه كثيرا رسما لطفل فُقد منذ عشر سنوات. ظننتك هو.

ثمّ ابتسمت في اعتذار وانسحبت بهدوء وهي لا تكاد تشعر بالحرج، بل بالمتعة التي حملتها تجربة اللغة القصيرة تلك. جمعت أوراقها وأعادت القاموس إلى مكانه على الرّف ثمّ غادرت المكتبة. ألقت نظرة على ساعتها ثمّ حثّت الخطى باتّجاه قاعة درسها.

فكّرت وهي في طريقها في شيء من الحيرة. تعلم أنّ الرّسم الذي بحوزة رنيم مجرّد تصوّر تقريبيّ لشكل الفتى، لكنّه بدا في غاية الشّبه بشابّ المكتبة.

هل يعقل أن يتشابه شخصان إلى هذه الدّرجة؟!

***

ألقى هيثم نظرة حذرة على الوجوه المحيطة بالمائدة والمقبلة على وجبة العشاء بشهيّة، وقد انطلقت الألسن في أحاديث لذيذة. كان الشغل الشاغل للكلّ في هذه الآونة: حفل الزّفاف المرتقب!

- هل تفقّدت الشّقّة اليوم؟ طلبت من حارس العمارة تثبيت السّتائر...

كانت زهور مهتمّة بالشّقّة بشكل خاصّ. تكاد تفرّغ نفسها من أجل ترتيبها وتنظيفها باستمرار. تنحنح في توتّر، ثمّ قال:

- لا داعي لذلك الآن.

- لماذا؟ هل تريد أن يدخل أهل زوجتك شقّتك ليجدوا جدرانها عارية؟!

فاطمة صديقة عمرها وأقرب إليها من الشّقيقة، لكن حين يتعلّق الأمر بـ«الأصول» والشكليّات الخاصّة بطقوس التّعامل مع الأنسباء، فإنّ زهور تغدو جادّة للغاية. علاقة الصّداقة والمعرفة القديمة لا تعني على الإطلاق الاستهانة بالتّقاليد!

خمّن هيثم أنّ عليه فتح الموضوع عاجلا لا آجلا. كلّ تأخير يزيد الوضع تعقيدا. قال بهدوء:

- لقد قرّرت وياسمين الانتقال إلى «ليل».

خيّم صمت شامل ومفاجئ على المائدة. سألت زهور أوّلا:

- خيرا إن شاء الله؟ ما سبب هذا القرار الغريب؟

– لقد وجدت ياسمين وظيفة في «ليل».. ولن يكون من المريح أو المناسب أن تسافر كلّ يوم من هنا إلى مقرّ عملها.. لذلك رأينا أنّ الانتقال أفضل. ويمكننا زيارتكم في عطلة نهاية الأسبوع.

ظهر الانزعاج على ملامح زهور. لم يكن هذا التّدبير الذي تخيّلته. لقد كانت حريصة على انتقاء شقة قريبة من منزل العائلة. شارعان وحسب يفصلان بينهما. لم تكن تتوقّع انقطاع هيثم عنها بعد زواجه. تتمثّله في خيالها يمرّ عليها صباحا قبل مغادرته إلى عمله، فيرتشفان قهوة عربيّة من يديها في المطبخ.. وتكاد تراه يدخل مساء وياسمين فيتسامرون جميعا خلال السّهرة. أمّا زيارة يتيمة في نهاية الأسبوع، فهو ما لم تحسب حسابه!

– ماذا عن عملك يا بنيّ؟

– لقد تفاوضت مع الشّركة على دوام جزئي في المكتب يومي الاثنين والثلاثاء.. ودوام عن بعد بقيّة الأسبوع.

تكلّم عبد الحميد بلهجة متفهّمة:

– إن كان ذلك مريحا لكما، فلا أرى مانعا.

أمّا ميساء، فشبكت ذراعيها أمام صدرها وهي تقول بلهجة مسرحيّة:

– أخي العزيز.. لم أتخيّل أن أقول هذا يوما.. لكنّك ستكون زوجا صالحا! ياسمين محظوظة بك!

ابتسم في رضا وهو يقول مناكفا:

– أصلا ياسمين محظوظة بي منذ اليوم الأول.. لكنك لم تنتبهي!

ثمّ ما لبثت ابتسامته أن تقلّصت أمام شرود والدته وعبوسها. رنا إليها في قلق، بينما كانت ميساء تواصل وهي ترفع كفّيها في أسلوب دراميّ:

– رزقني الله زوجا متفهّما مثلك، يسمح لي بالعمل، ويأخذني للعيش في الخليج!

نهرتها زهور على الفور:

– اجمعي الصّحون وكفى أحلاما وأوهاما!

ثمّ تركت مقعدها دون أن تعلّق.

أطرق هيثم في صمت. ستتفهّم. ستفعل ذلك. ما هي إلّا سحابة صيف، ستنجلي قريبا. حزّ في نفسه وجومها. سيترك غيابه فراغا في وجدانها، وهي التي وطّنت نفسها على استمرار عادات العائلة ذاتها بعد زواجه. لكن تلك سنّة الحياة.. يكبر الأولاد ويغادرون العشّ. وقد حان له أن يفتح جناحيه ويحلّق. لحق بها إلى المطبخ، وقال مطيّبا خاطرها:

– سأزوركم كثيرا.. أعدك. يمكنني أن أطلّ عليكم في استراحة الغداء...

لوت شفتيها في امتعاض، أخذت تتمتم كأنّها تحادث نفسها:

– سأشرع غدا في إعادة جهاز العرس إلى صناديقه.. الوقت يداهمنا والحفل قريب، وكأنّ الأشغال التي فوق رؤوسنا لا تكفي!

قال مترفّقا:

– لا داعي لذلك.. سنفعل هذا بعد الحفل. لن نسافر على الفور.. نحتاج بعض الوقت حتّى نجد شقّة في «ليل» ثمّ ننتقل...

واصلت متجاهلة كلماته:

– لقد سمعت عن هذا كثيرا، لكنّني لم أصدّق أنّ ولدي أنا يفعل بي هذا.. يقولون أنّ الزّواج يغيّرهم! لكنّك تغيّرت قبل الزّواج حتّى!

تنهّد في حيرة.

– ما ضرورة هذا الكلام الآن؟ أنت تعرفين ياسمين وسعيت بنفسك إلى زواجي بها.. أنا لم أتغيّر وهي لم تتغيّر.. لكنّ الظروف تغيّرت!

قالت في تهكّم:

– هل عمل ياسمين ظروف قاهرة؟

قال في حزم:

– إنّه كذلك!

تركت ما في يدها في عبوس، وغمغمت:

– طالما هو كذلك فلا أقول شيئا بعد الآن!

***

دفعت رنيم باب الشّقة بحذر، وسحبت حقيبتها إلى الدّاخل. كانت السّاعة قد تجاوزت الثانية صباحا منذ دقائق عدّة. توقّعت أن تكون شريكاتها في السّكن قد أوين إلى فرشهن منذ أمد. لذلك فاجأها النّور الخافت المنبعث من مصباح الصّالة.

– رنيم هذه أنت؟

ميّزت شكل ياسمين التي غلبها النّعاس على الأريكة. اقتربت في استغراب، ثمّ عانقتها في اشتياق.

– عسى كانت سفرتك موفّقة.

تنهّدت وهي تستقرّ إلى جوارها:

– لقد كانت كذلك! جمعت عائلة كاد يُكتب عليها الشّتات، وأعدت طفلا إلى حضن أمّه!

– كم هذا جميل!

غمرهما ارتياح مخدّر للحظات، قبل أن تتساءل رنيم:

– لماذا تنامين هنا؟ هل تركت سريرك لسكينة؟

توتّرت ملامح ياسمين، وهمست في قلق:

– إنّها رانيا.

– ما بها؟ هل سبّبت مشاكل في غيابي؟

– إنّها.. لم ترجع بعد!

– ماذا تقصدين؟

– ليست في الشّقة!

طالعت رنيم ساعتها مرّة أخرى. لم تكن مخطئة، السّاعة تجاوزت الثانية صباحا. هذا يعني أنّ وسائل النّقل العموميّ توقّفت منذ ساعة أو أكثر! وأنّ رانيا لن تقضي الليلة في سريرها!

همهمت ياسمين في ارتباك:

– لعلّها فوّتت القطار الأخير.

كان صدرها منقبضا وسحنتها شاحبة. لقد استأمنتها رنيم عليها، وهي لم تكن في مستوى ثقتها. تكدّرت عينا رنيم وامتقع وجهها. قالت في تحفّز:

– هل كانت تسهر خارجا طيلة فترة غيابي؟

– فعلت.. بضع مرّات.. لكنّها لم تتأخر أبدا عن السّاعة العاشرة!

شبكت رنيم كفّيها في توتّر، ثمّ قالت:

– اذهبي أنت للنّوم.. سأنتظرها.

– أنت مرهقة من السّفر. خذي قسطا من الرّاحة.

ثمّ أضافت مهدّئة من روعها:

– لعلّها تطلب سيّارة أجرة وتكون هنا قريبا!

جلستا في صمت، وقد طار النّعاس عن جفونهما. الوقت يمضي، وتعلن عن انسحابه تكّات عقارب ساعة الحائط المسموعة بوضوح في ظلّ الصّمت المخيّم على الشّقة.

– لقد طلع الفجر، تعالي لنصلّ وندع الله أن تكون بخير!

استجابت رنيم لدعوة ياسمين في انصياع. كان القلق قد استبدّ بفؤادها. السّاعة تقترب من الخامسة صباحا. يا إلهي، إنّها تباشير الصّباح الأولى! لم تفعلها هي مطلقا في أيّ وقت مضى. لم تقض الليل قطّ خارج الشقّة، حتّى في فترة تمرّدها الأولى ومخالطتها لميشال! هذه البنت ستصيبها بنوبة قلبيّة!

كانتا قد فرغتا من الصّلاة. بينما تجلسان في سكون على السجّاد، همست ياسمين:

– ستكون بخير.. أنا واثقة بأنّها فوّتت القطار.. هذا كلّ ما في الأمر.

زفرت رنيم وقد بلّلت الدّموع رموشها:

– آمل ذلك.

كانت السّاعة قد شارفت على السّادسة، حين دار مفتاح في قفل الباب، وفُتحت الدّفة ببطء.. ثمّ خطت رانيا إلى الدّاخل في حذر. كانت ترجو أن يكون أهل البيت غارقين في النّوم فلا ينتبه أحدهم إلى وصولها الصّباحيّ. تسمّرت مكانها، حين وقعت نظراتها على وجه رنيم الذي حوّله السّهاد والهالات السّوداء إلى قناع غضب مخيف.

– رنيم.. لقد رجعتِ!

أرادت أن تكسو صوتها حلّة الفرح، لكنّه خرج مهتزّا تمتزج فيه الخيبة بالذّعر.

اتّسعت عينا رنيم، وهي تطالع شكل شقيقتها الغريب والمفزع. كان شعرها قد غدا أشقر فاقعا، لكنّ هذا ليس كلّ شيء، بل تتخلّله خصلات حمراء وزرقاء وأرجوانيّة، مثل مهرّج السّيرك! أمّا عيناها، فقد تكحّلتا بقلم داكن حتّى بدتا عميقتين وجاحظتين وتلطّخت شفتاها بأحمر غامق يهبهما حجما أكبر من حجمهما الحقيقيّ واكتنازا اصطناعيّا. واكتست وجنتاها بلطخات مشوّهة، كأنّها شرعت في مسح أصباغها على الطّريق، لكنّها لم تنه مهمّتها على أكمل وجه. ابتلعت رنيم الصّدمة على مضض، ورتّبت الأولويّات في ذهنها. التأخير أولا.. الشّكل لاحقا.

– لقد رجعتُ.. لكنّك لم تكوني هنا! أين قضيت ليلتك؟

جاء صوت رنيم صارما قاسيا ومرعبا. انبرت رانيا تشرح بصوت مبحوح من أثر السّهر وباستكانة وتوسّل غريبين عن طبعها:

– لقد فاتنا المترو الأخير.. أقسم لك، لقد نويت العودة قبل منتصف الليل، لكنّني لم أنتبه إلى مضيّ الوقت.. وحين أردت ركوب المترو كانت المحطّة مغلقة!

استمعت إليها في نفاد صبر:

– أين كنت، وبرفقة من؟

– كنت برفقة بعض الأصدقاء.. من الجامعة! كنّا نحتفل بعيد ميلاد كلارا.. أمضينا بعض الوقت في مطعم، ثمّ قصدنا صالة الألعاب.. لعبنا البولينغ، والبيار.. ثمّ...

قاطعتها في صرامة:

– ماذا فعلتم بعد منتصف اللّيل؟

– بقينا في حديقة عامّة.

– تفعلون ماذا؟

– لعبنا الورق.. وتسلّينا قليلا، في انتظار أن تفتح المحطّة صباحا.

زمّت رنيم شفتيها وهي تشير بسبّابتها في ازدراء:

– وما هذا الشّكل؟

– آه، هذه الألوان؟ إنّها أصباغ مؤقتة، تزول مع الغسيل.. لقد كانت لوسي تحمل بخاخات وتسلّينا بها أثناء السّهرة.

– إلى الحمّام فورا!

– حاضر.

هرولت رانيا بخطوات عجلى وهي لا تصدّق أنّ المأزق قد انتهى عند ذلك الحدّ. لكنّ صوت رنيم تبعها بالوعيد:

– ولا خروج من الشّقة لأسبوع كامل!

استدارت في صدمة وهتفت تعترض:

– لكن الجامعة...

دوى صوت رنيم حازما وقاطعا:

– لا يهمّني! قلت لن تخرجي لأسبوع كامل.. هيّا إلى الحمام الآن. ولا تناقشيني!

ضربت رانيا بقدمها الأرض، مثل طفلة متبرّمة بقرارات والدها، ثمّ صرخت:

– أنت أصلا لا يحقّ لك التحكّم بحياتي! لقد عشتِ حرّيتك سابقا والآن جاء دوري! لم يكن أحد يراقبك حينها.. فلماذا تراقبينني، ها؟ أنت لست وصيّة عليّ!

ابتسمت رنيم ساخرة وقالت في تشفّ:

– صحيح، لست وصيّة عليك.. هل تريدين أن أتّصل بوالدينا الآن، لنرى ما يقوله الأوصياء؟

انسحبت الدّماء من وجه رانيا وأمسكت عن الجدال، ثمّ جرّت قدميها إلى الحمّام في غيظ. فتحت صنبور الماء وعدّلت الحرارة لينساب سيل دافئ على راحتها. طالعت في المرآة زينتها التي أفسدتها عبرتان سوداوان رسمتا خطّين متموّجين حتّى ذقنها.. ثمّ ارتجفت شفتاها والتوتا وهي تبكي في صمت.

لو أنّ رنيم تأخرت يوما واحدا! ما الذي جاء بها اليوم بالذّات؟ كان بوسعها إقناع ياسمين بالتّغطية على خطئها.. تعدها ألا تعيد الكرّة، فيلين قلبها وتمرّ اللّيلة بسلام.

لكنّ رنيم لن تسامحها بسهولة. زمجرت وهي تقف تحت تيار الماء المتدفّق فوق رأسها، ويمسح في طريقه ألوان شعرها ووجهها. ثمّ التمعت عيناها ببريق لئيم.

لن تخبرها.

لن تقول شيئا بشأن الولد الذي يشبه الصّورة!

*

تثاءبت رنيم، وسحبت قدميها في إعياء في اتّجاه المطبخ. كانت قد نامت حتّى الظّهيرة. تراكم عليها تعب السّفر وانفعالات الليلة الماضية. استقبلتها رائحة القهوة الشهيّة التي جهزت للتوّ، وبادرتها ياسمين وهي ترصف قطع الكعك:

– أخيرا استيقظت؟ الفطور جاهز!

استنشقت عطر الكافيين الممتزج بماء الزّهر ثمّ تحمّست حين لمحت سكينة. هتفت على الفور:

– هل بُثّ التسجيل خلال حلقة الأسبوع الماضي؟

هزّت سكينة رأسها في أسف علامة النّفي، ثمّ قالت بلهجة متفهّمة:

– لقد فعلت ما بوسعك.

هبّت رنيم على الفور:

– سأتّصل بماتيلد حالا! يجب أن تفي بوعدها.. لا تقلقي!

دخلت الغرفة من جديد وأجرت الاتّصال.

– رنيم، عزيزتي.. حمدا لله على سلامتك! أرجو أنّ الرّحلة كانت موفّقة؟

– شكرا لاهتمامك عزيزتي ماتيلد.. نعم لقد كانت كذلك. لكنّني فوجئت حين عرفت أنّك لم تفي بوعدك!

– رويدك عزيزتي.. بما أنّك رجعت الآن فيمكننا الاتّفاق.

– الاتّفاق على ماذا؟

– ألم أخبرك بأنّني لن أبثّ المقطع إن لم يكن بالجودة الكافية؟

– طيب.

– الخبر الجيّد هو أنّ المشاعر كانت عالية.. لكن...

– لكن ماذا؟

– علينا أن نعيد التّسجيل. جودة الصّوت كانت رديئة!

– كيف حصل هذا؟

– لا أدري.. صدقا لقد صدمت حين أخبرني التّقنيون أنّ التّسجيل كان فاشلا.

– ألم يكن بوسعك إخباري قبل الآن؟ لقد مضى أسبوعان.. نحن نضيّع الوقت!

– لا بأس يا عزيزتي.. أخبريها أن تأتي مرّة أخرى إلى الأستديو.. نعيد التّسجيل بعد الحلقة المباشرة. ما رأيك؟

أنهت رنيم الاتّصال وهي تشعر بالضّيق. تعلم أنّ ماتيلد تماطل. لكنّها لن تدع لها مجالا للتّراجع. خرجت وقد رسمت على ثغرها ابتسامة مطمئنة:

– سكينة عزيزتي، أنا آسفة.. لكنّنا سنضطرّ إلى إعادة التّسجيل. للأسف.. لم يكن الصّوت واضحا في المحاولة الأولى!

تنهّدت سكينة وهي تقول في إصرار:

– بالتّأكيد، سنفعل. لن أملّ من المحاولة.

*

رجعت من أستديو التّصوير وهي تشعر بخواء في روحها. كانت كمن يستفرغ أحشاءه، في كلّ مرّة تقف فيها أمام عدسة التّصوير، تصهر لواعج روحها وتصبّها في بوتقة الأمل والرّجاء.

– هذه المحاولة ستكون ناجحة. أنا واثقة!

أرادت أن تستعير شيئا من ثقة رنيم، لكنّ صدرها يضيق، كأنّ ضلوعها تنطبق على رئتيها وتعتصر منهما الهواء، فتنقطع أنفاسها.

دخلت الغرفة لاهثة. نزعت قبّعتها ووشاحها واستنشقت بعنف تطلب نفسا، ثمّ انهارت على السّرير. تسلّلت العبرات ببطء على وجنتيها. عبرات لوعة وقهر واشتياق.

تلت عن ظهر قلب آيات من سورة القصص، من قوله تعالى: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغا».. حتّى قوله «فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ».. ثمّ دعت بصوت مرتجف يقطّع نياط القلب:

– يا ربّ ردّهم إليّ.. يا ربّ!

***

– أنا جاهزة. هل ننطلق؟

كان أسبوع العقاب قد انتهى، وحصلت رانيا على إطلاق سراح مشروط. لم يكن يُسمح لها إلا بحضور دروسها في الجامعة. ما عدا ذلك، لا يمكن لها أن تغادر الشّقة إلا برفقة. كانت فاطمة في ضيافة زهور لبضعة أيّام، وسكينة منهمكة في خياطة ثوب ياسمين. فما إن عرفت بخروج ياسمين ورنيم للتّسوّق، هبّت على الفور.

التفتتا معا لتحدّقا في دهشة إلى رانيا التي ظهرت عند باب غرفة رنيم حيث كانت تستعدّ. مضت برهة من الصّمت قبل أن تهتف رنيم في لهجة ساخرة:

– خيرا إن شاء الله أستاذة رانيا.. هل تجرّبين موضة جديدة؟

تجاهلت رانيا نبرة السّخرية في صوتها وقالت وهي تتأمّل شكلها أمام مرآة الحائط:

– كيف أبدو؟ هل يناسبني؟

كانت خصلاتها الشقراء التي اجتهدت المزيّنة في إبداعها منذ أسابيع قليلة قد اختفت تحت وشاح عريض غطى شعرها بالكامل وأحاط بوجهها في لفّة متقنة. قالت رنيم تستعجلها:

– سنغادر في الحال. ليس الوقت مناسبا للتّجارب.

واجهتها بابتسامة متحدّية:

– أنا جاهزة.

تبادلت ياسمين ورنيم نظرات حائرة، قبل أن تسأل رنيم من جديد:

– أنت واثقة؟ أعني، ستخرجين هكذا؟

– ما الأمر؟ ألا يعجبك حجابي؟ كلّميها ياسمين.. أليس الحجاب أمرا جيّدا؟

تحرّكت ياسمين على الفور لتعانقها في سرور حقيقي. هنّأتها وشدّت على كفّيها في جذل تحت نظرات رنيم المستنكرة. تردّدت قبل أن تردّ في جفاف:

– أكيد.. لم أقل العكس.. لكن، منذ متى.. أقصد، لم أعتقد أنّك قد تفكّرين في الأمر حتّى!

– تعلمين، أنا في طور تكوين الشخصيّة. أتلمّس الطريق، وهذا ما يفعله المراهقون. استيقظت اليوم وأنا أشعر بنوع من الإلهام. ماذا لو كان هذا بالضبط ما يلزمني؟

– تقصدين الالتزام الدّيني، أم قطعة الأكسسوار التي تناسب قميصك القصير وسروالك الضيق؟

– الالتزام الدّيني لا يعني القطع مع الموضة. ياسمين، أخبريها!

همهمت ياسمين محاولة قول شيء ما، لكنّ رنيم لم تمهلها:

– حسن، وغير ذلك؟ هل تعلّمت الصّلاة مثلا؟ هل تقرئين شيئا عن العقيدة؟

جارتها رانيا صراخا بصراخ:

– هذه الأمور تأتي بالتّدريج عزيزتي. أنا في طور التّعلّم. والآن كفى استجوابا، أنت تضيّعين وقت ياسمين.

قالت ذلك بلهجة قويّة وحاسمة، كأنّها تحاول إنهاء الحوار الجانبيّ الذي لم تكن تودّ خوضه. ألقت نظرة أخيرة على شكلها ثمّ تناولت حقيبة يدها وسبقتهما إلى الخارج. تنهّدت رنيم وهي تتناول حقيبتها بدورها وتمضي على إثرها في صمت.

تبعتها ياسمين بعد برهة وهي تفكّر. مبادرة رانيا فاجأتها وأسعدتها حقّا. لا يمكنها أن تجزم بمدى جدّيتها، لكنّها تعلم أيضا أن تحوّلات كهذه قد تأتي فجأة ودون سابق إنذار. أحاسيس خفيّة تتجمّع في العمق وتتشكّل في هدوء وبطء حتّى تتخذ هيئة قناعة تطفو على السّطح بشكل غير متوقع. كانت مستعدّة لمساندة رانيا ومدّها بكلّ المصادر اللازمة ليكتمل اقتناعها والتزامها من كلّ النّواحي.. لكنّ ردّة فعل رنيم العدائيّة فاجأتها. لماذا أنكرت على شقيقتها توجّهها الجديد؟

لقد تمنّت منذ عرفت رنيم أن تراها أكثر التزاما. وقد حسبت في وقت ما أنّها على قيد خطوات من ذلك. لكنّ السّنوات تمضي، وهي لا تكاد تحرز تقدّما يُذكر. ورغم متانة صداقتهما إلّا أنّ كلتيهما تحافظ على مساحتها الشخصيّة. لم يكن بوسعها أن تسألها صراحة إن كانت تنوي.. أم أنها نوت ثم صرفت النّظر! لكنّها تدعو لها بظهر الغيب دون فتور.

قضين بعض الوقت يتجوّلن بين المحلّات. كانت ياسمين تقتني قطعا أخيرة من أجل جهازها، في حين تبحث رنيم عن فستان مناسب للحفل. استغلّت رانيا لحظة غابت خلالها رنيم داخل غرفة القياس، وهمست لياسمين وهي تمثّل الأسف:

– رنيم لم تسعد بارتدائي الحجاب، أليس كذلك؟

رمقتها ياسمين دون أن تعلّق. كان بودّها أن تعترض، لكنّ ذلك كان ما لاحظته هي أيضا:

– لم يكن الأمر متوقّعا بالنّسبة إليها.. لكنّها ستتجاوز ذلك حتما.

هزّت رانيا رأسها متظاهرة بالموافقة، ثمّ أضافت في براءة مصطنعة:

– كنت أتساءل.. هل يمكن أن يجعلها ذلك تغار منّي؟ تعلمين، أنت صديقتها المفضّلة. وهذا القاسم المشترك الجديد بيني وبينك سيجعلنا مقرّبتين.. ألا تظنّين أنّ ذلك سيسوؤها نوعا ما!

- أبدا.. على الإطلاق! رنيم ليست سطحيّة هكذا.
- أرجو ذلك.

ابتسمت في وداعة، بينما كانت التّكشيرة تتّسع داخلها.

«سترين يا رنيم، سأجعلك تدفعين الثّمن!».

-١٦-

اجتمع موظّفو المختبر في القاعة التي جُهّزت لاستقبالهم. كان عمر قد استقطب زميلين سابقين، ومهندسيْن حديثي التّخرّج في كليّة الهندسة القريبة في «إفري». وضع إعلانا ورقيّا على لوحة الإعلانات في مكتب الاستقبال للكليّة، وتلقّى في الأسبوع التّالي مكالمات عدّة. أجرى المقابلات ثمّ انتهى به الأمر إلى توظيف شابّين حماسيّين وموهوبين.

قال عمر في لهجة واثقة:

- الافتتاح الرّسمي للمختبر مسألة وقت.. لكنّنا سنشرع في العمل تبعا للرزنامة التي ضبطناها وأرسلتها إليكم سابقا. طبعا لن يمكنني أن أسجّلكم كموظّفين في الوقت الحالي، لكنّ مرتّباتكم ستُصرف بشكل طبيعيّ، كمتعاونين في المرحلة الأولى.

أومأ الجميع في استحسان. لم يكن أحدهم يرغب في تأجيل بدء المشروع. رغم مخاوفه، كان عمر يأمل أن تكون تحذيرات سامي كلود من قبيل البارانويا أو الشك المبالغ فيه.

- في الوقت الحالي، أترك لكم حريّة الاختيار.. بوسعكم العمل في المكاتب أو عن بعد. في الحقيقة، ليس هناك داعٍ لحضوركم اليوميّ.. سأبلغكم حين تصل المعدّات.

كان ذلك الأمر يؤرقه أيضا. لقد طلب معدّات المختبر منذ أكثر من شهرين، لكنّها لم تصل بعد. من خلال موقع الشّركة الأمريكيّة المزوّدة، يمكنه الاطّلاع على مسار الشحنة. لقد سُلّمت إلى النّاقل منذ ستّة أسابيع، لكنّه لم يتلقّ بعد إشعارا لاستلامها من خدمة الجمارك.

فجأة، تعالى رنين هاتفه. كان الرّقم أجنبيّا غريبا. أشار عمر إلى موظفيه منهيا الاجتماع، فانصرف كلّ إلى شأنه، ثمّ ردّ على الاتّصال في شكّ.

- عمر الرّشيدي؟
- نعم، من المتّصل؟
- أنا عزّام، خال آية.. حصلت على رقمك منها. هل يمكننا التّحدّث الآن؟
- آه.. طبعا، بالتّأكيد.

دخل مكتبه لينفرد باتّصاله. لم يكن قد زار جاره محمّد الغزّي مرّة أخرى بعد جلسة التّعارف. حين التقيا في المسجد بعد يومين، وقفا عند ناصية الشّارع، وتحدّثا لبضع دقائق.

كان عمر قد أمعن التّفكير وأعرب عن رغبته في إتمام الخطبة. لا ينكر شعوره بالارتياح إثر الجلوس إلى آية. لقد كانت آية حقّا، جمالا وخُلقا وحكمة! في تلك المرّة،

تبادلا أرقام الهاتف. حيث إنّ العلاقة تسير نحو التوطّد، فلم يكن من المريح أن ينتظر لقاء مصادفة في كلّ مرّة.

يصله صوت خالها ببحّة مميّزة:

– سرّني أنّها قد وافقت على خاطب أخيرا.. فأردت التعرّف إلى سعيد الحظ!

ضحك الرّجل بصوت عالٍ بينما ابتسم عمر في حرج ولم يعلّق.

– المهمّ.. متى يمكننا اللّقاء؟

– متى شئت.

– أنت تعرف، مركزنا في بروكسيل.. هل بوسعك زيارتنا قريبا؟

شعر عمر بالتّشتت. مركز؟ في بروكسيل؟ بدا كلّ شيء ملتبسا، قال في حيرة:

– إن كان ذلك ضروريّا.. بالتّأكيد!

ساد الصّمت للحظات، ثمّ قال الخال:

– يبدو أنّ آية لم تحدّثك بكلّ شيء.. لعلّي تسرّعت بالاتّصال. حسنا.. لا يمكنني الشّرح على الهاتف.. أنت تعلم. حين تكتمل الصّورة اتّصل بي مجدّدا.. سجّل هذا الرّقم عندك. اتّفقنا؟

لم يكن عمر يفهم شيئا، لكنّه أنهى المكالمة وسجّل الرّقم.

***

دخل عمر المجلس للمرّة الأولى بصفة «الخاطب». كان اللقاء الأوّل تعارفا، وقد أسفر عن ارتياح متبادل. لم ينتظر لقاء العمّ محمّد في المسجد كما جرت العادة، بل تجرّأ على الاتّصال وتحديد موعد. كانت المكالمة الغريبة التي تلقّاها من خالها عزّام مدعاة للقلق، فخير أن يستمع إلى شرحها دون تأخير.

حين استقرّ بهما المقام في الصّالة الخالية إلا منهما، قال في هدوء:

– لقد اتّصل بي خالك.

أومأت آية، وانتظرت أن يكمل.

– لم أفهم الغرض من الاتّصال. قال أنّك ستشرحين أوّلا.

أخذت نفسا، ثمّ ألقت كلمتها:

– خالي يريد أن يختبرك.

– يختبرني؟

– قلت أنّك تودّ إثبات علوّ همّتك!

– وهل هناك اختبار لهذا الغرض؟

تململت في جلستها وقد لمست التهكّم في لهجته، ثمّ قالت في كبرياء:

– نحن عائلة لها تاريخ عريق في المقاومة. جدّي لأبي مات شهيدًا برصاص الاحتلال.. وجدّي لأمّي أمضى خمسة عشر عاما في سجونهم! وشبابنا يمضي على خطاهم، رغم تفرّقنا في أصقاع الأرض. نحن نُربَّى على ثقافة المقاومة منذ نعومة أظفارنا، وعلى مبادئها ننشأ.. وأريد لأطفالي أن ينشؤوا على المبادئ ذاتها.

أومأ عمر في اهتمام، فأردفت:

– لذلك يهمّني أن يكون والدهم حاملا لهمّ المقاومة أيضا.. حتّى لا تفترق سبلنا قبل أن تجتمع!

أصغى في صمت. يذكر حين كان طالبا في الجامعة، لم يكن يُفوّت تظاهرة تخصّ مساندة الحقّ الفلسطينيّ. كلّما اندلعت انتفاضة هناك، تجاوبت معها شوارع ليون ومارسيليا وباريس، وتحرّكت الجاليات العربيّة والمسلمة لتعبّر عن دعمها.

وكلّما تزايد الاعتداء على غزّة والأقصى وضُيّق الخناق على فلسطينيّي الدّاخل، تصاعدت أصوات الغضب في أنحاء أوروبا، وتوشّح الشّباب بالكوفيّة الفلسطينيّة.

لقد كان العلم الفلسطينيّ يزيّن باب غرفته في السّكن الجامعيّ جنبا إلى جنب مع علم المغرب!

وقد كان ورفاقه يتداولون قائمات الشّركات التّجاريّة الدّاعمة للكيان الصّهيونيّ للتّشجيع على مقاطعتها. وقد كان مقاطعا من الدّرجة الأولى.

لم يضع قدمه قطّ داخل مقهى «ستار بوكس» أو مطعم «ماكدونالدز»، ولا تجرّأ على زيارة حديقة «ديزني» للألعاب. أمّا منتجات «نيستلي»، فقد وجد صعوبات جمّة في تجنّبها، لكنه فعل لسنوات طويلة. كان يحسب نفسه حاملا لفكر المقاومة بالفعل. لكنّه يدرك أنّ فكره ذاك لم يتعدّ المجاهرة بالمساندة اللّفظيّة، دون أن يدنو من المرتبة الأعلى.

ماذا بعد الكوفيّة والعلم والصّراخ في الشّوارع والمقاطعة؟

لعلّ هذا هو ما تعنيه آية.. وهو لم يكن ليتأخّر عن تتويج مساعيه النظريّة القديمة بعمل حقيقيّ وملموس. قال بتفهّم:

– لا ضير في ذلك. إن كان خالك يودّ اختباري، فلا أمانع.

تهلّل وجهها وأشرقت قسماتها.

– هل يمكنك أن تفرّغ نفسك في نهاية الأسبوع لزيارته في بروكسيل؟

– سأفعل.

وافق دون تردّد، فابتسمت في رضا.

*

أمضى يومين في مصلحة الجمارك. يقصدها منذ ساعات الصّباح الأولى، ويلبث يتردّد على المكاتب واحدا واحدا، بلا فائدة ترجى. لم يكن هناك من يفيده بشأن شحنة المعدّات التي وصلت جوّا من الولايات المتّحدة، ولم يستلم إشعارا لاستلامها أبدا.

تواصل مع الشّركة الأمريكيّة المزوّدة، فأكّدوا له وصول الشّحنة إلى باريس. لكنّ مصيرها بقي مجهولا. يُمضي يومه في ترقّب المسؤولين. هذا يرسله إلى ذاك. يلفظه مكتب ويستقبله آخر.. لكنّه لا يحظى قطّ بردّ يشفي الغليل.

– رقم التّسلسل هذا غير موجود في ملفّاتنا. أنت واثق من وصول الشّحنة؟

– كلّ الثقة. هذه نسخة من بريد شركة الشّحن.

يطالع الموظّف (رقم عشرين) الورقة ثمّ يمطّ شفتيه ويهزّ كتفيه ويقول في حيرة:

– هناك خطأ ما!

يدرك أنّ هناك خطأ مؤكّدا. لكن لا أحد يقف على أصل الخطأ ولا على مصير شحنة معدّاته التي ترقد في مكان ما من مستودعات مصلحة الجمارك.

في مساء اليوم الثّاني، كان قد استنفد طاقته في الجدال، ومرّ على مكاتب المصلحة كلّها بلا استثناء، حين اقترب منه مدير المصلحة بنفسه وقال بلهجة آمرة:

– اتبعني!

هرول عمر خلفه وقد أشرق داخله الأمل. انتظر حتّى استقرّ الرّجل خلف مكتبه الفاخر، ثمّ عكف على جهازه ينقر لوحة مفاتيحه على مهل.

– هل وجدتم الشّحنة؟

– لقد وصلت بالفعل.

زفر عمر في ارتياح، حتّى أردف الرّجل:

– لكنّ شرطة الجمارك صادرتها!

– صادرتها؟ لأيّ سبب؟

– يبدو أنّها معدّات لتكنولوجيا متطوّرة.. مكتوب هنا في الملفّ «لا يملك الصّلاحيّة لاستيراد التّكنولوجيا».. هل لديك تصريح بمزاولة أبحاث علميّة؟ ليس متاحا لأيّ كان استيراد ما يشاء.

– ليس بعد.. إنّها مسألة وقت. تقدّمت بالملفّ وهو تحت الدّراسة.

– إذن لا يمكنك الاستيراد!

– إذا أحضرت موافقة من وزارة البحث العلميّ، هل يمكنني حينها استلام الشّحنة؟

– آسف، هذه الشحنة صودرت.. ونقلت من مستودعاتنا الأسبوع الماضي.. سيكون عليك طلب شحنة جديدة!

ضرب عمر بقبضته على المكتب في غيظ. لقد أفنى وقتا ومالا غاليين.. والآن يعود إلى خانة الصّفر. خرج من مصلحة الجمارك خالي الوفاض. يتذكّر كلمات سامي كلود، فينتابه الضّيق. ماذا لو كانت نبوءته صادقة؟ ألن يحصل على الموافقات الإداريّة أبدا؟

دخل الشقّة –التي يتوق إلى اليوم الذي تغدو فيه مختبرا– ليجد موظّفيه مجتمعين في الاستراحة يحتسون القهوة. في غياب المعدّات، جلّ ما يفعلونه هو مطالعة المجلّات العلميّة، ومقارنة الدّراسات والنظريّات.. ثمّ يأخذون استراحات طويلة، يغالبون بها الملل.

بادره أليكس في لهفة:

– هل وصلت المعدّات؟

وقف قبالتهم في إحباط وانكسار. لم يكن يودّ أن يتّخذ ذاك القرار، لكنّه محاصر والسّبل مسدودة. قال بصوت محطّم:

– المعدّات لن تأتي أبدا.. والمختبر لن يفتح.

تبادلوا نظرات ذاهلة، بينما واصل عمر:

– لم يعد هناك داعٍ لمجيئكم بعد الآن. ستصلكم رواتبكم، مع مستحقّات نهاية الخدمة.. وأعتذر منكم عن الأمل الزّائف الذي وهبتكم إيّاه.

*

استرخت الفتيات على الأريكة والمقاعد الوثيرة حولها. كانت رانيا من اهتمّ بترتيب السّهرة، بعد أن ألحّت على ياسمين طويلا. لم يكن «حفل انتهاء العزوبيّة» تقليدا يهمّها أو يعني لها شيئا. لكنّ رانيا التي تطمع في تلميع صورتها وكسب صداقتها طلبت فرصة

لإثبات فائدتها وتعلّمها الدّرس. وزّعت عليهنّ أقنعة الوجه وهي تشرح طريقة الاستعمال:

- استلقين وارفعن رؤوسكنّ إلى الوراء، ثمّ ضعن القناع برفق دون أن يلامس العينين أو الشّفتين...

ابتسمت فاطمة وهي تقول:

- هذه الأقنعة المعلّبة عمليّة ويسيرة الاستخدام!

بينما انصاعت سكينة وميساء في صمت، همست ياسمين لرنيم التي تجاور مقعدها:

- فكّي التّكشيرة قليلا.. أعلم أنّها لن تتغيّر بين عشيّة وضحاها، لكنّها تحاول.. من أجل كسب ثقتك.. فامنحيها فرصة!

تنهّدت رنيم وهي ترمق رانيا المنهمكة في مهمّتها وهمست بدورها في فتور:

- سأفعل، من أجل خاطرك!

- والآن، ارفعن أرجلكنّ على المائدة.. وضعن هذا على العيون...

ثمّ لفّت رانيا بطبق الخيار المقطّع على شكل دوائر رقيقة لتأخذ كلّ منهنّ قطعتين تضعهما على جفنيها المغمضين.

- والآن، حان وقت الاسترخاء.

قالت ذلك وهي توزّع كؤوس العصائر المنعشة، ثمّ تتّخذ مجلسا بدورها حول المائدة وتحذو حذوهنّ. غمغمت سكينة:

- هل يمكنني النّوم؟ أشعر بحاجة إلى غفوة قصيرة!

ضحكت ياسمين وقالت:

- الوضع مغرٍ بالنّعاس! كم سنبقى هكذا؟

- نصف ساعة.. ثمّ سيكون هناك نشاط آخر!

همست ميساء برفق وهي تحاول ألّا تحرّك شفتيها فيتجعّد قناعها:

- هل يمكن أن نتحدّث؟

- صوتك غريب!

ضحكت ياسمين مرّة أخرى. لم يكن من اليسير الحفاظ على قطعتي الخيار وهي تتلفّت كلّ حين لتحادث جارتيها. مرّت عشر دقائق قبل أن تقول رنيم في ملل:

- أظنّ هذا كافيا، هل نفعل شيئا آخر؟

تململت الأخريات بدورهنّ، وأخذن يستوين في جلستهنّ ثمّ ينزعن الأقنعة. وقفت رانيا بدورها وقد ساءتها مقاطعة شقيقتها لمخطّط السّهرة. قالت محاولة الحفاظ على مزاجها المرح:

- ما رأيكن في بعض الرّقص؟

تمطّت رنيم وتثاءبت وهي تقول:

- لِمَ لا!

هبّت رانيا إلى جهاز التّسجيل وشغّلت موسيقى شبابيّة صاخبة، ثمّ عادت إلى الفور لتسحب الطاولة المنخفضة وسط الصالة وتدفعها في اتّجاه ركن الغرفة، وتوسع مجالا

مناسبا لحلبة الرّقص. تبادلت ياسمين وميساء نظرات متواطئة، ثمّ أخرجت ميساء من حقيبتها قرصا مضغوطا:

– لديّ شيء مناسب أكثر!

كانت ياسمين قد طلبت منها تجميع أناشيد أفراحٍ من أجلها، لإضفاء جوّ من المرح. أوقفت الضّوضاء التي أحدثتها موسيقى رانيا وشغّلت قرصها. زفرت رانيا من جديد في ضيق. هل يتعمّدن إفساد تدبيرها أم ماذا؟ لكنّ ذلك لم يفتّ من عضدها. بسرعة كانت تتوسّط الحلبة، تربط الوشاح ثمّ تميل خصرها في حرفيّة وخفّة. كانت قادرة على الرّقص على أيّ نغم، حتّى لو كان موّالا شاميّا أو أوركسترا أوبرا!

سرعان ما سرى الحماس في الأجساد وأخذت الخصور والأرداف تهتزّ في حركات متفاوتة المهارة. استمرّ الرّقص والتّصفيق وصدحت الحناجر بالغناء مكرّرة الأناشيد.. ثمّ ارتمين على المقاعد من جديد وهنّ يتضاحكن وقد أرهقهنّ النّشاط البدنيّ.

– الآن، فقرة الأسئلة!

أعلنت رانيا وهي تواجههنّ، فتطلّعن إليها في انتباه:

– السّؤال الأوّل.. ما هو الشيء الجيّد بشأن الزّواج؟

تعالت القهقهات دون موارية، وعلّقت رنيم في سخرية:

– أظنّك أخطأت الجمهور.. أمامك ثلاث عازبات ومطلّقتان، وتسألين عن فوائد الزّواج؟

ضحكن من جديد في صخب، ثمّ تدخّلت سكينة مهدّئة:

– لا تثرن ذعر البنيّة، إنّها مقبلة على القفص الذّهبي، لذلك قليلا من التفاؤل رجاءً.. سأبدأ أنا.. إنّ الشيء الوحيد المفيد الذي أحرزته من الزّواج هو الأطفال!

رمقنها جميعا في تعاطف، وأمّنت فاطمة على قولها:

– ذلك هو الفضل الوحيد الذي أسفرت عنه تجربتي.. لكنني آمل لك حظا أوفر يا ابنتي!

قالت رنيم بنظرة حالمة:

– المؤانسة!

بينما هتفت ميساء:

– الحريّة!

ضحكت رنيم وهي تعلّق:

– أظنّك فهمت الأمر بشكل عكسيّ! أنت تفقدين حرّيتك حين تتزوّجين.. تصبح قراراتك، تحرّكاتك وخياراتك كلها مرتبطة بشخص آخر!

ردّت ميساء في تهكّم:

– هذا إذا كنت حرّة من الأساس! لكنّ الزّواج بالنّسبة إليّ فرصة للتخلّص من قيود العائلة، والخروج من حدود البيت!

قالت رانيا في تعاطف:

– أفهمك تماما.. ماذا عنك ياسمين؟

– الأمان!

حدّقت فيها فاطمة غير مستوعبة:

– الأمان؟ هل تشعرين بالخطر الآن؟

– الأمان بمعنى الاعتماد على شخص آخر وقت الحاجة، مشاركته همومك واليقين بأنّه لن يتجاهلها أو يفرّ أمامها.. وتقاسم أعباء الحياة اليوميّة معه، والحصول على مساندة معنويّة لا مشروطة!

رنت إليها رنيم متأمّلة، واسترجعت رغما عنها كلمات شهاب ومواقفه الحامية لها. بينما صفّرت رانيا في إعجاب ثم هتفت وهي ترفع ذراعها في حركة مسرحيّة:

– عروسنا تحرز نقاطا عن هذا السّؤال! والآن، السّؤال الثّاني.. ما هو الشيء السّيء بشأن الزّواج؟

قالت رنيم على الفور:

– فقدان الحريّة!

كشّرت ميساء، ثمّ قالت:

– امم.. أشغال المنزل!

ضحكن كلّهن، ثمّ التفتن إلى فاطمة، فضمّت شفتيها ثمّ ألقت كلمتها مثل بصقة عنيفة:

– الخيانة!

امتقع وجه ياسمين، ولم يعلّق أحد. تابعت سكينة:

– دوري إذن.. فراق الأهل!

– لدينا هنا ميساء، تتوق إلى مفارقة أهلها.. وسكينة، تتمنى العودة إليهم! ما رأي عروسنا؟

تضرّجت وجنتا ياسمين وهي تهزّ كتفيها في خجل:

– هل يجب أن تكون للزواج مساوئ؟

ارتفعت الضّحكات المرحة مرّة أخرى، في حين عانقتها ميساء وهي تهتف:

– يا إلهي.. عروسنا حالمة ومتفائلة، فلا تفسدن مزاجها! بالنّسبة إليك، لا.. ليست للزّواج مساوئ! والعريس مختوم بختم الجودة من طرفي!

ارتفعت موجة ضحك أخرى حتّى دمعت العيون. همست رنيم لسكينة الجالسة جوارها بصوت خافت لم يصل إلى مسامع ياسمين وميساء:

– الحماة يا عزيزتي.. الحماة!

أخفت سكينة ضحكتها وهمست بدورها:

– ياسمين تحلّق فوق السّحاب مذ تصالحت وهيثم!

سألت رنيم في دهشة:

– هل تشاجرا؟

– كان ذلك أثناء غيابك.. في يوم حفل تخرّجها.. اختلفا بشأن عملها، ثمّ صالحها هيثم بسرعة.

– بعدها اتّفقا على الانتقال إلى «ليل» إذن!

– آها.

لوت رنيم شفتيها وهي تفكّر لبرهة ثم عادت لتهمس:

– لكنّ زهور لم تسعد لهذا.

– ما أدراك؟

– لقد سمعت فاطمة تحتدّ وهي تخاطبها على الهاتف.. الحماة، ألم أقل لك؟

سكنت وشوشتهما حين تنحنحت رانيا وهي تعلن السّؤال التّالي:

– السّؤال الثالث.. ما هو الشّرط الأساسيّ للزّواج النّاجح؟

هتفت رنيم على الفور:

– الحبّ!

قهقهت فاطمة في مرارة ثمّ قالت بنبرة متهكمة:

– ادفعي عنك هذه التّفاهات يا ابنتي.. العلاقة بين اثنين لا يمكن أن تتلخّص في العاطفة أو الانجذاب الجسدي.. هناك مواصفات أخلاقية هامّة إن لم تتوفّر فإن حظوظ النّجاح ضئيلة، إن لم تكن منعدمة.. وأوّلها، الصّدق!

هزّت سكينة رأسها مؤيّدة، ثمّ أضافت:

– وأنا أقول.. المسؤوليّة! كثير من الرّجال لا يعتدّ بهم ويحسبون الزّواج لعبة، يمكنهم دخولها والخروج منها متى شاؤوا.. ولا يحسبون للزّوجة والأطفال حقّا عليهم! إن لم يكن الزّوجان على قدر من النّضج والقدرة على تحمّل مسؤوليّة إنشاء عائلة، فلا فرصة للزّواج!

أمّنت الأخريات على قولها بهزّات من رؤوسهنّ، ثمّ قالت ميساء:

– تقوى الله! قيل في الأثر: «زوّج ابنتك ممّن يتقي الله فيها، فإن أحبّها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها»!

تابعت ياسمين كلماتهنّ باهتمام، لكنّ الابتسام غلبها. كان بوسعها استعراض قائمة طويلة من أسرار الزّواج النّاجح.. بفضل الكتاب الذي أهداها إيّاه هيثم! لكنّ ما تستحضره في تلك اللّحظة كان بعيدا عمّا ورد في الكتاب، بل إحساسا ملأ وجدانها منذ أسابيع قليلة وهي تقف في الشّرفة.

– التّقدير.. أن يقدّر الطرف الآخر مميّزاتك وصفاتك، فلا ينظر إليك بفوقيّة، لأنّك أنثى يجب عليها أن تتبع الرّجل دون تفكير.. أن يحترم خياراتك ويساندك في مشاريعك الخاصّة.. ويثق في رأيك ويستشيرك في أموره كلّها، لأنّه لا يراك مجرّد تحفة تزيّن منزله، بل كيانا مستقلّا بذاته، يكمّله ولا يذوب فيه!

صفّقت رانيا في جذل ثمّ أعلنت:

– شكرا لإجاباتكنّ جميعا.. والآن إلى المائدة!

وقفن في حماس، ورحن يملأن أطباقهنّ من الأصناف التي تشاركن في إعدادها في وقت سابق من النّهار. زفرت رنيم وهي تقول في تهكّم بينما يداها منشغلتان:

– يبدو أنّني العاطفيّة الوحيدة هنا! لا أحد يؤمن بالحبّ؟ لقد أفسدتنّ كلّ آمال المستقبل!

علّقت ميساء مازحة:

– لا بأس بالحبّ كمدخل.. أو كخاتمة، أيّهما أقرب! لكنّه ليس كلّ شيء!

أضافت فاطمة في جديّة:

– وقد يكون لا شيء.. إذا اصطدم بحجارة الواقع تفتّت وتلاشى!

تنهّدت رنيم في أسى ثمّ قالت:

- لا فائدة! ياسمين، أغلقي أذنيك عنهنّ.. أتمنّى أن تحبّي هيثم، فالحياة بلا حبّ مسخ بلا طعم!

احتقن وجه ياسمين في حرج، بينما حدّقت فيهما ميساء لوهلة في شكّ.. ثمّ انشغلت بطبقها.

***

ركبت ميساء إلى جوار هيثم لينطلق بسيّارته على الفور. قال وهو يتأمّل الطّريق أمامه:

- كيف كانت الأمسية؟ هل استمتعت؟

- جدّا.. لقد تسلّينا كثيرا!

- جميل.

هتفت تناكفه:

- ولقد تحدّثنا عنك كثيرا!

التفت إليها في اهتمام:

- حقّا؟

- آه، لا يحقّ لي أن أنقل إليك شيئا.. أسرار المجالس، أنت تعلم!

حدجها بنظرة مغتاظة ثمّ عاد بتركيزه إلى الطّريق.

- هيثم!

- نعم.

ردّ دون أن يلتفت إليها، فقالت في رجاء:

- ياسمين طفلة بائسة.. فلا تكسرها أبدا.

- ماذا تقصدين؟

غزت ملامحه الدّهشة وهو يطالعها مصدوما، فصرخت ميساء:

- الطّريق يا أخي، انتبه أمامك!

عاد إلى التّحديق في الشّارع، وهو يسألها مجدّدا:

- ما الذي حدث؟ لماذا تقولين هذا؟

تنهّدت ميساء:

- لقد شعرت اليوم كم نحن مختلفتان، ياسمين وأنا.. لقد كبرتُ في عائلة متماسكة ومتحابّة، بينما نشأت هي مع أمّ مطلّقة، وزميلتها في السّكن امرأة مطلّقة. لا يمكن لأحد أن يلومها إن هي فقدت ثقتها في منظومة الزّواج. وفوق ذلك تدرس حالات الانتحار! حياتها محاصرة بالطّاقة السّلبيّة، لكنّها رغم ذلك مليئة بالتّفاؤل.. وتضع عليك آمالا عريضة!

اتّسعت ابتسامته مع كلماته الأخيرة، وسألها متحرّيا الدّقة:

- هل قالت ياسمين هذا؟

- ماذا؟

- أنّها تضع عليّ آمالا عريضة؟

قالت ميساء في تغابٍ:

- هل تظنّ غير ذلك؟ ألم توافق على الزّواج منك؟

- لا، أقصد.. هل قالت ذلك حرفيّا؟

هزّت كتفيها استهانة وقالت تناكفه:

- لا أدري.. لقد شعرت بهذا وحسب!

زمّ شفتيه في غيظ وقد أدرك أنّه لن يحصل منها على حرف واحد زيادة. لكنّ كلماتها لم تفارقه بقيّة الطريق. لم يكن ما قالته غريبا عنه، ولم تكن ظروف ياسمين غائبة عنه البتّة. أولم تمدّد فترة الخطبة متعمّدة، تتحجّج بالرّسالة؟ لقد لمس خوفها، وسعى إلى طمأنتها بكلّ السّبل.. وبعد يومين، حين يجمعهما بيت واحد، سيطمئنها أكثر.

ابتسمت ميساء وهي ترقبه من طرف خفيّ. تعلم كيف هي مشاعر أخيها تجاه ياسمين.. لكنّ ملاحظة رنيم ضايقتها.

تمنّت أن تحبّ ياسمين هيثم كما يفعل.

-١٧-

أوقف سامي كلود سيّارته المرسيدس السّوداء أمام مبنى الجامع الكبير في ضاحية «سين سان-دوني»، ثمّ استدار ليلقي نظرة خاطفة على جارة مقعده وقال:

- أنت واثقة من رغبتك في الحضور؟ يمكنك الانتظار هنا إلى أن تنتهي المراسم.

ردّت ناتاشا، صديقته الرّوسيّة الصّهباء بلكنتها المميّزة المغناج:

- بالعكس، أودّ كثيرا حضور حفل زفاف تقليديّ!

في المقعد الخلفيّ، كانت فاطمة تمسك لسانها على مضض وهي تكاد تتميّز غيظا. لقد ألحّ على الهاتف، أعلن بلهجة قاطعة أنّ البنت لا يقودها إلى عقد قرانها إلا والدها. وقد راقت لها مبادرته لا ريب. رغم غيابه عن حياة ياسمين، بوسعها أن تثمّن اهتمامه بالمظاهر المشرّفة وحفظ ماء وجه ابنته أمام الأصهار. ثمّ من خير منه لينهض بمهمّة الوليّ؟

لكنّها لم تحسب حساب هذا! جاء من «ليون»، يقود سيّارته، وبرفقته صديقته الأجنبيّة! وها هي محشورة بينهما في سيّارة واحدة منذ الصّباح. ترى بعينها وتموت بقلبها. ألقت نظرة على ياسمين الجالسة جوارها. كانت مطرقة، تقبض بكفّيها على أطراف ثوبها. تبادلتا ابتسامة باهتة. كانتا متوتّرتين.. ولكلّ واحدة أسبابها.

في وقت سابق من صباح ذلك اليوم، قصد عدد محدود من أفراد العائلتين مبنى البلديّة لتسجيل الزّواج المدنيّ. لم يكن يُسمح بإقامة الزّواج الدّيني ما لم توقّع تلك الوثيقة الرّسميّة. لقد ذيّلت الورقة بإمضائها وانتهى الأمر. في حكم القانون، أصبحا زوجين.. والآن يستكملان المراسم الشّرعيّة.

نقرات خفيفة على نافذتها أخرجت فاطمة من بوتقة أفكارها التّعسة. أشارت إليها زهور. حان الوقت. ترجّلت من السيّارة، في حين كان هيثم يفتح البوابّة المقابلة، لتنزل ياسمين.

خلفهم تماما توقّفت سيّارة رنيم الحمراء الجديدة. كان استرجاعها للخمسين ألف يورو هديّة من السّماء. خمّنت أنّ أفضل استثمار في الوقت الحالي هو سيّارة تحرّرها من أزمة وسائل النّقل، وتدشّنها في زفاف ياسمين. إلى جوارها جلست رانيا وهي ترتدي

فستانا أرجوانيا طويلا ووشاحا في اللّون الفضيّ.. بينما اكتفت رنيم ببدلة رسميّة في اللّون الكريمي، وألقت على رأسها وشاحا أسود بإهمال، احتراما لدار العبادة. رمقت شقيقتها بامتعاض، وهي تصلح زينتها أمام مرآة السيّارة، وقالت محاولة الحفاظ على هدوئها:

– انزلي.. سنتأخر!

قالت رانيا وهي تطلي شفتيها بسخاء بأحمر شفاه زاهٍ:

– لن يبدأ شيء قبل الصّلاة، اطمئنّي.

قالت سكينة التي رافقتهما في المقعد الخلفيّ وهي تفتح البوّابة من جهتها:

– سأسبقكما إلى الدّاخل.

تنهّدت رنيم في ضيق، بينما ابتعدت سكينة لتلحق بياسمين وأهلها. تلك شقيقتها، وتلك مسؤوليّتها. هذا أمر لا فكاك لها منه.

– يا ربّ ألهمني الصّبر!

خطت ياسمين برفق حتّى توازنت على حذائها ذي الكعب العالي، ثمّ لبثت تنتظر، حتّى أحاطت بها فاطمة وميساء من الجهتين، وضعت كفّيها بكفّيهما فقادتاها بخطى وئيدة محفوفة بالزّغاريد إلى الدّاخل. كانت ترتدي برنسا حريريّا أبيض، تنزلق قبّعته على وجهها لتُخفي ملامح زينتها، وتمنعها من رؤية الطّريق أمامها.

انحرفت إلى مقصورة جانبيّة قبالة باحة المسجد وحديقته، في حين توجّه الرّجال مباشرة إلى قاعة الصّلاة. لم تكن فريضة العصر قد أقيمت بعد. صافح عبد الحميد الإمام ثم هتف في المصلّين:

– حيّاكم الله إخواننا.. انضمّوا إلينا جميعا بعد الصّلاة إلى وليمة زواج ابني!

تعالت عبارات التّهاني من كلّ حدب وصوب، في حين كانت زهور تقوم بالمثل في قاعة النّساء. كان الحضور كثيفا ذلك اليوم، فقد أُعلن عن العرس قبلها بأيّام، ووُجهّت دعوة مفتوحة للجالية المسلمة المقيمة في الجهة، فتناقلتها الألسن، واستجاب النّاس بلا تردّد، وكلّهم اشتياق إلى علامات الفرح المألوفة في بلادهم أو فضول لاكتشاف عادات جديدة.. فقد كانت أعراس المغتربين فرصة لمدّ جسور التّواصل وتوسيع العلاقات.

كان الأهل والجيران يتعاونون على تفريغ الصّوّاني المكوّمة بالكسكس ومرقه المطبوخ بلحم الضّأن، والمعجّنات والسّلطات والفواكه والمرطّبات والعصائر، ويحملونها إلى قاعات الصّلاة.

ما هي لحظات إلّا وأقيمت صلاة العصر. بعد ذلك، تربّع الشّيخ قبالة الحضور، وأخذ يتلو موعظة موضوعها الرّباط المقدّس. ثمّ دعا، فأمّن المستمعون، وأصغت النّساء في انتباه إلى الخطاب الذي يصلهنّ عبر مكبّرات الصّوت، قبل أن ينتهي إلى مراسم عقد القران.

حين تصافح هيثم وسامي متبادلين التّهاني، ارتفعت الزّغاريد، وتوافدت السّيّدات لتهنئة ياسمين. كانت قد نزعت عنها البرنس لتكشف عن قفطانها التقليديّ الأبيض المطرّز بخيوط ذهبيّة، وعن زينة وجه خفيفة ورقيقة. كانت قد تركت شعرها الأسود الطّويل مسدلا على كتفيها، ووضعت على رأسها تاجا ذهبيّا. بعد ذلك، فُرشت قاعات الصّلاة ببسط قطنية غطّت السّجاد الأحمر، ومُدّت سفرة الطّعام على الأرض.

كانت زهور تروح وتجيء في همّة ونشاط، تعطي التّعليمات وتهتمّ براحة الضّيوف، وهي ما تفتأ تردّد في سرّها «اليوم عرسنا وغدا عرسهم»! كانت قد أعدّت الوليمة بنفسها، بمساعدة جاراتٍ وصديقات. حرصت على أن يكون الطّعام الدّسم كما ينبغي، لا يختلف في شيء عن أعراس البلد التي ما تزال حيّة في ذاكرتها، رغم الغربة التي تدوم منذ عقدين. لم تنس نثر حبّات الزّبيب والحمّص والحلوى على وجه كلّ قصعة قبل تحويلها إلى السّفرة، ورصفت الفلفل الحارّ المقليّ إلى جوار قطع اللّحم.

ثمّ رُفعت السّفرة، وتجمّعت النّسوة حول العروس. تقدّمت ميساء وهي تحمل سبت الحنّاء المغلّف بقماش أبيض مطرّز، والمليء بعلب الحلوى والمكسّرات المجهّزة من أجل المدعوّين. أوقدت الشّموع على وقع الزّغاريد، ثمّ أخذت زهور تخضّب كفّي كنّتها بعجينة الحنّاء، بينما توزّع ميساء الحلوى. بعد ذلك، تقاسمت الحاضرات ما تبقّى من العجينة، وزيّنّ كفوفهنّ بها، ثمّ حفظنها باللّفافات القطنيّة حتّى تجفّ. كان كلّ شيء بسيطا ودون تكلّف، والفرح غامرا وتلقائيّا.

خرجت ناتاشا وهي تلوّح جذلة بعلبة الحلوى في كفّ وبقرص العجينة في كفّها الأخرى. حدجها سامي في عجب، فقالت مأخوذة وهي تقرّب كفّها من وجهها:

– رائحتها زكيّة!

قال متهكّما:

– هنيئا لك بها!

ثمّ استطال مراقبا البوّابة، يبحث بعينيه عن فاطمة وياسمين حتّى يقلّهما إلى الشقة.. لكنّ أيّا منهما لم تظهر. أخيرا، خرجت زهور، بعد أن أشرفت على تنظيف قاعات الصّلاة وجمع الأواني وبقايا الطّعام. في المقصورة، كان فريق من الشّباب يعبّؤون وجبات فرديّة لتوزيعها على فقراء الحيّ. اقترب منها سامي مستفسرا، فقالت باقتضاب:

– فاطمة غادرت مع رنيم.. وياسمين سيقلّها زوجها.

زمّ شفتيه وقد استشاط غضبا. لم تكلّف نفسها مشقّة إعلامه. يحلو لها أن يستمرّ في الانتظار بلا فائدة!

***

تسلّلت ياسمين عبر الباب الخلفيّ، حيث كانت سيّارة هيثم تنتظر. ابتسم وهو يلمحها تتعثّر في برنسها وكعبها العالي، ثمّ رآها تتنهّد حين استقرّت على المقعد المجاور. مدّ كفّه ورفع البرنس عن وجهها. رفع حاجبيه فجأة، ولم يعلّق. حدجته بنظرة متطلّعة، ثم لوت شفتيها في توتّر. لم يقل شيئا بشأن زينتها!

أدار هيثم المحرّك لينطلقا، ثمّ قال وعيناه معلّقتان بالطّريق:

– أين نذهب؟

قالت في دهشة:

– إلى الشقّة!

ضحك في تسلية، ثم قال:

– أنت مستعجلة للفكاك منّي؟

أطرقت في خجل وهمست:

– أين بوسعنا الذّهاب وأنا بهذا الشّكل؟

ناولها منديلا ورقيّا وقارورة ماء في صمت. حدّقت فيهما لبرهة ثم أدركت ما يرمي إليه. انبرت تمسح زينة وجهها في وجوم. حين فرغت، تطلع إليها مبتسما وقال:

– هكذا أفضل!

أشاحت ياسمين بوجهها متجاهلة ملاحظته. لم تدر إن كان ما قصده مدحا لجمالها الطبيعي أم ذما لزينة العرس. لم تكن زينتها مبالغا فيها، بل إنّ كلّ الحاضرات أشدن برقّتها وبساطتها. تمنّت أن تلمح ذاك الوميض في عينيه وهو يبصرها في أبهى حلّة.. لكنّه قصف كل توقعاتها.

توقّفت السيّارة عند رصيف نهر السّين، قرب جسر الفنون، قبالة محلّ مثلجات معروف. نزل هيثم على الفور، فكشّرت في انزعاج. إنّه حتّى لم يكلّف نفسه أن يسألها عمّا ترغب فيه! هل بدأت القِوامة من الآن؟ يقرّر عنها حتّى ما ستأكل؟

سرحت نظراتها عبر النّافذة. أمامها تماما تظهر الشبكة المعدنيّة على جانبي جسر الفنون، حيث يُعلّق الأحبّة أقفالا رمزيّة، متواعدين على الإخلاص. إنّها في اليوم الأكثر أهميّة في حياتها، وأمام المعلم الأشدّ رومانسيّة في باريس.. لكنّها تعيسة.

كان مزاجها في هبوط متواصل. شعرت بأنّها محبطة وعلى وشك البكاء. هل يعقل أن تستبدّ بها الكآبة عشيّة عقد قرانها؟ أسدلت جفنيها وهي تقاوم العبرات التي تلحّ عليها حتى تنهمر. ابتلعت الغصّة حين رأته يتقدّم باتجاهها.

بهدوء، فرش هيثم مناديل ورقية على حجرها، حتى لا يتّسخ قفطانها، ثم وضع في راحتها كوب مثلجات رشّت فوقه حبيبات توفي وشكولاتة. تأملت ياسمين كوبها، كانت فيه ثلاث كرات، بنكهة الكراميل والزّبدة المملحة، الفستق والقهوة.. نكهاتها المفضّلة!

– أعلم أنك تفضّلين مخروط البسكويت.. لكن الكوب أفضل لظروف اليوم!

ابتسمت رغمًا عنها. وهي تتناول ملاعق المثلجات واحدة إثر الأخرى، خفّت تعاستها تدريجيّا حتى تلاشت تماما مع البرودة التي خدّرت لسانها وحواسّها كلّها.

فكرت ياسمين بأنّه لم يفعل شيئا سيّئا. ربما لا تُعجبه الزّينة في المطلق، وقد أشار إلى ذلك بوضوح، فلا داعي لتعكير الجوّ. ثمّ هو قد تذكّر نكهاتها المفضلة ولم يحتج إلى سؤالها عمّا تريد. وهذا يشفع له تماما!

– انظري إلى هنا، سألتقط صورة لنا.

أمالت رأسها برفق وهي تحدّق في العدسة وبسمة رائقة تزيّن شفتيها، فاقترب هو أكثر حتّى تلامست كتفاهما، فاشتعل وجهها حرجا. التقط الصّورة بهاتفه، ثمّ قال ضاحكا:

– يكفي هذا لليوم.. سأعيدك إلى الشّقة!

***

بعد حوالي أربع ساعات على الطّريق، وصل عمر إلى وسط مدينة بروكسيل. قاد السيّارة عبر شوارع العاصمة البلجيكيّة، ثمّ تابع تعليمات جهاز الملاحة حتّى انتهى إلى العنوان المطلوب بالضاحية الشرقيّة. توقّف أمام جامع مهيب حديث التشييد، ذي صومعة باسقة وقبّة ضخمة. قبالة البناء حديقة عامّة مترامية الأطراف، وعلى الجانب الآخر عمائر سكنيّة.

تأمّل الواجهة التي تظهر عليها لافتة باللّغتين العربيّة والفرنسيّة: «المركز الإسلاميّ والثّقافي ببلجيكا – المسجد الجامع بروكسيل».

إذن هذا هو المركز!

كان قد انطلق مبكّرا في السّادسة صباحا، فوصل زهاء العاشرة. اتّصل برقم عزّام، ولبث ينتظر. بعد لحظات، ظهر عند المدخل رجل أربعينيّ ملتحٍ يرتدي قميصا أبيض ويتدثّر بكوفيّة تغطّي كتفيه. توجّه مباشرة إلى سيّارة عمر، وقد تعرّف إلى لوحة أرقامها الفرنسيّة. صافحه عمر بحرارة، وقد فاجأه شباب الرّجل الذي كاد يهمّ بمناداته «يا عمّ». ربّما يكبره بعقد من الزّمن، لكنّ ذلك لا يبدو كافيا ليُنزله بمنزلة العمّ!

– تعال، سآخذك في جولة حول المركز!

تبعه عمر ليطوفا سويّا بالبناء، قاعات الصّلاة الفسيحة، السّاحة الواسعة، المكتبة وغرف الاجتماعات ثمّ المحلّات التّجاريّة التي تضمن للمركز استقلاليته الماليّة، والمباني الإداريّة المتاخمة لها. انتهت بهما الجولة في مكتب عزّام داخل المبنى. كان يصرف ساعتين من وقته يوميّا لإدارة الشّؤون الماليّة للمركز، تطوّعا. دعاه إلى كوب شاي محلّى، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث.

– لا شكّ أنّ الرّحلة من باريس كانت مرهقة.. نضيّفك أوّلا ثمّ نتحدّث.

صلّيا الظّهر مع روّاد الجامع، ثمّ خرجا للغداء. دعاه عزّام إلى مطعم لبنانيّ قريب، حيث تناولا وجبة شرقيّة دسمة، ثمّ عادا أدراجهما إلى المكتب. كان الرّجل دمث الخلق حسن المعشر، مبالغا في الحفاوة. ذاب توجّس عمر إثر الاتّصال المريب دون تمهيد وترك مكانه ارتياحا وقبولا. استمرّا يتسامران هنيهة، حتّى قال عزّام باهتمام:

– كيف هي صحّتك الآن؟ أعلم بشأن حادثتك المؤسفة.. هل جسدك قادر على التحمّل؟

ارتبك عمر وقد باغته السّؤال الغريب. لقد عاد الرّجل إلى الغموض المريب. قال في حيرة:

– تحمّل ماذا؟

ضحك عزّام، ثم قال:

– لا تخف.. لن أجري لك اختبارا بدنيّا. إنّما أريد أن أقترح عليك أمرا.

تريّث لبرهة، ثمّ استطرد يقول:

– لا شكّ أنّ آية حدّثتك عن طموحاتها.. إنّها فتاة ذات بصيرة، وعلى قدر من الذّكاء وعلوّ الهمّة. إنّها تريد لذريّتها أن تنشأ على ما نشأ عليه شباب العائلة منذ أجيال.. وليس لذلك من سبيل أفضل من تخيّر أبيهم!

أطرق عمر في حرج، وهزّ رأسه علامة الإصغاء، فأردف عزّام:

– إنّي ناصح لك فاستمع! هناك أشياء قد تفعلها من أجل شريكة حياتك.. قد تتبنّى همومها وتشاركها إيّاها من باب المؤازرة والتّضامن. لكن ليس هناك ما هو أفضل من أن تكونا على نفس النّهج منذ البداية.. أن تكون قضيّتها قضيّتك أنت أيضا، فلا فضل لأحدكما على الآخر.. وقضيّتنا كما تعلم هي «مقاومة الاحتلال»!

أنصت عمر في انتباه. بدت دواخله مكشوفة تماما أمام الرّجل. لقد حدّث نفسه بذلك منذ جلسة التّعارف. لم يكن يمانع تبنّي هموم زوجته في المستقبل، وأن يصرف

جهده وماله فيما يرضيها. إنّه يؤمن بالمقاومة بالتّأكيد، لكنّه دائما ما كان يرى نفسه مساندا، عنصرا خارجيّا لا جزءا صميما. ضحك عزّام ثمّ أضاف:

– أنا لا أقول احمل السّلاح وهلمّ بنا إلى ساحة الوغى في الحال.. لكنّ الله يقول في كتابه العزيز (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم). يجب أن نكون على استعداد دائم، نفسيّ وجسديّ.. ولهذا نحرص كلّ الحرص على أن يعرف ذوونا، خاصّة المهجّرين منهم والمتغرّبين عن دينهم ووطنهم وقضيّتهم، ما هي المقاومة أوّلا. إنّها ثقافة كاملة، نرجو استمرارها وتوارثها، حتّى يحدث ربّك أمرا!

بدا على عمر الاهتمام التامّ بما يقوله عزّام. قال في حزم:

– أنت محقّ.. ما أعرفه عن المقاومة لا يتجاوز متابعة الأخبار والانضمام إلى المظاهرات. أعرف أنّه قد فاتني الكثير.. لكنّني أريد أن أتعلّم. فما المطلوب منّي؟

ابتسم عزّام في استحسان وهتف:

– هذه هي الحالة الذّهنيّة التي توقّعتها! مبارك يا بنيّ، لقد نجحت في الاختبار!

حدّق فيه عمر غير مستوعب أن يكون الاختبار بتلك البساطة. بينما أخذ عزّام يضحك، ثمّ قال وقد استعاد مسحة الجدّ:

– أشعر بالاطمئنان بعد حديثنا.. أمّا ما تبقى، فهو موكول إليك! حين تكون جاهزا لخوض المغامرة، خبّرني.

– المغامرة؟

– هل شاركت من قبل في مخيّم كشفيّ؟

هزّ عمر رأسه علامة النّفي، فأردف عزّام:

– هناك مخيّم تدريب بدنيّ وروحيّ وثقافيّ، يُشرف عليه شقيقي الأكبر بنفسه.. يضمّ تحت جناحه كلّ شباب العائلة. يستقبلهم خلال الإجازات، ويعدّ من أجلهم برنامجا متكاملا. والفكرة تلقى نجاحا متزايدا على مرّ السّنوات.

– أين يكون المخيّم؟

– مخيّم اليرموك.. دمشق!

استولت على عمر الدّهشة. ليس هذا ما توقّعه. لكنّه لم يتعجّل بالرّدّ. استمع إلى مخاطبه وهو يشرح:

– إن أردت رأيي، فأنت في حاجة ماسّة إلى هذا التّدريب.. إنّه برنامج شبيه بالمخيّم الكشفيّ، مع درجة أعلى من التّكوين الرّوحيّ والنّفسيّ. أعرف أنّ حادثة مثل التي مرّت بك، وما تلاها من حبس وعلاج طويل، قد كسرت شيئا بداخلك.. وأنت بحاجة إلى ترميمه! كلّنا بشر، ومهما ادّعينا من رباطة جأش وصلابة، فنفوسنا هشّة.. ما لم نقوّمها بالأدوات اللّازمة! سترى، حين ترجع، ستكون قد اكتشفت مواطن قوّة لا تدركها في نفسك.

كانت قسمات عمر تزداد شغفا وافتتانا بحديث عزّام اللّافت عن البرنامج التّدريبيّ. ما كان يبدو مستهجنا في نظره منذ حين، اكتسى جاذبيّة وإغراءً لم يحسبهما ممكنين.

تابع عزّام يقول بصوته العميق المبحوح:

- هذا المخيّم بمثابة الشّرنقة المحكمة التي تعتصر الفراشة اليافعة.. فتظلّ تتخبّط وتتلوّى، حتّى تتخلّق أجنحتها، فتمزّق غلافها وتمرق! هكذا تكون حين تأتي على التّدريب حتّى نهايته.. نسخة أفضل من ذاتك!

***

استيقظت فاطمة مبكّرا في الصّباح التالي. بالأمس عرسهم، واليوم عرسنا! هكذا حدّثت نفسها. لم تكن من اختار النّمط الفرنسيّ الحديث للزّفاف، لكنّها تحمل جزءا من عبء خيارات طليقها. وحفل اليوم يجب أن يكون خيرا من حفل الأمس بكلّ المقاييس! كلّ شيء سيكون مختلفا، بدءا من الإطار المكانيّ، وقائمة الطعام، انتهاء بنوعيّة الضّيوف أنفسهم!

كانت قد أعادت وضع عجينة حنّاء من صنعها –جلبتها خصّيصا من تونس– في المساء على كفّي ياسمين، حتّى يقترب اللّون الخمريّ إلى السّواد أكثر، ثمّ حنّت كفّيها بدورها وقدميها وشعرها أيضا. خرجت من الحمّام بعد أن اغتسلت وتخلّصت من الحنّاء الجافة العالقة بجسدها. كانت الفتيات يتناولن الإفطار في مرح. اقتربت من ياسمين وأشارت إليها:

- دعيني أرى كفّيك.

دقّقت في لون الحنّاء على راحتي ياسمين. ثمّ هزّت رأسها في استحسان. لقد بات اللّون غامقا وذا لمعان جميل.

- افركي كفّيك بزيت الزّيتون لتحافظ النّقوش على لمعانها.

أومأت ياسمين، ثمّ وقفت متّجهة إلى الحمّام.

- إلى أين؟

- آخذ دشّا سريعا.

- ليس اليوم! ستفسد الحنّاء.

- سأكون حذرة.

هرولت ياسمين بسرعة قبل أن تعارضها والدتها. التفتت فاطمة إلى رنيم وسكينة ورانيا وقالت:

- هيّا يا بنات، تجهّزن.. يجب أن نكون في القاعة للتأكّد من التّحضيرات.

تحرّكن على الفور في انصياع. دخلت رنيم غرفتها، واختفت سكينة ورانيا داخل الغرفة الثانية. بعد دقائق، خرجت ثلاثتهنّ يرتدين فساتين زهريّة متماثلة! حدّقت رنيم في شقيقتها وهتفت في دهشة:

- ما هذا؟ كيف...؟

ابتسمت رانيا في ظفر:

- لقد أعجبني فستانك، ورأيت أن نرتدي فساتين متماثلة، كوصيفات العروس!

ابتسمت سكينة وقالت:

- لقد عدّلت على تصميم الفستان قليلا ليناسبني.. لم تكن فكرة سيّئة.

رفعت رنيم عينيها إلى السّقف غير مصدّقة. هذا ما كان ينقصها، أن يبدين جميعهنّ نسخا متطابقة في حفل الزّفاف!

خرجت ياسمين من الحمّام فألفتهنّ واقفات في الرّدهة. هتفت في استحسان:

- لم أعلم أنّكنّ خطّطتنّ لهذا! فكرة جميلة!

- ليس أنت أيضا!

حدجتها رنيم بنظرة مغتاظة ودارت على عقبيها لتختفي داخل الغرفة مجدّدا. شرحت سكينة الموقف بسرعة. رانيا خطّطت ورنيم كانت تجهل الأمر. قالت رانيا في لؤم:

- أصلا كنت واثقة أنّها سترفض الفكرة!

تدخّلت فاطمة تستحثّهنّ:

- علينا الذّهاب الآن. ياسمين، كوني جاهزة خلال ساعتين.

أومأت من جديد في استسلام. إنّها تتلقّى الأوامر منذ أيّام، ولا تعترض. ستنتهي فترة العرس هذه على خير. زفرت، ثمّ طرقت باب الغرفة بخفّة. تسلّلت إلى الدّاخل بهدوء، لتجد رنيم تحدّق في شكلها أمام المرآة بملامح عابسة.

- ماذا أفعل الآن؟ لقد جبت المحلّات طويلا حتّى عثرت على الفستان! ليس بوسعي استبداله!

اقتربت ياسمين لتقف حذوها، وقالت برفق:

- رنيم، أنت شخصيّة فريدة.. ارتداؤك لفستان مشابه للأخريات لا يعني محو شخصيّتك.. بل أنّهنّ معجبات بذوقك ويردن أن يكنّ مثلك!

رفعت رنيم حاجبين معجبين، ثمّ تمتمت:

- كلام معسول.. ومقنع! أنا الأصل وهنّ التّقليد!

ضحكت ياسمين ثم أضافت:

- لا تعكّري مزاجك لهذا السّبب.. ثمّ أنا واثقة أنّ لديك ما يكفي من الأكسسوارات المميّزة التي ستجعل حلّتك مختلفة عن الأخريات!

بحماس، فتحت رنيم درجا في خزانتها، وأخذت تقلّب أغراضها في تفكير. خلال ثوانٍ كانت قد انتقت حزاما ذهبيّا ووشاحا حريريّا ربطته حول عنقها. تنهّدت:

- هذا سيفي بالغرض.. سأوصلهنّ وأعود من أجلك.

***

توقّفت سيّارة هيثم أمام القاعة، ونزلت زهور وميساء. هتف وهو يشيّعهنّ بنظراته:

- إنّ احتجتنّ شيئا اتّصلن بي.. سأكون عند الحلّاق.

في نفس اللّحظة، كانت رنيم تتلقّى التّعليمات الأخيرة من فاطمة بشأن مهامّها المتبقّية. ستمرّ على محلّ الزّهور لتتأكد من وصولها في الموعد، ومحلّ المرطّبات لتفقّد قالب الحلوى، ثمّ ترجع لمرافقة ياسمين في موكب الزّفاف.

التقت النّسوة جميعهنّ عند المدخل فتعانقن في حبور. حدّقت رنيم في ميساء في ذهول:

- حتّى أنت؟!

دارت ميساء حول نفسها مستعرضة فستانها الزّهريّ المطابق لفساتين الوصيفات، ثمّ قالت في سرور:

- إنّها فكرة رائعة! والتّصميم مثاليّ!

قالت رنيم في فتور:

- طبعا.

ثمّ اعتذرت لتنصرف إلى مهامها.

حين دلفت إلى الشقّة، كانت ياسمين تقف أمام مرآة الحائط في الصّالة تستعرض فستان الزّفاف الأبيض. كان تصميمه بسيطا وأنيقا، أبدعت سكينة في تنفيذ تفاصيله كما اشتهت ياسمين أن تكون. كان جزؤه العلويّ مغطّى بطبقة من الدانتيل الرّقيق وقد تناثرت فوقه حبّات لؤلؤ متباعدة، أكمامه واسعة، وجزؤه السفليّ من الساتان السّميك المتموّج.

تقدّمت رنيم وهي ترمقها في شكّ:

– ارفعي فستانك لأرى!

– ماذا تقصدين؟

– أريني قدميك!

كشفت ياسمين عن حذائها الرّياضيّ الأبيض الذي لا يظهر منه شيء تحت تنّورة الفستان الواسعة الملامسة للأرض.

– ذكّريني.. كم طول عريسك؟

– متر وتسعون!

– وأنت؟

– متر وستّون.

– وتريدين الوقوف إلى جواره بهذا؟

ابتسمت ياسمين في حرج:

– الكعب العالي يعيقني عند المشي.

– إذن اجلسي!

– أريد التّجوال حول القاعة ومحادثة المدعوّين.. ثمّ، هل سأعيش بقية حياتي بالكعب العالي، حتى أناسب طوله؟

– لا فائدة منك!

جلستا جنبا إلى جنب على الأريكة، رفعت ياسمين قدميها على المائدة المنخفضة، واسترخت.. فحذت رنيم حذوها. كان أمامهما بعض الوقت قبل أن يصل موكب العرس. همست رنيم:

– أنت جاهزة؟

– الحقيبة عند الباب.. سنرحل بعد الحفل مباشرة إلى روما.

زفرت رنيم ثم قالت:

– لا أصدّق أنّها المرّة الأخيرة التي نجلس فيها هكذا.. غدا، ستكون الشّقة مختلفة!

– لا تقلقي.. سأزوركنّ.

– شتّان بين الزّائر والمقيم.

تنهّدتا بصوت واحد، ثمّ سألت ياسمين بابتسامة تعبق حنينا:

– هل تذكرين أوّل جلسة لنا هنا؟

ضحكت رنيم بصوت عالٍ:

– لا تذكّريني! كانت ليلة اعترافات حامية الوطيس! كنت أشكو مأساتي مع ميشال.. وأنت، حدّثتني عن شابّ المترو!

ابتسمت ياسمين وتنهّدت ثانية:

– لقد مضى زمن طويل.. وتغيّرت فينا أشياء كثيرة.

رمقتها رنيم في قلق:

– ألا تشعرين بالخوف؟

– الخوف؟

– من حياتك الجديدة!

– أشعر بالتوتّر.. لكنّ هذا أمر طبيعي. إنّني مقبلة على حقبة مختلفة.. شعور مماثل لما أحسست به حين وصلت إلى باريس أوّل مرّة!

– ليس هذا.. أعني، ألا يراودك الشكّ؟

– الشك.. فيمَ؟

– أن تكوني قد تسرّعت.

– تسرّعت؟ خطبة دامت ثلاث سنوات لا تعدّ تسرّعا!

– أعني.. ألا تخشين أنّك قد تخلّيت إلى الأبد عن فرصة قصّة حبّ حقيقيّة؟

اتّسعت ابتسامة ياسمين وهي تقول:

– أنا مستعدّة لمقايضة «فرصة قصّة الحبّ الحقيقيّة» كما تسمّينها، بما لديّ الآن!

– وماذا لديك؟

– أمان، تقدير، صدق، مسؤوليّة.. هل نسيتِ؟ ثمّ...

عبست رنيم:

– ثم ماذا؟

– ثمّ ما هو الحبّ؟ ألا يمكن أن يكون نتاج كلّ هذا مجتمعا؟ لماذا تحصرين العواطف في قوالب هوليوديّة نمطيّة؟ تلك صورة تجاريّة للحبّ.. كسراب نلاحقه ولا نحظى به أبدا.. كأنّه مأساة أو لا تكون! هل يجب أن تشتمل القصّة على فراق وألم وآهات مُسهدة وعواطف ملتهبة حتّى تكون العلاقة حقيقيّة؟ لماذا لا تكون طمأنينة وسكينة وانسجاما ومودّة؟

مطّت رنيم شفتيها وقالت في تهكّم:

– أطروحتك الجديدة؟ لا بأس بها!

– دعكِ مني.. آمل أن أراك عروسا قريبا.. إلى جوار من يقدّرك حقّ قدرك ويشعرك بالأمان.

رمقتها بنظرة طويلة حانية، مثل أمّ تتوق إلى عرس ابنتها، ثمّ أضافت تردّ سخريتها:

– لا بأس إن لم يكن حبّا من النّظرة الأولى.. أو تضحية وشقاء تحاربين من أجله العالم!

ضحكتا معا بصفاء. كانتا مختلفتين، وكانتا تتقبّلان اختلافهما ولا تعاندان. أمسكت ياسمين بكفّ صديقتها وشبكت أصابعهما ثمّ قالت بلهجة جادّة:

– رانيا.. كوني رفيقة بها.

– لماذا جئت على ذكرها؟ كنت في مزاج جيّد!

– إنّها مراهقة، ومذبذبة.. تحتاج منك الدّعم والاهتمام. فإن لم تفعلي، فإنّها ستبحث عنه من مصدر آخر!

سرحت رنيم للحظات متفكّرة. هل تبحث رانيا عن الاهتمام عند شهاب.. وعند ياسمين؟ تتقرّب من كليهما لأنّها لم تجد منها انتباها كافيا؟ أيعقل؟

قالت تدافع عن نفسها:

– أرى أنّها تحاول أن تكسب كلّ شيء هو لي.. صداقاتي وعلاقاتي، وحتّى ملابسي! أرأيت كيف أفسدت يومي متعمّدة؟

– إنّها ترى العالم من خلالك. رنيم هي الأفضل.. ذوقها هو الأسمى، ونجاحها هو الأبهى، وأصدقاؤها جديرون بالاهتمام! إنّها تحاول أن تكون مثلك، وإذ إنّها لا تفلح، فتسعى إلى شدّ انتباهك إليها. حاولي مصادقتها، لا مراقبتها.. ما لم تحرزيه بالقسوة، سيكون طوع يدك باللّين.. أنا واثقة!

ألقت رنيم بنبرة متهكّمة:

– أيّ نصائح أخيرة، دكتورة ياسمين؟

قاطعهما رنين هاتف ياسمين. كان هيثم.

– أنت جاهزة؟ نحن بالأسفل.

– دقيقتان!

هتفت على الفور ثمّ هبّت من مجلسها. لقد سرقهما الحديث ونسيتا نفسيهما. وقفت أمام المرآة، مسدّت بشرة وجهها بطبقة من الكريم المرطّب، ثمّ سوّت حجابها الشّيفون الأبيض بإحكام، ووضعت على رأسها تاجا صغيرا من اللؤلؤ الأبيض. ساعدتها رنيم على تثبيت طرحة الزّفاف الرّقيقة وهي تقول في تهكّم:

– لم أر في حياتي عروسا تجهز في دقيقتين! هنيئا لك يا هيثم يا ابن زهور!

***

وصل الموكب عند قاعة الاحتفالات الفخمة. نزلت ياسمين دون مشقّة، علّقت ذراعها بذراع والدها، ثمّ سارت بجواره محفوفة بالأهل والأصدقاء، وقد أسدلت الطّرحة على وجهها. كان هيثم وأهله قد سبقوهم بالدّخول، واحتلّ معظم المدعوّين أماكنهم على الموائد المستديرة.

استقبلتها الوصيفات بفستانيهنّ الزهريّة المميّزة المتطابقة، وهيّأن لها موطنا في صدر القاعة الذي نُسّقت عليه لوحة من البالونات البيضاء والورديّة، وتدلّت فوق رأسها أشرطة من الزّهور الطازجة. مال عليها هيثم وهمس حين وقفت بمحاذاته:

– تبدين أقصر اليوم!

حدجته بنظرة مستاءة، فهمس ثانية:

– ابتسمي.. حتّى لا يُقال عروس مُجبرة!

فأفلتت الضحكة غصبا عنها.

في الخلفيّة، كانت فرقة أوركسترا تعزف مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكيّة الهادئة لشوبان، تتخلّلها نغمات قانون وكمنجة حادّة بين الفينة والأخرى.

تحرّكت برفقة هيثم لتلقي التحيّة على شاغلي بضع طاولات.. كان هناك الكثير من الغرباء بالنّسبة إليها. بالإضافة إلى ضيوف والدها، كان هناك زملاء هيثم وأصدقاء عائلته ومعارف فاطمة القدامى. كانت ترى أخويها سارة وريّان للمرّة الأولى منذ طلاق

والدها وإيلين. حزّ في نفسها اعتذار إيلين عن الحضور، لكنّها تفهّمت رغبتها في عدم التّواجد بنفس الفضاء مع الرّجل الذي تسبّب في محاولتها الانتحار.

اقترب والدها وبرفقته زمرة من أصدقائه، قدّمهم إليها، البوفيسور (...) والبروفيسور (...) وبروفيسور آخر. ثمّ أشار إلى ابنته في فخر.. الدّكتورة ياسمين! فهزّوا جميعا رؤوسهم في استحسان.

فجأة، اختفت الخلفيّة الموسيقيّة الكلاسيكيّة لعازفي الأوركسترا، وارتفعت أصوات ضرب دفّ وغناء عربيّ! استأذن سامي من ضيوفه في حرج، ثمّ هرول إلى منصّة الموسيقيّين وهو يستشيط غضبا. حدّق في فرقة الغناء التّقليديّ بأزيائها العربيّة ذات الألوان الوطنيّة التّونسيّة الحمراء والبيضاء، ودفوفها الرّنّانة، وقد ارتفعت أصواتها بالمديح النّبويّ، وهتف في استياء:

– ما هذا؟ من أين جئتم؟ من أنتم؟

اقترب صهره عبد الحميد وربّت على ذراعه مهدّئا:

– هل كلّ شيء على ما يرام؟

– أين ذهب الموسيقيّون؟ ماذا حصل هنا؟

– مفاجأة، أليست كذلك؟ بعض معارفنا لديه فرقة «سُلاميّة» تونسيّة، وقد رأيت أن تُحيي الأمسية.. إنّها أفضل من الموسيقى الكلاسيكيّة الكئيبة!

أمسك سامي رأسه وتأوّه في ألم.

– هل أنت بخير؟

– «سُلاميّة» في باريس؟ تريدون قتلي حتما!

غير بعيد عنه، كانت ناتاشا تصفّق في جذل وهي تهزّ رأسها مع ضربات الدّفّ. التفتت إليه وقالت:

– الموسيقى التونسيّة رائعة! يجب أن نزور تونس قريبا.. تعجبني هذه التفاصيل الفولكلوريّة المدهشة!

ضحكت فاطمة في شماتة، ثمّ قالت وهي تشير إلى نادل الخدمة الذي أخذ يوزّع أطباق العشاء:

– وقت الطّعام!

فتفرّق الجميع للعودة إلى مقاعدهم. هدأت الجلبة لبعض الوقت، وأقبل الضّيوف على الطّعام.

كان العشاء على التّقليد الفرنسيّ الأصيل. كانت القاعدة الكلاسيكيّة أن تشتمل القائمة على ثلاثة أطباق : مقبّلات وطبق رئيسي وحلوى. قُدّمت أوّلا أطباق المحّار والسّلطعون مرفقة بسلطة الخضار المطعّمة باليود، ثمّ جاء الطّبق الرّئيسي.. قطع طريّة من لحم خاصرة البقر، ترافقها صلصة الفلفل الأسود والفطر البريّ المشويّ بالإضافة إلى قطع البطاطس المحمّرة.

بعد العشاء، توافد المدعوّون واحدا إثر الآخر، لتهنئة العروسين. جاءت رنيم، تتأبّط ذراع شهاب. تبادل الثّنائيّان دردشة خفيفة، ثمّ همست ياسمين في أذن رنيم:

– يبدو لي مناسبا جدّا.. لا تدعيه يُفلت!

ابتسمت رنيم في حرج. كانت كلماتها قبل سويعات ما تزال ترنّ في رأسها في إلحاح. رمقت شهاب في صمت وقد اندمج في حديث جانبيّ مع هيثم. لعلّها تكون على حقّ. لعلّها إن هي تخلّت عنه تندم بعد ذلك إلى الأبد.

في تلك اللّحظة، اقترب عمر من الحلقة. كان قد وصل للتوّ. صافح الرّجلين وهنّأ العروسين، ثمّ حيّاها بإيماءة عابرة، قبل أن ينغمس في حديث تصلها منه نتف متقطّعة.

كان المشهد أمامها غير واقعيّ بشكل مربك. يتقاطع الماضي مع المستقبل في لحظة سرياليّة. تتخيّل نفسها بفستان العُرس. في أحلامها كانت ترى عمر دوما في بدلة سوداء، يقف إلى جوارها.. لكنّ ذلك لا يبدو منطقيّا البتّة الآن. تتشوّش الرؤية وتهتزّ الصّورة، ثمّ تثبت من جديد وقد تحدّثت تفاصيلها. ترى نفسها تندفع لا إراديّا، تتعلّق بذراع رجلها الذي يولّيها ظهره.. يستدير، في حركة بطيئة، لتظهر ملامح شهاب، فيتبادلان ابتسامة عذبة. هذا ما يجب أن يكون.

– أين حلّقت؟

ابتسمت وهي تطالع ياسمين بعينين متألّقتين:

– أظنّك محقّة. سأقبل عرض شهاب!

– تفعلين؟ حقّا؟

هزّت رأسها في حماس. تُلقي نظرة أخرى على الرّجلين الواقفين جنبا إلى جنب، فتُدرك أيّ كفّة ترجح.. إنّها تريد أمانا وتقديرا وصدقا ومسؤوليّة! تلك التّوليفة العجيبة التي تصنع «الحبّ» حسب نظريّة ياسمين!

عانقتها ياسمين بحرارة، فدمعت عينا رنيم. بقدر الإثارة التي تغزو وجدانها، يتملّكها توتّر رهيب. الارتباط ليس أمرا يسيرا. لقد لبثت تؤجّل لأنّها تخشى تبعاته الحتميّة. والآن هذا القرار الذي اتّخذته في لحظة تجلٍّ نادرة، يفتح فوق رأسها شلال مشكلات لا حصر لها ولا عدّ!

سارت إلى طاولتها برفقة شهاب، وهي تشعر بالذّعر يستبدّ بها. ما الذي ستفعله بشأن عملها؟ وبرنامج الحقيقة الكاملة؟ قريبا تنتهي بعثة شهاب، وسيضطرّ إلى العودة إلى مصر.. وهي لا تقدر على ترك حياتها لمرافقته.

جلسا في صمت، وبدت على شهاب الكآبة. كان قد عاهد نفسه ألا يضغط عليها، لكنّ الوقت يمضي سريعا. خلال شهرين، تنتهي رحلته الباريسيّة، وهو كان يمنّي نفسه بإحراز تقدّم بشأن علاقتهما. لاحظ اضطرابها. كان قد لمح منذ حين ذلك الشّابّ، موكّلها القديم الذي ظهر برفقتها في الحوار التّلفزيّ. هل يكون هو مصدر توتّرها؟ كان يُدرك وجود مشاعر ما بينهما، رغم كتمانها أمامه، وإنكارها على الشاشة! لكنّ حدسه يخبره بأنّ القضيّة وحدها لم تكن لتؤثّر بها إلى تلك الصّورة التي عرفها عليها منذ سنتين ونصف.

قال بلهجة حزينة:

– ألا توحي لك الأجواء بشيء؟

تعلّقت نظراتها بالخاتم الماسيّ في بنصرها، وازدردت لعابها في توتّر. إنّ هذا التّسارع المجنون في الأحداث لم يخطر لها قطّ حين استيقظت صباحا. أخذت نفسا عميقا ثمّ قالت: – لا أريد الرّجوع إلى مصر الآن!

- ماذا تقصدين؟

- حياتي هنا: عملي، والبرنامج التلفزيوني وعلاقاتي وصداقاتي.. لا أريد التخلّي عنها.

ردّ في فتور:

- أفهم ذلك.

- هل تعتقد أنّ ارتباطنا سيكون ممكنا في ظلّ هذه الظروف؟

- لم أعد أفهم!

أخذت نفسا جديدا وقد استهلكت كلّ هواء رئتيها لتقول تلك الكلمات:

- شهاب.. أريد الاحتفاظ بهذا الخاتم.. لكنّني لا أعرف، كيف أوفّق بين هذه الرّغبة وكلّ الأشياء المهمّة الأخرى في حياتي!

كانت ترتجف. أمسك شهاب براحتيها بين كفّيه مطمئنا، ثمّ قال وعيناه تتألّقان بوميض الفرح:

- سنجد حلّا لكلّ شيء.. هوّني عليك!

سحبت كفّها ومسحت عبرات تناثرت على وجنتيها وهي تهمس في اضطراب:

- لا أدري ما الذي حلّ بي! هل الزّواج معدٍ؟

ضحك شهاب ثم قال مداعبا:

- لم أسمع عن حمّى الزّواج من قبل.. لكنّني لا أمانع التقاط العدوى!

ظهرت رانيا فجأة أمام وجهها وهي تنادي في حماس:

- هيا بنا.. صورة الوصيفات!

كانت رانيا تبدو منهمكة منذ الصّباح ومنتشية بالمسؤوليّات التي أسندت إليها من تزويق للقاعة وتنسيق للزّهور، حتّى أنّها لم تفكّر في مضايقة رنيم أو التطفّل على مائدتها وشهاب.

انصاعت رنيم دون اعتراض. وقفت إلى جوار ياسمين برفقة رانيا، واصطفّت ميساء وسكينة من الجانب الآخر. منحت رانيا كلّ واحدة منهنّ إكليل زهور توّجن به رؤوسهن، ثمّ التقط المصوّر الصّورة الجماعيّة.. أربع وردات زهريّة تتوسّطهنّ خامسة بيضاء.

همست رنيم في أذن ياسمين:

- لقد أخبرته! أشعر بأنّ حرارتي ارتفعت، ومعدتي متقلّبة.. أودّ الفرار من هنا. لن تغضبي منّي، أليس كذلك؟

- ما الذي حصل؟ هل تشاجرتما؟

- لم نفعل.. لكنّني خائفة.. مرتعبة!

- هدّئي من روعك.. أمامك الوقت الكافي لترتيب أمورك كلّها.

تنفّست بعمق، ثمّ قالت بهدوء:

- أنت على حقّ. لن نتزوّج في الغد.. أمامنا شهران حتّى انتهاء البعثة.. يا إلهي، شهران فقط!

ضحكت ياسمين ثمّ همست:

- أنت مضطربة. اهدئي قليلا.. إنّ غدا لناظره قريب!

غير بعيد عنهما، كان هيثم يطالع عمر في عتاب ويستفسر:

- ما الذي أخرّك؟ لقد فوتّ وجبة العشاء!

ابتسم عمر وقال معتذرا:

- لقد عدت الآن من بروكسيل!

- وماذا كنت تصنع في بروكسيل؟

قال عمر بابتسامة صغيرة:

- أتعرّف إلى عائلة مخطوبتي!

اتّسعت عينا هيثم في عدم تصديق وهتف:

- أحقّا؟

لم تظهر على عمر علامات المزاح. فربّت هيثم على ذراعه مهنّئا.

- مبارك يا أخي! الأمر جدّ إذن.

في تلك اللّحظة، ظهرت ياسمين في مجال بصره، بثوب الزّفاف الأبيض والابتسامة الجذلة تزيّن محيّاها. لم يستطع عمر استيعاب الرّجفة الحادّة التي سرت في جسده حين وقعت عيناه على وجهها. إنّه يرتاح لهيثم، ويأنس لصحبته، لكنّه كثيرا ما يتناسى أنّه خطيب ياسمين، وزوجها الآن، فتاة المترو خاصّته. في تلك اللّحظة، أيقن أنّ حضور حفل الزّفاف لم يكن بالفكرة الجيّدة!

قالت ياسمين وهي تخطو باتّجاههما:

- دكتور عمر، شكرا لحضورك!

تدخّل هيثم ليشرح:

- عمر كان في زيارة لأهل مخطوبته في بروكسيل.. لذلك تأخّر في المجيء.

هتفت ياسمين في فرحة حقيقيّة:

- تهانينا!

تقبّل عمر التّهاني من جديد، ولازمه ذاك الضّيق الغريب المعكّر للمزاج.

في مكان ما من لا وعيه، كانت حقيقة ارتباطها ما زالت ضبابيّة. حسب أنّ حضور زفافها ورؤيتها بالفستان الأبيض، سيجعله يواجه الحقيقة الفجّة ويتقبّلها.. وخال أنّه قد حوّل اهتمامه إلى آية بإخلاص. لكن في جسده مضغة ذات إرادة حرّة، لا تستجيب لزجره مهما شدّ لجامها.

في أعماقه، كانت تترسّب بقايا قصّة قديمة لم ينجح في الخلاص منها بعد. وكانت تلك الأحاسيس الغريبة التي يكتشفها داخله تدهشه وتؤلمه في آن.

لقد كانت فتاة المترو تختزل في لا وعيه تلك المرحلة الوادعة من حياته، والتي اختفت إلى الأبد. كانت رؤيتها في كلّ مرّة تذكّره بخيبته، وبما كان يمكن أن يكون، لكنّه لم يكن. وقد كان من المجحف أن يحمّلها تلك الرّمزيّة التي لا علاقة لها بها!

قال في اندفاع وقد اتّخذ قراره بشكل مفاجئ:

- في الحقيقة، لقد جئت مودّعا!

هتف هيثم باستغراب:

- هل تغادر فرنسا؟

- مؤقتا. لديّ بعض المشاغل.. سأغيب لبضعة أشهر.

قالت ياسمين بلهجة دافئة: - رحلة موفّقة!

فتسرّبت الكلمات لتربّت على قلبه.

في صمت، أضاف إلى قائمة جراحه التي تحتاج التّعافي جرحا جديدا. لم يكن يدرك حتّى تلك اللحظة أنّ فؤاده المثلوم استمرّ ينزّ دما فاسدا. كان عليه أن يمزّق الشّرنقة بأسرع ما يمكن، ليفتح جناحين ناضجين ويشبّ في الفضاء.

ظهرت ميساء وهتفت:

- حان وقت تقطيع الكعكة!

التفّت الوصيفات والمقرّبون من أفراد العائلتين حول المائدة المركزيّة التي تحمل كعكة ذات طوابق ثلاثة، مغلّفة بعجينة سكر بيضاء، وتعلوها زهرات متفرّقة متوافقة مع طابع الحفل وديكوراته. تحت وقع الزّغاريد والغناء الحماسيّ، قطع ياسمين وهيثم الكعكة.. ثمّ شرعت زهور في توزيعها على المدعوّين.

همس هيثم لياسمين:

- خلال عشر دقائق.. ننصرف!

أومأت في تفهّم. عليهما اللّحاق بالرّحلة. قبل ذلك، يجب أن ترجع إلى الشقّة لتغيّر ثيابها. هتفت رانيا:

- ألن ترمي الباقة؟

نظرت ياسمين إلى باقتها ذات الورود الحمراء القانية. كانت تودّ الاحتفاظ بها، لكنّ التّقاليد السّخيفة تقتضي أن تمرّر «المشعل» إلى العروس التّالية!

تجمّعت الفتيات وتزاحمن في مرح وانفعال. هزّت رنيم كتفيها في ترفّع وانسحبت بعيدا عن التّدافع. راقبتها ياسمين وهي تبتعد، ثمّ ولّتهم ظهرها وعلى شفتيها ابتسامة متشفّية. بعد العدّ التّنازليّ، ألقت الباقة باتّجاه جانبيّ، بعيدا عن الزّحام.

فزعت رنيم، حين سقطت الباقة فوق رأسها مباشرة، وتلقّتها في ذهول.

- فأل حسن.

همست فاطمة في أذنها، في حين هتفت رانيا في انزعاج:

- نحن هنا! لماذا ألقيت الباقة بعيدا؟

ابتسمت ياسمين في اعتذار وقالت:

- أنا سيّئة في التّسديد!

ثمّ غمزت رنيم خفية.

-١٨-

أحبت ياسمين روما.

كان هناك شيء ساحر بشأنها. كأنّها متحف في الهواء الطلق، يعبق بسحر قرون ماضية يتضوّع في كلّ زقاق وكلّ بناية. كان فندقهما يقع في قلب المدينة العتيقة، قرب «بيازا فينيزيا» (ساحة البندقية) وشارع «آل كورسو» الذي يقطع مركز روما بشكل طولي، وتعجّ واجهاته بالمحلّات والمطاعم والمباني الأثرية.

خرجا صباحا للمشي، يجوبان الشوارع بلا وجهة محدّدة.. حتّى توقفا أمام نافورة «تريفي». اقتربت ياسمين من الحاجز الحجريّ فأبصرت نقودا معدنيّة ذات نقوش وألوان مختلفة مترسّبة في قاع النّافورة.. الكثير منها. همس هيثم:

- هل لديك أمنية؟

قالت ياسمين ضاحكة:

- أتمنّى أن أعود هنا ليلا، بشبكة صيد.. وأنتشل النقود التي ألقاها المغفّلون هنا. سأصبح ثريّة حتما.

قال هيثم بأسلوب فلسفيّ:

- ليسوا بالضّرورة مغفّلين. هناك رمزيّة للنافورة.

- ما هي؟

- الأمل! لا أحد يلقي نقودا لأنّ نافورة الأماني ستحقّقها. لكن لأنّه يريد الاحتفاظ بالأمل.. يوما ما قد يصبح حقيقة! والبعض الآخر يفعلها للتّسلية.. من باب احترام قواعد اللّعبة. أنت عند تريفي، ترمين عملة معدنيّة! أنت عند جسر الفنون، تضعين قفلا!

ابتسمت ياسمين وقالت مداعبة:

- هل لديك أمنية إذن؟

أغمض هيثم عينيه وتظاهر بالتفكير.

– أتمنّى.. أن ننجب نصف دستة من الأطفال!

– نصف دستة!

– أنا أحبّ العائلة الممتدّة.. تعترضين؟

لوت شفتيها ولم تعلّق.

– ألن تتمنّي شيئا؟

– امم.. أتمنّى منزلا كبيرا وحديقة واسعة تلهو فيها نصف دستة من الأطفال!

ضحكا، ثمّ استأنفا المسير. صعدا «الدّرج الإسباني» ثم استأجرا درّاجات هوائية ليجوبا أنحاء حديقة «فيلا بورجيزي».. وحين استبدّ بهما الجوع، دخلا محلّ بيتزا، ثم تناولا المثلجات الإيطالية الشهيرة والتيراميسو الأصلي بمذاق القهوة.

في روما اكتشفت ياسمين مشروب «الموكا المثلج». مزيج من القهوة والشكولاتة وقطع الثلج المسحوقة، تعلوها طبقة حلوة من «الشانتيي». سيصبح على الفور مشروبها المفضل.. ومهما حاولت فيما بعد أن تستعيد مذاق الموكا إثر عودتها إلى باريس، فإنها لم تفلح. كان كوبها الأول ذا طعم لا يُضاهى وستظلّ تتمثّل حلاوته وطلاوته على لسانها كما تتمثّل السّعادة التي حلقت على جناحها في تلك الأيام.

لمحت عربات مزخرفة تجرّها الخيول، ويتجمّع حولها السيّاح في «ساحة إسبانيا»، فهمست لهيثم:

– أنا متعبة، هل نركب حتّى الفندق؟

بدت فكرة مسلّية، فاقترب هيثم من الحوذيّ ليستفسر عن سعر الجولة، فقال بلكنته الإيطاليّة المميّزة:

– مئتان وخمسون يورو!

شهقت ياسمين، ثمّ سحبت هيثم من ذراعه ليبتعدا، وهتفت:

– أنا بخير.. يمكنني المشي!

ضحك هيثم طويلا، ثمّ قال:

– أعدك، سنعود إلى روما.. حين يصبح لدينا نصف دستة من الأطفال، ونركب عربة الخيول!

في الغد، زارا متاحف الفاتيكان وحديقته الفريدة، ثم تمشيا حتى ساحة كاتدرائية القدّيس بطرس. كان المبنى المشيّد بشكل دائريّ يحدّ السّاحة من ثلاث جهات، بينما بوسعهما رؤية روما على الجهة الرّابعة.. بلدان مستقلان تفصل بينهما ساحة مفتوحة.

كان الزّحام شديدا على أبواب الكاتدرائية كما كان على كل المزارات السياحيّة التي وقفا عندها، والسيّاح يصطفّون في طوابير انتظار طويلة وملتوية تمتدّ إلى منتصف السّاحة.

فجأة تناهى إلى مسمعهما صراخ باللغة الفرنسية. عند أحد المداخل، كان زوجان فرنسيّان يسبّبان بلبلة ويرفعان عقيرتهما بصياح متشنّج. كان أمن المبنى قد منعهما من الولوج، بعد أكثر من ساعة أمضياها في الطابور. كانت السّيدة ترتدي تنّورة قصيرة وقميصا بلا أكمام، بينما تعلن اللاّفتات المبثوثة حول السّاحة أنّ زيارة دور العبادة تقتضي زيّا محتشما.

ابتعدا عن المدخل مضطرّين، وقد بدا عليهما استياء شديد، وحينما كانا يعبران السّاحة، اقتربا من حيث يقف هيثم وياسمين، فرفع الرّجل ذراعه ليزمجر متبرّما:

– يسمحون للإرهابيين بالدّخول ويطردوننا؟ يا لهذا التخلف!

قبل أن تدرك ياسمين ما يحصل، كان هيثم قد خطا أمام الرّجل دون تردّد، حتّى سدّ طريقه. قال بلهجة صارمة:

– من تسمّي إرهابيا؟

صعق الرّجل. ظنّ كلماته الفرنسية التي أطلقها بلا حذر عصيّة على الفهم في العاصمة الإيطالية، ليجد هيثم يخاطبه بلكنة باريسية صرفة. وقفا وجها لوجه، وقد بدا هيثم متفوّقا على خصمه ببنيته الرياضيّة وعضلاته المفتولة، وكانت قامته الفارعة التي تهيمن على مخاطبه قد زادت الوضع حرجا. كرّر على مسمعه السؤال بإصرار:

– ما الذي كنت تقوله للتوّ؟

اقترب رجل أمن من حرس الكاتدرائية حين لمح المشاحنة على وشك الاشتعال وهتف:

– ما الذي يحصل هنا؟

كان النّاس قد أخذوا يلتفتون بفضول ويلتفّون حول المتخاصمين. تدخلت سائحة إيطالية في منتصف الخمسينيات، كانت في الجوار منذ البداية وقالت:

– نعتهم بالإرهابيين.. لقد سمعته!

التفت رجل الأمن إلى الزّوج الفرنسي وقال بحزم:

- هويّتك سيدي!

أخرج السّائح جواز سفره على مضض، في حين خاطب رجل الأمن هيثم:

- هل تريد التّقدّم بشكوى من أجل القذف؟

- بالتأكيد أريد.

- إذن تفضلوا معي جميعا إلى مركز الشرطة.

تدخّلت الزّوجة الفرنسيّة لتخاطب رجل الأمن في رجاء:

- لم يكن يقصد ذلك.. كان غاضبا لأنّنا مُنعنا من الدّخول.. لم يكن ينوي سوءا.

- هل يُريد الاعتذار إذن؟

هتف الرّجل بسرعة:

- نعم بالتأكيد.. أعتذر!

لكنّ الزّوجين كانا يخاطبان رجل الأمن طيلة الوقت، متجنّبين النّظر إلى هيثم وياسمين، فالتفت رجل الأمن إلى هيثم، وقد بدا مصرّا على تعليم الفرنسيّين درسا:

– ما رأيك سيدي.. هل تقبل اعتذاره؟ في حال لم تقبل وسجّلنا المحضر، سيُسجن لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة ويدفع ضريبة على الكلام البذيء في مكان عام، بالإضافة إلى القذف.

عندئذ أدرك الرّجل أنّ القرار قد غدا بيد هيثم، فاستدار ليواجهه وقال بنبرة ندم:

– أنا آسف جدّا يا سيدي.. أقسم لك لم أكن أقصد الإساءة! نحن في زيارة قصيرة لروما ونغادر مساء غد.. لا يمكنني البقاء محبوسا.. أرجوك اقبل اعتذاري!

بدا على هيثم التفكير الجادّ، ثم استدار ليخاطب ياسمين:

– ما رأيك؟ هل يستحقّان العفو؟

– لا يستحقّان.. لكنّ الرّحمة من أخلاقنا.. العفو عند المقدرة.

ابتسم هيثم ثمّ قال:

– مراعاة لظروف سفرك سنصفح عنك.. لكن راقب لسانك في المرّة القادمة.

– بالتأكيد سأفعل!

أعاد رجل الأمن جواز السفر إلى الفرنسيّين، فهرولا مبتعدين وهما لا يكادان يصدّقان نجاتهما.. بينما صافح رجل الأمن هيثم باحترام وقال بابتسامة صافية:

– أهلا بك سيدي.. أتمنى لكما يوما سعيدا.

بينما يمضيان في سبيلهما، أخذت ياسمين تحدّق في هيثم بابتسامة معجبة. لقد تابعت المشهد كلّه في ذهول. كان ردّ فعله سريعا، صارما وواثقا. وحين استدار ليطلب رأيها، أحسّت بأنّها قد باتت في مركز قوّة. فكّرت بأنّها لم تشعر قطّ بالأمان كما تشعر في تلك اللحظة، وهو يقبض على كفّها ويعبران السّاحة عائدين باتّجاه روما. قال متبرّما:

- الفرنسيّون يلاحقوننا بعنصريّتهم! ألا يمكن أن نستمتع بعطلة هادئة؟

التفت ليجدها ما تزال تحدّق فيه وثغرها يفترّ عن ابتسامة واسعة. ابتسم بدوره وقال مداعبا:

- هل أعجبك العرض؟

هزت رأسها بقوّة وحماسة، فأردف:

- نفتعل شجارا آخر إذن؟

ضحكت هذه المرّة ثم قالت:

- لو لم تكن معي، لما عرفت كيف أتصرّف.. كنت لأبتعد في صمت، أعتزل ما يؤذيني ولا أردّ الفعل.. لأظلّ أجترّ مرارة الموقف بقيّة اليوم، أصرّ على أسناني وأكيل اللعنات في داخلي، فتتراكم الطاقة السلبية! لكنني سعيدة اليوم، لأنك كنت موجودا، وواجهت الموقف ولم يحصل شيء من هذا.. سأمضي بقية اليوم أسترجع الموقف، فأضحك في متعة! هل ترى؟! الموقف ذاته.. لكن النتيجة متباينة!

تنهّدت ثم أضافت:

- المسلم القويّ خير من المسلم الضعيف.. أنت خير مني!

ابتسم وهو يشدّ على كفها في حنوّ:

– وفي كلٍّ خير! أما وقد صرنا أنا وأنت واحدا.. فستكونين قويّة منذ الآن!

***

بعد أسبوع في روما، حلّقا باتّجاه البندقية. لم يكن من الوارد أن يزورا إيطاليا ولا يحطّا في مدينة العشّاق! كانت البندقيّة مذهلة في ذاك الوقت من السّنة. لم يكن منسوب الماء في الممرّات المائيّة مرتفعا حدّ الفيضان كما يكون في الشّتاء، ولا منخفضا حدّ الجفاف كما هو الحال في ذروة الموسم الصّيفيّ. شهر أكتوبر كان مثاليا.

ركبا الباص المائيّ الذي يعبر «القناة الكبيرة» المتعرّجة عبر المدينة، ينزلان ليقطعا مسافة على الأقدام عبر الأزقّة الضيّقة صعودا وهبوطا، ثمّ يمتطيان المركب مجدّدا في المحطّة التالية.

أمضيا بعض الوقت في ساحة «سان ماركو» حيث يسترخي حمام كسول يتجوّل بين أقدام السيّاح فيهدونه حبوبا مجانيّة بسخاء، ثمّ صعدا إلى قمّة البرج، ليشرفا على المدينة من الأعلى. كانت زرقة السّماء تلتقي بانعكاسها فوق سطح البحر عند الأفق، وتظهر أسقف البنايات الحمراء بالقرميد على مدّ البصر. وقفا هناك لبرهة، في تأمّل حالم، وحين أوشكت الشّمس على الغروب، همس هيثم:

– حان الوقت!

نزل الدّرج اللّولبيّ على عجل، وسحبها باتّجاه قناة مائية جانبيّة. أخذ يفتّش بعينيه، حتّى أبصر ربّان «جاندول» منعزل. أشار إليه هيثم، فتحرّك الرّجل بضربات من مجذافه على سطح الماء.

- نريد جولة لنصف ساعة، ونرجع عند الغروب.

- مائة يورو!

سحبته ياسمين من ذراعه وقالت في سخرية:

- هيا بنا.. سنفعل ذلك مع نصف دستة من الأطفال!

ضحك هيثم، ثمّ قال:

- ليس هذا.. هذه جولة لاثنين فقط!

أمسك بكفّها وساعدها على القفز داخل «الجاندول». بعد لحظات، كان القارب الضيّق ينساب عبر القنوات المائيّة الخفيّة التي تتخلّل أحياء المدينة القديمة، يمرّ تحت الجسور وينزلق بسلاسة، على وقع غناء الربّان النّاعس بألحان إيطاليّة قديمة.

كانت ألوان الحياة قد أخذت تبهت، تكتسي حمرة الشّفق وتغدو درجاتٍ بين البرتقالي والأسود. بينما يعكس الماء تورّد وجه السّماء، كانت ملامح ياسمين تعكس ألوانا من الأحاسيس. خفتت الأصوات من حولها، ولم يعد يصلها غير الغناء العذب، وضربات المجذاف، ووجيب قلبها.

إلى جوارها، يجلس هيثم، يطالعها بابتسامة رائقة. الهواء المسائيّ يهبّ برفق ليطيّر وشاحها، فيعيده بحرص إلى وضعه الأصليّ. قال بعد سكون طويل:

- هل أنت سعيدة؟

- أشعر كأنني في حلم!

ضحك بخفّة، ثمّ قال:

– أنا آسف.. عليك الاستيقاظ الآن!

لامست حافة القارب رصيف القناة، فنقد هيثم الربّان أجره ثمّ ساعدها على النّزول. قال وهما يسيران بهدوء عبر الزّقاق الخالي:

– أنت مستعدّة؟ غدا نعود إلى الحياة العاديّة.

سرحت لبرهة. حياة عاديّة؟ سيكون كلّ شيء مختلفا. لكنّها ستصبح حياتها العاديّة منذ الآن. تناولا عشاءهما الأخير في مطعم مطلّ على القناة المائيّة، ثمّ وضّبا حقائبهما، واستعدّا للعودة.

سألها هيثم وهما يأخذان مقعديهما على متن الطّائرة المتّجهة إلى باريس:

– ما هي أجمل ذكرى لك من هذه الرّحلة؟

أجابت على الفور دون تردّد:

– الشّجار أمام الكاتدرائيّة!

ضحك هيثم ملء شدقيه، ثمّ قال في عجب:

– حسبتك ستقولين جولة «الجاندول» في البندقيّة! كم هو عجيب أمر النّساء! ما يبذله الرّجل من جهود لنيل رضاهنّ يذهب أدراج الرّياح.. ويجدن كلّ الرّضا في التفاصيل البسيطة!

أومأت مؤيّدة:

- نحن أقلّ تعقيدا ممّا تحسب.. وغير متطلّبات.

قال وهو يكشّر عن أنيابه:

- أمرك بسيط.. سنُكثر من الشّجار إذن!

***

دخلت آية تحمل طبق الشّاي كالعادة، وعلى ملامحها غبطة لا تخفيها. بعد رحيل عمر عن بروكسيل، اتّصل خالها عزّام وأشاد بخاطبها أشدّ الإشادة. اكتملت أركان التّوافق بعد الاستخارة والاستشارة. حين وضعت الطّبق على المنضدة، كان والدها يقول مخاطبا عمر:

- هل عزمت على السّفر إذن؟

هزّ عمر رأسه موافقا وقال:

- أنهي بعض الأشغال هنا وأسافر بإذن الله.

أومأ العمّ محمّد في استحسان:

- والله لو كان بي شباب لبادرت بالسّفر معك! حين جئنا إلى باريس، كانت زوجتي —رحمها الله— حاملا في آية، فلم أقدر على تركها وحيدة.. وبعد وفاتها، صارت آية كلّ دنياي، وأنا كلّ عائلتها.. فلم أفارقها أبدا. فات الأوان الآن!

تمتم عمر بدعاء الرّحمة ثمّ انتبه إلى آية التي كانت قد اتّخذت مجلسها قبالته. قام والدها مثل كلّ مرّة، ليسمح لهما بحوارٍ خاصّ. لم يستمرّ الصّمت سوى لحظات، قبل أن تبادر آية بانشراح:

- قال خالي أنّك اجتزت الاختبار بنجاح!

ابتسم بدوره، ثمّ قال:

- لعلّ الاختبار كان فكرة جيّدة.

كان كلّ شيء يدعوه إلى الرّحيل مؤخّرا. لقد باتت باريس خانقة ومرهقة، وهو كان بحاجة إلى تلك السّفرة بعيدا عن مصادر خيبته. ولعلّه بعد ذلك يقرّر هجرة دائمة عن فرنسا. لعلّ أوان الانتهاء من تلك المرحلة في حياته قد حان. لعلّ بداية جديدة تنتظره، في مكان ما من أرض الله الواسعة. فكّر أنّ بروكسيل خيار ملائم.. حين يرتبط وآية بشكل رسميّ سيحدّثها عمّا يراوده من خواطر.

- ستسافر إذن؟

أومأ برأسه ثمّ سألها:

- هل توصين بشيء من دمشق؟

ابتسمت وهي تطرق في خفر وهمست:

- سلامتك.

لم تكن متحفّزة كعادتها، رافعة درع الحزم في وجهه مسدّدة سهام الحكمة إلى صدره. تبدّت أكثر أنوثة واستكانة، وقد راق له ذلك الجانب منها. تناولت كيسا قماشيّا كانت تخفيه وراء ظهرها، ووضعته على المائدة أمامه.

- هذه ذكرى منّي.. لعلّها ترافقك في رحلتك.

تسلّلت إليه الرّقة النّاعمة في صوتها، فاستعذب تلك اللّحظات الهانئة. مدّ كفّه ليلتقط الهديّة، فكّ الشّريط برفق وفتح الكيس.. لتملأ رائحة زكيّة أنفه. سحب من داخله علبة مخمليّة حمراء، يستقرّ في جوفها مصحف صغير يتضوّع بعطر الورد الذي تملأ بتلاته المجفّفة الكيس. طالع الهديّة في دهشة وإعجاب. كان اختيارها موفّقا، يجمع في طيّاته دفء المودّة ورصانة الجدّ الذي تعوّده منها.

أعاد العلبة إلى كيسها، ولم تفارق الابتسامة المعجبة شفتيه. فكّر في خجل بأنّه لم يخطر بباله إحضار ذكرى منه ترافقها في غيابه. ربّما كان أخرق في مجال العلاقات، يخوض للمرّة الأولى غمار الارتباط الجادّ بأنثى، ولم يعلّمه أحد أنّ الهدايا الشّخصيّة بند من بنودها! كان يأتي محمّلا بأكياس الفواكه وعلب الحلويّات، لكنّه لم يأت قطّ بشيء خاصّ من أجلها. قال باهتمام وهو يرنو إليها: أي الأشياء أحبّ إليك؟

قالت بتلقائيّة:

- الزّهور!

فاجأه ردّها، ولم يرضه. لعلّها تخشى أن تثقل بالطّلب إن هي صارحته بما تحبّ. حاول الالتفاف حول المسألة، فقال:

- أيّ الألوان تفضّلين؟

- الزّهريّ!

ضحك من إصرارها على اللّفظ ذاته، فضحكت بدورها. تملكّه إحساس بالألفة وهو يسمع ضحكتها لأوّل مرّة. شعر بأنّه مستعدّ الآن لعبور الوادي الذي يقفان على ضفافه، كلّ من جهة.

سيوسع لها مجالا في قلبه، وسيحفظ ذكراها كلّما وقعت عيناه على مصحفها.

-١٩-

وقف عمر عند شبّاك التّسجيل في مطار باريس «شارل دو غول». كانت رحلة ليليّة تأخذه إلى إسطنبول على متن طائرة الخطوط الفرنسيّة، ومنها يحلّق ثانية إلى دمشق. لم يحمل من المتاع غير حقيبة ظهر جلديّة حوت عددا قليلا من القمصان وبنطالين من الجينز، بالإضافة إلى أدوات الحمّام الأساسيّة ومجموعة كتب. لم ينس أن يدسّ بعناية مصحفه ذا العلبة المخمليّة الحمراء وكيس الورود المجفّفة!

سلّم الموظّفة جواز سفره وتذكرته، فنقرت على الجهاز أمامها قبل أن تعيد إليه وثائقه بابتسامة:

- رحلة سعيدة!

اتّصل بعزّام منذ أيّام لترتيب وصوله. سيكون هناك شابّ من معارفه في انتظاره في المطار، ليرافقه إلى مكان إقامته في الفترة المقبلة. لم يكن واثقا من مدّة المكوث المتوقّعة. عزّام اقترح شهرا كحدّ أدنى.. لكنّه لن يتعجّل في الحكم. إن راقته التّجربة فسيطيل البقاء، وإلّا بوسعه الرّجوع على عقبيه وقتما يشاء.

***

صارت الشقة هادئة على غير عادتها. تناقص عدد المتساكنين فجأة. بعد أن تزاحمت الأسرّة في الغرف الضيّقة واختلطت أنفاسهم في ليالي سمر ماتعة، تفرّقت السّبل وتباعدت المسافات.

بعد زفاف ياسمين، انتقلت فاطمة إلى ضيافة زهور. تتسلّيان معا في انتظار عودة العريسين من رحلتهما. وككلّ خميس، كانت رنيم تقصد محطّة البثّ التلفزيّ بعد ساعات عملها في مكتب المحاماة، من أجل الحلقة المباشرة لـ«الحقيقة الكاملة».

جلست سكينة وحيدة أمام الشّاشة، تترقّب في توتّر. كانت رانيا ما تزال ممنوعة من الخروج منذ حادثة تخلّفها عن القطار الأخير، لكنّها آثرت الانزواء في الغرفة، على أذنيها سمّاعاتها وهي غائبة في عالمها الصّاخب.

أثناء الفاصل الإعلانيّ، رنّ هاتف سكينة. كانت رنيم. قالت في حماس:

– كوني جاهزة.. التسّجيل يبثّ بعد حين!

تعلّقت عينا سكينة بالشّاشة وقد بلغ منها القلق مبلغه. ترتجف كفّاها، ويضيق صدرها. صارت آلام الصّدر تفاجئها كلّما استبدّ بها الجزع، مثل نوبات هلع لا تقدر على السّيطرة عليها.

ظهرت شارة البرنامج أخيرا، ثمّ ماتيلد دوبري تعلن عن الفقرة المقبلة. دمعت عينا سكينة حين رأت وجهها على التّلفاز أخيرا! لم يكن التّسجيل كاملا، عمل فيه مقصّ المونتاج عمله ليغدو مختصرًا. لكنّ القصّة ما زالت مؤثّرة ومفهومة. ثمّ ملأت الشاشة الصّورة التّقريبيّة التي طلبت رنيم من رسّام محترف إنجازها.

– ذلك الولد.. لقد رأيته في مكتبة الجامعة!

استدارت سكينة بغتة حين وصلها صوت رانيا. كانت تقف في المطبخ، تحضّر لنفسها وجبة خفيفة. لم تكن السّماعات تفارق أذنيها، لكنّها رفعت بصرها لوهلة

لتحطّ على الصّورة المعروضة على التّلفاز. قالت تلك الكلمات، ببساطة، ثمّ سحبت قدميها في كسل لتعود إلى الغرفة.. بينما تسمّرت سكينة مكانها غير مستوعبة.

هل قالت رانيا ما ظنّت أنّها قالته؟

لحقت بها وهي تصارع قصر نفسها وتشوّش رؤيتها بفعل الدّمع. وقفت تلهث عند الباب. أشارت إليها حتّى توقف تدفّق الموسيقى إلى أذنيها، ثمّ همهمت:

– سمعتك تقولين شيئا.. عن الصورة التي عرضها البرنامج.

أومأت رانيا، ثمّ قالت في نزق:

– لقد رأيت الصّورة مع رنيم قبل سفرها.. ثمّ ظهر ذلك الشابّ في مكتبة الجامعة.. كان شبيها للغاية بالصّورة، لكن حين تحدّثت إليه أنكر أن يكون معنيّا بالأمر! حسبته مجرّد شبه.. لكن حين رأيت الصّورة مرّة ثانية، بدا لي الشبه أكيدا. أكاد أجزم بأنّه هو...

وضعت سكينة كفّها على صدرها، وانهارت على طرف السّرير، وهي تهمس:

– آه، جاسر.. يا ولدي!

ثمّ تهاطل دمعها بغزارة.

بُهتت رانيا. لم تكن تدرك لاضطراب سكينة سببا. اقتربت لتحتضنها في ارتباك.

– ما الأمر؟ لماذا تبكين الآن؟

ثمّ أضافت في شكّ:

– هل تعرفين الولد؟

– ولدي.. فقدته منذ أربعة عشر عاما!

حين رجعت رنيم من المحطّة التّلفزيّة، ألفت رانيا وسكينة تجلسان في انسجام على الأريكة. كانت سكينة قد قصّت على مسامعها تفاصيل قصّتها المؤلمة، فأنصتت رانيا في انتباه وتأثّر.. ثمّ حدّثتها عن لقائها القصير بالشابّ المتوقّع أنّه جاسر. حاولت تذكّر أدنى التّفاصيل: شكله، ثيابه، طريقة حديثه.. لم تغفل شيئا. وكانت سكينة تشجّعها بأسئلة دقيقة وهزّات مستمرّة من رأسها وتألّق في عينيها. ستبدأ رحلة البحث غدا صباحا. ترافق رانيا إلى الجامعة، وتقتفيان معا أثر الولد المفقود.

استقبلت سكينة رنيم بعناق حارّ. هتفت:

– أظنّنا وجدناه!

اتّسعت عينا رنيم في دهشة. لم تحسب أنّ بثّ التّسجيل قد يؤتي أكله بتلك السّرعة.

– هل اتّصل أحد؟

– لا، لم يتّصل أحد. لكنّ رانيا تعرّفت إليه. لقد لمحته في مكتبة جامعتها!
انحسرت البهجة عن ملامح رنيم. إنّها تعرف شقيقتها، تفعل أيّ شيء لتكون محطّ الاهتمام. لن تستغرب على الإطلاق أن تدّعي رؤيتها للشابّ لمجرّد لعب دور البطولة لأيّام.. ثمّ لن يكلّفها الأمر أكثر من اعتذار عابر. «لقد أخطأت، حسبته هو!».. لذلك لم تقدر أن تشارك سكينة فرحتها. قالت في تروّ:

- الرّسم وحده ليس دليلا كافيا.. إنّما مجرّد صورة تقريبيّة. علينا التأكّد من تاريخ التبنّي، و...

قاطعتها رانيا بحدّة:

- سنعثر عليه أوّلا، ثمّ نتأكّد من التّفاصيل.

*

استيقظت رانيا وسكينة مبكّرتين. جهّزتا نسخا عدّة من الصّورة التي بحوزة رنيم واتّجهتا إلى الجامعة. وقفتا عند بوّابة الدّخول، وأخذتا تعرضان الصّورة على الطلبة المارّين بهما:

- هل تعرف هذا الشابّ؟ هل رأيته في الجامعة؟

يتدفّق الطلّاب من البوّابات، يهتمّ بعضهم بالصّورة فيلقي نظرة عابرة ثمّ يستمرّ في طريقه، ويتجاهلها آخرون ويعرضون. بعد ساعات من اللّهفة والنّشاط، خلت السّاحة من الروّاد تقريبا، انصرف كلّ منهم إلى درسه. تبادلت رانيا وسكينة نظرة محبطة، ثمّ هتفت رانيا في تصميم:

- فلنذهب إلى إدارة الجامعة!

وقفتا أمام موظّفة الإدارة بعد أن شرحت سكينة طلبها. حدّقت السيّدة في الصّورة لبرهة ثمّ قالت بلهجة جافّة:

- لا يمكن التعرّف على طالب في الجامعة من خلال صورة! يمكن البحث في الملفّات باسم العائلة والاسم الشّخصي...

- جرّبي جاسر الخطيب!

بحثت الموظّفة على جهازها لبضع ثوانٍ ثمّ أعلنت:

- لا يوجد!

فكّرت سكينة لبرهة، ثمّ قالت:

- اسم العائلة التي ترعاه «لاكروا».. جرّبي «جاسر لاكروا».

مرّة أخرى، عكفت المرأة تُسائل ملفّاتها.

- لا يوجد!

- هل هناك أسماء أخرى من عائلة «لاكروا»؟

- هذا اسم دارج، أمامي اثنان وأربعون طالبا اسم عائلتهم «لاكروا»!

- هل يمكننا الحصول على القائمة؟

ردّت بصرامة:

- لا!

غادرتا إدارة الجامعة وهما تشعران بالإحباط. لم يسفر بحثهما عن نتيجة تذكر. هتفت رانيا على حين غرّة:

- المكتبة! ترقّبي هنا.. سألقي نظرة.

صعدت رانيا الدّرج اللّولبيّ حتى قاعة المكتبة الفسيحة. جابت بنظراتها بين الطاولات التي كان معظمها خاليا في ذلك الوقت من النّهار. مرّت بين أروقة الكتب مرّتين، ثمّ عادت أدراجها خائبة. وقفت عند موظّفة الاستقبال وسألتها بالإنجليزية:

- «جاسر لاكروا».. هل جاء اليوم إلى المكتبة؟

تردّدت الموظّفة لحظة، ثمّ ألقت نظرة على ملفّ التّسجيل:

- لم يحضر طالب بهذا الاسم.

زفرت في وجوم، ثمّ التحقت بسكينة في السّاحة. لم تحتج سكينة إلى سؤالها. كانت ملامحها تنطق بخيبتها.

- نعلّق الملصقات على بوّابة الجامعة.. ربّما يراها أحد ويتّصل!

أومأت سكينة في استسلام، ثمّ تعاونتا على تثبيت الرّسوم على الجدار. كان الأمل مساء أمس في أعلى درجاته. نامت وهي تهدهد حلم لقائه قريبا، وسكبت عبرات حرّى وهي تتخيّل مشهد أخذه في حضنها بعد عقد ونصف من الحرمان. لكنّها تصطدم بصخرة الواقع، وهي تتعثّر في خطواتها راجعة إلى الشّقة بخفي حنين.. فيزداد صدرها ضيقا.

*

لم تنبس رنيم بتلك الكلمات «ألم أقل لك؟»، لكنّ قسماتها كانت تنطق بها، وهي تواسي سكينة، وتطمئنها إلى أنّ البثّ التّلفزيّ سيؤتي أكله حتما، وهو أوسع تأثيرا من الوقوف عند بوّابة الجامعة.

حدجتها رانيا بنظرة غاضبة. كانت تدرك أنّ رنيم تستخفّ بها ولا تؤمن بقدرتها على المساعدة. لكنّها قالت في ثقة:

– سيظهر مرّة أخرى.. لن يختفي هكذا! سنحاول مرّة أخرى غدا.

حين استيقظت صباحا، كانت رنيم ما تزال نائمة. تسلّلت إلى غرفة سكينة، بعد أن طرقت الباب بخفّة. كانت ما تزال في سريرها. لامست كتفها برفق وهمست:

– هل تودّين أن نعيد الكرّة اليوم؟

أنّت سكينة ولم تستجب. هزّتها بقوّة أكبر وهي تقول في قلق:

– سكينة.. أنت بخير؟

فتحت سكينة عينيها بعسر. كانت متعرّقة، وتنفّسها مضطرب. هرولت رانيا في قلق إلى غرفة رنيم. سحبتها من سريرها وقد أوحت ملامحها بالفزع.

– سكينة.. لا تبدو بخير!

طار النّعاس عن جفني رنيم، وهبّت برفقتها إلى الغرفة الأخرى. انحنت فوقها تعاينها، ثمّ حرّكتها بلطف. كانت تلهث، وقد التهب وجهها حرارة، وتقطّعت أنفاسها. هرولت رنيم لترتدي ملابسها ثمّ عادت إليهما.

- ساعديني!

تحرّكت الأختان لتضعا عليها ثيابها، ثمّ تعاونتا على حملها حتّى السيّارة.

- رانيا، اذهبي إلى جامعتك.. سآخذها إلى المستشفى.

- سآتي أيضا!

- وجودك لن يغيّر شيئا.. افعلي شيئا مفيدا واذهبي إلى درسك، هيّا!

عبست رانيا وزمّت شفتيها في ضيق، لكنّها أطاعت على مضض. أوصلتها رنيم حتّى محطّة المترو، ثمّ مضت إلى الطّوارئ.

حين وصلت رانيا إلى الجامعة، كان أوّل ما لاحظته غياب الملصقات التي ثبّتتها بالأمس على الجدار. كانت قد نُزعت وألقيت في القمامة! زمجرت في غضب، وأخرجت ملصقات جديدة من حقيبتها. لن تترك اليأس يتسلّل إليها. شمّرت عن ساعديها، وراحت تلصق الرّسوم من جديد.

- ماذا تفعلين هناك؟

فاجأها صوت غليظ سرعان ما أصبح صاحبه قبالتها. مزّق رجل الأمن الورقة التي ثبّتتها للتوّ، وهتف زاجرا:

- ممنوع الإعلان على جدار الجامعة! هيّا أزيليها كلّها!

تملّكها إحساس بالعجز. أخذت تنزع الأوراق في ضيق والعبرات تتساقط على وجنتيها في صمت. التفتت حين شعرت بعينين تراقبانها. حدّقت في الوجه المألوف الذي وقف صاحبه على بعد أمتار قليلة، يتابع حركاتها في فضول.

- أنت!

كان شكلها مختلفا بغطاء الرّأس المتهدّل فوق شعرها. لكن حين واجهته، تعرّف إلى ملامح الفتاة التي لقيها في المكتبة منذ أسابيع. استدار مبتعدا فركضت لتلحق به.

- أنت جاسر؟

قال ببرود:

- اسمي ليس جاسر!

- إذن اسم عائلتك «لاكروا»؟

توقّف فجأة وحدجها بنظرة حادّة، ثمّ استأنف سيره دون أن يردّ.

- إنّه كذلك.. أصبح الأمر أكيدا الآن!

كانت تحثّ الخطى خلفه وهو يمشي أمامها مسرعا، كأنّه يفرّ من حصارها. قفزت لتسدّ الطّريق أمامه:

- قف، لنتحدّث!

تكلّمت بالإنجليزية، فهي أكثر طلاقة بها عن الفرنسيّة، فقال هو بالفرنسيّة متعمّدا، بلهجة ساخرة:

– أخبرني أحدهم أنّ فتاة غريبة الأطوار تنشر صوري عند بوّابة الجامعة.. كان يجب أن أعرف أنّها أنت!

قالت رانيا في غضب:

– أمّك تبحث عنك!

– أمّي في المنزل.. وهي قطعا لا تبحث عنّي!

– تلك أمّك بالتبنّي. أتحدّث عن أمّك الحقيقيّة!

رأت ملامحه تكفهرّ وحاجبيه يتقاربان.

– ما هذا الهراء!

عاد إلى المشي بسرعة، فعادت لمسابقته.

– شاهد الحلقة الأخيرة من برنامج «الحقيقة الكاملة» وستفهم كلّ شيء!

لم يردّ واستمرّ في المسير، حتّى دخل محطّة المترو. تبعته وهي تزداد غيظا وحيرة.

– ألن تتوقّف؟ أنا أكلّمك!

– وأنا لا أريد أن أكلّمك!

– ألن تشاهد الحلقة؟ أمّك مريضة.. مريضة جدّا. وكلّ أملها في الحياة أن تراك مرّة أخيرة!

لبث يحدّق فيها في ارتباك. بدا مهتمّا للمرّة الأولى بما تقول. لكنّه سرعان ما أشاح بوجهه في إعراض، وقد استيقظ نفوره الذي خبا لبرهة قصيرة. صفّر المترو وهو يقترب من الرّصيف. أدركت أنّه سيرحل، وهي لا تملك الاستمرار في ملاحقته إلى ما لا نهاية. أخرجت واحدا من الملصقات التي تملأ حقيبتها، ووضعته بين يديه:

– إذا غيّرت رأيك، اتّصل بأحد الأرقام المدوّنة على الإعلان!

نظر إلى الرّسم المشابه لوجهه متأمّلا، وبدا عليه التّفكير. لوهلة حسبته سَيَلين.. لكنّه ما لبث أن كوّر الورقة بقسوة ورماها على الأرض، قبل أن يقفز ليركب عبر بوّابة المترو المشرعة.

تسمّرت رانيا مكانها في ذهول، ثمّ أخذت تبكي بمرارة.

***

حين خطت داخل الشّقة، كانت رنيم في المطبخ منهمكة في إعداد حساء الخضراوات. سألتها رانيا في فتور:

– أين سكينة؟

– إنّها نائمة.

- هل هي بخير؟

كان اهتمام رانيا بأمر سكينة مفاجئا بالنّسبة لرنيم. تعرف شقيقتها، إنّها لا تهتمّ لشيء آخر عدا ذاتها الصّغيرة! لكنّها أردفت في هدوء:

- لا ندري بعد.

- ماذا قال الطّبيب؟

- طلب أشعّة للصّدر وتحاليل مخبريّة. حين تظهر النّتائج سنعرف أكثر.

- ماذا عن الحرارة؟

- أخذت مخفّضا.. صارت أفضل الآن.

لم يكن ذاك الإلحاح ليمرّ مرّ الكرام بالنّسبة إلى رنيم. رمقتها بنظرة سابرة، تروم الغوص في أغوار نفسها. لكنّ رانيا فاجأتها وهي تتّجه إلى غرفة سكينة:

- لديّ أخبار سعيدة، ستشعرها بتحسّن!

تركت رنيم ما بين يديها ولحقت بها إلى الدّاخل. اقتربت رانيا من سكينة، وهمست بخفوت:

- سكينة.. هل أصبحت أفضل الآن؟

استقامت سكينة واستوت جالسة في سريرها، وقالت بابتسامة:

- أشعر بتحسّن.. آسفة لأنّني أقلقتكما عليّ!

هتفت رانيا في حماس:

- لديّ بشرى لك! لقد رأيت جاسر اليوم!

- حقّا؟ هل تحدّثت إليه؟

كانت ملامح سكينة تتلوّن بألوان الفرح، وعيناها تشرقان بالأمل. أومأت رانيا وهي تواصل:

- طلبت منه أن يشاهد حلقة «الحقيقة الكاملة» حتّى يفهم القصّة.. تعلمين أنا لست جيّدة في الفرنسيّة.

- لا بأس يا عزيزتي، لا بأس.. هل حصلت على رقم هاتفه أو وسيلة اتّصال به؟

تقلّصت ابتسامتها وهي تقول في اعتذار:

- كان متوجّسا.. لم يرد أن يصدّقني!

ثمّ أضافت مؤكّدة:

- لكن كلّ شيء سيختلف بعد أن يشاهد البثّ المسجّل.. أنا واثقة!

- آمل ذلك!

انسحبت رانيا بعد أن طمأنت سكينة إلى اقتراب الفرج. لم تنطق رنيم بحرف واحد. لبثت تستمع إلى كلمات رانيا والشكّ يتعاظم داخلها. ما إن خرجت حتّى لحقتها إلى غرفتهما المشتركة. قالت بحزم:

- ما الذي تخطّطين له؟

حدّقت فيها رانيا مبهوتة:

- ماذا تقصدين؟

أخذت رنيم نفسا ثمّ قالت بجدّيّة:

- هذا الموضوع حسّاس للغاية بالنّسبة إلى سكينة.. لقد أفنت عمرها في البحث عن ولديها، فلا تعطها أملا كاذبا!

- أنا لا أفعل ذلك! لقد أخبرتها بما جرى دون زيادة أو نقصان!

- هل تريدين إقناعي بأنّك في المرّة الأولى، رأيت جاسر «صدفة» في المكتبة.. ثمّ اليوم رأيته «صدفة» مرّة أخرى، رغم أنّك ويا للعجب قد بحثت عنه بالأمس مع سكينة وذهبتما إلى الإدارة والمكتبة ولم يتعرّف إليه أحد من الطّلاب؟ ثمّ اليوم، حين كانت سكينة متعبة، ظهر فجأة؟!

صرخت رانيا في انفعال:

- تلك هي الحقيقة! إن شئت صدّقت وإلّا فلا تفعلي!

تبادلتا نظرات ناريّة في عِناد، ولم تتنازل إحداهنّ للأخرى. قالت رنيم أخيرا بحدّة:

– يا ويلك منّي إذا دخلت بعد يومين وقلت وأنت تمثّلين الأسف «لقد حسبته هو، كان يشبهه»!

– لن أفعل!

دارت رنيم على عقبيها ورجعت إلى المطبخ بخطوات غاضبة، بينما لبثت رانيا ساهمة. إنّها تحاول أن تكون نافعة وتفعل الخير لمرّة واحدة في حياتها.. لكنّ شقيقتها لا تصدّقها!

جلست على حافّة السّرير، واسترجعت مشهد الشابّ وهو يسحق ورقة الإعلان بين أصابعه ويلقي بها على الأرض. إن لم يصدّقها ويشاهد البرنامج فستصدق نبوءة رنيم!

عادت إليها الرّغبة الملحّة بالبكاء، فاستلقت على السّرير وتركت العنان لدموعها.

***

وصل هيثم وياسمين إلى شقّتهما في ساعة متأخّرة من اللّيل. بعد عشرة أيّام من السّفر بين المدن الإيطالية، رجعا إلى باريس. كانا مرهقين ومستمتعين رغم ذلك. الرّحلة أهدتهما ذخيرة غنيّة من الذكريات الحلوة يبدآن بها مسار حياتهما معا.

ألقت ياسمين نظرة على غرف الشقة التي تدخلها للمرّة الأولى. لم يكن الأمر ذا أهميّة، فهما سيتركانها قريبا. كانت الأجهزة الكهربائيّة في كراتينها، وحاجيات ياسمين ما زالت محفوظة في حقائبها. أمّا قطع الأثاث فمغلّفة بألحفة قطنيّة تحفظها من الغبار.

في وقت سابق من النّهار، دخلت زهور وفاطمة إلى شقّة العروسين التي لبثت مغلقة حتّى ذلك الحين. فتحت زهور النّوافذ للتّهوية، ثمّ انهمكت المرأتان في تنظيف الشقّة وتوضيبها. ملأتا الثلّاجة بالمشروبات والفواكه وبعض الأطعمة الخفيفة، ثمّ انصرفتا.

استيقظا متأخّرين، على رنين هاتف هيثم. كانت السّاعة تشير إلى العاشرة، والعائلة تنتظر مقدمهما لتناول وجبة الإفطار. ارتدت ياسمين فستانا ووشاحا متناسقين في اللّون الورديّ ثمّ وقفت تستعرض ثوبها أمام هيثم:

– ما رأيك؟

– جميل.

خلال الأيّام القليلة الماضية، تعرّف أحدهما إلى الآخر عن قرب. لم يكن هيثم مثاليّا من نواحٍ عدّة، لكنّها تحاول التعوّد على طبعه. حسّ المزاح لديه غريب أحيانا، وتعليقاته قد تكون لاذعة.. لذلك تعلّمت أن تطلب رأيه مسبقا، فتتجنّب الإحراج لاحقا.

خرجا مشيا على الأقدام. كانت الشقّة قريبة من منزل أبويه. وهما يمضيان في الشّوارع بخطوات مسترخية، شعرت ياسمين بوخزات الضّمير. لعلّ هيثم كان يَعِد نفسه بفسحة المشي تلك كلّ أحد، ولعلّ عائلته كانت منتشية لبقائه قريبا منهم بعد زواجه.. لكنّ كلّ ذلك تبخّر الآن، بسبب الانتقال إلى «ليل».. بسببها!

توقّفا عند محلّ بيع الورود، واقتنيا سلّة زنبق بدرجات ألوان مختلفة، ثمّ قال هيثم:

– نأخذ واحدة من أجل والدتك أيضا؟

أومأت بابتسامة ممتنّة:

– سيسعدها ذلك!

كانت تأسرها تلك الخصلة فيه، الاهتمام بالتّفاصيل الصّغيرة التي تُدخل على القلب السّرور. وقد كانت هي ساذجة غرّة من تلك النّاحية. كان عليها أن تتعلّم منه أسباب الفرح.

تجمّع حولهما أفراد العائلة حال وصولهما. عانقتها فاطمة وكأنّها قد غابت عنها دهرا، ثمّ سحبتها من ذراعها بعد أن انتهت وصلة التّرحيب والتّحيّات. انتحت بها جانبا لتسألها في قلق:

– كيف هو هيثم معك؟

رغم إشراقة سحنتها التي تراها بعينيها، فلا غنى لها عن السّؤال المباشر، إمعانا في الاطمئنان. افترّ ثغر ياسمين عن بسمة رائقة:

– إنّه متفهّم وشديد العناية بما يُسعدني.

رغم وعيها بعيوبه، كان بوسعها أن تستفيض في مدحه. إنّه قويّ في الحقّ، لا يخاف في الله لومة لائم. وليس مع ذلك عنيفا أو انفعاليّا. ذاك الثّبات في المواقف الحرجة مقترنا بضبط النّفس، لا يمكنها أن تفي إعجابها بطبعه هذا حقّه بالكلمات! لكنّها أحجمت عن الاستطراد، فما عن ذلك تسأل والدتها.

شدّت فاطمة على كفّها وهمست في ارتياح:

– حمدا لله.. أرحت قلبي، أراح الله قلبك! الآن بوسعي العودة إلى تونس مطمئنة البال!

كانت آثار تجربتها القديمة تثقل صدرها بالكدر. همست وهي تحاذر أن تصل كلماتها إلى زهور وأولادها:

– هناك علامات لا تخطئها العين ولا القلب.. الرّجل لا يتغيّر! إذا كان حريصا على رضاك منذ اليوم الأوّل، فسيبقى كذلك.. وإن لحظت منه سوء طويّة، فتلك علامة سيّئة!

ابتسمت ياسمين وهي تضع بين يديها سلّة الزّنبق الخاصّة بها:

– هذه لك.. انتقاها هيثم بنفسه!

لمحت فرحة حقيقيّة في عينيها. ذاك الاهتمام وجد صداه عندها. ابتسمت وهي تقول في سرّها.. هيثم عرف من أين تؤكل الكتف، العقبى لها!

اجتمعت العائلة حول سفرة إفطار متأخّر. كان الجوّ مفعما بالحبور، استأثرت زهور بولدها وفاطمة بابنتها، وتشارك الجميع النّكات والدّعابات المرحة. تأمّلت ياسمين زوجها خلسة. كان رصينا في العادة، لكنّه يكون على سجيّة أخرى بين والديه وأخويه. بإمكانه أن يُفلت مزحات سخيفة، ويجاري وائل المراهق في لعبة «من يضحك أوّلا»!

لقد جمعهم مجلس عائليّ كثيرا فيما مضى، لكنّه كان منضبطا في حضورها، لا يسترسل في المزاح، ولا يطيل المكوث لتأخذ راحتها. أمّا الآن، فترى له وجها آخر تكاد تجهله. وتلك العناية التي يوليها لوالدته لم تكن تخفى عليها. كأنّه يطمئنها إلى أنّه لم يتغيّر، وسيبقى بكرها وسندها رغم كلّ شيء.

تذكر حديثه بعد أن جمعتهما غرفة نومهما ليلة أمس، على وسادتين متجاورتين. كان يمهّد لانتهاء «العسل» الذي ارتشفا من عذوبته في أيّام تحليقهما على جناح الحرّيّة، ويهيّئ ذائقتها لأصناف الأطعمة الأخرى التي تزخر بها الحياة اليوميّة، تحت ضغط العائلة والعمل والرّوتين.

قال بلهجة جادّة لا هزل فيها وهو يرنو إلى عينيها:

– أمّي أنت تعرفينها.. إنّها تحسبك في منزلة ميساء تماما، وقد تفضّلك عليها في نواحٍ، فأنت أرجح منها عقلا وأكثر نضجا.. فحافظي على هذه الميزة. لا أريد أن أقف يوما مخيّرا بينكما.. لأنّ خياري لن يسرّك! أمّي فوق كلّ شيء، وقبل كلّ أحد.. ضعي هذا نصب عينيك!

لعلّه استهلّ بالثّناء على رجاحة عقلها حتّى يلين جانبها وتتقبّل كلماته برويّة. لكنّ وضوحه الصّارم آذى كبرياءها وأنوثتها. كيف لها أن تقبل رفع حمايته عنها إن هي اختلفت وزهور يوما؟

لكنّها تعرف الإجابة. إن أرادت الحفاظ على أمانها، فعليها ألّا تقف من والدته موقف عداء قطّ. وذلك يبدو هيّنا من مجلسها ذاك على سفرة العائلة.

عاهدت نفسها في سرّها ألّا تختبر برّه بأمّه أبدا.

***

توقّفت السيّارة أمام البناء المألوف الذي كانت تعبر مدخله كلّ يوم صباحا ومساءً لسنوات، واليوم تزوره ضيفة على من أصبحن ساكنات شقّتها السّابقة. قال هيثم وهو يطالع ساعته:

– سأقوم بجولة قصيرة وأعود إليك. هل تكفيك ساعة زمن؟

– طيّب.

ودّت لو تطلب أكثر، لكنّها لم تلحّ. أمامهما رحلة أخرى صباح غدٍ، فلا داعي لطول مكوث. كان هيثم قد اتّفق مع وكيل عقاريّ في «ليل» ليرتّب لهما زيارة عدّة شقق، يأمل أن يتخيّرا منها عشّهما الجديد.

فتحت رنيم الباب، فاحتضنتها في شوق، ثمّ دلفتا سويًا إلى الصّالة التي شهدت اجتماعهما الأخير قبل زفافها.

- أين البنات؟

أشارت رنيم برأسها إلى غرفة سكينة وقالت بمسحة حزن:

- في الدّاخل.

أمسكت ياسمين بذراعها وقد بلغها كدرها.

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

زفرت رنيم في ضيق. كانت نتائج الأشعّة والتّحاليل المخبريّة قد ظهرت ذلك الصباح.

- سكينة.. إنّها مريضة.

- طهور إن شاء الله! ما بها؟

- في صدرها ورم!

حوقلت ياسمين واسترجعت، وتبلّلت رموشها بالدّمع. بينما تابعت رنيم:

- ستجري خزعة غدا.. حتّى تعرف طبيعة الورم. فلنحتفظ بالأمل.

أومأت ياسمين برأسها مؤيّدة، ثمّ دخلتا معا على سكينة، بعد أن غلّفتا وجهيهما بقناع الانشراح. كانت تلازم السّرير منذ أيّام، لا تكاد تقوى على الحركة. فارقتها الحرارة، لكنّ صدرها ضيّق ونفسها ضعيف.. سرعان ما تشرع في اللّهاث لأدنى جهد بدنيّ. تلك الأعراض التي حسبتها فترة ملازمة لحزنها، تبيّن لها سبب عضويّ غفلت عنه حتّى استفحل.

احتضنتها ياسمين بحنان واحتفظت بكفّها بين راحتيها.

- كيف كانت إيطاليا؟

بادرتها سكينة بصوت ضعيف، فقالت ياسمين مبالغة في المرح:

- رومانسيّة وحالمة! أحضرت لكُنّ تذكارات بسيطة.

أخرجت من حقيبتها علاّقات مفاتيح وأكواب قهوة منقوشة بأشكال معالم روما الأثريّة ووزّعتها عليهنّ. أخذن يتأمّلنها في سرور ويتخيّرن هداياهنّ، ثمّ قالت مخاطبة رنيم:

- هل فكّرت وشهاب أين ستقضيان شهر العسل؟

تحوّلت العيون إلى رنيم التي لم يعد خبر ارتباطها القريب سرّا على أحد. رفعت رأسها في كبرياء وقالت:

- أوروبا كلّها لا تغريني.. لن أرضى بأقلّ من تايلند!

ضحكن كلّهنّ، وجارتهنّ سكينة بصعوبة، ولم تلبث أن اشتدّ سعالها. بادلت ياسمين رنيم نظرات قلقة، ثم قالت:

- لعلّك ترغبين في الرّاحة.. نامي قليلا.

انزلقت سكينة في استسلام لتعود إلى وضع الاستلقاء، بينما قالت رانيا:

- سأظلّ إلى جوارها.

كانت تلازمها منذ أيّام. ما إن ترجع من الجامعة حتّى تجلس عند رأسها، وتثرثر بلا توقّف.

ما إن أغلقتا عليهما الباب حتّى همست ياسمين إلى رنيم في قلق:

- حالتها لا تنبّئ بالخير! قلبي يؤلمني من أجلها! هل من جديد بشأن ابنها؟

- لا شيء بعد.

ردّت رنيم في اقتضاب. لم تكن تعدّ ادّعاءات رانيا «شيئا» يستحقّ الذّكر.

- رانيا تبدو هادئة.. هل سكنت الأجواء بينكما؟

قالت رنيم بلهجة متهكّمة:

- إنّه الهدوء الذي يسبق العاصفة! لا أحد يدري أيّ مصيبة تخفيها.

لم تناقشها ياسمين، فقد كانت مشغولة اللبّ بما أصاب سكينة. طغى الحزن على بقيّة الجلسة، ثمّ تفارقتا من جديد وقد غدت المسافات أبعد.

كلّما اقترب موعد رحيلها إلى «ليل»، تضاعفت الهوّة بينها وبين حياتها السّابقة.. وتفاقم أثر فراقها لشريكات السّكن اللّاتي حسبتهنّ لسنوات «عائلة غربتها». لازمها شعور بالغرابة، وهي تجلس إلى جوار هيثم، في الطّريق إلى شقّتهما. لقد أصبح هذا الرّجل الجالس إلى جوارها هو كلّ عائلتها الآن.

-٢٠-

جلست رانيا إلى طاولتها في قاعة المكتبة الفسيحة، بذهن مشتّت. لم تمسك كتابا منذ أسبوع، ولم تحضر درسا واحدا. لقد أصيبت بهوس جديد. وكان لهوسها اسم.. جاسر لاكروا! تمضي سحابة يومها متجوّلة بين أروقة الجامعة وساحاتها وقاعات درسها، تحدّق في الوجوه وتدقّق، علّها تبصره صدفة كما حصل في كلتا المرّتين السّابقتين.

بالأساس، كان ما يحرّكها تعاطفها مع مأساة سكينة إلى حدّ التوحّد معها.. كأنّها مأساتها الشخصيّة! وهناك أيضا ذاك التّحدّي القائم بينها وبين رنيم. لقد شكّكت في صدقها واتّهمتها بالاختلاق.. وهي تدفع أيّ شيء لتثبت أنّ رنيم على خطأ.

- اسمي هو «كزافيي».

رفعت رأسها مبغوتة عن الكتاب الذي لم تنجح في قراءة جملة واحدة منه، لتجد قبالتها ذات الوجه الذي قلبت الجامعة رأسا على عقب وهي تجدّ في أثره دون جدوى! كان هو من تكلّم من تلقاء نفسه، واسترسل كأنّه في حديث داخليّ بصوت مسموع:

- أنا لا أعرف سوريا.. لكنّها ترد بشكل عجيب في شهادة مولدي! حين سألت عن ذلك منذ زمن طويل، قالت أمّي أنّها وأبي كانا في رحلة عمل لبضع سنوات هناك.. وحصل أن وُلدت في تلك الأرض الغريبة. بعد أن شاهدت البثّ التّلفزيّ، انتابني الشكّ.. اتّصلت بها، سألتها إن هي فكّرت في تحديث جواز سفرها، علّنا نسافر معا الصّيف المقبل.. قالت ضاحكة: لم أملك جواز سفر قطّ!

حدّقت فيه رانيا، محاولة التقاط الكلمات المتدافعة من فيه. لم تكن تستوعب كلّ المعاني التي نطق بها، لكنّها واثقة من شيء واحد.. لقد صدّقها!

سألها فجأة:

– لماذا ترتدين هذا الوشاح على رأسك؟

هزّت كتفيها في استهانة وقالت:

– الطّقس بارد!

لم تشأ أن تستفيض في سرد قصّة انعدام الثّقة المزمن بينها وبين شقيقتها، والتحدّي الذي تورّطت فيه فانتهى بها الأمر سجينة زيّ لا يشبهها.. فاكتفت بتلك الإجابة السّاذجة.

– هل هي من عائلتك.. المرأة التي تتحدّث في التّسجيل؟

لاحظت رانيا تجنبّه مناداتها بأمّي.

– لا، إنّها صديقة.

خمّنت رانيا أنّه يتساءل عن قرابة محتملة بينهما. هل حسبها شقيقته مثلا؟

– بين الحين والآخر، أرى كوابيس مرعبة، تظهر فيها سيّدة تضع وشاحا مثل هذا.. فأستيقظ مذعورا. أمّي قالت إنّ امرأة ترتدي وشاحا حاولت اختطافي حين كنت طفلا في سنّ الخامسة!

هتفت رانيا في اندفاع:

– هذا كذب! إنّها أمّك الحقيقيّة!

هزّ رأسه بقوّة وهو يقول:

– لديّ أمّ واحدة. وأنا ولدها الوحيد. لقد فقدنا أبي منذ سنتين، أنا وهي كلّ ما تبقّى من العائلة!

– سكينة أيضا فقدت كلّ عائلتها.. أنت عائلتها الوحيدة الآن!

– أنت لا تفهمين.. أمّي هي التي ربّتني. هي من منحتني كلّ الذّكريات والأحلام، هي التي وهبتني الأمان والحنان.. أمّا الأخرى فقد تكون وضعتني، لكنّها ضيّعتني بعد ذلك! لقد استمعت إلى قصّتها.. لقد تسبّبت في مقتل طفلها الأوّل، ثمّ في تشرّد اثنين آخرين!

– لقد كانت حادثة!

– لا فرق!

– لقد فقدت تركيزها لخمس دقائق لا غير، لكنّ حياتها انقلبت رأسا على عقب بسبب تلك الدّقائق الثّمينة! من منّا لا يشرد وينسى؟ كم فرصا غالية تفلت من أيدينا حين نغفل لبرهة؟ هذا قد يحصل مع أيّ كان...

قال بقسوة بالغة:

– حين تنجب أطفالا، يجب أن تكفّ عن الغفلة، وتبقى منتبها على الدّوام! الإنجاب ليس لعبة.. إنّها مسؤوليّة!

ثمّ أشاح بوجهه في إعراض، فأردفت رانيا:

– لا تكن غبيّا. لقد ضيّعتك هي، فلا تفوّت أنت فرصة لقائها.. قد تندم لاحقا، وقت لا ينفع النّدم!

أطرق في صمت كأنّما يصارع أفكاره المتناقضة، ثمّ وقف مغادرا. صرخت بصوت أزعج روّاد المكتبة:

– لماذا جئت تحدّثني إذن؟

قال بلهجة ساخرة:

– كنت أحتاج إلى ترتيب أفكاري عن طريق قولها بصوت عالٍ!

***

زفرت رنيم هواءً حارّا وهي تجتاز البوّابة الزّجاجيّة لمبنى المحطّة التّلفزيّة وتقتحم برودة الشّارع اللاذعة. كانت زخرفات رأس السّنة قد أخذت تزيّن الشّوارع منذ شهر على الأقلّ بشكل استباقيّ. مذ عرفت باريس، أحبّت حلّتها الشّتويّة المتلألئة. منذ منتصف نوفمبر، تتحلّى الطّرقات وتوشّى الأشجار والسّاحات بقلائد من المصابيح المضيئة. وتستمرّ في زيّها المنير طيلة الشّهر الأوّل من السّنة الجديدة. لذلك تحبّ شتاء باريس، وتنتظر بلهفة تساقط الثّلج الأوّل. رنّ هاتفها وهي تهمّ بتشغيل محرّك سيّارتها. ردّت بنبرة دلع حين وصلها صوت شهاب:

– دكتور شهاب صادق، هل حجزت موعدا؟

- عفوا أستاذة رنيم شاكر.. هل أتّصل في وقت غير مناسب؟

- حيث إنّني تحدّثت لستّ ساعات متواصلة اليوم بين المحكمة والبثّ المباشر، فحبالي الصّوتيّة تحتاج إجازة!

- حقّها! لن نضايقها إذن.. سأتكلّم أنا، ورُدّي بنعم أم لا. هل حجزت تذكرتك للأسبوع المقبل؟

- نعم!

- جميل.. هل أنهيت حزم أمتعتك؟

- لا!

لم تشتر الفستان الملائم لحفل الخطبة بعد! جدول أعمالها مليء عن آخره، لا تكاد تجد الوقت لتناول وجباتها، فكيف بالتّسوّق؟ لو عاد الأمر إليها، لاكتفت بالفستان الزّهريّ الذي ارتدته في زفاف ياسمين.. لكنّ السّيدة ناريمان لن يروقها ذلك. تحتاج زيّا فريدا من إحدى دُور الأزياء الباريسيّة الكبرى لترضي غرورها!

- هل أساعدك في التّسوّق؟

- لا!

لم يكن ذلك واردا. ليس لأنّها لا تثق في ذوقه، لكنّها لا تعتمد على أحد في اقتناء ما يخصّها.

- عليك تدبّر أمرك إذن.. في أقرب وقت!

- سأفعل، لا تقلق.. سأتركك الآن، أنا أمام عجلة القيادة!

أنهت الاتّصال وانطلقت. مضى شهر ونصف منذ أصبحت علاقتها وشهاب «حقيقيّة». الخاتم الماسيّ ذاته ما زال يزيّن بنصرها، لكنّ كلّ شيء عدا ذلك تغيّر.

إحساسها بحريّتها تُسلب منها، ضيقها من التّحضيرات الخانقة التي تنتظرها، إدراكها أنّها سلّمت مقاليدها لحكم عقلها، وقد اعتادت أن تترك لقلبها زمام حياتها.. لطالما كان إحساسها دليلها. وهي لم تفعل ذلك أبدا من قبل. لو أنّها فعلت، لربّما تلافت أخطاء شتّى في الماضي.. لكنّها ليست واثقة أنّ الخطّة المعاكسة ستكون ناجعة!

لامت نفسها في سرّها مرّات على تسرّعها. لكنّها في كلّ مرّة تفيق من نوبة الذّعر تلك على اتّصال من شهاب، فتستعيد ارتياحها واسترخاءها. «لقد أحسنت الاختيار يا رنيم»! من غيره كان ليتفهّم متطلّبات عملها المشطّة ويتجاوز عن عصبيّتها ويمنحها المساحة التي تحتاجها من أجل خصوصيّاتها؟ لا أحد! كانت تعلم يقينا أنّ رجلها نادر الوجود.. وذاك سبب كافٍ لتتمسّك به، علّ الصّداقة والتّناغم الذي بينهما ينقلبان عاطفة جيّاشة.. يوما ما!

حين وصلت إلى الشّقّة، ألفت رانيا وسكينة تتسامران في الصّالة. تعوّدت على ذلك المشهد. أختها المنزوية التي كانت ترى نفسها مركز الكون، انقلب حالها منذ أسبوعين! أصبحت تلازم سكينة كظلّها وتثرثر في أذنيها طيلة الوقت. بادرتها سكينة بابتسامة:

- كانت حلقة مميّزة! كيف وجدت حياة الشّهرة؟

قالت تجاري دعابتها:

- لا أدري كيف سأخرج إلى الشّارع غدا.. الباباراتزي يسدّون مدخل السّكن!

ضحكتا معا، بينما كانت رانيا تتعمّد التّكشير. رمقتها رنيم بنظرة جانبيّة، ثمّ حوّلت اهتمامها إلى جهاز رانيا المحمول المفتوح فوق المائدة المنخفضة، وقد ظهرت مجموعة من الصّور أثارت اهتمامها. اقتربت في فضول وقالت:

– ما هذا؟

افترّ ثغر رانيا عن ابتسامة متباهية وقالت:

– نتائج أبحاثي الخاصّة!

– رانيا كانت تشرح لي كلّ ما توصّلت إليه بشأن جاسر...

هتفت رانيا مستأثرة بالكلمة:

– اسمه الآن «كزافيي دو لاكروا». هل تعلمين أن لفظ «دو» في اسم العائلة يعني أنّها كانت تنتمي إلى طبقة النّبلاء في القرون الوسطى؟

ثمّ أردفت بسرعة:

– لكنّهم فقراء الآن!

سألتها رنيم بتحدّ:

– كيف عرفت؟

دون تردّد، راحت رانيا تسرد على مسامعها تفاصيل اكتشافاتها. لقد أخبرها كزافيي باسمه في لقائهما الأخير بالمكتبة. وقد مكّنها ذلك من العثور على صفحته في موقع الجامعة، وأيضا في مواقع التّواصل الاجتماعيّ! توصّلت إلى جدول محاضراته، عنوان إقامته، وأيضا عثرت على صور كثيرة له، منذ كان في المدرسة الابتدائيّة وحتّى ارتياده الجامعة.

حدّقت رنيم غير مصدّقة. لقد كانت الصّور دليلا دامغا لا يدع مجالا للشكّ. إنّه جاسر! ابتلعت الصّدمة بصمت، وهي تطالع ملفّات رانيا المرتّبة بعناية، مثل متحرّ خاصّ محترف. عليها أن تعترف، لقد فشلت كلّ أفكارها فيما يخصّ مساندة سكينة، ونجحت رانيا بصدفة عجيبة! قالت أخيرا وقد غلبت البهجة على صوتها:

- حمدا لله! هذا رائع حقّا!

أومأت سكينة برأسها وقالت بانكسار:

- إنّه كذلك!

تمتمت رانيا:

- لكنّه يرفض لقاءها.

- آه!

تمهّلت رنيم، وهي تنضمّ إليهما في الجلسة.

- لا شكّ أنّ إقناعه لن يكون سهلا.. لقد مرّت سنوات طويلة. لكنّه سيتقبّل الحقيقة في النّهاية.. أنت أمّه!

ابتسمت سكينة في وهن وقالت:

– أخشى أن يقتنع بعد فوات الأوان.

سارعت رانيا تهتف:

– لن يحصل ذلك.. سأفعل أيّ شيء لإقناعه!

هزّت سكينة رأسها بضعف. تحاول الاحتفاظ بالأمل رغم تدهور صحّتها المفاجئ والمستمرّ. الورم في رئتها اليمنى.. كان سرطانيّا. مذ عرفت النّتيجة حُرمت نوم اللّيل. تبيت على سجّادتها تبتهل، أن يُكتب لها الاجتماع بولديها قبل أن يقبضها الله إليه.

حياتها كانت صعبة بشكل كافٍ حتّى ذلك الحين.. لكنّ الله أراد أن يبتليها ويختبر صبرها واحتسابها أكثر. تظلّ تردّد صبحها ومساءها: «لا اعتراض على قضاء الله»! لكنّ الله عوّضها كثيرا، بصحبة تهتمّ لأمرها، حتّى انتهى بها المطاف بين تينك الأختين المتناقضتين والعطوفتين.

انسحبت إلى غرفتها في وقت مبكّر، فتحت ألبوم صور قديم.. تملأ عينيها من الوجوه الغضّة الحبيبة والبعيدة. ذرفت عبرات سخيّة شوقا ولهفة.. ثمّ حمدت الله كثيرا لعثورها على جاسر، وتنعّمها بالرّفقة، ودعت في إلحاح أن يرزقها الشّفاء.. ثمّ جلست على الأرض كعادتها واستغرقت في تلاوة القرآن.

حين دخلت رنيم الغرفة بعد حمّامها المسائيّ، وجدت رانيا قد أوت إلى سريرها. اقتربت من مرقدها بهدوء وألقت نظرة متفقّدة. لم تكن واثقة إن كان النّعاس قد غلبها.. لكنّ حديثا هامّا كان يثقل صدرها. نادت برفق:

– رانيا.. أنت نائمة؟

تقلّبت رانيا في ضيق وتمتمت في انزعاج دون أن تفتح عينيها:

- ماذا تريدين؟

أخذت رنيم نفسا وهمست:

- أدين لك باعتذار.

استوت رانيا جالسة على الفور وهي تحدّق في شقيقتها غير مصدّقة.

- أعيدي ما قلت؟

- قلت أعتذر.. لقد كنتُ قاسية ومتشكّكة دون مبرّر. لقد قمتِ بعمل جيّد.. أهنّئك!

انتشت أسارير رانيا والتمعت عيناها، حتّى حسبت رنيم أنّها توشك على البكاء. لكنّها لم تفعل. بل هزّت رأسها بخفّة، وقالت بهدوء:

- أشكرك.

ثمّ عادت إلى الاستلقاء تولّيها ظهرها. بينما مضت رنيم إلى سريرها بدورها، كانت رانيا تحت الغطاء، تتراقص قسماتها بضحكات مكتومة الصّوت.

- هل نمتِ؟

نادتها مرّة أخرى. رفعت رانيا عن وجهها الغطاء وقالت بلطف:

- هل من شيء آخر؟

- شهاب وأنا حجزنا تذاكرنا إلى مصر.. سنسافر مساء الجمعة المقبل. هل تودّين مرافقتنا؟

كانت قد طرحت عليها السّؤال ذاته منذ أسبوعين، بأسلوب آخر، بينما تتراشقان النّظرات الشّرسة.. ورفضت رانيا بنبرة ساخطة. لكنّ العرض يبدو أكثر لينا الآن، غير أنّه لا يغيّر من حقيقة أنّ شهاب ورنيم يعلنان ارتباطهما الرّسميّ ويريدان منها الحضور.

لم يعد شأن شهاب يعنيها كثيرا في الفترة الأخيرة. اكتشفت في دهشة أنّها لم تحاول الاتّصال به منذ أسابيع.. مذ شغلت نفسها بالتّحرّي عن جاسر! كانت قضيّة خاسرة على كلّ حال. كانت تدرك بوضوح أنّ الرّجل متيّم بشقيقتها. لكنّ اختلاف الملابسات لم يغيّر من جوابها. قالت بهدوء:

- سكينة تجري الجراحة يوم الأربعاء.. أعتقد أنّ على أحدنا المكوث إلى جوارها.

هزّت رنيم رأسها، وقالت في تفهّم:

- أنت محقّة.

سكينة، لقد غدت جزءا من العائلة. ليس عائلة شاكر، بل من عائلة «الشقة ٤٠٤» التي تجمع متساكناتها. كأنّ جذورا تمتدّ تحت أرض الشقة، تتشبّث بالتّراب، ليرتفعن كفروع لها.. هنّ الأربعة.

*

يوم الثلاثاء، تركت رانيا محاضراتها مبكّرا، ثمّ قصدت الجزء المقابل من مبنى الجامعة، حيث قسم الرّياضيّات. وقفت أمام قاعة الدّرس وهي تهزّ ساقها في توتّر بالغ.. تطالع السّماء الملبّدة بالسّحب، كتلبّد غيوم الكدر على صدرها، وتزفر في ضجر. ستكون المحاولة الأخيرة.

ما إن فُتح باب المدرّج وتدفّق الطلّاب خارجه، حتّى تحفّزت ملامحها وأخذت تتصفّح وجوههم في انتباه.

- وجدتك!

قفزت أمام كزافيي تسدّ طريقه، فبدت عليه الدّهشة لرؤيتها. مضى أسبوعان على حديثهما الأخير في المكتبة. لعلّه حسب إعراضه كافيا ليغدو الموضوع طيّ النّسيان، لكنّها وصلت إليه بطريقة ما.

- ماذا تريدين؟

حدجها في ضيق، ثمّ سار بخطواته الواسعة المعهودة. مضت تسابقه وهي تلهث:

- سكينة تخضع للجراحة غدا، في العاشرة صباحا.. استئصال ورم سرطانيّ في الرّئة.

تراخت سرعته لثانية وكأنّ كلماتها كبحت انطلاقه، ثمّ جدّ في المسير من جديد.

- لعلّك ترغب في لقائها، قبل ذلك.

لم تبد عليه الاستجابة. قفزت لتصل إليه وتدسّ بطاقة دوّنت عليها عنوان المستشفى في جيب سترته، ثمّ هتفت تشيّعه بنظراتها:

– افعل شيئا لا يجعلك تندم للأبد!

سار في لا مبالاة غير عابئ بما تقول، فتنهّدت بقوّة ثمّ همست لنفسها في غيظ:

– هل أنت كائن قُدّ من حجر أم ماذا؟

وانسحبت بخطوات محبطة.

*

نزلت سكينة من السيّارة، تسندها رانيا، وتقدّمتا سويّا بخطى وئيدة باتّجاه مبنى المستشفى. هتفت رنيم من موقعها خلف عجلة القيادة:

– إذا جدّ أيّ شيء، اتّصلي بي!

غمغمت رانيا:

– يمكننا أن نتدبّر أمرنا!

جلستا في قاعة الانتظار، ريثما يحين دور سكينة. كانت على موعد اليوم لإجراء جراحتها. طالعت رانيا ساعتها. لقد حان الوقت. جالت بنظراتها في أرجاء القاعة، تراقب الممرّات المؤدّية إليها علّها تبصره. لقد بلّغته بالموعد وسلّمته العنوان. قلبها يحدّثها بقدومه. لم يكن لا مباليا مهما تظاهر بذلك. شعرت بارتجاف سكينة فأمسكت بكفّها مهدّئة من روعها.

– سيكون كلّ شيء على ما يرام.

ابتسمت سكينة في استسلام، ثمّ استغرقت في تسبيحها. لم تكن جراحة هيّنة. الورم اجتاح قسما هامّا من رئتها اليمنى.. وصار لزاما استئصال الفصّ السّفليّ كاملا.

نادت الممرّضة اسمها، تستدعيها إلى غرفة مراقبة العلامات الحيوية. بينما غابت سكينة داخل الغرفة، وقفت رانيا في توتّر. سارت حتّى مدخل المستشفى وهي تجول بعينيها في اضطراب. لم تتحدّثا بشأنه منذ أيّام. لم تشأ أن تخبرها عن لقائها إيّاه حديثا. إن جاء، فستكون مفاجأة رائعة.. وإن لم يفعل، فلن تكبّدها عناء الخيبة.

عادت أدراجها سريعا، وقد أفل حماسها. ظهرت سكينة بعد دقائق على كرسيّ متحرّك. كانت ترتدي بدلة التّنويم وجاهزة لدخول العمليّة. رافقتها بصمت حتّى بوّابة قسم الجراحة الذي يُمنع عبوره على الزّوّار. عانقتها بحرارة ثمّ همست:

- ستكونين بخير!

ربّتت سكينة على ذراعها برفق وهمست وقد اغرورقت عيناها بالدّمع:

- أتمنّى أن تكبر ميار لتصبح فتاة ناضجة، حانية ورقيقة مثلك!

- اعتبريني شقيقة لميار منذ الآن!

تعانقتا مرّة أخرى، ثمّ دفعت الممرّضة الكرسيّ عبر البوّابة التي أغلقت وراءهما. ألقت رانيا نظرة حزينة حولها. كان يجب أن تدرك الحقيقة المحبطة. لم يحضر!

مرّت ستّ ساعات، هي زمن العمليّة الجراحيّة، ظلّت خلالها الأبواب مؤصدة، ورانيا تتململ على المقعد في قلق. لم يكن وجودها مطلوبا، كان بوسعها الانصراف إلى جامعتها. لكنّها لم ترغب أن تستيقظ سكينة ولا تجد أحدا في انتظارها.

تعود إليها صور قديمة مخزّنة بعناية في ذاكرتها. كانت في الثّانية عشرة، حين أجرت جراحة استئصال اللّوزتين. عندما أفاقت من أثر التّخدير، كانت آلام رهيبة تغزو حلقها. لم تكن تقدر على الكلام أو الابتلاع. بكت في صمت وحدتها وقلّة حيلتها، حتّى جاءت ممرّضة أخيرا لتحقنها بالمسكّن. لم يظهر والداها إلّا بعد ساعات.

هبّت من مجلسها حين لمحت السّرير المتحرّك يغادر غرفة العمليّات، تدفعه ممرّضتان حتّى غرفة العناية.

- هل ستكون بخير؟

طمأنتها الممرّضة بابتسامة:

- انتظري قدوم الطّبيب.. سيخبرك بكلّ شيء.

بعد نصف ساعة، حضر الطّبيب المناوب. راقب علامات سكينة الحيويّة، تفقّد الجرح الطّوليّ عند جانبها الأيمن، عاين أكياس تفريغ السّوائل، ثمّ أعلن بابتسامة راضية:

- تهانينا.. العمليّة ناجحة! كلّ شيء يبدو على أحسن حال. ستستيقظ خلال ساعتين على الأكثر.

تنفّست الصّعداء، واتّصلت على الفور برنيم. كانت تشعر بالخدر في أوصالها، من أثر التوتّر والجوع. لم تكن قد فارقت مقعدها منذ الصّباح. توجّهت إلى مقهى المشفى، وطلبت كوبا من القهوة وفطيرة تفّاح. ثمّ سارت على مهل وهي تلتهم قضمات من فطيرتها.

توقّفت فجأة، حين لمحت الشاب الواقف خلف زجاج غرفة العناية، يرقب في فضول المرضى المسجّين في أسرّتهم. لم يكن من اليسير تمييز سكينة بينهم. كانت تستلقي في استسلام، مسدلة الجفون، ذراعها موصولة بالسّائل المغذّي، وأنبوب الأكسجين يساعدها على التنفّس.. وآلات أخرى تراقب نبضاتها ومستوى الأكسجين في الدّم.

- السّرير الأوّل.

اقتربت في هدوء حتّى صارت حذوه، وهمست بكلماتها. انتفض كزافيي ذعرا، وحدّق فيها في ضيق. قالت بلهجة انتصار:

- كنت أعلم أنّك ستأتي!

لكنّه لم يمهلها وانطلق في مشيته السّريعة كالعادة. زفرت في حدّة وانطلقت خلفه:

- ليس هذه المرّة!

قفزت بسرعة حتّى تخطّته، ثمّ سحبته من ذراعه ليدخلا المقهى الذي غادرته منذ دقائق. أجلسته إلى مائدة شاغرة وطلبت قهوة أخرى. قال في سخرية:

- ما الذي تحاولين فعله؟

حدجته بنظرة صارمة:

- الحديث.. مثل أيّ شخصين بالغين! لقد سئمت المطاردة الصبيانيّة!

لوى شفتيه في امتعاض ولم ينبس ببنت شفة. جاء الطّلب فهمّت رانيا بالمحاسبة، لكنّه أوقفها بحركة حازمة ودفع ثمن مشروبه. استمرّ الصّمت للحظات، وكلّ منهما يرتشف قهوته ببطء.

- هل تعرفين اسمها؟

رفعت رأسها في دهشة.

- من؟

- شقيقتي.

- ميار.

- أقصد اسمها الحقيقيّ!

كادت تصرخ: هذا هو اسمها الحقيقيّ! لكنّها تدرك ما يرمي إليه. قالت في ضجر:

- لا أعرف!

- اسم عائلتها؟

- لا أعرف!

- أين تعيش؟

- في نانت.. على ما أظنّ!

قال بلهجة قاسية:

– هل هذا كلّ ما لديك؟ لا أعرف، لا أعرف!

صرخت في انفعال بالإنجليزيّة، وتدافعت الكلمات على لسانها:

– كفّ عن هذا رجاءً! لقد سئمت سلوكك الطّفوليّ.. وكأنّ مشاعر الآخرين لا قيمة لها. هل تحسب نفسك مركز الكون؟ هناك سيّدة عانت منذ فتحت عينيها على الدّنيا داخل تلك الغرفة.. وحياتها ما زالت في خطر بعد.. وأنت تتذمّر لأنّك لا تجد إجابات فوريّة!

شحبت ملامحه أمام ثورتها المفاجئة، ولم يردّ. أخذت رانيا نفسا عميقا، ثمّ قالت مستعيدة هدوءها:

– حين تستيقظ سكينة، سأحصل منها على الإجابات.

– حسنا.

تكلّم بهدوء بدوره، ثمّ ساد الصّمت من جديد. سألها في فضول:
– لماذا لا تتكلّمين الفرنسيّة؟

– أنا طالبة جديدة.. جئت إلى باريس منذ شهور قليلة.

هزّ رأسه في تفهّم، ثمّ سأل مرّة أخرى:

– وما هي علاقتك بها؟

كانت قد أجابت عن سؤاله ذاك من قبل. لكنّه يلحّ مجدّدا. ربّما لم تقنعه إجابتها.

- نحن شريكتا سكن.

- تبدين مهتمّة بها كثيرا.. من يراك يحسبك ابنتها، أو فردا من عائلتها.

أومأت مؤيّدة وقد غلبها الدّمع وهي تتذكّر كلمات سكينة قبل دخولها غرفة الجراحة:

- نحن عائلة واحدة.

أضافت في سرّها: «عائلة الشقة ٤٠٤».

رنّ هاتفها. كانت رنيم.

- لقد وصلت.. أين أنت؟

- في المقهى.

حين أنهت الاتّصال، قال كزافيي بسرعة وهو يترك مقعده:

- لن تخبريها بمجيئي اليوم!

قالت في تحدّ:

- بلى، سأفعل.. ما أن تفتح عينيها! أنت لا تعلم مقدار أهميّتك بالنّسبة إليها. معرفتها بقدومك سترفع معنويّاتها بالتّأكيد، وتسرّع شفاءها!

هزّ كتفيه ثمّ قال متظاهرا باللا مبالاة:

- افعلي ما بدا لك.. سأنتظر منك إجابات الأسئلة التي طرحتها.

مشى باتّجاه المخرج ثمّ استدار ليضيف بلهجة متهكّمة:

- تعرفين كيف تجدينني!

*

بينما يبتعد في اتّجاه قاعات الرّحيل، كان شهاب يقف على مبعدة بضع عشرات من الأمتار، يطالع ساعته في توتّر ويراقب بوّابات الدّخول. تهلّلت أساريره أخيرا حين أبصر رنيم مقبلة وهي تلوّح من بعيد. جرّ حقيبته ليختصر المسافة بينهما وهو يهتف:

- لقد تأخّرتِ.. لم يبق الكثير من الوقت!

ثمّ انتبه إلى غياب متاعها.

- أين حقائبك؟

ابتسمت في اعتذار وقالت:

- اذهب أنت.. وسألحق بك حين أتفرّغ.

رمقها في شكّ:

- ماذا تعنين؟ رنيم، هل...؟

هتفت على الفور:

- بالتّأكيد لم أغيّر رأيي بشأن أيّ شيء! لكنّ ماتيلد تجري جراحة ليزر لتقويم بصرها، ويلزمها ألّا تتعرّض لإضاءة قويّة لفترة.. ويجب أن أحلّ محلّها في تقديم البرنامج!

رمقها بنظرة طويلة سابرة، ثمّ قال:

- رنيم.. أريد أن أثق بك حقّا!

ردّت بحرارة:

- يجب أن تفعل. أسبوع واحد كحدّ أقصى.. ثمّ أنضمّ إليك!

حفل الخطبة يقام بعد أسبوع من الآن. ستنتهي من الحلقة يوم الخميس وتسافر يوم الجمعة، ويوم السّبت تقف إلى جواره إزاء عائلتيهما.

زفر في استسلام. لم يكن هناك مجال لمجادلتها. كانت الأبواق المبثوثة عبر قاعات المطار تنقل النّداء الأخير لركّاب رحلة القاهرة. ودّعته ثمّ شيّعته بنظراتها حتّى اختفى في زحام المسافرين. همست لنفسها مطمئنة: «إنّها مجرّد خطبة يا رنيم. لا داعي للهلع».

كان اتّصال ماتيلد بها صباح اليوم بمثابة طوق النّجاة. من أيّ شيء تنجو؟ من حفل خطبتها؟! كانت مذعورة بشكل لا يصدّق مع اقتراب السّفر. كانت حقيبتها جاهزة. اقتنت فستانا برونزيّا ذا ذيل طويل، مغطّى بطبقة من الرّيش النّاعم. كانت قد أنهت

تسوّقها، ووضّبت أمتعتها.. لكن حين جاءها اتّصال ماتيلد، لم تردّ على الفور. كان بوسعها الرّفض. سبق أن حجزت تذكرتها، وطلبت إجازة رسميّة لأسبوعين. خطبتها عذر كافٍ جدًا. لكنّها تلكّأت.

كانت تفرّ من فكرة الارتباط التي باتت تخيفها، وتطارد فرصة مغرية ببزوغ نجمها كمضيّفة رئيسيّة لبرنامج «الحقيقة الكاملة»! لم تخبر شهاب مباشرة. تعرف أنّ بوسعه إقناعها بالاعتذار. لذلك لحقت به إلى المطار وقد خلّفت حقيبتها وجواز سفرها وراءها.

*

استسلمت رنيم ليد المزيّنة، تصفّف شعرها وتظلّل رموشها وتنثر البودرة على وجنتيها. تنفّست بعمق، بعينين مغمضتين، محاولة السّيطرة على توتّرها. لم يكن ظهورها الأوّل في البثّ المباشر.. لكنّ حلقة اليوم مختلفة. كانت تلك فرصتها الذّهبيّة لتثبت كفاءتها، لا كجزء من فريق البرنامج، بل كقائدة! ستكون اليوم المايسترو الذي يكتب النوتة التي سيعزف الجميع ألحانها.

دخلت أستديو التّصوير لتنطلق الأوركسترا الخاصّة بها تضبط الإيقاع قبيل إشارة البدء. وزّعت الابتسامات والتحيّات، ثمّ جلست على مقعد الصّدارة. من حولها يشرع الصّحفيّون والضّيوف في اتّخاذ مقاعدهم، تتحرّك العدسات المعلّقة وتسلّط الأضواء الباهرة على وجهها. الفنيّون ومهندسو الصّوت وتقنيو الإضاءة يلزمون مواقعهم، ويأتيها صوت المخرج عبر السّمّاعة الدّقيقة المختبئة في جوف أذنها:

– الكاميرا رقم اثنين.. انتباه، نحن على الهواء!

تنطلق شارة البرنامج، ثمّ يملأ وجه رنيم الشّاشة في صورة مقرّبة، تظهر ملامحها المتيقّظة ونظرتها النّاطقة بالكاريزما. تهمس لنفسها:

«رنيم، أنت في موقعك الحقيقيّ. أنت تستحقّين الصّدارة»!

حين قصدتها ماتيلد منذ شهور، وعدتها بأن تجعل منها نجمة تلفزيّة. في ذلك الوقت، لم يكن للوعد بريق الإغراء الذي صارت تراه اليوم. كانت مكتفية بمسرحها في قاعة المحكمة، حيث يلمع نجمها في كلّ مرافعة. لكنّ الحياة تحت الأضواء باتت تروقها. ظهور صورها على أغلفة مجلّات المشاهير، انتشار مقاطعها على مواقع التّواصل، وإعجاب النّاس بمواقفها ورفعهم لكلماتها شعارات.. كلّ ذلك أصبح جزءا من كيانها!

– عزيزتي ماتيلد، نتمنّى لك شفاء عاجلا.. غيابك يحزننا، لكنّنا نحرص على استمرار الرّحلة التي منحتها شخصيّتك اللّامعة معنى وقيمة.. ونرجو أن نكون في مستوى المسؤوليّة التي على عاتقنا.

حفظت تلك الكلمات عن ظهر قلب، وألقتها بلهجة دراميّة مؤثّرة، لكنّها لم تقصد منها حرفا واحدا.

«ماتيلد، سأجعل من غيابك منصّة أقفز عبرها إلى المركز الذي أستحقّه».

راجعت فقرات الحلقة المدوّنة على القصاصات المرصوفة أمامها ورتّبت أفكارها، ثمّ انطلقت. كان عليها تنسيق المداخلات بين الضّيوف، وتخصيص بعض الوقت لمداخلات الجمهور على مواقع التّواصل، بالإضافة إلى التّقارير المصوّرة. تستمع إلى همسات المخرج في أذنها، دون أن يبدو عليها التشتّت.. ثمّ أعلنت الفاصل الإعلانيّ الأوّل.

تنفّست الصّعداء، ثمّ تلقّت الثّناء من زملاء العمل، فردّت المجاملات بمثلها ووزّعت الابتسامات المحترفة. همست لنفسها في سرور: «أنت تبلين بلاءً حسنا يا رنيم»!

تفقّدت هاتفها، فألفت عددا لا بأس به من رسائل التّشجيع والتّهنئة. كان بينها رسالة من ماتيلد: «كلماتك كانت مؤثّرة. شكرا من القلب».

أفلتت ضحكة ساخرة.

كانت هناك رسالة من شهاب. صور لقاعة احتفالات فندق الشيراتون بالقاهرة ومقترحات لتواريخ متاحة في شهر يونيو ٢٠٠٩. هزّت حاجبيها متفكّرة، ثمّ فتحت التّقويم الإلكترونيّ في هاتفها لتتأكّد من مواعيدها المسجّلة. ما زال الصّيف بعيدا، لكنّ الحجوزات تنفد بسرعة. معظم ارتباطاتها المهنيّة الحاليّة تمتدّ حتّى الرّبيع لا أكثر. كتبت رسالة مقتضبة:

«لا بأس بأيّ منها. خبّرني إذا حدّدت التّاريخ».

ثمّ سمعت هتاف المخرج باستئناف البثّ المباشر. حين أنهت الحلقة، شعرت بالاسترخاء يغمرها. لقد تمّت مهمّتها بنجاح. وهي تغادر مبنى المحطّة تفقّدت هاتفها مرّة أخرى. وصلتها رسالة ثانية من ماتيلد: «دمت نجمة لامعة عزيزتي راني».

لوت شفتيها في امتعاض. تمقت اسم الدّلع ذاك الذي يسقط متعمّدا حرفا من اسمها. رقنت بسرعة رسالة شكر، ثمّ فتحت رسالة من شهاب: «١٤ يونيو».

تحدّد التّاريخ إذن. في هذا اليوم ستدخل القفص الذّهبيّ!

توقّفت فجأة على رصيف المبنى، وحدّقت في ذهول في الشّارع الذي اكتسى طبقة سميكة من الثّلوج! ميّزت سيّارتها بين العربات المصطفّة في المرآب الخارجيّ. كانت مغطاة بالطّبقة البيضاء الثّلجيّة ذاتها:

– لا تحاولي إخراجها من هنا.. الشّوارع زلقة للغاية. اركبي المترو!

ألقى إليها فنيّ الإضاءة وهو يمرّ جوارها على عجل. كانت كلماته عين العقل. تركت السيّارة ومشيت بصعوبة، تغوص قدماها في الثّلج وتتجمّدان داخل حذائها.. حتّى وصلت إلى المحطّة.

تنفّست الصّعداء وهي تتجاوز باب المصعد وتفضي إلى الشّقة بعد رحلة عسيرة. حين أدارت المفتاح في القفل، تنامت إليها ضحكات رائقة من الدّاخل. خطت إلى الرّدهة في دهشة، لتلفي ياسمين وميساء تجالسان سكينة ورانيا.

- أنت هنا!

عانقت ياسمين بحرارة، ثمّ جلست بينهنّ.

- عرفت أنّ سكينة غادرت المشفى، فجئت وميساء نعودها.

- كيف جئت أثناء العاصفة الثّلجيّة؟ واليوم خميس! كيف فعلت؟

ضحكت ياسمين ثمّ شرحت:

- لقد عرفنا مسبقا بشأن العاصفة، فطلبت العمل من البيت يوم غدٍ، وجئنا مبكّرين من «ليل» لإمضاء عطلة نهاية أسبوع ممتدّة في باريس.

أضافت ميساء في مرح:

- لكنّنا محاصرتان الآن هنا، بعد أن تعطّلت حركة الطّرقات! هل تقبلننا اللّيلة؟

كان هيثم قد اتّصل منذ دقائق. الشّوارع مغلقة بالثّلوج، والجرّافات لن تشرع في إزاحتها ونثر الملح على الجليد قبل فجر الغد. كانت القيادة مستحيلة في تلك الظّروف. لم يكن بوسعه القدوم لاصطحابهما. هتفت رانيا في جذل:

- لقد عادت الشّقّة مليئة بالحياة، مثل الأيّام الخوالي! أقترح أن نسهر اللّيلة حتّى الفجر!

ضحكن جميعا، بينما انغمست رنيم في مطالعة رسالة واردة على هاتفها، ثمّ قالت في صدمة:

– ألغيت كلّ الرّحلات الجويّة ليوم غد، بسبب العاصفة! عليّ أن أعلم شهاب!

وقفت لتدخل الغرفة وتجري اتّصالها، بينما تبادلت الفتيات نظرات قلقة. ستفوّت رنيم حفل خطبتها! استمع شهاب إلى شرحها في وجوم.

– هذه ظروف خارجة عن نطاقي.. من كان يعتقد أنّ هذا قد يحصل!

حافظ شهاب على صمته، كأنّما لا يجد الكلمات المناسبة للردّ، فأردفت رنيم:

– ما المهمّ في هذا الحفل في نهاية الأمر؟ الخاتم؟ إنّه معي! أهلي وأهلك؟ يعرف بعضهم البعض ويعرفوننا! اجتمعوا مثل ما خطّطتم.. اتّفقوا على ما تريدون، فتلك الشّكليّات لن تغيّر شيئا بالنّسبة إليّ!

قال بلهجة يشوبها الحزن:

– لماذا أشعر بأنّ إلغاء الرّحلة يسرّك؟

جاء دورها لتغرق في صمت عميق. لو أنكرت، فلن تكون مقنعة.. ولو اعترفت فستؤلمه. قالت في مراوغة:

– هل حجزت قاعة الفندق من أجل الزّفاف؟

- فعلت.

- أعدك أنّني لن أفوّت هذا الموعد.. ولو اضطررت إلى قطع البحر المتوسّط سباحة!

لم يضحك كما توقّعت. زفر بهدوء ثمّ قال في تسليم:

- هل يمكنك الاتّصال بوالدتي والاعتذار؟

- سأفعل. هل يمكنك أن تبتسم؟

- سأحاول.

تنفّست الصّعداء وهي تنهي الاتّصال. أطلّت ياسمين عند الباب وهمست:

- هل كلّ شيء على ما يرام؟

- أنا مذعورة!

اقتربت ياسمين في قلق، فهتفت رنيم:

- أغلقي الباب وتعالي.. فلنتحدّث بعيدا عن ميساء ورانيا.

جلستا على طرف السّرير، فأردفت رنيم وهي تطالعها بابتسامة متشنّجة:

- كيف هو الزّواج معك.. بعد شهرين ونصف من التّجربة؟

ابتسمت ياسمين وقالت في استرخاء:

- ليس سيّئا.

- ألا تتشاجران مثلا؟

- لا نتشاجر.. لكنّنا نختلف في وجهات النّظر أحيانا.

أطلقت رنيم ضحكة ساخرة ثمّ قالت:

- هل هذا هو الاسم العلميّ للشجار؛ «الاختلاف في وجهات النّظر»؟

- إن كنت تقصدين بالشّجار أن يرفع أحدنا صوته على الآخر، أن نتبادل الكلمات الجارحة أو اللّجوء إلى العنف.. فنحن لا نتشاجر! لكنّنا لا نتّفق في كلّ شيء.. ويحصل بيننا تباعد وبرود من حين إلى آخر.. وهذا هو الاختلاف في وجهات النّظر!

سألت رنيم وهي تضيّق عينيها في اهتمام:

- وكيف تعبّران عن هذا الاختلاف؟ إذن؟

- قد نتجاهل بعضنا البعض ليوم أو بعض يوم، نتعامل بجفاف.. لكنّ كلّا منّا يستمرّ في تأدية واجباته تجاه الآخر دائما.. ونجلس سويّا إلى مائدة الطّعام، حتّى لو لم نتبادل كلمة واحدة!

قالت رنيم في فضول:

- هل لهيثم واجبات منزليّة؟

اتّسعت ابتسامة ياسمين وهي تقول:

- هيثم يستيقظ أوّلا، ويحضّر الإفطار كلّ صباح!

- مستحيل!

ضحكت ياسمين في استمتاع، ثمّ أضافت وهي تعدّد على أصابع يدها:

- ينشر الغسيل، يشفط الغبار بالمكنسة الكهربائيّة، يسقي النّباتات.. في الحقيقة، المناوبة النّهارية من نصيبه -حين يكون عمله عن بعد- وأستلم واجباتي حين أرجع من العمل مساءً.. لكنّ الوضع يختلف حين يسافر إلى باريس...

- هل تعلم زهور أنّ ابنها يفعل هذا في منزل زوجته؟

أشارت إليها ياسمين بالصّمت وهي تضع سبّابتها أمام شفتيها وتوشوش:

- اششش.. احتفظي بالسرّ!

ثمّ أضافت في تأمّل:

- هل تعلمين.. هناك أبعاد في العلاقة لا يمكن تفسيرها بالكلمات.. أسمّيها الإحساس بالانتماء!

- الانتماء؟

- حين يغضب أحدنا من الآخر.. لا تراودني ولو للحظة واحدة رغبة في الابتعاد عنه أو مغادرة البيت، أو الشّكوى لأحد! كأنّ ارتباط أحدنا بالآخر أمر مفروغ منه.. وخلافاتنا نحلّها بقليل من الصّبر وكثير من الحوار. هكذا.. ينتمي أحدنا إلى الآخر!

حدّقت رنيم فيها بعينين متّسعتين، فواصلت ياسمين:

- ليس أيّ منّا مثاليّا.. ولسنا متشابهين كثيرا.. لكنّنا نتعلّم كيف تكون الحياة المشتركة. هيثم عمليّ يرى العالم كمعادلات واضحة.. وأنا حسّاسة نوعا ما، وأميل إلى التّأويل والتّحليل! هيثم ميزته أنّه شفّاف.. صريح في مواقفه، ولا يعرف كيف يزيّن الكلمات. قد يراها الكثيرون عيبا، لكن إذا فهمت كيف تتصرّفين معها، تغدو الحياة أسهل.

تنهّدت ثمّ قالت وهي تربّت على كفّها:

- في النّهاية، إنّه مجهود مشترك. يجب أن يكون الزّوجان متفهّمين وراغبين في نجاح العلاقة.. بعد كلّ خلاف، نجلس ونشرح مشاعرنا، ونتّفق على الخطوط الحمراء التي لا يقبل كلّ منّا المساس بها.. ومساحات التّفاوض التي يمكن مناقشتها، فيتكيّف كلّ منّا للاقتراب أكثر من مساحات الآخر.

ابتسمت رنيم وهمست:

- يبدو هذا جميلا.. الانتماء! هل تعتقدين أنّني أنتمي إلى شهاب؟

- أنا واثقة بأنّ شهاب متفهّم ومتعاون.. لكنّك يا عزيزتي تفتقرين إلى المرونة!

شهقت رنيم غي دهشة:

- أنا؟!

- لا تسحبي من رصيدك لديه أكثر ممّا ينبغي.. لكلّ رجل قدرة تحمّل محدودة، إذا تجاوزتها انكسرت العلاقة بدون رجعة!

في تلك اللّحظة، أطلّت رانيا من الباب وهتفت:

- رنيم، غيّري ثيابك.. سنحتفل بخطبتك!

عقدت رنيم حاجبيها في استنكار:

- ماذا تقصدين؟

- الثّوب البرونزيّ! نريد أن نراه.. هيّا!

حثّتها ياسمين بابتسامة مؤيّدة، فرضخت دون مقاومة طويلة.
خرجت بعد حين وهي ترتدي الثّوب الذي اقتنته من أجل الحفل وقد رفعت شعرها ووضعت لمسات من الزّينة الرّقيقة، فاستقبلتها الفتيات بالهتاف والتّصفيق. كان الفستان ضيّقا من الأعلى، يبدي نحافة خصرها، ثمّ يتّسع تدريجيّا. ذيله الطّويل المغطّى بالرّيش ينزلق خلفها وهي تتهادى في مشية مختالة، مثل طاووس برونزيّ اللّون! جلست وسطهنّ وهي تعاين قطع الكعك المرتجلة التي أعددنها ببسكويت الزّبدة المغطّى بطبقة من الكريمة والشّكولاتة.

همست رانيا في اعتذار:

- هذا كلّ ما وجدت في المطبخ!

ضحكن في مرح وشرعن في تناول البسكويت مع الشّاي الدّافئ. تركت رانيا مقعدها فجأة. غابت داخل الغرفة لثوانٍ ثمّ عادت وبحوزتها دفتر ملاحظات وقلم.

- خطرت ببالي فكرة.. فلنكتب «ميثاق عائلة الشقّة ٤٠٤»!

حدّقن فيها في دهشة، بينما انبرت تدوّن في دفترها:

«أن تهتمّ كلّ منّا لأفراد العائلة.. وتكون مخلصة لهن، وأن نتشارك اللّحظات المهمّة، في الأفراح والأتراح.. وأن نبقى عائلة متحابّة حتّى لو فرّقتنا المسافات...».

رفعت رأسها وسألت:

- أيّ بنود أخرى؟

ابتسمت ياسمين وقالت:

- يبدو هذا مثاليّا!

هتفت سكينة وقد ملأت عينيها العبرات:

- أنا أوقّع أوّلا!

ناولتها رانيا القلم، فوقّعت.. ثمّ مرّرت القلم إلى الياسمين لتوقّع بدورها. غمغمت رنيم في ضيق وهي ترمقهنّ بنظرة جانبيّة:

- ما هذه الفكرة السّخيفة!

فصاحت ميساء على الفور:

- هل يمكنكنّ قبولي في العائلة مكان رنيم؟ صحيح أنّني لم أكن من ساكنات الشقة ٤٠٤.. لكنّني صديقة للعائلة!

أجابت رانيا في حماس:

- طبعا، يمكنك التّوقيع! أساسا كلّنا كنّا وصيفات ياسمين.. وهذا كافٍ.

وقّعت ميساء في جذل، ثمّ تعلّقت العيون برنيم. فتنهّدت في استسلام ووقّعت بدورها. أردفت رانيا بعد أن أضافت توقيعها إلى جوار تواقيعهنّ:

- سأصنع نسخة لكلّ منكن تحتفظ بها كذكرى!

غمغمت رنيم في تهكّم:

- لنعلّقها في غرف نومنا.. وثيقة «الدّستور» الخاصّة بنا!

-٢١-

لو أنّ أحدهم تنبّأ له منذ شهور بأنّه سيحبّ الإقامة في تلك الدّيار الضيّقة المكتظّة بالسّكان، لما صدّق كلمة واحدة! كان يهوى الوحدة، موسومًا بغرابة الأطوار منذ سنوات دراسته، معتادًا على العزلة والخلوة. لكنّ الإقامة في مخيّم اليرموك راقت له وطابت.

منذ الأيّام الأولى، شعر عمر بمزيج غريب من الألفة والسّكينة. تلك الوجوه التي تبتسم في وجهه كلّ حين، كانت تغمره بالارتياح بحفاوتها التلقائيّة وألفتها الفطريّة، فيستشعر بعد دقائق قليلة أنّه قد خالط بعضهم منذ شهور وسنوات. وكان الكلام حلوًا على ألسنتهم بشكل لم يعهده، مبالغًا في الودّ، وهو الذي جاء من أقصى الغرب العربيّ، والبون شاسع بين شرق البلاد العربيّة وغربها من حيث طلاوة اللّسان ويسر المعشر.

استقبله أبو الحسن، شقيق عزّام الأكبر وخال آية. كانت تلك كنيته، نسبة إلى والده – الشيخ حسن – لا إلى ولده. كان قد أعدّ في الطّابق الأوّل من البناية المخصّصة لقاعة الألعاب الرّياضيّة التي يديرها غرف ضيافة، تستقبل في أوقات مختلفة من العام شبابًا – فلسطينيي الهويّة في الغالب – لفترة تقصر أو تطول. كان قد عرف بخدماته الجزيلة لعابري السّبيل والمسافرين، وطلبة الجامعات المغتربين عن أهاليهم، بالإضافة إلى المخيّم الكشفيّ الذي يرتّب أنشطته صيفًا وشتاءً. لم يكن قد رزق الذريّة، فنذر وقته وماله لتوجيه الشّباب اليافع.

حين جمعته بمضيّفه جلسة دافئة في داره قال عمر مبتسمًا:

– حين سمعت عن المخيّم.. أوّل ما خطر ببالي، كانت الخيام! وفوجئت حين وجدت مدينة!

ضحك أبو الحسن، أمام كلمات عمر المحرجة وقال:

– لقد غدت مدينة اليوم، لكنّها لم تكن على نفس الشّكل على الدّوام. حين دخلها أهلي منذ عقود، لم يكن هناك غير العشب والأشواك.. أرض بور. لكنّهم عمروها.

مع مرور السّنوات، لم تعد أحياء مخيّم اليرموك تختلف كثيرًا عن الأحياء السوريّة المتاخمة لها. تدريجيّا تطوّرت المساكن المؤقّتة المشيّدة بالإسمنت والخشب إلى عمائر شاهقة ومتينة، وتحسّن مستوى الخدمات مع ازدياد مَواطن التّرفيه، ليصبح مخيّم اليرموك أكبر تجمّع فلسطينيّ خارج تراب الوطن.. لكنّه مع ذلك مازال يحتفظ بمسمّى «المخيّم»، مع أنّه لم يعرف قطّ مرحلة «الخيام».

كان مخيّم اليرموك بالنّسبة إلى أبي الحسن وأهله بمثابة وطن مؤقّت. كانت فلسطين حاضرة في أرجاء المخيّم لا بمواطنيها وحسب، بل بمدنها ومعالمها وكلّ تفاصيلها. هذه الجليل والقدس وغزّة ويافا والمنصورة وحيفا واللدّ وصفّوريّة ودير ياسين.. كلّها من حولهم في أسماء الشّوارع والأزقّة والمدارس والدّكاكين! وهي أيضا تلازم أعناق الفتيات، بسلاسل ذهبيّة تتدلّى منها خارطة فلسطين الذهبيّة أو مفتاح العودة.. مفاتيح لامعة مرصّعة بالجواهر، لا معدنيّة صدئة مثل حلية آية الأصليّة. وهي هناك أيضا، في الأناشيد والحكايات، وصور الشّهداء التي تزيّن واجهات المباني والمحلّات. لكن حين كان عمر يمشي في الشّوارع، كانت تطرق أذنيه لهجات مختلفة، تختلط باللّهجة الفلسطينيّة.. اللهجة الشّاميّة ولهجات مدن سوريّة أخرى، وحتّى اللّهجة العراقيّة.

إبّان وصوله، كانت غرفة الضّيافة تجمع شابّين يصغرانه سنّا، وليد طالب في جامعة دمشق، وياسين الذي يساعد أبا الحسن في تدريب فرق الأطفال بقاعة الرياضات القتالية. لم يكن عمر يميل إلى الثرثرة، لكنّه لا يأنف الاستماع. وكان الشّابان يتحدّثان كثيرًا إليه في المساءات الشتويّة الطّويلة.

– أهلي من طبريا، لكنّ أصلنا جزائري، مغاربة يعني!

يبتسم وليد في تواطؤ تجاه عمر وهما يرتشفان الشّاي السّاخن ويتدفآن قرب موقد الغاز، مثمّنا انتماءهما المشترك إلى المغرب العربيّ.

– كانوا ممن نفاهم الفرنسيون مع عبد القادر الجزائريّ. كان جدّي من الذين غادروا في اتّجاه فلسطين.. سكنوا بمنطقة المعذر بطبريا.. وما زالت إلى حدّ الآن تسمّى «حي المغاربة»، مثل حيّ المغاربة بالقدس.. وحتى هنا في المخيم، يوجد حيّ اسمه حيّ المغاربة. سآخذك إلى زيارته إذا شئت...

يمضي وليد معظم ساعات يومه في الجامعة، في حين يستيقظ ياسين متأخرا، يفطر عند العاشرة، ثمّ ينصرف إلى قاعة الرّياضة. يستغرق ساعات ينظّف الأرضيّة ويلمّع المرايا، يشطف الحمّامات ويمسح الغبار والعرق عن أدوات التّدريب، قبل أن تبدأ الحصص المسائيّة غالبا. كان أوّلهما جادّا، أقرب إلى عمر في طبعه، يبدو عليه الوقار والرّزانة رغم سنواته التي لم تتجاوز الثلاثة والعشرين. أمّا ياسين فهو أكثر مرحًا

وانطلاقا، وفي لهوه خشونة تأثّرًا بنشاطه الرّياضيّ الكثيف. يبدو طفلا كبيرًا وهو الذي تجاوز الخامسة والعشرين منذ وقت قريب.

أمّا عمر، فقد كان جدول يومه مضبوطا حسب تعليمات مضيّفه أبي الحسن، بين تريّض البدن والعقل، بناء على اتّفاق مسبق مع شقيقه عزّام الذي أنبأه بسرّ زيارة عمر.

حين غادر باريس، لم يكن يُضمر الغياب أكثر من أسبوعين، زمن المخيّم الشّتويّ. لكنّ وصوله مبكّرًا مكّنه من وقت خاصّ مع مضيّفه، وقد قرّر أن يستفيد من تلك الصّحبة أقصى إفادة. وقد كان أوّل ما عهد به إليه مكتبته الزّاخرة بشتّى العناوين المغرية. كان يقضي ساعات في القراءة، وأخرى في مناقشة أبي الحسن فيما قرأ. تتنوّع المطالعات بين الفقه والحديث والتّاريخ والسّياسة، وكلّما ناقشه، ألفاه ملمّا مطّلعًا، لا يكتفي بمجرّد العلم بالشّيء، بل يبني رؤيته الشّخصيّة تجاهه.

كان عمر يحسب نفسه مثقّفا فيما مضى، لكنّ الرّجل كان «موسوعة متنقّلة». لكنّ أجمل أوقات يومه كانت حين يجمعهما حديث حميم، «من القلب إلى القلب»، فيفضي إليه الرّجل بذكرياته وتاريخ عائلته، كما عاشه أو سمع عنه من الآباء والأجداد والمقرّبين. يحدّثه عن فلسطين ما قبل النّكبة، عن عادات أهلها، وأسلوب حياتهم، عن فلسطين التي لا يعرفها أحد! يتحدّث في تأثّر عن البطولات التي وصلته في روايات، مثل أساطير ترويها الجدّات لأحفادهنّ قبل النّوم.

– فلسطين ليست غزّة والضفّة! فلسطين التي أخذها الاحتلال الإسرائيليّ، لا تشبه ما نراه على شاشة التلفاز. فلسطين الحقيقيّة تعيش فقط في الذاكرة الشعبيّة، مثل حلم خياليّ بعيد المنال!

يومئ عمر متفهّما. ليس الخبر كالمعاينة.. وليست المعاينة كالتّجربة الذّاتيّة. ومن أجل ذلك جاء إلى مخيّم اليرموك. إنّ الكتب لم تكن لتحدّثه عن فلسطين بنفس الدّقة والأمانة التي يقرؤها في وجوه المحيطين به.

ثم يسترسل أبو الحسن يحدّثه عن قريته:

– أنتمي إلى قرية «لوبية» وهي تقع في الشّمال الفلسطينيّ. لم يهاجر جدّي قطّ، ولبث في بيته وأراضيه. لكنّ والديّ اختارا الهجرة أيّام النكسة.. كنت في الرّابعة من عمري حين تركنا القرية. عزّام لم يكن يتجاوز الثّانية. أمّي كانت مؤرخة بالنّسبة إليّ، أشعر حين أسترجع كلماتها أنّني أرى بلدتنا رؤية العين.. لديّ صورة واضحة عنها.. من حكاياتها، فيهيّأ إليّ أحيانا أنّها ذكريات حقيقيّة...

يصف له بدقّة القرية وتفاصيلها، الجامع والمدرسة، البئر والحمار والمواشي. كانت البيوت كلّها صفّا واحدًا، بلا طوابق، وفي المدخل قوس مرتفع، وبداخل الغرف موقد للخبز. حتّى الأغنام كانت تشارك أهل الدّار معيشتهم داخل البيت. وكان اليهود موجودين في ذلك الوقت في الأراضي القريبة – قبل أن يبدأ النزوح الكبير لليهود إلى فلسطين – لكنّهم مسالمون، لا يختلفون في شيء عن المسيحيّين، بينهم تعايش وتعاون في المواسم الفلاحيّة.. وكانت العائلات الموسرة ترسل أبناءها للدّراسة بالقدس وحيفا.

ثمّ يصل إلى يوم النّكسة. يروي له قصّة رهط من الجنود، رفضوا الانسحاب فلبثوا هائمين في البراري لأسابيع، يقاومون بما أوتوا من جهد وعزيمة، حتّى سقطوا شهداء قرب «لوبية»، فدفنهم أهل القرية.

إن كان للصّمود شكل في ذاكرته الغضّة، فهو شكل كومة التّراب النديّ التي دفن تحتها الجنود البواسل ونمت حولها شتلات طفيليّة يانعة.

***

بعد أسبوعين، وصلت نحو دستة من الشّبان من أجل المخيّم الشتويّ، وامتلأت بهم دار الضّيافة. كانت أعمارهم تتراوح بين الثامنة عشر والسّابعة والعشرين. فلسطينيّون، بعضهم من المخيم والبعض الآخر يعيش في المهجر، يغتنمون فرصة إجازة منتصف السّنة، لربط عرى المودّة مع تاريخهم وقضيّتهم.. فامتلأت الدّار بهم حياة.

لكنّ مجيئهم تزامن مع العدوان على غزّة الذي اندلع ذات سبت في أواخر شهر ديسمبر ٢٠٠٨. ألقت الطّائرات الإسرائيليّة أكثر من مائة طنّ من القنابل على تلك البقعة الضّئيلة من الشريط السّاحليّ المطلّ على البحر المتوسّط، فردّت المقاومة بما في حوزتها من صواريخ بدائيّة. استمرّ القصف لثلاثة أسابيع طويلة، وكانت شوارع المخيّم

تغلي ليلا ونهارًا في أحاديث متّقدة عن الحرب ومآلها. بين أخبار تساقط الشّهداء، وبيانات التّنديد على ألسنة محترفي السّياسة وتحليلات المختصّين في المنصّات التّلفزيّة، لم يكن عمر يجد ملاذًا من الألم والغضب إلا في برنامج المخيّم المزدحم.

بين التّدريبات البدنيّة، والحوارات الدّينيّة والتّاريخيّة، وتدارس القرآن الكريم، كانت تمضي سحابة يومه مع شباب المخيّم. على الفور، أبهره مستوى التزام الشّباب وإقبالهم على الفنون القتاليّة منذ سنّ يافعة ودرجات إتقانهم لها. لكنّ أشدّ ما أثار غيرته هو تسابقهم في حفظ القرآن الكريم. كان حفظه متقطّعا حتّى ذلك الوقت. ينسى كلّ مرّة ويعيد من البداية. قد حفظ الكثير في فترة سجنه، لكنّ حاله النّفسيّة لم تكن تساعده على التّركيز المستمرّ. لذلك اتّخذ قرارًا صارمًا بأنّه لن ينقطع هذه المرّة حتّى يفرغ من الحفظ تمامًا.

كان الانقسام الفلسطينيّ إلى فصائل متناحرة في الدّاخل، ينعكس بوضوح في مواقف الموالين في الخارج. وقد كان الشّباب ينتمون إلى مشارب متباينة، رغم إيمانهم جميعًا بفلسطين حرّة وأبيّة. فإذا انزلقت الحوارات في مسارات السّياسة، ارتفعت الأصوات وبحّت الحناجر، دفاعًا عن هذا الفصيل أو ذاك.. فكان أبو الحسن يقف موقفًا حازما بين المتخاصمين، يصرخ فيهم بقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: دعوها فإنّها منتنة!

كان البرنامج كثيفًا وصارمًا، لكنّه لا يخلو من فسحات المرح والدّعابة، رغم وطأة الحرب القريبة البعيدة. ولا شكّ أنّ الجلسة الأمتع كانت ما يسمّى «نار المخيّم»، حين يجتمعون حول نار موقد الحطب في الفناء المكشوف خلف الدّار، يتسامرون، يلقون النّكات، ينشدون ويتنافسون في مسابقات ثقافيّة، يتناسون خلافاتهم الدّاخليّة، بعد نقاشات حامية الوطيس.

ثمّ ينهض أحدهم لينشد في حماس النّشيد الوطنيّ الفلسطينيّ، فيردّد الآخرون خلفه بنسق حارّ ملتهب، ينسجمون من جديد وترتفع الأكفّ في الهواء:

فدائي فدائي فدائي

يا أرضي يا أرض الجدود

بعصف الرّياح ونار السّلاح

وإصرار شعبي لخوض الكفاح

فلسطين داري فلسطين ناري

فلسطين ثاري وأرض الصمود

وكان عمر يجتهد لالتقاط كلمات الأناشيد التي تتكرّر على مسامعه في مناسبات مختلفة، وما لبث أن صار يردّدها معهم بنفس الحماسة والنّفس الثوريّ المتّقد. لم تكن مجرّد أناشيد بالنّسبة إلى أيّ منهم، بل تجديد عهد مع الوطن السّليب وحفظا لذكرى الشّهداء الذين دفعوا حيواتهم في سبيل الحرّيّة.

وحين حانت ساعة الرّحيل، صافحهم أبو الحسن واحدًا واحدًا بقوّة وشجن، وتعاهدوا على لقاء قريب في المخيّم الصّيفيّ. كانت العيون دامعة، تلتحم الأجساد ثمّ تتباعد لتترسّب حرارة الأحضان تدفّئ القلوب التي يحزّ فيها الفراق. ثمّ خلت الدّار من الضّيوف العابرين، ولم يتبقّ إلّا سكّانها الأصليّون، بالإضافة إلى عمر.

– عسى أن يعودوا في الصّيف!

بدت الحسرة في عيني أبي الحسن، وعكست الوحشة التي سكنت قلبه بعد انفضاض الجمع. أفضى إلى عمر، في خلوة:

– عددهم يتناقص كلّ سنة. أخوان كانا يحضران كلّ عام معًا، جاء أحدهما وغاب الآخر. أخبرني شقيقه في خجل أنّه لم يعد يهتمّ.. إنّهم يعيشون في بريطانيا. الأخ الأكبر، يخاصم عائلته منذ شهور.. يودّ الارتباط بزميلة بريطانيّة له في الجامعة! إنّهم يتغرّبون تدريجيّا عن هويّتهم وتاريخهم، يصبح بعضهم مسخًا لا يدرك لنفسه غاية ولا قضيّة.. ونحن نحاول أن نبقيهم في حضن جماعتنا، مرتبطين بأصولهم واعين بمسؤوليّتهم التّاريخيّة!

***

في ذلك المساء، جمعت الجلسة أبا الحسن بضيوفه الدّائمين، الشيخ حازم، مؤدّب الكتّاب، ومحمّد خبّاز الحيّ، بالإضافة إلى الشّباب الثلاثة، عمر ووليد وياسين. قال أبو الحسن وقد هيّج فراق شباب المخيّم حنينه إلى الذّكريات:

– أهلنا الذين ظلّوا في مخيّمات الدّاخل، لم نرهم منذ الرّحيل.. لكنّ عزّام التقى جدّي سنة ٨٩، كان لقاءً تاريخيّا، في مكّة! ذهب إلى الحجّ ذاك العام، وهناك بحث عن وفد الحجّاج الفلسطينيّين الذين كان جدّي من بينهم. أنت تعرف، الفلسطينيّون يمنحون جوازات سفر أردنيّة –مرّة واحدة– من أجل الحجّ والعمرة.

سأل عمر في دهشة:

– وهل هناك مخيّمات في الدّاخل؟

ضحك أبو الحسن في مرارة:

– نعم! حين هُجّر النّاس من مدنهم وقراهم، بعضهم ربض في الخلاء ورفض ترك البلاد.. فقامت المخيّمات خارجها. النكبة والنكسة قسّمتا فلسطين.. ما يعرف اليوم بالضفة الغربية متمثلاً بقضاء نابلس وطولكرم وجنين ورام الله وبيت لحم والخليل – وسنترك القدس جانبًا– هم الفلسطينيون الذين يعرفهم العالم! ولكن هناك فلسطينيون في الدّاخل.. في تلك الأرض التي سقطت في ١٩٤٨ ويحملون الجنسية الإسرائيلية طوعًا أو كرها! ولربما التقيت بأحدهم في فرنسا.. وقد تجد بعضهم إسرائيليًا صرفًا.. بينما ما زال بعضهم مسلمًا صادقا.. يمزقه التاريخ والهوية! ولكنّه يعلم أنّه فلسطيني!

تكلّم الشيخ حازم بنبرة مرّة وقاسية. كان عمر يشعر بخيبته وغضبه:

– أنا عشت في لبنان، من ٧٧ إلى ٨٦.. هذه الإصابة، وهذه، وهذه.. كلها تشهد!

أخذ يشير إلى مواضع الجراح في جسده تحت النظرات الفضوليّة المتطلعة.

– معي شهادة جريح حرب، ومعي ميداليات من الحرب وأخرى من جيش التحرير الفلسطيني.. لكنّني لم أكن قطّ راضيا عن هذه الحرب! كانت نفسيتي وقتها متعبة لأننا لم نكن نعرف من عدوّنا! من عدوّنا؟ نحن جئنا لحماية المخيمات، فقيل لنا اتّجهوا إلى منطقة معينة.. قالوا هذا خط تماس وهذا عدوّك، أين عدوّي؟ كل هذا النّضال وهذه العلامات الشّائهة على جسمي بلا جدوى!

ثمّ أضاف بلهجة حاسمة:

– عدوي الوحيد هو إسرائيل! هذا عدوي! أهل البلاد الواحدة، يتشابكون، يتقاتلون، هذا عربي مسلم وهذا عربي مسلم. كيف أرفع سلاحي على أخي هذا، وبعد أسبوع أو أسبوعين، تتصالح الحكومات ونمشي بنفس الشارع! إذن هذا ليس عدوي، هذه فتنة! فتنة داخلية، لشق وشرذمة الوطن العربي كله، لشق لبنان، لشق فلسطين، لشق سوريا، فتنة من الداخل.. لكنّها تموّل من الخارج، هذا شأن معروف! لقد خاب أملي بالأنظمة العربية كلها.

سكت برهة، ثمّ واصل في تحامل:

– في سنة ٨٢، كان أملنا كبيرًا، أن تتحرّر لبنان ونعود إلى أراضينا، لكنّ الخونة لم يدعوا لنا مجالا! أنا أتحمل مسؤولية كلامي هذا وأعنيه تمامًا.. منذ الـ ٤٨ إلى اليوم والكلّ يتآمر على الشعب الفلسطيني! أقولها بكلّ شفافيّة، أريد الرّجوع إلى بلدتي «عين غزال».. لو سمحوا لي بخيمة بعين غزال، فلن أتردّد في الذّهاب!

يؤمّنون على قوله بهزّات من رؤوسهم. حلم الوطن في داخل كلّ منهم يتغذّى على تلك الأحاديث الرثائيّة بين بكاء على الأطلال وسرد للوقائع التّاريخيّة. تظهر نظرة شجن وحنين في عيني الشيخ حازم وهو يرنو إلى البعيد ويقول:

– بلدنا جميل، ومناخه بديع، وطبيعته ساحرة! ومصير كلّ مسافر أن يعود إلى وطنه.. والاحتلال إلى زوال!

قال عبارته الأخيرة بيقين بالغ، شعر عمر في قرارة نفسه أنّ تلك الحقيقة لا بدّ أن تحدث يومًا. يرفع الشيخ أصابعه مفتوحة كأنّ بيده كرة وهميّة، ثمّ يردف في فخر:

– التفّاحة في أرضنا بهذا الحجم! التفاح هنا أقرب إلى الخوخ.. أم لعلّ التفاح الفلسطيني أكبر بكثير! والبرتقال، هل رأيت البرتقال الذين يبيعونه في السّوق؟ إنّهم لا يعرفون أنّ هذا البرتقال كنّا نطعمه للدّوابّ! برتقالنا أكبر وأشهى...

تكلّم محمّد بعد ذلك:

– ليست هناك عائلة فلسطينيّة إلا وقد فقدت شهيدين أو ثلاثة.. وقد كان كلّ طموحي حين كنت شابّا أن ألبس حزامًا ناسفًا وأفجّر نفسي وسطهم! لكنّني الآن صرفت النظر، وأصبحت أؤمن بالتّكتيك السيّاسي...

قاطعه الشّيخ حازم باستنكار:

– ما الذي أفضت إليه المفاوضات؟ إنّهم يتفاوضون منذ عقود، وكلّما تفاوضوا تنازلوا أكثر.. وازداد موقف الاحتلال قوّة!

تابع محمّد، كأنّ كلمات الشيخ لا تعنيه:

– العمليّات الاستشهاديّة لا تكفي.. حلمي أن أتسلّل إلى عقولهم، بطريقة ما.. وأخرّبها من الدّاخل.. أريد أن أرى مجتمعهم مدمّرا، مشتّتا، بلا ثقة ولا وجهة! الحرب لن تمكّننا من نتيجة، إذا مضينا في طريق المقاومة المسلّحة، فنحن خاسرون لسببين.. نحن لا نمتلك سلاحًا بقوّة سلاحهم، وقياديونا لا يمتلكون دهاء قيادييهم! هذا عدوّ

غادر، لا قدرة لنا على مجابهته في ساحة المعركة.. لذلك وجب أن تكون المعركة بين العقول. أن نستنبط طرقًا أخرى للمقاومة!

أضاف في مرارة:

– إذا قاتلنا، شعبنا بالدّاخل سيدفع الثّمن.. سيجوع، وتقصف بيوته، تنقطع عنه الكهرباء.. لذلك يجب أن نفاوض.. وبنفس الوقت أنا واعٍ، يعني حين أسلم العدوّ أسيرًا واحدًا، آخذ ألف سجين من مجاهدينا داخل سجون الاحتلال.. هذا هو الدّهاء، وهكذا تكون الحرب الخديعة!

أطلق ضحكة ساخرة ثمّ قال:

– لا أدري لماذا يفاوضون على رفات الشّهداء؟ دعوهم يدفنون في وطنهم! لقد حرمنا منه أحياء، فلينعموا بترابه ميّتين على الأقل! لماذا نسترجع شهداءنا عظاما، ونتركهم يتوسّعون أكثر وأكثر في أراضينا؟ سياسيّونا أغبياء، ألم أقل لك؟

تنهّد أبو الحسن ثمّ أردف بلهجة حزينة:

– لقد تحوّل المشروع الفلسطينيّ من مشروع تحرير وعودة إلى الوطن، إلى مشروع دولة فلسطينيّة على جزء من الأرض. لقد صار اللّاجئون خارج فلسطين نسيًا منسيًا.. لم يعد هناك من يهتمّ لقضيّتهم، أو يضع لها اعتبارًا.. أصبح الهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بعيدًا عن التصوّر المثاليّ الذي غذّيناه داخلنا لسنوات، باستعادة بيوتنا وحقولنا وتعمير مدننا من جديد. إنّهم ينكرون علينا حتّى الحلم!

ترتفع الأصوات ويحتدم الجدال. يدافع محمّد عن حقوق المواطنة والوحدة الوطنيّة والجنسيّة، بينما يرفع الشيخ حازم كفّه بحركة حاسمة معلنًا ألّا سبيل غير الجهاد المسلّح. بينهما، يحافظ أبو الحسن على هدوئه، ويتفهّم هذا وذاك. كان يراهن على الشّباب، فيقول مبتسمًا وهو يشير باتّجاه وليد وياسين:

– لقد ولّى زماننا، والحلّ بيد الشّباب.. والمستقبل سيكون لهم! ما بقي علينا الآن هو أن نضمن وعيهم بالقضيّة، ومعرفتهم بالتّاريخ الحقيقيّ.. تلك مهمّتنا.

يلمح عمر الحرج على سحنتي الشّابّين، ويستشعر ثقل المسؤوليّة على عاتقيهما. هناك مساحة هائلة يصعب اجتيازها على أيّ شابّ فلسطينيّ، يريد أن يحيا حياة عاديّة وطبيعيّة، حتّى يكون في مستوى الآمال المعقودة عليه. من المشروع له أن يدخل الجامعة، يتخرّج ويجد عملا، يتزوّج وينجب أطفالا. لكنّ تلك الطّموحات العالية بالمقاومة والتّحرير لم تكن نابعة بالضّرورة من داخله الصّميم. لقد ولد كلاهما في هذا المخيّم أو غيره، ولم يعرف «النّكبة» أو «النّكسة» إلّا من حكايات «الختيارة»، كبار العائلة. وما يجتهد أبو الحسن من أجله ويستميت، هو ألّا تبقى تلك الحكايات مجرّد قصص تُروى. ذلك التّاريخ، وتلك المأساة، كان يجب أن تكون جزءًا أصيلا من وجدان كلّ فلسطينيّ، وإلا.. ضاعت فلسطين إلى الأبد.

– إذا أردنا أن نحرّر فلسطين، فيجب أن نحبّ بعضنا بعضًا أوّلا!

يشير الشيخ حازم بسخريته المعهودة إلى الشّقاق القديم المتجدّد بين الفصائل الفلسطينيّة.

– العدو الإسرائيليّ إذا أطلق قنبلة، فلن يوجهّها إلى فصيل دون آخر.. القنبلة لا تميّز، وسيموت الكلّ! هل تعلم ما هو أملي بالحياة؟ أن أعيش حتّى أرى الشعب الفلسطيني موحّدا تحت راية واحدة!

حين انفرد الشباب في الغرفة ذلك المساء، قال وليد معترفًا:

– أنا أدرس القانون الدّولي لهدف واحد.. أن أدافع عن القضيّة الفلسطينيّة بالمحافل الدّوليّة! أنا كطالب فلسطينيّ، أدرس لخدمة قضيّتي.. ومن المعروف أنّ تحصيل الطلبة الفلسطينيّين أعلى من تحصيل الطّلبة السوريّين! لذلك نهتمّ بإقامة حفلات في المخيّم لتكريم الطالب المتفوّق، لأنّه يناضل على ساحته، وبطريقته.. لا اختلاف بينه وبين من يناضل بالسّلاح...

لم يكن وليد مختلفًا عن معظم فلسطينيّي المهجر. تشكل وعيه طفلا من قصص تروى عن وعد بلفور والنكبة وجيوش الإنقاذ والنكسة والثورة، فيلازمه دون وعي منه هاجس اللجوء والبحث عن الوطن والحرية، ويمضي عمره في العمل والبحث عن الطريق إلى فلسطين.

– منذ صغرنا، كانت لعبتنا المفضّلة: عرب ويهود! نلعب بعصا خشبيّة تمثّل البنادق، ونرسم خارطة فلسطين على سواعدنا وكفوف أيدينا.. يمثّل أحدنا دور الفدائيّ، ويكون الآخرون اليهود. يقول: موتوا! فننبطح على الأرض فورًا! تبدو المعركة سهلة في لعبنا الطّفولي...

لمح عمر نظرة غائمة في عيني ياسين الذي يتابع الحديث في صمت على غير عادته. كان قد ترك مقاعد الدّراسة في وقت مبكّر، واختار مسار الرّياضة. قال أخيرًا في شيء من الضّيق:

– أنا أعيش حياتي في سوريا بشكل جيّد.. لكنّ المشكلة عندي بالسّفر. أريد أن أكتشف العالم، أن أذهب إلى العمرة.. والمشكلة الثانية بحقّ الانتخاب! أتمنّى أن أمسك بين يديّ جواز سفر، وبطاقة انتخاب. لعلّ مفهوم المواطنة يختلف من شخص إلى آخر، لكنّ مواطنتي مجروحة.. هكذا أشعر. وهذا ينغّص حياتي.. أنّني لا أستطيع التّعبير عن رأيي بشكل واضح وصريح.. أنّني لاجئ وأسير. هناك من لا يهمّه الأمر، أولويّاته مختلفة. لكنّ هذا يجعلني لا أنسى، ويبقيني مرتبطًا بالقضيّة رغمًا عنّي!

يشير إلى كتاب عمر على الطاولة المنخفضة ويتابع:

– إذا أخذت منك كتابك هذا غصبًا وعدوانًا، فإنّك ستظلّ تفكّر طيلة الوقت بطريقة لاسترجاعه.. قد تحاول بالقوّة، وقد تفعل بالعقل. لكن ماذا إن كنت عاجزًا، لا بوسعك حلّ سلميّ ولا بيدك قوّة؟ ستنزل دموعك لا إراديّا، لا خوفًا.. بل عجزًا وقهرًا! هذا هو الأمر بالنّسبة إليّ.. إنّها مجرّد وثائق. لكنّني محروم منها!

كانت العبرات تنهمر على وجهه في ألم. وكان عمر يتماهى كليّا مع مشاعره الشفّافة.

لقد عرف كيف يكون العجز، وقد قرّر ألّا يعرفه بعد ذلك أبدًا.

تمنّى بإخلاص أن يجد ياسين طريقًا خارج الشّرنقة، فإحساس الحبس داخلها شاقّ وبغيض.

***

كانت فترة إقامته في المخيّم فرصة مواتية ليتأمّل ويتدبّر. تلك الشّهادات الحيّة التي جمعها من المحيطين به كانت تدفع به دفعًا نحو الخطوة التّالية.

كانت عليه زيارة فلسطين!

لن تكتمل الصّورة في ذهنه إلّا بوطء تراب الأرض المغتصبة، وملامسة أكفّ أهلها الصّامدين. كان يقترب تدريجيّا من الالتحام بتلك القضيّة التي أصبحت تسكنه وتشغل عقله ووجدانه، ولم تزده حكايات أبي الحسن والشّيخ حازم إلّا شوقًا.

حتّى جاء ذلك اليوم. دخل على أبي الحسن في مكتبه بقاعة الألعاب، وقال بلهجة حازمة:

– أريد زيارة فلسطين. هل يمكنك مساعدتي؟

لم تبد الدّهشة ولا الاستغراب على ملامح الرّجل. قال بعد صمت قصير:

– أمهلني بعض الوقت. سأتدبّر الأمر.

لكنّ « بعض الوقت» استمرّ شهورًا طويلة. كان عمر يدرك صعوبة الدّخول إلى الأراضي المحتلّة والمحاصرة، وأبو الحسن لم يبخل عليه بالشّرح. لقد اختلف الوضع بعد الانتفاضة الثانية، وازداد سوءًا بعد حصار غزّة.

لكنّه تشبّث بالأمل.

لم يعد الأمر مجرّد مجاراة لآية وخالها. إنّ الفترة التي أمضاها في المخيّم كانت أكثر من ملهمة. كان قريبًا من إيجاد «الهدف» الذي سأل الله أن يرزقه إيّاه بعد الحادثة. رويدًا رويدًا، كانت الفكرة تتبلور في رأسه وتتّضح. كانت يبيت لياليه يتخيّل ويرسم تفاصيل المرحلة المقبلة. حين ينتهي من تلك الرّحلة، ستكون الصورة قد اكتملت.

وكان أبو الحسن عند وعده. تدبّر الأمر. كان الزّمن صيفًا، حين دخل متهلّل الأسارير، وبكفّه وثائق ما. قال بابتسامة دهاء:

– بطاقتك المهنيّة الجديدة.. صحفيّ!

كانت قافلة إغاثة دوليّة تدخل غزّة خلال أسبوعين، مرورًا بمصر. وكان عليه الالتحاق بها كصحفيّ مغربيّ، دون أن يزوّر هويّته. قال أبو الحسن موضّحا:

– الإسرائيليّون يطلبون قائمة اسميّة بكلّ أعضاء القافلة بشكل مسبق. دون وظيفة واضحة، لن يمكنك العبور. لكن لا تخش شيئا.. إنّهم لا يختمون جوازات السّفر العربيّة عند معبر رفح.

لم يفته ذلك قطّ. كان يعلم أنّ دخول غزّة يعني المرور عبر النّقاط الحدوديّة التي تشرف عليها السلطة الإسرائيليّة. الدّخول جوًّا عبر المطارات الدّوليّة يعني ختم جوازه من قبل اليهود.. وصمة العار تلك قد تتسبّب في رفض دخوله إلى عدد من الدّول العربيّة والمسلمة فيما بعد. لذلك كان الولوج من المعابر المخصّصة للفلسطينيّين أأمن.

خلال أيّام، كان قد استجمع شتاته المبعثر في أركان المخيّم واستعدّ لإقلاع وشيك نحو القاهرة. هنا امتصّت روحه عبق الحريّة وتخلّصت من أدران العجز التي كانت

تكبّلها. مثلما انتصرت غزّة الأبيّة في حرب غير متكافئة مع العدو المحتلّ، انتصر عمر على مخاوفه القديمة.

قبل رحيله، صافح عمر أبا الحسن بقوّة، يشكره على التّجربة الفريدة التي وهبته إيّاها رحلة المخيّم، ثمّ أخرج من حقيبته ظرفًا مكتنزًا. طالع صاحبه الظرف وفي عينيه نظرة تساؤل وحيرة، فقال عمر في غموض:

– أعرض عليك كفالة نشاط المخيّم!

– كفالة؟

– في الغرب، يعتمدون كثيرًا على «الرّعاة». غالبًا ما ترعى الشّركات الكبرى الأنشطة التطوعيّة والمبادرات الشّابة. وأنا أودّ أن أكفل هذا المخيّم الفريد، حتّى ينالني شيء من الأجر والثّواب...

كان قد لاحظ تساقط طلاء قاعة الرّياضة، واهتراء معدّاتها التي تركت عليها السّنون أثرها. يدرك أنّ أبا الحسن يصرف من جيبه حرصًا على قضيّته التي يؤمن بها.. وهو لم يكن يرجو إلّا أن يقاسمه ذاك الحرص.

عانق وليدًا وياسين بحرارة مودّعا، فجاءت أمّ محمّد الخبّاز مهرولة وفي عينيها تلتمع عبرات نديّة تأبى الهطول. قالت في تأثّر:

– هل أنت ذاهب إلى فلسطين يا ولدي؟

أومأ مبتسمًا، فهتفت على الفور في لهفة:

– هلّا حملت إليّ قبضة من تراب قريتنا في رام الله، في زيارتك المقبلة؟

كانت أمّ محمّد قد غادرت بلدة «صوريف» إبّان النّكبة الأولى، وعمرها لا يزيد على السّنوات العشر. وصفت له البيت بدقّة، كما تحفظ تضاريس المكان في ذاكرتها. ربّما تتلوّن الذاكرة وتخونها، فتكمل الصّورة الذهنيّة بمعالم رأتها على التلفاز، لقرى أخرى مهجّرة.. فتتماهى الصّور في مخيّلتها حتّى تحسبها واحدة. تقول في ثقة:

– البيت في أعلى التلّة، إلى جوار بيت أبو صالح.. اسأل أيّا كان عنه، الجميع يعرفه. أمام البيت زيتونة كبيرة. لا تنسَ، في المرّة القادمة.. أحضر معك التّراب!

ابتسم عمر في مرارة وأطرق في حرج، ثمّ تطلّع إلى الصّورة التي بين يدي السيّدة السبعينيّة. صورة قديمة مهترئة هي كلّ ما تبقّى من البيت الذي تعتقد أنّه ما زال يقف هناك شامخًا فوق التلّة يترقّب عودتها. تتحدّث بإسهاب عن «الوطن»، وعن رائحة ترابه المميّزة. وإذ إنّ أملها في العودة بعد تلك العقود الطويلة قد غدا مستحيلا، تبتكر أمّ محمّد طريقة مدهشة للعودة.. فتوصي أبناءها بنثر التّراب الذي سيحضره عمر من القرية على قبرها!

عاهدها على العودة، وبحوزته التّراب العزيز. لم يدر كيف يمكنه الوصول إلى البلدة بعينها، لكنّه سيفعل بشكل ما.

-٢٢-

مرّت أشهر الرّبيع بسرعة خاطفة، مثل سحب عابرة نفخت فيها ريح عاصف بدّدتها، لتبزغ الشّمس الدّافئة. استقبلت رنيم حلول شهر يونيو بمزاج أكثر استرخاءً. عملت بنصيحة ياسمين ووضعت النّقاط على الحروف في علاقتها بشهاب.

حدّدت الخطوط الحمراء: لا يمكنها الاستغناء عن عملها في شركة المحاماة الباريسيّة وبرنامج الحقيقة الكاملة! لم تكن تقول جديدًا، منذ عرفها، يدرك شهاب مدى تعلّقها بمسيرتها المهنيّة الواعدة. لكنّ العودة إلى باريس لم تعد متاحة بالنّسبة إليه. لم يكن من اليسير الحصول على وظيفة دائمة.. وعليه أن يترقّب فرصة زيارة خارجيّة قد تحين وقد لا تحين!

اتّفقا على قضاء أسبوع معا كلّ شهر. تسافر هي إلى القاهرة، أو يأتيها هو إلى باريس. ينسّقان ويوزّعان إجازاتهما السّنويّة، بالإضافة إلى ترتيب العمل عن بعد حين يكون ممكنًا، أو الإجازات بدون راتب إن تطلّب الأمر. كان ذلك الخطّ الأحمر الخاصّ بشهاب. ووافقت رنيم دون تردّد. ستّة أسابيع في السّنة عليها، وستّة عليه. بوسعها تدبّر أمر ذلك!

كانت الشقة في حال من الفوضى في تلك الأيّام. أنهت رانيا اختبارات نهاية السّنة، وانهمكتا في التّحضير للزّفاف المرتقب. الفساتين و«لأكسسوارات» والأحذية، بالإضافة إلى الهدايا لأفراد العائلة كانت تملأ الحقائب وتفيض منها على الأرض.

كانت صحّة سكينة في تحسّن مستمرّ. دأبت تحضر حصص إعادة التّأهيل لاسترداد طاقة رئتيها، حتّى غدا تنفّسها منتظمًا. مضت فترة طويلة مذ فاجأتها نوبة ضيق تنفّس تقطع عنها الهواء.

لم يحضر جاسر للقائها أبدًا. منذ زيارته الغريبة قبل استفاقتها من التّخدير، لم يحاول أحدهما الدنوّ من مساحة الآخر. كانت تهوّن على نفسها وتقول.. سيأتي. حين يكون مستعدّا سيأتي حتمًا. كان مهتمّا بتقصّي أخبار شقيقته. حملت إليه رانيا الإجابات التي لديها، وهي لم تكن بالشّيء الكثير. اسم عائلتها الحاضنة: «دينيس»، وعنوانها القديم الذي منعت من الاقتراب منه بعد محاولة الاختطاف الفاشلة! كان ذلك كلّ ما لديها.

وكانت تعرف كلّ شيء عنه. تقدّم لها رانيا تقريرًا يوميّا عن نشاطاته واختباراته وعاداته وأصدقائه.. تتابعه عن بعد، دون أن تقتحم مجاله الشّخصيّ. بعد سفر الأختين، ستفتقد الصّحبة المؤنسة ونشرة الأخبار اليوميّة!

– الغداء جاهز.. تعاليا!

خرجت رانيا أوّلا. جلست قبالة سكينة وملأت طبقها. قالت في تذمّر:

– أنت واثقة أنّك لا ترغبين في المجيء؟

ابتسمت سكينة وقالت برفق:

– أشعر أنّ حضوري لن يكون مناسبًا.

قالت رنيم وهي تنضمّ إليهما:

– إذا غيّرت رأيك، فاعلمي أنّ كلّ شيء سيكون جاهزًا من أجلك.. تذكرة السّفر والإقامة في الفندق الذي يقام فيه الحفل.

رنّ هاتف رنيم ليقاطع الوجبة. كانت ياسمين.

– أشرفت على الوصول!

– ننتظرك إذن للغداء.

حفل انتهاء عزوبيّة آخر، وافتراق مرتقب لفترة الإجازة. لم تستطع ياسمين إقناع هيثم بالسّفر إلى القاهرة لحضور حفل زفاف رنيم. منذ البداية، كان هناك عدم ارتياح متبادل بين هيثم ورنيم.. منذ حادثة رذاذ الفلفل! تعلم أنّ تحفّظاته على رنيم كثيرة. لكنّه لم يحاول يومًا إبعادها عنها. راوغ حين قال بلهجة قاطعة:

– ظروفنا المادّيّة لا تسمح بتحمّل نفقات السّفر!

كانت رنيم قد عرضت – كما فعلت مع سكينة – أن تتحمّل نفقات استضافتهم جميعًا. لكنّ ذلك كان غير واردٍ بتاتًا بالنّسبة إلى هيثم.

قالت رانيا وهي تفارق مقعدها على مائدة الغداء:

- يجب أن أعيد الكتب التي استعرتها من المكتبة. سأكون هنا قبل الخامسة!

جمعت الكتب المستعارة، وحشرتها في حقيبة ظهرها، وخرجت. حين ركبت المصعد، دفعت الوشاح المرتخي بإهمال حول وجهها إلى الوراء لتبرز خصلة شقراء داكنة تحته. كانت قد أعادت صبغ شعرها وقصّه تلك القصّة القصيرة التي تليق بها. حين وصلت إلى المحطّة، كانت الحرارة قد غدت خانقة. بحركة قاطعة، سحبت الوشاح وخبّأته في حقيبتها، ثمّ أعادت ترتيب خصلاتها أمام زجاج النّافذة. لقد تحمّلته طويلا بلا داعٍ حقيقيّ. لم تؤمن بحاجتها إليه إطلاقًا.. لكنّها تورّطت وتحمّلت تبعات ورطتها أكثر من ستّة أشهر.

دخلت مكتبة الجامعة، ووضعت الكتب على مكتب الاستقبال، ثمّ تجوّلت بين الرّفوف في تراخٍ كأنّها تودّع المكان. ستمضي شهور الصّيف برفقة عائلتها، غالبًا في الإسكندريّة كما جرت العادة. لن ترجع إلى باريس قبل الخريف.

- أنت هنا!

ظهر وجه كزافيي من خلف الرّفّ الخشبيّ بشكل مفاجئ. لم تعد إلى مطاردته منذ زمن، ومع ذلك فهي تعرف كلّ أخباره وتنقلها بحرص إلى سكينة. تجاهلته وجلست إلى مقعد شاغر متظاهرة بتصفّح رواية فرنسيّة.

- أنت تقرئين الفرنسيّة الآن!

كانت قد أحرزت تقدّما لا بأس به في الشّهور الماضية. بإمكانها إجراء محادثة سليمة دون تردّد أو تلعثم.. لكنّها تردّ له الصّاع صاعين عامدة متعمّدة. أشار إلى شعرها المكشوف وقال مازحًا:

- هكذا تعلنين دخول فصل الصّيف؟

وضعت الكتاب جانبًا وقالت بلهجة جافّة:

- ما الذي تريده؟

- لقد وجدت سيلين!

أحرزت كلماته نتيجة فوريّة. حدّقت فيه رانيا بانتباه وردّدت:

- سيلين؟ هذا هو اسمها؟

أومأ بابتسامة ثمّ أضاف:

- لم يكن هناك غيرك لأشاركه الخبر...

تنهّدت ثم قالت:

- بلى، هناك من يهمّه الأمر أكثر منّي.. لكنّك عنيد ومتحجّر القلب! على كلّ حال، سأسافر خلال يومين إلى مصر. لن أكون هنا خلال الإجازة الصّيفيّة.

عمّ الصّمت لبرهة، وقرأت الخيبة على قسماته، فأضافت على الفور:

- هذا بريدي الالكترونيّ. إذا شئت مشاركتي ما توصّلت إليه بشأن سيلين.

دوّنت العنوان على قصاصة ورق، وتركتها بين يديه. لوّحت بكفّها وهي تغادر قاعة المكتبة، ثمّ اتّسعت ابتسامتها وهي تهرول في اتّجاه محطّة المترو.

سكينة ستكون مسرورة بالخبر!

*

في الساعة السّادسة، اكتمل العقد بحضور ميساء.. وكانت رانيا واسطة العقد كالعادة. كانت قد اكتسبت تجربة في تنظيم حفلات توديع العزوبيّة! لم تسأل مرّة أخرى عن فوائد الزّواج ومساوئه. كانت تعرف الكثير الآن بسبب هلع رنيم وعصبيّتها الزّائدة في الأيّام الأخيرة! جهّزت مسابقات في الثقافة العامّة، وألعابًا حركيّة.. نفخ بالونات ثمّ ثقبها بقبّعات حادّة القمم، نقل كرات صغيرة بين طرفي الغرفة على ملاعق يمسكنها بأسنانهنّ، القفز بالحبل وسباق التّوائم المتلاصقة. ثمّ تساقطن على المقاعد في إعياء ليلتهمن المقبّلات الشهيّة.

هتفت رانيا فجأة:

– سترمين الباقة، أليس كذلك؟

– أيّة باقة؟

حدجتها بنظرة ماكرة وقالت:

– أعلم أنّك جفّفت باقة ياسمين وتحتفظين بها في خزانتك! طالما نحن مجتمعات الآن، يجب أن ترميها!

وقفت رانيا وميساء تتدافعان في مرح طفوليّ، في حين حدّقت رنيم في باقة الورد الأحمر الجافّ في إشفاق:

– إن رميتها ستتحوّل إلى أشلاء. وردة واحدة تكفي!

سحبت وردة برفق، قد استحال لونها إلى الأحمر الدّاكن، ثمّ تنهّدت بأسف وهي تلقي بها خلف ظهرها، لتستقرّ بين كفّي ميساء.

– أنا التّالية!

تباهت ميساء في جذل وهي تحتضن الوردة التي حطّت بين كفّيها، بينما عبست رانيا وهي تقول في تشفّ:

– لا عليك.. سألتقط الباقة الحقيقيّة في حفل الزّفاف!

*

تلقّت عبارات المجاملة والمديح وهي تتقدّم على السجّاد الأحمر بفستانها الأبيض ذي التّصميم الفريد –وباهض الثمن– وتتأبّط ذراع شهاب. لقد كان حفل زفافها ليلة من ليالي الأحلام. الفستان، الزّينة، الموسيقى، المأدبة، الرّقيّ واللّمسات النّاعمة، الدّيكورات الفاخرة.. كلّ ذلك كان كما أملت وأكثر. لكنّها محاطة بالغرباء. توزّع ابتسامات متملّقة وتتلقّى تهاني جوفاء.

عبرت القاعة الملأى بالمدعوّين، أفراد عائلتها الموسّعة الذين لم تخالطهم منذ سنوات، حتّى بليت العلاقات.. ومعارف والديها من الطّبقة المخمليّة، وأصدقاء شهاب وأقاربه. كانت تشعر بالغربة، كأنّ الحفل لا يخصّها.. كأنّها فضائيّ حطّ من كوكب غريب، فوجد نفسه محاصرًا بأزواج عيون كثيرة فضوليّة، ينكرها ولا يملك الفرار منها.

أيقنت أنّ باريس غدت عالمها كلّه، وأنّها لا يمكن أن ترجع إلى الاستقرار في ذلك المحيط المجهول كلّيًا بالنّسبة إليها.

لوّحت لها رانيا وهتفت:

- ابتسمي.. سألتقط صورًا أرسلها للفتيات!

فافترّ ثغرها عن ابتسامة حقيقيّة، وتألّقت عيناها بوميض الفرح. ثمّ وقفتا متجاورتين وأخذتا صورًا لهما، متعانقتين، ثمّ وهما تسندان ظهريهما إلى بعضهما، ثمّ تعدّدت الوضعيّات المرحة. تأمّلتهما ناريمان في رضا. لم تكن تتوقّع حين أرسلت رانيا لتقيم مع رنيم أنّ العلاقة بينهما قد تتطوّر بذلك الشكل المبهج. وقفت بينهما في عناق ثلاثيّ وهمست:

- رؤيتكما منسجمتين أجمل ما في الحفل!

تبادلت الأختان نظرة طويلة، ثمّ انفجرتا ضاحكتين. لم يكن ذاك هو الوضع بينهما على الدّوام، لكنّهما تخطّتا ذلك بمعجزة ما.

كانت البداية يوم وجدت رنيم الشجاعة لتعتذر من شقيقتها. لم تكن تحتاج أكثر من كلمات صغيرة ليّنة لترويض الفتاة الشّرسة! ثمّ جاء «ميثاق الشقة ٤٠٤» ليضع أسس علاقة جميلة ودافئة. لم يعد يضايق رنيم أن تشارك صديقاتها مع شقيقتها التي تصغرها بتسع سنوات! كان ذلك يثير حنقها في السّابق، لكنّ رانيا كسبت المكانة التي حازتها لديهنّ عن جدارة.

لقد رتّبت حفلات نهاية عزوبيّة، وحقّقت إنجازًا باهرًا في وصل سكينة بولدها المفقود، وكتبت الميثاق الذي وقّعت عليه الصّديقات. لقد استحقّت أن تكون وصيفتها المميّزة، بعد أن رافقتها لشهور في رحلة التّحضير للزّفاف.

ها هما الآن، صديقتان! هذا لا يعني أنّ رانيا لم تعد تثير غيظها بصبيانيّتها وتهوّرها ونزقها. لكنّها خطت خطوات عملاقة نحو النّضج، منذ رحلت لتقيم معها في الشّقة الباريسيّة.

***

حلّقت بهما الطّائرة في رحلة طويلة من القاهرة حتّى دبي، ومنها إلى بانكوك، العاصمة التّايلنديّة. حقّقت رنيم حلمها، حين استجاب شهاب إلى رغبتها في شهر عسل مداريّ بطعم الأناناس والبابايا وفاكهة التّنين.

أمضيا بضعة أيّام في العاصمة، يتفرّجان على القصور والمعابد البوذيّة القديمة، ويتوهان في زحام الأسواق، بألوانها الفاقعة وروائحها المربكة وأطعمتها الغريبة.. ثمّ حلّقا في اتّجاه الجنوب، إلى منطقة «كرابي»، حيث الجزر الآسرة والشّواطئ الخلابة. ركبا على ظهور الفيلة الآسيويّة الضّخمة، وغاصا في المياه الفيروزيّة، ليسبحا إلى جوار كائنات الأعماق الملوّنة وفوق الشّعب المرجانيّة الهشّة. ثمّ التقطا صورًا تذكاريّة بالقرب من الكتل الصّخريّة النّاتئة في عرض البحر، التي صارت تعرف بجزيرة «جيمس بوند»، منذ صُوّر الشّريط الأمريكيّ «الرّجل ذو المسدّس الذّهبيّ» في الجهة، متّخذا القمم الحجريّة الفاتنة خلفيّة لأحداثه. ثمّ استسلما أخيرًا لنداء الاسترخاء على الشواطئ الرّمليّة البيضاء لجزيرة «بي بي» الخالية من العربات والتي لا تصلها إلا القوارب وزوارق الصيد.

كانت رنيم تحلّق على أجنحة السعادة. إنها تستمتع بكلّ لحظة تمضيها برفقة شهاب. كادت تنسى في خضم تردّدها أنّ علاقتهما نشأت عن صداقة مريحة ولا مشروطة. إنّه يعرف كيف يكون طفلا، يلهو بلا توقّف.. ويميّز أوقات الجدّ التي لا هزل فيها.

لم يتغيّر شيء عن رحلتهما منذ ثلاث سنوات إلى أهرامات الجيزة.. لكنّها تركت العنان لنفسها أخيرا، لتستقبل مشاعره بامتنان، وتبادله إيّاها دون حسابات معقّدة وتخوّف من المستقبل. حتّى حين لبثا سجيني فندقهما ليومين متتابعين بسبب الأمطار المداريّة المستمرّة، أمضيا ساعات شيّقة لم يتخلّلها الملل. كان أحدهما يستمتع بصحبة الآخر.

كانا يطلّان على شاطئ الفندق الخالي من الرّوّاد، من شرفة الفيلا الخاصّة بهما المشيّدة من الألواح الخشبيّة، بسقف من القرميد الأحمر، والمعلّقة أعلى التلّة فوق منصّة صخريّة مرتفعة، حين سألت رنيم بنبرة مرحة، وهي تغطّي ذراعها – التي باتت تميل إلى لون برونزيّ ساحر – بطبقة من واقي الشّمس:

– إن كنت شجرة، فماذا تريد أن تكون؟

رفع شهاب حاجبيه ثمّ نقل بصره متفكّرا إلى البعيد. بالأسفل، تظهر أمامهما غابات من أشجار الموز وجوز الهند والمانجا والبابايا، تحدّها مزارع أناناس وحقول أرزّ منبسطة في الجهة البعيدة عن الشّاطئ.

– شجرة مانجا.. لأنّها شجرة معطاءة وثمارها حلوة. ولأنّني أحب المانجا!

ضحكا، ثمّ قالت رنيم:

– أفضّل أن أكون شجرة جوز هند.. لأنّها باسقة الطّول، تراها عن بعد، قبل أيّ شجرة أخرى. إنّها مميّزة!

ابتسم شهاب وأضاف:

– إنّها النّجمة بين الأشجار!

– تحديدًا!

ضحكت رنيم، بينما رمقها شهاب بنظرة طويلة قبل أن يقول:

– دوري لأسأل.. اممم، ما هو أسوأ مخاوفك؟

تمطّت رنيم في كسل ثمّ قالت بغنج وعيناها تهيمان في المشهد الطّبيعيّ الأخّاذ الذي تكسوه خيوط المزن مسحة دراميّة:

– أن تنتهي هذه الرّحلة!

– لكنّها ستنتهي قريبًا.

– وهذا يحزنني.. سأعيش على ذكرياتها حتّى شهر العسل القادم!

كانت قد عزمت أن يكون كلّ لقاء لهما «شهر عسل» متجدّدًا. تنهّدت ثم قالت:

– ماذا عنك؟

– أن أكون خيارك الثاني دائمًا!

التفتت إليه فجأة وفي عينيها دهشة وتساؤل.

– ماذا تقصد؟

قال بلهجة تشوبها مسحة كآبة:

– أخشى أن يأتي يوم أحتاجك فيه ولا أجدك إلى جواري.. لأنّ عملك هو صاحب الأولويّة المطلقة.

عبست وهي تشبك ذراعيها أمام صدرها، ثمّ قالت في وجوم:

– حسبت أنّنا تحدّثنا في هذا...

زفر شهاب ونظراته تسرح إلى الأفق وتمتم:

- نعم، فعلنا.

ثمّ ما لبث أن استعاد مزاجه الطيّب واسترسل في حكايات مختلفة.

غير أنّ كلماته لازمتها ولم تفارق ذهنها باقي النّهار.

فكّرت أنّ أسوأ مخاوفها هو يوم يقف شهاب ليخيّرها.. بينه وبين عملها!

***

«مرحبا، رنوش.. هل هذا هو اسمك؟»

حدّقت رانيا باستغراب في الرّسائل الواردة إلى صندوق بريدها الإلكترونيّ. كانت هناك ثلاث رسائل من المرسل ذاته، المدعوّ «بطل حرب النّجوم». تساءلت في حيرة من ذا المجهول الذي يجرؤ على إسقاط الكلفة ومناداتها باسم الدّلع الخاصّ بالمقرّبين؟

لم تكن قد فتحت بريدها الإلكترونيّ خلال الأسبوعين الماضيين. كانت حريصة على تفقّد رسائلها يوميّا في بداية العطلة، لكنّ شهرين مرّا دون أن تصلها أيّ أخبار ذات أهميّة. لذلك انتهت إلى مجافاة صندوق الرّسائل. حين فتحته ذلك الصّباح بعد غياب، ألفت تلك الرّسائل الغريبة تنتظرها. يعود تاريخ الإرسال إلى الأسبوع الماضي.

بعد زفاف رنيم وسفرها في شهر العسل، ارتحلت وعائلتها للاصطياف في الإسكندريّة. تلك عادتهم التي لا يتخلّون عنها منذ سنوات. لازمها إحساس بالغرابة منذ وصولها. كان يمكنها في وقت مضى أن تستمتع بوحدتها، يكفي أن تكون بحوزتها سمّاعاتها وأجهزتها الإلكترونيّة المفضّلة. تضعها على أذنيها، وتشغّل موسيقاها الصّاخبة، لتغيب في عالمها المجنون والخياليّ.

لكنّ هذا الصّيف يبدو مختلفا. كلّ شيء يصيبها بالملل. لم يكن هناك ما يجعلها تسلو حياة باريس ورفقة الشّقة ٤٠٤.

كانت رنيم قد سبقتها إلى باريس بعد رحلة شهر العسل، ثمّ لحق بها شهاب ليمضيا أسبوعا واحدًا معًا في نهاية يوليو. افترقا على أمل اللّقاء بعد شهر آخر. هذه المرّة ستحضر رنيم إلى القاهرة، ثمّ ترحل هي برفقتها.

كلّما فكّرت في ذلك التّدبير الغريب شعرت بالامتعاض. شقيقتها العزيزة لا تقدّر الحظّ الذي حظيت بها بزواجها من رجل مثل شهاب. تنهّدت. تلك حياتهما، وهي لا تملك التدّخل بأيّ حال. واصلت القراءة في حيرة:

«تريدين أن أخبرك بشأن سيلين...»

هتفت في ذهول: كزافيي!

كانت تنتظر رسالة منه منذ دوّنت بريدها في آخر لقاء لهما على قصاصة تركتها بين يديه. لكنّ مضيّ شهور الصّيف دون اتّصال منه جعلها تعتقد أنّه كوّر الورقة ورمى بها مثلما فعل مع الإعلان. حزّ في نفسها ألّا تكون بحوزتها أيّ مستجدّات تبشّر بها سكينة، بعد أن أهدتها أملا قبل رحيلها.

أدركت على الفور أنّها لم تخبره باسمها قطّ. اسم بريدها هو «رنوش ١٩٩٠».. اسم الدّلع مع سنة ميلادها. لقد كان الخطأ خطأها. عادت إلى الرّسالة في اهتمام:

«أنا في «نانت» منذ أسبوع. بحثت حتّى وجدت عنوانها، فإذا به دير للرّاهبات الكاثوليك...».

عقدت حاجبيها في شكّ. ما الذي أخذها إلى الدّير؟ هل ترهبنت حقّا؟ يجب أن تكون الآن في الثانية أو الثالثة عشرة.. فكيف تنقطع عن دراستها وتدخل الدّير؟

«زرت الدّير وسألت رئيسة الرّاهبات عن «سيلين دينيس» التي أحسبها شقيقتي الضائعة، فعرفت أنّها فقدت عائلتها منذ سنتين في حادث طريق أليم. لقد أصبحت يتيمة مرّة أخرى. لم أجد في نفسي الشّجاعة للقائها».

على الفور، حوّلت رانيا الرّسالة إلى رنيم مع ملاحظة مقتضبة:

«كزافيي وجد سيلين في دير راهبات في نانت!»

ثمّ فتحت الرّسالة الثّانية، وأخذت تلتهم السّطور في لهفة:

«عرفت أنّ سيلين تنقّلت بين عدّة عائلات حاضنة منذ الحادثة. لكنّها لم تستقرّ طويلا عند إحداها. كانت تهرب من المنزل.. أو تسبّب المشكلات، فينتهي بها الأمر إلى الانتقال مرّة أخرى. وصلت عند الدّير منذ ستّة أشهر.

لقد حاولت الحديث إليها. لكنّها صامتة ولامبالية. قالوا أنّها تتصرّف بنفور منذ وصولها. لا أدري، ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلها...».

سارعت إلى الرّسالة الأخيرة:

«رجعت إلى باريس بالأمس. لقد حاولت. لكنّ الموضوع يبدو لي بلا فائدة».

كانت قصيرة ومختصرة. توحي كلماتها بالخيبة. شرعت في كتابة ردّ على الفور:

«مرحبا كزافيي. اسمي هو رانيا».

عليها أن تصحّح ذلك الخطأ بداية.

«يسعدني أنّك وصلت إلى سيلين. ويؤسفني ما آلت إليه حالها. ماذا تفعل في الدّير؟ إنّها ما تزال يافعة على الرّهبنة! آمل ألا تفقد الأمل بشأنها. إنّها بحاجة إلى عائلتها الحقيقيّة».

تأمّلت ما كتبت، ثم مسحت الكلمة الأخيرة. «إنّها بحاجة إلى عائلتها». ليسا متّفقين على معنى «الحقيقيّة». الحقيقيّ بالنّسبة إليه هو ما ألفه وعاشه منذ عقد ونصف. والحقيقيّ بالنّسبة إليها هو أصل الأشياء ومصدرها.

أضافت:

«أنت عائلتها الوحيدة الآن».

مازالت سكينة ممنوعة من الاقتراب من سيلين (أو ميار).. فهي لم تبلغ سنّ الرّشد بعد. لكنّ وفاة العائلة الحاضنة قد يغيّر أشياء كثيرة. ضغطت على زرّ الإرسال، ثمّ حوّلت الرّسائل التّالية إلى رنيم قبل أن تتّصل بها:

– وصلتك رسالتي؟

– لم أفتح الرّسائل بعد.. أنا في المحكمة!

– افعلي في أقرب وقت.. هناك جديد يخصّ سكينة!

– حاضر.. سأفعل.

تركت مقعدها أمام الحاسب الآليّ، وخرجت إلى الشّرفة المطلّة على كورنيش الإسكندريّة ليلفحها وهج الشّمس ونسيم البحر المحمّل برائحة اليود. تمطّت في كسل،

وهي ترنو إلى أمواج البحر الزمرّديّة، والشاطئ الذي تتزاحم على مساحته الرّمليّة شمسيّات المصطافين حتّى تكاد تحجبها.

لم تكن ترغب بالتّواجد هناك في تلك اللّحظة! كم تشتاق إلى سكينة وأجواء الشّقة ٤٠٤! كانت تشعر بالإثارة تغزوها بفضل رسائل كزافيي، وتهفو إلى ممارسة مهمّة التحرّي التي تجيدها. لكنّها حبيسة الإجازة التي تأبى أن تنتهي.

كم أنّ رنيم محظوظة لعودتها السّريعة إلى هناك!

***

في الاستراحة الفاصلة بين المرافعات والاستماع إلى الحكم، فتحت رنيم صندوق بريدها الوارد. طالعت بسرعة رسائل رانيا التي بدا أنّها عاجلة، فاتّسعت عيناها دهشة. عادت لتقرأها من جديد بتروٍّ، وفكرة مذهلة تتكوّن في رأسها.

حين خطت داخل الشّقة مساءً، كانت الخطّة قد تبلورت في رأسها وغدت واضحة الملامح. جلست إلى جوار سكينة بابتسامة متألّقة، وقالت في حذر:

– سكينة.. لا أريد أن أستبق الأحداث، لكن أمامنا فرصة ذهبيّة لاسترداد ميار!

استمعت إليها سكينة حابسة أنفاسها، وقد تشبّثت راحتاها بأطراف حشيّة المقعد تحتها.

– بوفاة والديها الحاضنين، وتسليمها للدّير.. تصبح بين أيدينا أسباب كافية لطلب استعادة الحضانة!

أخذت نفسا عميقا ثمّ أضافت:

– لا أقول أنّ هذا مضمون.. لكنّ المحاولة واجبة!

– ماذا لو وضعوها عند عائلة أخرى؟

– لقد حاولوا مرارًا لكنّ العائلات جميعها فشلت في استيعابها. عامل السّنّ يجعل من الصّعب العثور على عائلة مناسبة لها.. جلّ الحاضنين يفضّلون الأطفال في سنّ صغيرة، حيث يتأقلمون بسرعة.. أمّا ميار فهي تقريبا مراهقة.

تلألأت العبرات الحبيسة في عيني سكينة. ميار، صغيرتها التي تركتها وعندها سنتان وحسب، قد غدت فتاة يافعة، متمرّدة ومعقّدة! قالت وهي تبتلع غصّتها:

– ماذا عنّي؟ أعني ما الحجّة التي تدفع المحكمة إلى رفع التّهم بالإهمال عنّي؟

– لا تقلقي.. سنعدّ ملفّا كاملا.. عن تشبّثك بالبقاء والبحث عن أولادك رغم الحجر ورغم رحيل زوجك إلى سوريا، التّسجيل الذي بثّه برنامج الحقيقة الكاملة، شريكاتك في السّكن، نأتي بكلّ من بوسعه الشّهادة لصالحك.. ولعلّنا نقنع جاسر بلقائك والشّهادة أيضا...

اغرورقت عيناها بالدّمع وسالت على وجنتيها في صمت. تختلط دموع الفرح بآهات الحزن. لم تكن تحسب أنّ أبواب الأمل قد تفتح مرّة أخرى. تريد أن تصدّق، أنّ المعجزة مازالت ممكنة. لكنّها تخشى أن يتوقّف نبضها من اللّهفة قبل أن تدرك مرادها!

– ثمّ وضع ميار حسّاس أكثر من أيّ وقت مضى. مشاكلها كثيرة، وعقدها النّفسية متراكمة، لذلك لا تستقرّ في مكان واحد طويلا.. شخص واحد يمكنه تحمّلها بصبر!

حدّقت رنيم في عينيها مشجّعة وأضافت:

– هذا الشّخص هو أنت!

أدار عمر المفتاح في قفل باب الشّقة، ثمّ دفع الدفّة برفق فأحدثت صريرًا مزعجًا. هذا الباب لم يفتح منذ ما يزيد على الشّهور التّسعة. مرّت ثلاثة أرباع السّنة على رحيله، أجيز خلالها في القرآن الكريم.. أمضى أسبوعين في غزّة، ثمّ سافر إلى العمرة! لو لم يعد برحلته إلا بذاك الإنجاز، لكان يكفيه. لكنّ ما أحرزه يزيد على ذلك كثيرًا.

سحب حقيبتين ثقيلتين حتّى الرّدهة، ثمّ أنزل الحقيبة الجلديّة عن ظهره. حين مغادرته، كانت تحوي كلّ متاعه. اليوم يعود محمّلا بأثقال ألوانها درجات الزّهريّ، وكيس تراب من أرض غزّة! لم يتمكّن من العبور إلى الدّاخل الفلسطينيّ المحتلّ كما وعد أمّ محمّد، فاكتفى على مضض بما طالته يداه. أوليس تراب الوطن واحدًا؟ حين تسنح الفرصة، سيحمله إليها في مخيّم اليرموك.

تنهّد وهو يسند قامته ويرمي بصره إلى الأفق عبر نافذته.

إنّه يعود إلى فرنسا، أين أهين وسحقت كرامته، وأين تعرّض مشروعه للعراقيل والمعوّقات. لكنّه يرجع إلى تلك الأرض رغم كلّ شيء، مع أنّ أرض الله واسعة. لقد تساءل كثيرًا، ما سرّ تمسّكه بالبقاء هناك؟ لم يكن مدينًا لأحد ولا مرتبطا بوطن. بوسعه الاستقرار في المغرب، أو في أيّ مكان آخر. آية ستلحق به، لا يحسبها تمانع إن هو أبدى رغبته في هجرة أخرى. كلاهما مغترب، وأهلها موزّعون على قارّات العالم الخمس.

لكنّ هاجسًا داخله كان يدعوه إلى إثبات نفسه على الأرض ذاتها. هل يهمّه أن يثأر لإهانته؟ لعلّه يفعل. هل اعتاد المجتمع الفرنسيّ وألف بيئته حتّى صار الانتقال ثقيلًا عليه؟ ربّما. مهما كان السّبب، فإنّه قد رجع. وقد كان يشتعل حماسة لبداية جديدة.

لقد اشتهر اسمه في وقت مضى دون أن يكون قد فعل ما يستحقّ. أصبح رمزًا في أذهان الكثيرين، وهو كان قد دُفع دفعًا في مجرى الأحداث. لم يصنع أمرًا جديرًا بالثّناء، غير أنّه كان مسلمًا في مجتمع يكره الالتزام الدّيني.

الآن حان الوقت حتّى يثبت جدارته.

*

جلس إلى مائدة منعزلة في الشّرفة الخارجيّة المسقوفة لمطعم «البيت الصّغير». طلب كوبين من عصير البرتقال، ولبث يتأمّل تساقط الأمطار الخريفيّة في السّاحة على مهل وفي عينيه نظرة حالمة. كان يشتاق تلك الأجواء الغائمة التي تشعره بالانتعاش، بعد صيف طويل وحارّ، وتلك الحميميّة للمطعم الشّعبيّ العربيّ، بالقرب من ناطحات سحاب عملاقة.

- عمر! لا أصدّق أنّك رجعت!

وقف ليعانق هيثم بشوق، ثمّ جلسا متقابلين. كان يوم الثّلاثاء، وهيثم يداوم في الشركة. اغتنم فترة الغداء ليحظيا بجلسة قصيرة في ركنهما المعتاد. دفع عمر كوب برتقال في اتّجاه صاحبه وقال:

- طلبت هذا من أجلك.

ضحك هيثم وقال:

- ما من أحد غيرك يطلب عصيراً باردًا ويجلس في الخارج في يوم ماطر! سأطلب قهوة ساخنة.

عاد بعد دقائق قليلة، جلس بعد أن رفع ياقة معطفه واحتضن كوب القهوة الدّافئ بين كفّيه وقال مبتسمًا:

- هكذا أفضل! متى عدت إذن؟

- منذ يومين.

- يا إلهي، لقد اختفيت طويلًا.. أين كنت كلّ هذا الوقت؟

قال عمر في غموض:

- كنت أحتاج وقتًا مستقطعًا، لأرتّب أفكاري.

- وكيف تشعر الآن؟

علت شفتي عمر ابتسامة مسترخية:

- أشعر أنّني ولدت ولادة جديدة!

- ياه، إلى هذه الدّرجة!

- وربّما أكثر...

- حدّثني إذن. كلّي آذان صاغية!

ارتشف عمر من مشروبه ثمّ قال:

– وددت ألّا أفارق المخيّم أبدًا، وألّا أعود إلى الحياة العاديّة قطّ. ذلك المكان، على بساطته وشظف العيش فيه.. إلّا أنّ فيه راحة عجيبة. تلك الوجوه النّيّرة والقلوب الصّافية.. إنّها الصّحبة التي يسعد بها القلب.. «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»!

ابتسم هيثم في رضا. يسرّه تغيّر حال عمر إلى الأفضل. لقد عانى كثيرًا في السّابق، ويستحقّ أن يعرف السّعادة وراحة البال.

تابع عمر في حماس:

– لقد أمضيت شهورًا أتأمّل، حتّى وضعت الخطّة المناسبة.. لكنّني أحتاج مساعدتك.

– قل!

– أنت مواطن فرنسيّ، أليس كذلك؟

أومأ هيثم علامة الإيجاب، فأضاف عمر:

– ما رأيك أن تشاركني في مشروعي؟

رفع هيثم حاجبيه في دهشة، فشرح عمر:

– لقد رفضت في السّابق كلّ مطالبي الإداريّة، وصودرت المعدّات المستوردة.. ولقد فهمت أنّ ملفي أسود عند الإدارة الفرنسيّة، رغم البراءة والتّعويضات!

– إذن تحتاج واجهة.

– ليس تمامًا. كان بوسعي أن أسجّل المختبر باسم أحد الموظّفين.. أيّ واحد منهم يفي بالغرض. لكنّني مهما فكّرت لم أكن أجد شريكًا مناسبًا أكثر منك!

ضحك هيثم ثم قال في حيرة متزايدة:

– ما زلت لا أفهم شيئا!

– أريد شراكة حقيقيّة. أن تكون معي يدًا بيد، لا بشكل صوريّ. أحتاج مهارتك في البرمجة. سأشرح لك فكرة المشروع، فإذا أقنعتك.. خضت معي المغامرة!

أخذ عمر يتحدّث عن فكرة مشروعه الجديد. تحدّث طويلا، وأصغى هيثم في صمت.

*

طالعت ياسمين ساعة الحائط المعلّقة في الممرّ، ثمّ عادت إلى المطبخ لتجلب باقي أطباق العشاء. تأخّر هيثم. السّاعة تشير إلى الثّامنة.. عادة ما يجلسان إلى المائدة في ذلك الوقت.

في الأيّام التي يداوم خلالها هيثم في الشّركة، يغادر البيت في السّادسة صباحا، ليصل مع بداية الدّوام، نحو الثّامنة والنّصف.. ثمّ يغادر باريس في الخامسة مساءً حتّى يبلغ «ليل» نحو السّابعة والنّصف. يوم شاقّ وسفر كثير.. لكنّه لا يتأخّر عن مواعيده أبدًا.

كانت تهمّ بالاتّصال به، حين تنامى إليها صوت مفتاحه في قفل الباب. عجّلت تستقبله في الرّدهة بابتسامة دافئة يشوبها القلق. أخذت عنه معطفه، بينما انشغل بنزع حذائه.

قال هيثم وهو يتطلّع إلى المائدة:

- رائحة شهيّة!

- أعددت اللازانيا التي تحبّها.

بادرها بعد أن استقرّ كلّ منهما على مقعده:

- قابلت عمر اليوم.

- آه.. هل عاد من السّفر؟

- منذ يومين...

خمّنت أنّ ذلك سبب تأخيره. سكت هيثم لحظات بينما كانت ياسمين تسكب الطّعام في الأطباق، ثمّ أردف:

- لقد اقترح عليّ أن نعمل على مشروع مشترك.

- جميل.. أيّ مشروع هذا؟

- صناعة ألعاب متطوّرة للأطفال.

رفعت عينيها إليه في استغراب:

- ألعاب؟ وما هو دورك أنت في المشروع؟

- البرمجة!

- ألعاب فيديو إذن؟

- سأشرح لك...

بينما يتناولان عشاءهما، أخذ يحدّثها بما دار بينه وبين عمر، مستعيدًا حوارهما ظهر ذلك اليوم.

***

قال عمر وهو يتّخذ وضعا جادّا:

- هل تسمع عن الاندماج البارد؟

فكّر هيثم برهة ثمّ قال في شكّ:

- هل لهذا علاقة بمشروعك السّابق؟ أظنّ الكلمات طرقت سمعي أثناء المحاكمة...

أومأ عمر علامة الإيجاب:

- هو ذاك! بكلمات بسيطة.. إنّه تفاعل كيميائيّ، مشابه لم يحصل داخل المفاعلات النوويّة.. لكنّه لا يحتاج طاقة هائلة مثل المفاعلات، ولا حرارة شديدة، بل يمكن حدوثه في ظروف وحرارة طبيعيّين!

رمقه هيثم في ريبة:

– وما الذي تصنعه بهذا الاندماج البارد؟

ابتسم عمر وقال ضاحكًا:

– لا متفجّرات.. إن كان هذا ما يقلقك!

ابتسم هيثم وقد أدرك إشارته إلى انفجار المختبر منذ سنوات، وقال في حرج:

– لم أقصد هذا.. لكن ما علاقة الاندماج البارد بصناعة الألعاب؟

– طاقة الاندماج البارد، يمكن تخزينها في عبوات صغيرة.. مثل البطّاريّات، لكنّ الطاقة المتولّدة عنها أعلى بكثير، وتدوم لفترة أطول أيضا.. بمعنى أنّ بوسعها تشغيل مختلف أنواع المحرّكات، بكفاءة ودون حاجة إلى إعادة شحن!

– إن كان هذا صحيحًا.. فستكون ثورة في عالم التّكنولوجيا! لن تحتاج إلى شحن الجوّال أو الحاسب الآلي.. ولا حتّى توصيل الأجهزة الكهربائيّة بالقابس!

هتف عمر في حماس:

– بالفعل! لكنّ هذا سيأتي في مرحلة متقدّمة من المشروع.. أنت تعلم، هناك لوبيات متحكّمة في الطاقة، وظهور بروتوكول من هذا النّوع لا تتبنّاه مختبرات ذات وزن.. يعني التّعرّض للتّضييق حتّى يختنق المشروع قبل البدء الفعليّ!

– ما الذي تفكّر فيه إذن؟

- هناك مجال مفتوح نوعا ما.. ويهمّني بشكل خاصّ، وهو مجال ألعاب الأطفال!

- ألعاب الأطفال؟

- الألعاب المتاحة في معظمها تعتمد على البطاريّات ذات الاستعمال الواحد.. وقليل منها على البطاريّات التي يُعاد شحنها. حسنا، لن نكشف أوراقنا دفعة واحدة.. نطرح أوّلا جيلا جديدًا من البطاريّات.. تدوم أطول قليلا. مع أنّ الاندماج البارد قد يغني عن إعادة الشّحن لشهور وربّما لسنوات.

- حسنا. وبعد ذلك؟

تردّد عمر، ثمّ قال بشيء من التهرّب:

- سنترك الخطوة التّالية لوقت لاحق...

سكت لثانيتين ثمّ عاد يقول:

- سنستورد ألعابًا رخيصة من الصّين: سيّارات، قوارب، رجالا آليين وطائرات...

- هل تفكّر في الطّائرات بدون طيّار؟

تحفّزت ملامح عمر وهو يستأنف شرحه:

- معظم الطائرات بدون طيّار نتحكّم بها عن طريق جهاز تحكّم.. وهي صالحة لمسافة محدودة، إذا تجاوزناها ينقطع التّواصل مع جهاز التحكّم. ما أفكّر فيه هو أن تكون الطائرات أو القوارب أو السيّارات مستقلّة بذاتها.. البطاريّة المطوّرة تسمح لها

بالسّفر لمسافة طويلة ولا تلتقطها الرّادارات.. وتكون مبرمجة لتؤدّي مهمّة بعينها: توصيل طرد، جمع معلومات، زرع عدسة تصوير أو لاقطات حراريّة.. وهنا يأتي دورك.

– البرمجة!

تبادلا نظرة طويلة. يشعر هيثم بشكل غريب أنّ عمر لا يخبره بكلّ شيء. لقد تعوّد منه السّريّة والغموض. لعلّه لا يكشف أوراقه كلّها دفعة واحدة أمامه. يفضّل الاحتفاظ بأفكاره لنفسه أطول وقت ممكن. لكن في تلك اللّحظة، لم يكن هناك ما يدعوه إلى الرّيبة. إنّ ما يتحدّث به عمر أقرب ما يكون إلى التجسّس. لكنّه يطرد تلك الفكرة السّخيفة من رأسه، إنّه يثق بصاحبه.

– وما هي استعمالات هذه الألعاب المتطوّرة؟

أخذ عمر رشفة طويلة من كوبه، ثمّ قال على عجل:
– التطبيقات كثيرة. سنجد زبائن، لا تقلق. سنتحدّث في ذلك في حينه.. في الوقت الحالي، سنعمل على الألعاب وحسب. ها ماذا قلت؟

سكت هيثم لبرهة ثمّ قال:

– أصلّي الاستخارة أوّلا.

***

خطا عمر داخل الشّقة حيث اجتمع فريق العمل من جديد. ابتسم وهو يشير إلى هيثم الذي تقدّم على أثره:

– شكرا لكم يا شباب على قدومكم بهذه السّرعة.. أردت أن أقدّم إليكم صاحب الشّركة.. المهندس هيثم.

صافح هيثم المهندسين الثّلاثة ثمّ عرّف كلّ منهم بنفسه.. «أليكس» زميل قديم لعمر، أمّا « أدريان» و«داميان»، فحديثا التخرّج في كليّة الهندسة ب»إفري».. يتخصّص الأوّل والثّاني في الهندسة الكهربائيّة، بينما يهتمّ الثالث بمجال الطّاقة. كان عمر يحمل على عاتقه مسؤوليّة تطوير البطّاريات، وهيثم يمسك بزمام البرمجة، بينما يهتمّ فريق المهندسين المستقطبين بالمحرّكات والدّارات.

أردف عمر بعد ذلك:

– هذه المرّة سيكون كلّ شيء قانونيّا. لم أتّصل بكم إلّا بعد أن وردتنا الموافقة الرّسميّة على إنشاء الشّركة المصنّعة، وجرى قبل ذلك طلب المعدّات التي من المتوقّع أن تصلنا خلال أيّام...

أضاف هيثم بلهجة آمرة:

– هيّا الآن، كلّ إلى مهامّه.. أمامنا وقت قصير لدراسة بروتوكول التّصنيع قبل أن تصل المعدّات.

كانت الشّقة قد هُيِّئت لاستقبال الموظّفين. في الصّالة الواسعة رتّبت أربعة مكاتب متجاورة في الفضاء المفتوح، أحدها لعمر. في حين خصّصت الغرفة الكبيرة للمختبر التّجريبيّ حيث ستكون المعدّات المنتظرة. في المطبخ الصّغير، أُعدّت غرفة استراحة فيها كلّ ما يحتاجه الطّاقم لتحضير الشّاي والقهوة والوجبات الخفيفة.

قاد عمر هيثم نحو الغرفة الثّانية التي كان بابها مغلقا. أدار المفتاح في القفل، ثمّ أوسع له مجالا ليدلف.

– مكتب المدير!

صفّر هيثم بإعجاب وهو يطالع المكتب الفاخر والمقعدين الوثيرين قبالته، والمكتبة التي تراصّت فيها كتب علميّة وأخرى أدبيّة. قال مداعبًا:

- هل سيكون هذا مكتبي حقّا؟

- يفترض به أن يكون.. بعد أن أنقل متاعي من هنا!

ضحكا معا، ثمّ تقدّم هيثم ليجلس على المقعد الدّوّار. اتّخذ عمر مجلسًا أمامه ثمّ قال بلهجة جادّة:

- المشروع الموازي سيظلّ سرّا بيني وبينك. لن يعرف أحد غيرنا عن تفاصيل تركيب البطّاريّة المعزّزة، ولا عن برنامج التحكّم بها!

أومأ هيثم موافقا.

انبرى عمر يجمع كتبه في صناديق كرتونيّة، ثمّ حمل أحدها وأشار إلى هيثم كي يحمل الآخر. مشى هيثم في اتّجاه المخرج:

- إذن أين ستنقل كلّ هذه الكتب؟

سبقه عمر وهو يقول متضاحكا:

- ليس بعيدًا.. اتبعني!

سارا معًا حتّى باب الشّقّة، ثمّ نزلا الدّرج المؤدّي إلى الأسفل وهبطا طابقا واحدًا. أشار عمر إلى باب الشّقّة التي تقع تحت مقرّ الشّركة تماما:

- هنا!

وضع الصّندوق على الأرض، ثمّ فتح الباب ليدلفا معا، بينما هتف هيثم ضاحكا:

- أنت لا تُصدَّق! هل هذا أفضل ما لديك؟ حين تقول بأنّك لن تنام في المختبر بعد الآن، تسكن في الطّابق أسفله!

هزّ عمر كتفيه في استهانة وقال:

- لا أحبّ ركوب وسائل النّقل كثيرًا!

تجوّلا في الشّقة المجهّزة بشكل كامل، ثمّ قال هيثم باسمًا:

- تبدو على أهبة الاستعداد لاستقبال العروس!

ابتسم عمر ثمّ قال في غموض:

- بعد خروج المنتج إلى النّور، سأفكّر في تلك الخطوة.

ثمّ أردف على الفور:

- حسنا أيّها المدير، هل فكّرت في اسم مناسب للشّركة؟

اتّسعت الابتسامة على شفتي هيثم وهو يقول ضاحكا:

– لقد فكّرت في هذا منذ حدّثتني بأمر الشّراكة! أصغ جيّدا إلى هذا.. «ياسمين الأندلس».. ها، ما رأيك؟

رفع عمر حاجبيه في دهشة، فأضاف هيثم بلهجة متردّدة:

– هل يبدو لك مفرطًا في الشاعريّة؟ لعلّه لا يناسب شركة نشاطها في مجال التّكنولوجيا؟

– بالعكس، إنّه.. اسم مدهش!

استرسل هيثم في حماس:

– حقّا؟ إنّه اسم ذو دلالتين.. الدّلالة الأولى وهي التي يُدركها الجمهور، فيها نوع من الحنين إلى ماضي الأندلس العامر، وزهر الياسمين الذي يميّز حدائقها.. والدّلالة الثّانية...

قاطعه عمر بابتسامة وهو يقول بهدوء:

– الدّلالة واضحة.. لا تحتاج إلى شرح!

-٢٤-

دفعت رانيا باب الشّقة، ثمّ هرولت إلى الدّاخل في شوق وهي تصرخ:

– لقد جئت!

استقبلتها سكينة بالأحضان. عانقتها بحرارة مثل أمّ افتقدت طفلتها، وها أنّها قد رجعت من السّفر. بينما سحبت رنيم حقيبتها وهي تدلف على أثرها وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة. إنّها لا تقدر على الإحاطة بسرّ العلاقة التي تجمع شقيقتها بشريكة سكنها!

جلسن ثلاثتهنّ على الأريكة تفضفض كلّ منهما للأخريات عمّا جرى في غيابهنّ.

كانت زيارة رنيم الأولى للقاهرة بعد زواجها. الشّهر الماضي حلّ شهاب ضيفا على باريس. استأجرا غرفة فندقيّة، وتخلّصت رنيم من معظم أشغالها ليمضيا أكثر ما يمكن من الوقت معا. خرجا يتجوّلان في شوارع باريس.. بين الحيّ اللّاتينيّ ومتحف اللوفر وشارع الشانزيليزيه.. عاشا شهر عسل جديدًا.

– سيكون لنا في كلّ مرّة شهر عسل! لتكون حياتنا كلّها عسلا في عسل!

تقول رنيم وهي تتأبّط ذراعه ويخطوان بخفّة على رصيف نهر السّين. تلك هي النّسخة الممتعة والمسلّية من الزّواج. لا روتين يوميّا ولا شجار فيها. لكنّ رحلة القاهرة كانت مختلفة. لم يتمكّن شهاب من تأجيل مواعيد الجراحة المتراكمة بسبب إجازاته السّابقة، فكان يغيب عنها سحابة اليوم، ثمّ يمضيان السّهرات في ضيافات لا تنتهي ودعوات من قبل أفراد العائلة الموسّعة والأصدقاء. خاب ظنّها في شهر عسل آخر!

قالت بعد أن فرغت رانيا من إفراغ جرابها من الحكايات في أذني سكينة:

– اتّفقت مع جورج على تفويض المرافعات التي في عهدتي.. سأسافر نهاية الأسبوع إلى نانت، للقاء ميار.

تحاول سكينة أن تبدو متماسكة لذلك الخاطر.. أنّ شخصًا قريبًا منها سيرى صغيرتها بعيني رأسه، ثمّ يأتي ليصفها لها. هكذا هي طريقتها المتاحة لـ«رؤية» أبناء بطنها الغرباء عنها منذ عقد من الزّمن. رأت جاسر بعيني رانيا، والآن سترى ميار بعيني رنيم.

همست في رجاء منكسر:

- هل يمكنك أن تلتقطي لها صورة؟

***

عبرت رنيم مدخل دير «القدّيسة كلير» وسارت في صمت على أثر الرّاهبة الكهلة في رواق طويل يغمره السّكون. كانت رانيا قد كتبت لكزافيي حتّى يمدّها بعنوان الدّير، ففعل. والآن تحاول رنيم أن تُكمل عنه رحلة استرجاع ميار.

تمشي مصغية إلى وقع خطواتها على البلاط القديم الذي يتجاوز عمره القرن من الزّمن، وعيناها تلاحقان اهتزاز غطاء رأس الرّاهبة التي تهرول أمامها، بردائها الرّماديّ الباهت والسّابغ على كامل بدنها. على يمين الرّواق المسقوف ذي الأقواس العالية، تظهر حديقة معتنى بها، شجيراتها اليانعة مقلّمة بدقّة، وممشاها مرصوف بحصى ناعم ونظيف.

بعد هنيهة، أشرفت رنيم والرّاهبة على قاعة فسيحة تملؤها طاولات ممتدّة ومقاعد متلاصقة. كانت الرّاهبات منهمكات في أعمالهنّ، في صمت شبه جنائزيّ، لا تشوبه سوى همهمات خافتة لا تكاد تُسمع. أشارت الرّاهبة المرافقة إلى طاولة منزوية، جلست إليها سيّدات في منتصف العمر، بينهنّ فتاة لم تجاوز العاشرة إلّا منذ وقت قريب، لا تخطئ العين غربتها عن المكان. ميار!

ألقت نظرة على عمل الصّغيرة. كانت منشغلة بتطريز غطاء سفرة أبيض، توشّيه بزهرات سوسن ذات خيوط أرجوانيّة.

- سيلين.. لديك زائرة!

رفعت الطّفلة رأسها عن عملها، فالتقت نظرات رنيم بعينين سوداوين عميقتين، ذكّرتاها بعيني سكينة. لم يكن لديها شكّ في الشّبه بينهما. حدّقت فيها البنت لبرهة،

مأخوذة بحُسنها، ثمّ ما لبثت أن عادت إلى خيوطها وإبرها. جلست رنيم إلى جوارها وقالت بلطف:

– كيف حالك يا سيلين؟ أنت لا تعرفينني.. لكنّني أعرفك، ويهمّني أمرك. هل تودّين مرافقتي إلى مكان جميل؟

رمقتها بنظرة مسحورة وهمست:

– الآن؟

– نعم.. الآن!

تبادلت رنيم نظرة مع الرّاهبة المسؤولة، فأومأت لها بالموافقة. كانت رنيم قد قدّمت نفسها على أنّها ممثّلة عائلة ترغب في حضانة سيلين، وتركت بحوزتها بطاقتها المهنيّة كضمان.

أمسكت رنيم بكفّها وعبرتا الطّريق حتّى ساحة الألعاب القريبة. جلستا على مقعد مزدوج في الحديقة ثمّ دار بينهما حديث أشبه بالاستجواب، وكانت ردود سيلين مختصرة وفاترة.

وقفت رنيم واشترت كوبي مثلّجات من شاحنة متجوّلة رابضة عند مدخل السّاحة، ثمّ راقبتها خلسة وهي تتذوّق الكرات الحلوة على طرف لسانها، برقّة وتروّ، مثل طفلة تعلّمت قبل أوانها أن تتمهّل في معانقة لحظات السّعادة، فهي ذاهبة إلى زوال.

أخرجت رنيم هاتفها، والتقطت لها صورة، كما وعدت سكينة.

قالت سيلين في تردّد:

- هل ستأخذينني للعيش معك؟

بوغتت رنيم، ثمّ قالت بابتسامة رقيقة:

- ليس معي أنا.. هناك سيّدة جميلة تشبهك تودّ أن تكوني جزءًا من عائلتها.

بدت الخيبة على ملامح الفتاة، كأنّها تدرك بفطرة من اعتاد الخذلان أنّ البالغين يحترفون الكذب والخداع، وهذه السيّدة لا تختلف عنهم. خطر ببال رنيم خاطر مفاجئ. فتحت اتّصالا مرئيّا مع سكينة وقالت بهدوء:

- سترين ميار الآن.. حافظي على اتّزانك!

عبر الشّاشة، حدّقت كلّ واحدة منهما في الأخرى.. بعينين فضوليّتين متّسعتين من جهة الطّفلة، وبمقلتين باكيتين متهيّجتين من جهة الأم. سألت سيلين ببساطة:

- متى تأخذينني؟

- قريبا يا حبيبتي.. قريبا!

ثمّ فقدت سكينة السّيطرة على عواطفها، فسارعت رنيم تنهي الاتّصال. قالت مطمئنة سيلين:

- ستمكثين بعض الوقت مع الرّاهبات، ثمّ سآتي لأخذك مرّة أخرى. هل يناسبك هذا؟

هزّت رأسها في استسلام، ثمّ عبرتا الشّارع مرّة أخرى في اتّجاه الدّير. انتظرت حتّى توارت سيلين بالدّاخل، ثمّ قصدت مكتب الرّاهبة الرّئيسة. قالت بلهجة جادّة:

– سيلين لن تذهب مع أيّ عائلة حاضنة أخرى. أمّها البيولوجيّة تريد استعادتها.. لكنّ الوضع معقّد وقد يتطلّب بعض الوقت. هل تعدينني بالاحتفاظ بها حتّى ذلك الوقت؟

***

سار كلّ شيء كما خُطّط له، بسلاسة ويسر. وصلت المعدّات في موعدها، بالإضافة إلى كمّيّة أوليّة من الألعاب الصّينيّة التي انبرى الفريق في إجراء التّعديلات عليها. خلال ثلاثة أشهر، كان النّموذج الأوليّ قد غدا متماسكا وجاهزا للتّجربة. اجتمع فريق العمل في المختبر، بقلوب واجفة وعيون متعلّقة بنموذج الطّائرة بين يدي عمر. قال هيثم معطيا إشارة البدء:

– هل أنت جاهز؟

أومأ عمر وهو يضع الطّائرة على المنضدة. ثمّ ضغط على زرّ التّشغيل، فدار المحرّك محدثا طنينا خفيفا. من جهته، رقن هيثم تعليمات التّحكّم على لوحة مفاتيحه وقال:

– فلنجرّب هذا السيناريو.. طيران عموديّ، ثمّ أفقي.. دوران، شقلبة.. ثمّ هبوط.

كان قد تأكّد من ثبات الطائرة في كلّ حركة على حدة، والآن جاء دور الخطوات المعقّدة. ضغط على زرّ الانطلاق، فتحرّكت الطائرة. تابعها الجميع بنظرات زائغة وتركيز عالٍ.

ارتفعت الطّائرة البلاستيك مترًا واحدًا في اتّجاه سقف الغرفة، ابتعدت نحو النّافذة حتّى كادت تبلغها، ثمّ انبرت تدور في دائرة قطرها متران بشكل أفقيّ. ما إن أنهت الدّورة الكاملة عند نقطة البداية، حتّى أحدثت شقلبة في الهواء قبل أن تنزل بهدوء لتستقرّ على الأرضيّة.

ارتفعت هتافات الفرح والتّصفيق الحماسيّ مع ملامستها للأرض برفق ووداعة. تصافح عمر وهيثم بحرارة.

- تهانينا! تجربة ناجحة!

أعلن عمر مخاطبا الجميع:

- يمكنكم المغادرة مبكّرين اليوم.. احتفالا بالإنجاز! سنبدأ في الغد في إعداد خطّة تجارب الجودة المكثّفة ومن ثمّ ننطلق في التّصنيع بكميّات تسويقيّة!

حين خلت الشّركة إلا منهما، التفت عمر إلى هيثم وقال بابتسامة جذلة:

- تعال.. عندي لك مفاجأة.

ركبا السيّارة معًا وتولّى عمر القيادة. سارا في شوارع المنطقة الصّناعيّة بالضّاحية الجنوبيّة، حتّى أشرفا على بناء قديم، لا تشفّ واجهته عمّا يخفيه. كانت بوّابة معدنيّة ضخمة صدئة تسدّ المدخل. دفع عمر باب المستودع محدثا ضجيجًا صاخبًا، ليظهر الفضاء القفر داخله مغبرّا ومتّسخًا. خطا الرّجلان إلى الدّاخل، وامتدّت كفّ هيثم إلى زرّ الإنارة لتنبعث إضاءة ضئيلة من مصباح قديم أصفر.

- ما رأيك في المكان؟

مطّ هيثم شفتيه متفكّرا ثمّ قال:

- أظنّه سيفي بالغرض.

كانت شحنة الألعاب القادمة من الصّين قد أوشكت على الوصول.. كميّة هائلة منها للشّروع في التّوزيع على نطاق واسع. حين يفرغ فريق المهندسين من اختبارات الجودة، سيكون المنتج جاهزا ليُطرح في السّوق بشكل رسميّ. وعلى خطّ التّصنيع أن يفي بحاجة الموزّعين.

- عشرة عمّال.. هل سيكون ذلك كافيا؟

وقف عمر وسط المستودع وأشار بكفّيه إلى عمق المساحة:

- هنا ستخزّن الألعاب في نسختها الخام، ثمّ يأتي مركز التّجميع.. وبعده مباشرة مركز الجودة.. وفي النّهاية مركز التّعليب.

أومأ هيثم وهو يقدّر في رأسه المساحات اللاّزمة لكلّ منها.

- يبدو هذا مناسبا.

وقفا متأمّلين لبرهة، يرسم كلّ منهما في رأسه صورة متكاملة لوحدات التّصنيع المستقبليّة، قبل أن يسأل هيثم بلهجة محايدة:

- كيف كانت رحلتك؟

- جيّدة.

انفرجت شفتا عمر بسرعة لتلفظا تلك الكلمة المقتضبة وانطبقتا من جديد. لم يدل بتفاصيل أكثر. منذ انطلاق المشروع، كان يسافر كثيرًا، مرّة كلّ شهرين تقريبًا. إلى الصّين، والهند وإندونيسيا، وتركيا.. يقابل زبائن محتملين أو مزوّدين أسعارهم زهيدة، أو يحضر مؤتمرًا علميًا ما. كان لديه الكثير ليفعله، وهيثم لم يكن يسائل تنقّلاته، طالما

كانت على حسابه الشّخصيّ. لكنّه كان مختلفًا بعد عودته تلك المرّة. شيء ما في عينيه الغامضتين المعتمتين كان يثير قلق هيثم.

قاطعهما رنين هاتف هيثم. كانت ياسمين. لم يكن من عادتها أن تتّصل في أوقات العمل، لذلك قدّر أنّ الأمر جلل. أتاه صوتها هامسا ما إن فتح الخطّ:

– عندي لك مفاجأة!

استمع إلى كلماتها الغامضة في اهتمام ثمّ قال في شكّ:

– خيرًا إن شاء الله؟

لكنّها قالت في عناد:

– لن تكون مفاجأة إن أفصحت!

أضافت قبل أن تنهي المكالمة:

– هلّا أحضرت حلوى الفراولة في طريق عودتك؟

ودّع عمر وانطلق في سيّارته. شغله أمر المفاجأة طوال طريق العودة بين باريس وليل. ماذا يمكن أن تكون المفاجأة؟

هناك أنواع كثيرة من المفاجآت. مفاجأة «عاديّة» مثل قصّة شعر أو تغيير لونه، جهاز كهربائيّ جديد للبيت! ومفاجأة أعلى درجة، لكنّها ليست على قمّة سلّم الإدهاش.. مثل هاتف بتكنولوجيا حديثة – وهي تعلم كم يعشق الآلات المتطوّرة ويتابع آخر صيحاتها – أو إجازة خاصّة يقضيانها معا.

ثمّ هناك المفاجأة الأغلى التي يتمنّاها قلبه، ولا يجرؤ على التّفكير فيها حتّى لا تهوي آماله من شاهق!

دخل المخبز ليقتني قطع الحلوى التي طلبتها. بينما يعود إلى سيّارته وبين كفّيه علبة الحلوى المفضّلة لديها، فكّر أنّ المفاجأة قد تكون قدوم ضيف ما! حدّق في العلبة بين يديه.. هل تكون الكمّيّة كافية للضيوف، إن كان عددهم أكثر من اثنين؟ لكنّها لم تحدّد!

عاد إلى المحلّ واشترى قطعتين إضافيّتين، لعلّ وعسى! لم يتوقّف عقله عن التّحليق في ماهيّة المفاجأة.

***

وقفت ياسمين عند نافذة المطبخ، تطالع الشّارع في ترقّب وشوق. كاد صبرها ينفد، وهي تتقصّى وصول هيثم.

ذلك الصّباح، دخلت الصّيدليّة التي تمرّ أمامها كلّ يوم وهي تمضي إلى مكتبها. وصفت للصّيدلانيّة أعراضها. رغبة شديدة في النّوم تجعلها تستيقظ بصعوبة صباحا، كسل وخمول، وإحساس سريع بالتّعب. قالت السّيدة الأنيقة ذات المئزر الأبيض:

- لعلّه نقص في الفيتامين « د».. تحتاجين التعرّض إلى الشّمس لوقت كافٍ، وسأكتب لك مكمّلات غذائيّة.

لم يبد على ياسمين الاقتناع. إنّها تمشي كلّ يوم عشرين دقيقة ذهابًا ومثلها إيابًا، وتتعرّض إلى شمس «ليل» المتوارية غالبا خلف السّحب، لكنّها شمس على كلّ حال.

سألتها المرأة بشكل عابر وهي ترقن الفاتورة على جهازها:

- هل أنت حامل؟

- لا.

استلمت الدّواء، وانصرفت بخطوات بطيئة. لكنّ السّؤال ظلّ يعتمل في رأسها. هل أنت حامل؟ عدّت الأيّام منذ دورتها السّابقة، مرارًا وتكرارًا.. لم تكن واثقة من التّواريخ بشكل دقيق. قطعت بضع خطوات على الرّصيف، ثمّ عادت أدراجها إلى الصّيدليّة. قالت في حرج:

- ماذا لو كنت حاملا؟

اتّسعت ابتسامة الصّيدلانيّة وقالت:

- إذن تجرين هذا الاختبار أوّلا، قبل أن تستهلكي أيّ دواء.

الآن، تقف عند النّافذة وهي تقبض بكفها على اختبار الحمل الذي أجرته منذ ساعتين.

لمحت السيّارة أخيرا. ركنها هيثم أمام المبنى، ثمّ اتّجه نحو المدخل وبين كفّيه علبة حلوى الفراولة التي طلبتها. هرعت تستقبله عند الباب وعيناها تتألّقان بوميض لا يخفى. سألها في شكّ وعيناه تتطلّعان إلى الدّاخل:

- هل عندنا ضيوف؟

حبست ابتسامتها وهي تقول في غموض:

- ربّما!

استلمت علبة الحلوى وحفظتها في الثلّاجة، ثمّ استدارت لتلوّح أمام عينيه باختبار الحمل. سأل في حيرة:

- ما هذا؟

- الضّيوف!

كان يقرأ الإجابة في عينيها، لكنّه يأبى أن يبالغ في الوهم.. وهي تبالغ في الغموض والتكتّم. قالت أخيرا بصوت ملؤه البهجة:

- اختبار حمل!

اتّسعت عيناه سرورا. سارع يحيط كتفيها بذراعه اليسرى، يدنيها منه ويقبّل قمّة رأسها في ابتهاج، بينما احتفظ بالاختبار في يمناه. تحقّقت الأمنية التي داعبت خياله طيلة طريق العودة!

تأمّل الشّريط الذي تظهر على وجهه علامتان حمراوان متوازيتان، وقال مداعبا:

- هل تمثّل العلامتان طفلين؟

ضحكت ياسمين حتّى دمعت عيناها وهمست:

- لن نعرف حتّى موعد صورة الموجات فوق الصّوتية!

جلسا إلى مائدة العشاء، وهما يتبادلان النّظرات الحالمة والأمنيات الهائمة. ثمّ تذكّر هيثم أمرا، فسألها:

– ماذا بشأن الحلوى؟

هزّت كتفيها وقالت ببساطة:

– لقد اشتهيتها!

-٢٥-

خلال الأسابيع المنصرمة، كان النّشاط على أشدّه بين المختبر والمستودع. خطّ الإنتاج كان يعمل بطاقته القصوى لتزويد السّوق بالكميّات المطلوبة في الآجال المحدّدة.

كان هيثم منشغلا بالتّسويق، يتجوّل طيلة النّهار بين محلّات الألعاب وفي صندوق سيّارته نماذج من منتجات الشّركة، يتلقّى الطلبيّات ويُبرم الصّفقات، ثمّ يهاتف مسؤول الإنتاج لتبليغه بالكميّات ومواعيدها. أمّا عمر، فيلازم المختبر. يستلم كلّ يوم عيّنة من الألعاب الجاهزة يجري عليها تجارب جودة مكثّفة إمعانا في الحرص. يردّد طول اليوم على مسمع من العمّال والمهندسين:

– سمعة الشّركة تُبنى في أيّامها الأولى.. فإمّا أن تشغل المكانة التي تستحقّها، أو تفنى في غضون أيّام وتختفي إلى الأبد!

كان أليكس متطوّعا ليكون واجهة الشّركة. في ساحة «الدّيفونس» التّجاريّة العامرة بالمارّة في كلّ ساعات اللّيل والنّهار، يمضي ساعات طويلة، على منصّة عرض مفتوح، يقدّم الألعاب ويسمح للأطفال بتجربتها.. يلمسونها، يحرّكونها، ثمّ يبرمجونها بواسطة شاشة التحكّم للقيام بحركات استعراضيّة مذهلة. وكان عرضه يلقى الإعجاب والإقبال. يوزّع في النّهار الواحد مئات البطاقات على زبائن محتملين. ثمّ يجتمع ثلاثتهم في نهاية النّهار في مكتب هيثم لتقديم تقرير مفصّل عن نشاط الشّركة.

ارتفع رنين جرس الباب فجأة، فتطوّع هيثم لفتحه. ألفى أمامه سيّدة شقراء في مقتبل العمر، تضع نظارات طبيّة وبيدها دفتر وجهاز تسجيل.

- السّيد هيثم الأندلسي؟

- نعم؟

- أنا إيزابيل دوماس.. الصحفيّة التي اتّصلت بك، من أجل اللّقاء!

- آه، نعم.. تفضّلي أرجوك.

سبقها هيثم إلى الصّالة المفتوحة حيث المكاتب. قدّمها للموظّفين، ثمّ تركها بين يدي أليكس:

- بوسعك التجوّل في المختبر وطرح الأسئلة على المهندسين.. سأكون في انتظارك في مكتبي...

أومأت بابتسامة ممتنة. عاد هيثم أدراجه إلى مكتبه، فلحقه عمر على الفور.

- من تكون هذه؟

- إنّها صحفيّة من جريدة «لوبوان» (Le Point)! تقوم بتحقيق عن الشّركات الناشئة. اتّصلت بي.. فلم أر مانعًا من اغتنام الفرصة. إنّها دعاية مجانيّة. هل أخطأت؟

سكت عمر متفكّرًا، ثمّ قال محذّرًا:

- أنت تعلم ما ينبغي قوله وما لا يجوز كشفه!

حدجه هيثم بنظرة عتاب وقال:

- لست غرّا.

ثمّ جلس إلى مكتبه. بادر بإغلاق البرنامج الحصريّ الذي يعمل عليه وأخفى نموذج الطائرة المعدّل. مازال يعتقد أنّ عمر يبالغ في التكتّم بشأن الخطّة الجديدة، لكنّه يتفهّم قلقه. لقد عانى في السّابق من تبعات سرقة ملكيّته الفكريّة.

- سيسير كلّ شيء كما نريد.. لا تقلق!

تعالت طرقات على باب المكتب، ثمّ دلفت الصّحفيّة بابتسامة متملّقة.

- أستاذ هيثم.. هل يمكن أن تحدّثني عن بداية المشروع، كيف جاءت الفكرة؟

أشار عمر خفية إلى هيثم بأنّه سيكون في مكتبه، ثمّ تسلّل خارجا في هدوء.

استمرّت الصّحفيّة تطرح الأسئلة وتسجّل الإجابات، ثمّ توقّفت فجأة لتهتف:

- ألم يكن ذلك الدّكتور عمر الرّشيدي؟

ابتسم هيثم وقال:

- نعم، هو نفسه!

– لقد حسبتني توهّمت.. شكله بدا مألوفا لوهلة، لكنّني لم أتيقن من هويّته إلّا الآن! هل يمكن أن أجري معه لقاءً أيضا؟

– بالتّأكيد.

سبقها إلى مكتب عمر، وقال:

– دكتور عمر.. الآنسة تريد أن تطرح عليك بعض الأسئلة، إن كنت لا تمانع.

حدجه عمر بنظرة متذمّرة، ثمّ قال في فتور:

– طبعا.. لا بأس بذلك.

جلست الصّحفيّة قبالته وقالت بحرارة:

– دكتور عمر، أنا من متابعيك الأوفياء والمتحمّسين لقضيّتك جدّا.

تمتم في ضيق:

– شكرا لاهتمامك.

– هل تتابع الصّفحة التي تحمل اسمك على موقع التّواصل الاجتماعيّ؟ هناك آلاف المعجبين الذين يهتمّون لأمرك.. وسيكون رائعا لو تردّ على رسائلهم.

زوى ما بين حاجبيه في استغراب. أيّ صفحة هذه؟ هل ينتحل أحدهم شخصيّته؟

- لا علم لي بشأن الحساب.. إنّه مزيّف بالتّأكيد.

فغرت فاها في دهشة، ثمّ تمتمت:

- يا للعجب!

همس هيثم في رفق:

- هلّا ركّزت في أسئلتك على المشروع؟

- نعم، بالتأكيد.. أعتذر على التشتّت.

ثمّ استغرقت عشرين دقيقة أخرى في «استجواب» عمر.

***

تسارعت وتيرة العمل في الأيّام الماضية حتى وصلت أوجها. توزيع الطّلبات يمضي بالشّكل المطلوب، والضّغط مستمرّ على خطّ الإنتاج المزدحم به مستودع الألعاب. كان عمر وهيثم يمضيان النّهار في التردّد بين المختبر والمستودع، ويراقبان عن كثب نشاط فريق العمل الذي سرت إليه حماسة الرّجلين.

استقرّ عمر على المقعد المجاور لهيثم بعد نهار مضنٍ، وسأله:

- هل نُشر التّحقيق؟

كان هيثم يجلس أمام عجلة القيادة ويقلّب صفحات عدد الأسبوع من مجلّة «لوبوان».

- لا أجد له أثرًا.. متى قالت الصّحفيّة بأنّه سينشر؟

- لم تقل شيئا!

- لعلّه العدد القادم.

غمغم عمر في شكّ:

- لقد مضى شهران!

- لا نعرف شيئا عن خطّة النشر الخاصّة بالمجلّة.

عاد عمر ليهمس في ضيق:

- لم تعجبني أسئلتها.. لقد بالغت في التّدقيق.

- هذا ما يفعله المحقّقون!

- والجواسيس!

التفت إليه هيثم في دهشة.

- لماذا تقول هذا؟ لماذا قد تكون جاسوسة؟

تريّث عمر قبل أن يقول بصوت خفيض:

- أشعر بأنّني مراقب!

- ولماذا قد تكون مراقبًا؟ من الذي سيراقبك؟

تجاهل عمر سؤاله، وهو يشير من النّافذة:

- انظر.. تلك الشّاحنة السّوداء ذات النّوافذ المعتمة.. إنّها متوقّفة في رأس الشّارع منذ أسبوع على الأقلّ!

ألقى هيثم نظرة إلى حيث أشار عمر، ثمّ فتح بوّابة السيّارة مغادرًا. هتف عمر يستوقفه:

- إلى أين؟

- انتظرني لحظة!

سار بخطى واسعة حتّى السيّارة السّوداء. دار حولها متفحّصا، لكنّها كانت معتمة تمامًا. دخل دكّان البقالة المواجه وسأل البائع عنها.

- إنّها لمستأجر جديد.. في البناية الثانية!

خرج هيثم مجدّدا، ثمّ توقّف في مستوى نافذة السّائق وطرق على زجاجها. مرّت ثوانٍ دون أن يحصل على ردّ، فكرّر الطّرقات.. عندئذ نزل الزّجاج ببطء ليظهر رجل وامرأة يجلسان في المقاعد الأماميّة.

– آسف على الإزعاج.. سيّارتك تسدّ مدخل البقالة، هل يمكنك ركنها في الشّارع المتعامد؟

حدجه الرّجل بنظرة متضايقة ولم يبد عليه الاكتراث. قال بصفاقة:

– أتوقّف حيث أشاء.. هذا ليس من شأنك!

– لا نريد إثارة المشاكل. هل أنت من سكّان الشارع؟ الوقوف هنا ممنوع لغير المتساكنين.

– نعم.. أنا أقيم في هذا المبنى!

– أعتذر إذن على سوء الفهم.

أشار هيثم بكفّه متأسّفا، ثمّ عاد إلى السيّارة. قال مطمئنًا عمر:

– إنّها لأحد الجيران.. لا داعي للهلوسة!

تنهّد عمر، بينما تنطلق بهما السيّارة إلى المستودع. كان بودّه لو يصدّقه ويبعد عنه الهواجس. لكنّ إحساسًا غريبا بالرّيبة ظلّ يلازمه.

***

جنون الارتياب.. هل هذا ما أصابه في الآونة الأخيرة؟

إحساسه الغريب بأنّه مراقب لم يأت من فراغ. لعلّ عيون العدوّ قد باتت تتبّع حركاته، منذ رحلته الأولى إلى غزّة. هل يدركون من يقابل في رحلاته الدّوريّة، وما الذي ينطوي عليه نشاطه؟ لقد تكتّم ما أمكنه، وبالغ في السّرّيّة. لم يكن يصل إلى وجهته النّهائية مباشرة، بل يتنقّل عبر حدود جويّة وبريّة مختلفة. لكنّه يستشعر الخطر أكثر من أيّ وقت مضى.

كان قد عكف وهيثم على البطّاريّة المعزّزة، بعد أن لاقت الألعاب التي طرحت حديثا في الأسواق نجاحًا منقطع النّظير. بعد الاطمئنان إلى حسن سير الإنتاج، وردود الفعل المبهجة للحرفاء، صار بإمكانهما تفويض النّشاط الأساسيّ للشّركة إلى باقي الفريق، والاهتمام بالخطّة المتّفق عليها آنفًا.

بادره هيثم وهما ينهيان تثبيت البطّاريّة في هيكل الطّائرة:

– ألا تفكّر في حمايتها بتسجيل براءة اختراع؟

– سنفعل.. لكن ليس الآن!

– ماذا لو سبقنا شخص آخر إلى ذلك، وضاعت الفرصة؟ لا شكّ أنّ طرح المنتوج في السّوق سيؤدّي إلى الاهتمام بالبطّاريّة الجديدة، وقد تسعى شركات كبرى إلى محاكاتها.. لا تدع المأساة ذاتها تتكرّر، إذا ما سُرق النّموذج وتمّ استغلاله بطرق قذرة!

بدا على عمر التّفكير، ثمّ قال:

– دعني أفكّر بالأمر.

كان هيثم قد وافق على الشّراكة بعد أن قلّب الفكرة على كلّ وجوهها. لم يكن هناك ما يدعوه إلى الرّفض. لم يطلب منه عمر مشاركة مادّيّة، ما عليه إلّا استثمار مهارته في البرمجة لإنتاج بطارية معزّزة تُطرح في الأسواق في مرحلة متقدّمة من المشروع. لكنّ عزوف عمر عن حماية المنتج ببراءة اختراع كان يدهشه. لا يلدغ مؤمن من جحر مرّتين!

كان يشعر بالنّشوة، منذ أخذ يستثمر مهارته في البرمجة للتّحكّم بالطّائرة. في بداية المشروع، اقتصر نشاطه على الإشراف والتّسيير الإداريّ. وها هو أخيرًا يعود إلى مجال اختصاصه. كانت تلك الأيّام متعة صافية، رغم ما رافقها من إرهاق وإنهاك. لكنّ قلقه بشأن عمر لم يهدأ. كلّما دخل عليه المختبر، فوجئ في عينيه بتلك النّظرة الغريبة. يقرأ فيهما ذعرًا غير مفهوم. يقول متضاحكًا:

– هل رأيت شبحًا؟

فلا يردّ صاحبه.

كانت السّاعة قد شارفت على الخامسة مساءً، حين ترك عمر المختبر. طرق باب مكتب هيثم ثمّ جلس قبالته في صمت. لقد لبث يفكّر طويلا ذلك اليوم. لم يستطع العمل. ترك البطّاريّة جانبًا وغرق في هواجسه. إن كان الخطر حقيقيّا، فعليه أن يتصرّف. لن يتسبّب بالأذى لمن حوله. لم يكن اتّخاذ ذلك القرار سهلا، بعد كلّ العناء الذي تكبّده. لكنّه كان مستعدّا للتّضحية بالمشروع برمّته، والبدء من جديد إذا ما استدعى الأمر.

لم يفت هيثم شحوب سحنته وصرامة ملامحه. ولقد اعتاد عمر منه تلك النّظرة المتسائلة والمعاتبة في آن. بفطرته، يدرك هيثم أنّ صاحبه يخفي عنه الكثير. وعمر لا يكلّف نفسه التّوضيح أو الطمأنة. فات أوان المهادنة. ألقى عمر القنبلة دفعة واحدة:
– سأنسحب من المشروع. سامحني!

حدّق فيه هيثم غير مستوعب.

– تنسحب؟ من مشروعك؟ وهل للشركة والمشروع وجود بدونك؟

تنهّد عمر بعمق ثمّ قال:

– لقد جدّت ظروف. لم يعد بإمكاني المواصلة. سوف أرحل.

– إلى أين؟

هزّ عمر كتفيه ثمّ قال في غموض:

– أرض الله واسعة...

لم يكن هيثم يصدّق أذنيه. لكنّ عمر واصل في إصرار:

– سوف أتنازل عن حصّتي لك. لست مضطرًا إلى دفع قيمتها الآن.. حين ترتفع المبيعات وتسدّد المصاريف...

قاطعه هيثم بحدّة:

– عمر، اصدقني القول! ما الذي تخفيه؟ أنت لا تقول كلّ شيء! لم تكن على طبيعتك في الأيّام الماضية.. بعد رجوعك من رحلتك الأخيرة. أظنّ أنّ من حقّي عليك أن تخبرني بما يحصل معك.. بحقّ شراكتنا وأخوّتنا!

توقّف عمر في تردّد. لقد كان على حقّ. كان يشعر بالذّنب، والوحدة، والخوف كلّ يوم، منذ عودته من المخيّم. يرغب ملء فؤاده أن يشارك أحدًا ما يثقله من هموم. ولم يكن هناك من شخص مؤهّل للاستماع أكثر من الرّجل الماثل قبالته. يعلم أنّ بوسعه الثّقة في هيثم، حتّى إن شكّ في الجميع. لكنّه لا يستطيع.

– اسمع، خذ إجازة. سافر. زر أهلك في المغرب. أنت في حاجة إلى استراحة بعد ضغط الفترة الأخيرة. هذا مفهوم ومتوقّع.. لكن لا تتسرّع في الانسحاب!

هزّ عمر رأسه في صمت، ثمّ استدار على عقبيه مغادرًا.

لعلّه يبالغ. لعلّه في حاجة إلى تلك الرّاحة حقًّا.

لكنّ القلق في داخله يجتاحه ويسيطر عليه.

*

حين رجع هيثم إلى الشّقة ذلك المساء، بدا ساهمًا ومشغول اللّب. بادرته ياسمين في اهتمام على مائدة العشاء:

– هل من متاعب في العمل؟

رسم على شفتيه ابتسامة واهنة وقال مطمئنا:

– بل كلّ خير.. لا تشغلي بالك.

هزّت رأسها دون كثير اقتناع، بينما غرق هيثم مجدّدا في تأمّلاته. كان حديث عمر يتردّد في رأسه دون توقّف طيلة رحلته من باريس إلى ليل، ومازال تحت تأثير الصّدمة. كان يدرك أنّ صاحبه يخفي أمرًا عظيمًا. إنّه لا يفهم عمر.. ينشئ شركة ثمّ يتركها فجأة وبلا مبرّر!

انتبه حين وضعت ياسمين أمامه طبق الفاكهة، ثمّ قالت في حنو:

- هل تودّ أن تفضفض؟ ربّما أمكنني المساعدة...

تنهّد بقوّة، ثمّ قال في استسلام:

- إنّه عمر!

- ما شأنه؟

- لا أدري! تصرّفاته غريبة.. كتوم وغامض، أشعر أنّه يخفي أمرًا ما.

شردت نظراتها قليلا، ثمّ قالت بجديّة:

- امنحه دعمك كاملًا، ولا تضغط عليه.. لا شكّ أنّ من مرّ بتجربته لن يستطيع الثقة في الآخرين بسهولة. لكنّه يثق بك.. عاجلا أم آجلا سيفضي لك بما يشغله.

نظر إليها في توجّس. لم يفكّر منذ زواجهما بالتّاريخ القديم الذي يربطها بعمر، حتّى أنّ فضاءً واحدًا لم يجمعهما أبدًا منذ حفل الزّفاف. يأمل بداخله أن تكون الباحثة الاجتماعيّة هي من نطق بتلك الكلمات، وليست «فتاة المترو». تنهّد بقوّة ثمّ قال طاردًا عنه رداء الغيرة:

- سأفعل. آمل أن تكوني محقّة!

*

كانت كلمات ياسمين تتردّد في ذهنه وهو يدخل المكتب في الصّباح التّالي. سيقدّم دعمه الكامل واللّامشروط لعمر. سيفعل أيّ شيء ليجعله يتراجع عن قرار الانسحاب الغريب والمفاجئ.

حين دلف إلى مكتبه، فوجئ بعمر جالسًا على مقعده، وأمامه أوراق كثيرة. حدّق هيثم في التّصاميم الشّائكة التي خطّت على الورق الأصفر في انتباه ثمّ سأل:

- هل هذا تصميم الطّائرة؟

أومأ عمر برأسه موافقا، وقد التمعت في عينيه نظرة متوثّبة. لقد فكّر طوال اللّيل منذ حديثهما ظهر الأمس، وقد استقرّ على إعطاء المشروع فرصة بعد. لعلّه يبالغ في ارتيابه. لعلّ مخاوفه بلا أساس. ولعلّه يجد في هيثم عونًا لبلوغ مراده.

- هذه تصاميم سابقة، أنجزها المهندس «نضال فرحات» في ٢٠٠٣، لكنّ مشروعه لم ير النّور.

توقّف هيثم عند الاسم في شكّ. «نضال فرحات»؟

- ما الذي حصل؟

همس عمر في مرارة:

- اغتاله جيش الاحتلال الإسرائيلي.. زرعوا عبوة ناسفة في وحدة التّطوير والتّصنيع في غزّة، أودت بحياته مع خمسة من رفاقه، بينما كانوا يحاولون تجهيز الطّائرة.

- يا للهول!

توقّف الزّمن، وهما يتبادلان تلك النّظرة الطويلة السّابرة. يحاول عمر أن يستشفّ من ردّة فعل صاحبه موقفًا ما، بينما يتمالك هيثم نفسه، حتّى لا تغلبه الصّدمة، بينما يرتجف قلبه في صدره، وهو يحاول منع نفسه عن الاستنتاجات المتسرّعة. لعلّ شكوكه لم تكن من فراغ في نهاية الأمر.

قال عمر فجأة:

- هل تعرف ما معنى «الرّباط»؟

- هل تقصد عاصمة المغرب؟

ضحك عمر واستطرد قائلا:

- ليس ذاك.. بل الآخر. اكتشفت خلال الرّحلة إلى مخيّم اليرموك، أنّ هناك من يعيش حياته مرابطا في سبيل الله، محتسبًا كلّ نفس وكلّ حركة! هل تعرف كيف يكون ذلك؟

هزّ هيثم كتفيه في حيرة.

- أن يكون كلّ عمل تُقدم عليه في سبيل الغاية الكبرى!

- الغاية الكبرى؟

- هات قل.. ما هي غايتك الكبرى من الحياة؟

- أن يدخلني ربّي الجنّة!

- جميل.. وكيف يتجسّد ذلك؟

- العبادات، الصّدقات، الأخلاق...

- كلّ هذا رائع.. لكنّه ذاتيّ ومحدود.

- ماذا تعني؟

- الله استخلفنا في الأرض، ووهبنا العقل والإرادة الحرّة.. لو اكتفينا بحياتنا الخاصّة ونجاحاتنا الصّغيرة الذّاتيّة، فهل نكون قد حقّقنا معنى الخلافة كما ينبغي؟ هناك مظالم ينبغي رفعها عن المستضعفين وقضايا عادلة تحتاج مساندة، ومقدّسات تدنّس ولا مدافع عنها...

أصغى هيثم في اهتمام دون أن يقاطعه، فأردف عمر:

- نحن نتغنّى منذ صغرنا بالقدس وبتحرير الأقصى.. فما رأيك بمن يعيش قولا وفعلا من أجل تلك الغاية الكبرى؟

- كيف؟

- أنت تعلم أنّنا نعمل على نوعين من الألعاب.. ألعاب ذات كفاءة محدودة، هي التي سنطرحها في السّوق.. وألعاب ذات كفاءة عالية، لكنّها ليست للتّسويق.

- ماذا تعني؟

– لم أنوِ قطّ ترويجها.. إنّما سنرسلها إلى أصدقائنا في غزّة!

بشكل ما، كان يتوقّع ذلك في داخله. تصرّفات عمر غير المتّسقة، وريبته اللامفهومة كانت تقوده إلى ذلك الاستنتاج الرّهيب. صاحبه يخفي نشاطًا سريًّا. قال في هدوء وقد أدرك أخيرًا أنّ شكوكه كانت في محلّها:

– إذن هي ليست مجرّد ألعاب!

تألّقت نظرات عمر وهو يردف:

– بالتّأكيد ليست كذلك.. الألعاب الحصريّة التي نصنعها تمثّل وسائل تواصل وتجسّس متطوّرة، وعسيرة الاكتشاف.

تنهّد هيثم، ثمّ سأل باتّزان عجيب:

– لماذا أخفيت عنّي الأمر.. وما الذي جعلك تفصح الآن؟

– أخفيت، لأنّ الحرص واجب. لم أكن أريد توريط أحد. وأفصحت لأنّني على مشارف الجنون. أن تكون وحيدًا، تفكّر وتخطّط وتعمل بمفردك، ترهب العيون المتطفّلة وتغلق أبواب صدرك على سرّك، وترقب الآخرين بعين الشكّ.. فإنّك تنتهي إلى الهلاوس وجنون الارتياب! لذلك قال نبيّ الله موسى: (وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي).. فهل تكون لي وزيرًا، كما كان هارون لموسى عليه السّلام؟

استمرّ هيثم يحدّق في التّصميم بينما تضرب طبول صاخبة في صدره. كان يعلم أنّ ما ينوي عمر القيام به يتحدّى إرادة قوّة عسكريّة متنفّذة لا تتردّد في القضاء على كلّ من يقف في سبيل تحقيق أهدافها. لكنّ الاقتراب من عشّ الدّبابير يزيد من إثارته ومن آلام المغص في بطنه. قال مداريا العاصفة التي تمور داخله:

- كيف حصلت على التّصاميم؟

- من أصدقائنا في غزّة.. بالإضافة إلى هذا...

لوّح عمر في فخر بقرص تخزين بحجم عقلة الإصبع، ثمّ أضاف:

- ملفّ «الطّائرة العراقيّة».. رسالة الدّكتوراه الخاصّة بضابط عراقيّ متخرّج في جامعة بغداد.. وهبها لأصدقائنا في المقاومة، خدمة منه للقضيّة الفلسطينيّة.

همس هيثم بخفوت:

- هل وقع اغتياله هو الآخر؟

حدجه عمر بنظرة سابرة، وقال بهدوء:

- أعلم أنّني أطلب منك الكثير.. وبشكل مفاجئ...

قاطعه هيثم على الفور:

- الجوّ خانق بعض الشيء.. هل نتمشّى قليلا؟

سارا جنبًا إلى جنب على امتداد الشّارع الذي يصل المسجد بمنتزه عامّ. أخذ هيثم نفسا عميقا، وزفر بقوّة. كرّر ذلك مرّات، قبل أن يقول باضطراب:

– أعلم أنّك أمضيت تسعة أشهر تخطّط وتدرس المشروع.. والمخيم كان الفضاء المناسب للتهيئة النّفسيّة.. لكنّني حديث عهد بكلّ هذا.. أحتاج بعض الوقت لاستيعاب الأمر. هل تفهمني؟

هزّ عمر رأسه بابتسامة متعاطفة:

– أنت محقّ. لن أستعجلك. خذ الوقت الكافي لاتّخاذ قرارك!

***

– هل تحدّثت وعمر؟

هزّ هيثم رأسه في صمت وهو يحرّك ملعقة الحساء دون أن يتناول منه شيئا. لم يكن مزاجه أفضل ممّا كان عليه في الأمس. ليس يدري ما الأشدّ إرباكًا، أن يجهل ما يخفيه عمر أم أن يكون جزءًا منه!

– ماذا قال؟

التفت إليها في إشفاق. لم يكن بوسعه أن يشاركها ذلك الحديث بالذّات. لقد صار الآن جزءًا من السّرّ ومسؤولا عن حفظه. مهما كان قراره، فهو لن يخون الأمانة. ياسمين زوجته وأقرب النّاس إليه، لكنّه لا يقدر أن يشاركها هذا. لقد وعد عمر بالكتمان، وسيفعل. كما أنّه يرأف بها من ثقل المهمّة على كاهلها، يخشى أن تعرف تلك الحيرة والخوف والتقلّب على جمر القلق. قال مغيّرا الموضوع:

– سيأخذ إجازة ويسافر لتغيير الجوّ.. ماذا عن زيارتك إلى الطّبيبة؟

كان ذلك عامل الإلهاء المناسب ليصرف اهتمامها عن عمر وقصّته. استمع إليها دون تركيز وهي تسرد في إسهاب كلمات الطّبيبة وتفاصيل حصّة التّصوير بالموجات فوق الصّوتية التي خضعت لها ذلك الصّباح.

بينما ترد كلماتها إلى ذهنه بشكل متقطّع، غرق من جديد في أفكاره.

ما سبب تردّده؟ هل يكون عمر أشجع منه وأقدر على نصرة الحقّ؟

إنّه يؤمن بالقضيّة ولا يشكّك في الهدف. هذا ما تبذل فيه النّفوس والأموال، وما ترجح به كفّة المؤمن يوم يقف بين يدي ربّه! لقد سيقت إليه فرصة لا تقدّر بثمن. إنّه يدعى إلى نداء ربّه، أفلا يجيب؟

لقد اعتاد أن ينصر الحقّ بقلبه في صمت، فإذا تجاسر فبلسانه.. في المظاهرات والملتقيات الثّقافيّة، يتماهى مع الحشود ويذوب فيها. لكنّه نادرًا ما يفعل بيديه. وأن يجد الفرصة والفكرة ليفعل فإنّه أمر مدهش!

انشرحت أساريره تدريجيّا، وتألّقت في عينيه نظرة بشر. حدّقت ياسمين في ملامحه وقد سرت إليها عدوى السّرور:

- أدام الله هذه البسمة!

***

ما الذي تغيّر منذ إعلان هيثم موافقته؟

لقد اختلف كلّ شيء.. كلّ شيء!

كان هناك نوع من الاطمئنان في النّظرات المتواطئة التي يتبادلانها خفية من زملاء العمل، وكثير من التّناسق والحماس في السّويعات التي يمضيانها في الشّركة بعد هبوط

الظّلام، وخلوّ المبنى إلّا منهما. تلك الرّيبة التي سكنت فؤاده طويلًا، حلّت محلّها سكينة عجيبة، أنسًا بصاحبه وبهجة برفقته.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم «ثاني اثنين» في الغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾. يتذوّق حلاوة الآية على طرف لسانه، وهما يمضيان مساءاتهما في نقاش أو انهماك، ويستشعر وقعها سكينة صافية في قرار فؤاده حين يرفع أحدهما رأسه ليستزيد عزيمة من نظرة صاحبه.

بعد شهرين، دنا قطف الثّمرة التي تعهّداها بالرّعاية. في المختبر، طفق عمر يثبّت وحدة الطّاقة المعزّزة، على نموذج الطّائرة. حين فرغ من ذلك، انضمّ إلى هيثم في المكتب. راقبه وهو يتابع البرمجة على جهازه في تركيز، فهمس هيثم:

- أكاد أنتهي.

بعد دقائق قليلة، كان هيثم يحمّل البرنامج إلى قرص الطّائرة، ثمّ ارتقى الاثنان الدّرج بخطوات واسعة حتّى سطح المبنى. وقفا عند الحاجز الحجريّ. وضع عمر الطّائرة على حافّته، في حين فتح هيثم جهازه المحمول.

- سأشغّلها الآن.

أشار إليه هيثم بالتريّث، ثمّ أخذ يثبّت علبة ورقيّة بين عجلات الطائرة وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة. حال فراغه هتف به:

- الآن، انطلقي!

أدار عمر المحرّك، ثمّ شغّل هيثم برنامج المتابعة على شاشته، فارتفعت الطّائرة في الهواء فوق رأسيهما، ثمّ انطلقت في الجوّ لتبتعد نحو الغابة القريبة.

على الشّاشة، ظهرت نقطة حمراء تتحرّك بسرعة فوق خريطة باريس. قال هيثم:

– خطّ السّير يطابق خطّ السّكة الحديديّة. ستحلّق الطّائرة في ارتفاع منخفض فوق القطارات.. حتى لا تجذب الانتباه، بسرعة ثابتة تقدّر بمائة كيلومتر في السّاعة.. ثمّ تنفصل عنها داخل المدن، فتلازم الحدائق والمناطق الخضراء، وتنخفض السّرعة إلى النّصف.

– كم يلزمها من الوقت حتّى تصل إلى الوجهة؟

نظر هيثم إلى ساعته. كانت تشير إلى الثّالثة ظهرًا.

– ساعة ونصف تقريبا.. تعال، فلنطلب الغداء وننتظر!

حين أنهى عمر اتّصاله بالمطعم القريب، بادله هيثم ابتسامة ذات مغزى، ثمّ سأل:

– هل تشعر بالإثارة؟

– بل أشعر بالرّضا.

– أنت ترضى بسهولة! مازالت الطلبيّة لم تُشحن بعد!

هزّ عمر كتفيه وهو يقول:

– الرّضا لا يرتبط بتحقيق الغاية.. إنّما يلازمني ما دمت كنت أمضي بخطى جادّة في سبيلها!

كان يسترجع باستمرار قول سميّه، عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: (فإنّ الخير كلّه في الرّضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر). لقد صبر طويلا، حتّى عرف الرّضا حقّ المعرفة. أردف بنظرات سارحة:

– لقد تعلّمت كيف أكون راضيا في كلّ لحظة.. لقد كان ذلك عسيرا في البداية، أشهد بذلك. لكن كلّما توغّلت في مجال الطمأنينة، استشعرت نفحات الارتياح تهبّ على فؤادي!

أصغى هيثم في تأثّر، ثمّ قال:

– أنا مدين لك.. لأنّك جررتني لأشاركك هذه التّجربة. لعلّي لست راضيًا بعد، لكنّني منفعل وداخلي يغلي حماسًا.. هل يُحسب هذا لي؟

تشاركا ضحكة رائقة، ثمّ استطرد هيثم بلهجة جادّة:
– أشعر أن حياتي بعد هذا المشروع لن تكون قطّ على نفس الشاكلة. شيء في داخلي تحرّك عن موضعه، ثار وأحدث انقلابا. ولا أحسبه يعود إلى الرّكون مجددا.. إنه الوعي بقيمة ما بأيدينا من علم، ومسارات استغلاله المدهشة. هل كنت لأتخيل يوما أنني قد أكتب برنامجا لتسيير طائرة تجسّس، يستعملها المقاومون في غزة.. فتحلق فوق ثكنات جنود الاحتلال، تجتاز حواجزهم وتتقصّى أسرارهم العسكرية! أو تنقل طرودا إلى المخيمات المعزولة وتجتاز المساحة المشغولة بالمستوطنات بين غزة والضفة؟ هل يمكن لحياتي أن ترجع سخيفة تافهة كما كانت بعد هذا؟ لا أستطيع أن أفعل.. هذا طريق سالكه لا يبغي عنه رجوعا. من هنا بدأنا.. لكنّنا لا ندري إلى أي مدى قد نصل.

بادله عمر نظرة باسمة. لم يكن بوسعه أن يضيف شيئا على قوله. لقد نطق بما يعتمل في وجدانه وشرح إحساسه بدقّة.

– والآن ما هي الخطوة التّالية؟

سأل هيثم وهما يتناولان شرائح البيتزا.

- ستظلّ الألعاب عندي في الشّقة حتّى موعد الشّحن.

- ألا يساورك القلق؟

كلّما مضى قدمًا في اتّجاه الهدف، نمت شجرة القلق في داخله. الدّخول إلى غزّة لم يكن يومًا يسيرًا، وإدخال الشّحنة الخاصّة يبقى محفوفًا بالمخاطر.

- ما هو أسوأ شيء قد يحصل؟

قال عمر على الفور:

- أن تصادر حكومة الاحتلال شحنات الألعاب! في جميع الأحوال، الألعاب تُرسل على حدة في صيغتها الأساسيّة، ووحدات رفع الكفاءة تشحن بشكل منفصل. إذا صودر أحدها أو كلّها، تبقى خسارة محدودة ومقبولة.

- نكون قد حاولنا على الأقل.. ماذا أيضا؟

- أن تقع الآلات بعد تركيبها في يد جيش الاحتلال. طبعا، يمكنهم الوصول إلى شركتنا بطريقة أو بأخرى.. أو إلى الموزّع الصّيني. لكنّنا حتما سننكر علاقتنا بالأمر. نحن نصنّع الألعاب المتطوّرة ولسنا مسؤولين عن استخداماتها من قبل العملاء!

أومأ هيثم ببطء، ثم قال:

- المسافة بعيدة بين غزّة وفرنسا.. هل يقع الرّبط بهذه البساطة بين كلّ الأجهزة المصنّعة في أرجاء العالم وكيفيّة استغلالها من قبل المقاومة الفلسطينيّة؟ هذا لا يبدو منطقيّا.

تبادلا نظرة طويلة.

«نحن في أمان». يحاول أحدهما إقناع الآخر.. ونفسه.

لم يعد بالإمكان التّراجع الآن. بقيت خطوة واحدة بعد.

***

دلفت ياسمين إلى الشّقة بعد السّاعة الرّابعة بدقائق قليلة. علّقت معطفها وحقيبة يدها عند المدخل، تخفّفت من ملابس العمل، ثمّ دخلت المطبخ. حضّرت لنفسها شطيرة تتناولها بسرعة لتُسكت جوعها، ثمّ تشرع في إعداد وجبة العشاء. عبرت الصّالة نحو ركن الطّعام، وجلست قرب النّافذة المشرفة على الحديقة الخلفيّة. أخذت تقضم شطيرتها وتلوكها ببطء وقد سرحت نظراتها إلى الخارج.

صار هيثم شديد الانشغال في الفترة الأخيرة. المشروع يأخذ من وقته الكثير، حتّى أنّه أخذ إجازة بدون راتب لشهرين ليتفرّغ لمشروعه وعمر. مازال يعمل عن بعد معظم الوقت، لكنّه يتأخّر في العودة كلّما سافر إلى باريس.. ويغيب لساعات طويلة في عطلة نهاية الأسبوع حين يزوران أهله. تنهّدت وهي تسرح بنظراتها عبر زجاج النّافذة. تأمّلت شجيرات الورد التي لم تقلّم منذ زمن. ستذكّره بفعل ذلك قريبا.

انتبهت على صوت طنين غريب يزداد اقترابا وقوّة. رفعت عينيها إلى السّماء، فلمحت طائرة صغيرة تبدو مثل ألعاب الأطفال، تنزل بشكل عموديّ مستقيم لتحطّ على العشب في حديقتها الخلفيّة!

تركت مقعدها، فتحت باب الشّرفة وسارت حتّى موقع الطّائرة التي انطفأ محرّكها وتوقّفت عن الطّنين. انحنت لتلتقط اللّعبة في فضول. لم تكن قد رأت النّموذج سابقا، لكن يمكنها الجزم بأنّها واحدة من الطّائرات التي يعمل هيثم على برمجتها.

انتبهت إلى علبة الكرتون الصّغيرة التي تلتصق بخطّاف أسفل الطّائرة. سحبتها برفق، لتقرأ الاسم الذي كُتب عليها:

«إلى ياسمين»!

رفعت حاجبيها في استغراب، ثمّ فتحت العلبة وقد تملّكها الفضول، لتجد بداخلها وردة حمراء، وبطاقة. قرأت الرّسالة المدوّنة في دهشة متزايدة:

«دمت كلّ يوم الوردة التي تعبق بأريجها حياتي.. زوجك المحبّ»!

همست في شكّ:

– هيثم؟

لم يكن اليوم عيد زواجهما، ولا عيد ميلادها.. ولا ذكرى لقائهما الأوّل! حاولت أن تجد سببا مقنعا لتلك الرّومانسيّة المفاجئة، لكنّها لم تفلح. تناولت هاتفها واتّصلت به على الفور:

– هل وصلت؟

– ليس بعد!

تفقّدت ساعتها، إنّها الرّابعة النّصف وحسب. لا يمكن أن يكون قد رجع مبكّرا إلى تلك الدّرجة. لكن تلك الطّائرة في حديقتها الخلفية.

– وصلك الطّرد؟

كانت في صوته نبرة استمتاع. قالت متسائلة:

- هل تقصد الطّائرة؟ نعم إنّها عندي.

- وصلت إذن! ممتاز.. هذا رائع! هل هبطت في الحديقة؟

- نعم.. على العشب.

سمعته يهتف لعمر:

- جهاز الملاحة دقيق بشكل مدهش!

سألت في شكّ:

- نعم.. سأنطلق قريبا. هل توصين بشيء؟

- سلامتك.

أنهت الاتّصال وهي في حيرة. أيمكن أن تصل الطّائرة إليها من باريس؟ لعلّ شركة توصيل قامت بشحنها ثمّ أطلقتها عند الباب؟

سرعان ما نسيت أمر الطّائرة، لكنّها لم تنس كلمات الغزل التي جلبتها الطّائرة. فكّرت أن تضع لمسات رقيقة على العشاء. قطفت بضع وردات من الحديقة ورصّفتها في مزهريّة، أضاءت شمعات ذات رائحة زكيّة ووضعتها على المائدة.. ثم عادت إلى المطبخ لتشرع في إعداد وجبة عشاء فاخرة!

سارت رانيا في ممرّات الجامعة وعيناها تحومان في كلّ اتّجاه، بحثًا عن «بطل حرب النّجوم» الذي باتت تراسله عبر البريد الالكترونيّ.

كانت البداية، بسبب عثوره على سيلين. ثمّ استمرّت بينهما الرّسائل بشكل يوميّ تقريبا.. مثل فضفضة بين صديقين. بشكل غريب، وجدته أكثر لطفا في رسائله منه في التّواصل المباشر! لم يكن يتعمّد إغاظتها ولا تعكير مزاجها.

تحدّثا عن أشياء كثيرة، يتحدّث فيها المراهقون عادة. الفرقة الموسيقيّة المفضّلة، وفريق كرة القدم، لاعب التّنس المفضّل، مسلسل الرّعب الأكثر حماسا، البلد الذي يتمنّى كلّ منهما زيارته.. ووجبته المفضّلة!

بعد فترة، أصبحت تغربل الأخبار التي تنقلها إلى سكينة، وتحتفظ ببعض التّفاصيل لنفسها. داهمها إحساس بأنّها تتجسّس على شابّ وتنقل أخباره إلى والدته خلسة. ولم يكن ذلك يروقها. إنّها تحبّ سكينة، لكنّها لا تقبل على نفسها لقب «الجاسوسة»!

– ها أنتِ! ما الأمر الهامّ الذي لا يُكتب في رسالة؟

أزعجتها لهجته المتهكّمة. كان يعود ليكون كزافيي الذي تعرفه.. وهو يختلف عن الولد الظّريف الذي تبادله الرّسائل! كان ذلك مربكا وكريهًا في آن. قالت بلهجة جادّة:

– سكينة ستحاول استعادة حضانة سيلين. ستمثل أمام المحكمة.. لعلّها تكون فرصتها الأخيرة. لذلك...

قاطعها بجفاف:

– هل هذا ما أردت رؤيتي من أجله؟

حدّقت فيه غير مصدّقة:

- وهل هناك أهمّ من هذا؟

وضع كفّيه في جيوبه في حركة لامبالية وقال بلهجة هجوميّة:

- ما المطلوب منّي؟

- سكينة تحتاج مساندتك.. هل بوسعك الشّهادة أمام المحكمة؟

رمقها بنظرة طويلة وبدا منهمكا في تفكير عميق، ثمّ أضاءت قسماته وهو يهتف:

- عندي فكرة أفضل! قد أقنع والدتي الحقيقيّة باحتضانها!

فغرت فاها في صدمة، وحدّقت فيه مبهوتة. كانت فكرته تنمّ عن قسوة شديدة وكراهية لا حدّ لها. تمتمت في انزعاج وهي تبتعد بخطوات سريعة:

- انس أنّني طلبت منك أمرًا!

دلفت إلى الشّقّة وشعور الغيظ لما يخفت داخلها. ذلك الفتى البغيض، أين تعلّم أن يكون جلفا فظّا بلا رحمة؟ فوجئت بياسمين تتوسّط رنيم وسكينة وقد غشيهنّ انطلاق وسرور. هتفت وهي تنضمّ إليهنّ:

- أرى أخبارًا سارّة في الأفق.. بشّرن!

هتفت سكينة وعيناها تتلألآن سعادة كأنّ الخبر يخصّها:

- ياسمين حامل!

- ولد أم بنت؟

همست ياسمين ببهجة لا تخفيها:

- لا أدري بعد.. كلاهما عندي سواء!

جلست رانيا إلى جوارها وقالت في حماس:

- لو كانت بنتا، ماذا تسمّينها؟

- أحبّ اسم جويرية، وهيثم يفضّل آمنة!

حملقت فيها رانيا في استغراب ثمّ هتفت:

- جويرية وآمنة؟ وأمّها ياسمين؟

ارتفعت ضحكات الفتيات، ثمّ قالت رنيم:

- وماذا لو كان ولدًا؟

- نتّفق أنا وهيثم على اسم واحد.

قاطعتها رانيا في عجل:

- لا تقولي بصوت عالٍ، اهمسي في أذني!

ثمّ أدنت رأسها من شفتيها، فهمست ياسمين. رفعت رانيا ذراعيها وهتفت:

- جميل.. دوركما لتحزرا الاسم!

أخذت رنيم وسكينة تطرحان الأسئلة ورانيا تجيب:

- قديم أم حديث؟

- عابر للعصور!

- اسم مركّب أم لفظ واحد؟

- مركّب!

- هل له سميّ في التّاريخ؟

- نعم!

- المعاصر أم الغابر؟

- الاثنان! الآن احزرا!

***

وصلت فاطمة إلى مطار باريس «أورلي» مساء يوم السّبت. كانت في استقبالها ياسمين وهيثم، ترافقهما زهور. تداولوا على عناقها مرحّبين، قبل أن يستقرّ بهم المقام في سيّارة هيثم.

- كيف أنت؟ وكيف هو الجنين؟

ابتسمت ياسمين في ضعف، وقالت مهوّنة:

- سنكون بخير.

بدأ الأمر بنزيف خفيف، تبعته آلام بطن حادّة. بعد زيارة الأسبوع الماضي لطبيبة النّساء، ألزمتها بالرّاحة التّامّة. أخذت إجازة مرضيّة من عملها، وبقيت في البيت، حتّى جاءت والدتها لترعاها إلى أن يحين موعد ولادتها.

تمتمت زهور في استياء:

- هؤلاء هنّ بنات اليوم.. يرهقن أجسادهنّ ويتكبّدن مشقّة فوق طاقتهنّ من أجل الخروج للعمل.. ثمّ ينتهين طريحات الفراش! ما كان عليك يا حبيبتي لو نأيت بنفسك عن هذا منذ البداية، وحفظت نفسك وولدك!

تمعّر وجه ياسمين ولم تردّ، فقال هيثم مترفّقا:

– ياسمين تعمل في مكتب مريح، ومكان عملها قريب من البيت.. لا تركب وسائل نقل ولا تجهد نفسها.. لكنّ هذا قضاء الله. بعض الحمل يكون أكثر مشقّة من غيره.. عسى أن يكتمل على خير!

لوت زهور شفتيها في عدم اقتناع، وأمّنّ جميعا على دعائه.

كانت قد أنهت شهورًا ستّة، وقطعت أيّاما قليلة في الشّهر السّابع. عليها أن تحافظ على جنينها في مكمنه شهرين بعد، حتّى تكون الولادة طبيعيّة.
توقّفت السيّارة عند منزل زهور التي أصرّت أن يكون العشاء عندها، بينما كان هيثم يستعجل المضيّ قبل هبوط الظّلام. يُدرك أنّ والدته تتحايل عليهم ليمضوا اللّيلة عندها. ولولا تعب ياسمين لما استجاب. لكنّها لا تتحمّل السّفر الطّويل بالسيّارة. ولعلّ فاطمة أيضا ترجو تلك الجلسة الرّائقة مع صديقة عمرها قبل أن ترتدي عباءة الأمّ وتشرع في رعاية صغيرتها الوحيدة.

انتبهت ياسمين على رنين هاتفها بينما يُنزل هيثم حقائب والدتها المثقلة كما العادة بأطايب الوطن وخيراته. ردّت على اتّصال رنيم بحفاوة:

– قلقت عليك.. ماذا قالت الدّكتورة؟

– عنق الرّحم مفتوح بشكل مبكّر.. يجب أن أحظى بالرّاحة التّامّة...

ضحكت رنيم لتسرّي عنها:

– الزمي السّرير إذن، وتصرّفي كالملكة!

ابتسمت ياسمين وهي تتحسّس بطنها المتحجّر بعد ساعة أمضتها جالسة منذ المطار، بينما أضافت رنيم:

– كنت لأطلب منك الحضور للشّهادة في قضيّة سكينة.. لكنّ وضعك لا يسمح بذلك الآن. لا عليك.. لدينا عدد كافٍ من الشّهود.

تمتمت ياسمين في اعتذار:

– متى تتوقّعين أن تكون الجلسة؟

تنهّدت رنيم:

– لا أدري بعد.. إنّهم يماطلون بشكل مزعج!

هذا ما يفعلونه تحديدًا. لقد جمعت الوثائق وقدّمت ملفّا متكاملا منذ شهور، حتّى تحظى سكينة بإعادة نظر في حكم الإبعاد عن طفلتها. لكنّ المحكمة تتعلّل بكثرة القضايا المدرجة في جدولها، وترفض تحديد موعد الجلسة بعد!

– عسى أن أكون أفضل حالا حين يأتي الموعد.

***

مضت الأسابيع سريعة، تتدافع أيّامها محمّلة بدفقات من الأمل والخشية. أصبحت الألعاب متاحة في السّوق، تتصدّر واجهات المحلّات المختصّة، وتلقى القبول والاستحسان. كان نجاحًا تجاريًا حقيقيًا.. بالإضافة إلى الرّضا الذي يجلبه النّشاط الخفيّ الموازي.

جاء صوت عائشة عبر الأثير محمّلا بموجات الفرح:

– جاءتنا تأشيرات الدّخول إلى فرنسا اليوم! لقد انتظرت طويلا حتّى تقرّ عيني بك عريسًا.. عسى أن أسعد قريبا برؤيتك وعروسك سعيدين مباركين!

أصغى عمر إلى كلماتها في ارتياح ثمّ قال:

– كوني جاهزة خلال أسبوع.. سأحجز تذاكر السّفر لتحضري والأولاد قبل الزّفاف بفترة كافية. أريد أن آخذكم في سياحة بين المعالم الباريسيّة!

اتّفقا على المواعيد، ثمّ أنهى عمر الاتّصال وقد ملأه صوت شقيقته المرتعش فرحًا وحبّا ودعواتها الحارّة بالفلاح والصّلاح انتعاشًا وبشرًا.

كان قد زار آية ووالدها منذ أسبوعين. نجاح المشروع الذي شغله في الشهور الماضية كان يجب أن يُتوّج بفرح عارم وعائليّ.. ولم يكن هناك أفضل من عقد قران وزفاف متتابعين، ليجتمع أفراد العائلتين والأحباب والأصحاب، يشاركونه سعادته بالاستقرار والاطمئنان.

انتبه حين أخذ هاتفه يومض معلنًا اتّصالًا صباحيًا من شريكه.

– أنا قادم على الفور!

فكّر عمر وهو ينزل الدّرجات قفزا، حتّى ينضمّ إلى هيثم أمام المبنى، أنّ السّنة الماضية كانت إعادة تأهيل لروحه وقلبه، وتلك السّنة كانت تحقيقا لطموحاته وتتويجًا لجهوده المتراكمة منذ تخرّج في الجامعة. كان يشعر بأنّه يسترجع ذاته القديمة، بل يعزّزها لتكون نسخة أفضل.

داعبه هيثم وهما يتصافحان:

– تبدو منتشيًا اليوم على غير العادة. هل تحوّل الرّضا إلى شيء آخر؟

– تهانينا.. لقد وصلت الشّحنة إلى وجهتها.

حملق فيه هيثم غير مصدّق، ثمّ تمتم في تأثّر:

– حمدًا لله!

كان عمر قد تلقّى اتّصالا مساء الأمس من أبي الحسن. عبرت الألعاب إلى غزّة، في حين سبقتها الأجهزة التكميليّة في الوصول منذ يومين. أمّا تعليمات التّجميع والتّشغيل فأرسلت بشكل منفصل في حقيبة سفر أحد التّجار المنتظمين عبر معبر رفح.

ابتسم عمر في غموض وقال وهما يمشيان في اتّجاه السيّارة:

– سيّدي المدير، أحتاج إجازة مطوّلة.. ثلاثة أسابيع على الأقل.

رفع هيثم حاجبيه في دهشة، ثمّ ما لبث أن استوعب، فهتف في فرح:

– أخيرًا ستدخل القفص الذّهبيّ يا أخي! مبارك! هل حدّدت الموعد؟

– بعد أسبوعين.. أهلي قادمون من المغرب خلال أسبوع إن شاء الله، وأحتاج التفرّغ للاهتمام بضيافتهم...

لم يفاجئه الموعد القريب، فقد كانت العروس جاهزة منذ أمد، والحفل العائليّ المضيّق لا يتطلّب تحضيرات كثيرة. لقد أجّل عمر زفافه منتظرًا استقرار المشروع بشكل كامل، والآن لم يعد هناك ما يمنعه من الاحتفال. أومأ هيثم موافقا:

- حقّك! لا بأس بذلك.. على الأقلّ نأخذ إجازاتنا في أوقات متباعدة، لضمان استمراريّة العمل في الشّركة.

جلس هيثم وراء عجلة القيادة وركب عمر إلى جواره، ثمّ التفت إليه في اهتمام:

- هل اقترب موعد الوضع؟

- الحمل في الشّهر الثّامن بعد.. آمل أن يظلّ مستقرّا حتّى التّاسع.

- خيرا إن شاء الله.. ماذا قرّرت أن تسمّيه؟

شغّل هيثم المحرّك فتقدّمت السيّارة عبر الشّارع الهادئ على مهل. قال في فخر:

- عزّ الدّين!
- ما شاء الله! عسى أن يكون له نصيب من اسمه!

ضغط هيثم على الفرامل في حدّة لتتوقّف السيّارة بشكل مفاجئ. هتف عمر في قلق:

- ما الأمر؟ ما لك توقّفت؟

- تلك الشّاحنة!

رفع عمر عينيه ليبصر الشّاحنة السّوداء التي خرجت فجأة من الطّريق المتعامد دون احترام لقواعد المرور. حدّق في زجاجها المظلم الذي يخبّئ ملامح السّائق، ثمّ توجّه بصره ناحية السيّارة الثّانية التي فرملت بدورها بصوت مزعج، وهي تدخل الشّارع من

الاتّجاه المعاكس. توقّفت على بعد خمسة أمتار من موقع سيّارة هيثم، ونزل زجاج نوافذها الأماميّ والخلفيّ من النّاحية التي يراها هيثم وعمر بوضوح.

كان كلّ شيء سريعًا ومباغتًا.

شلّت الصّدمة حركات عمر وهيثم وأخرست لسانيهما وغشيهما خدر شامل. لبثا يتابعان المجريات في شبه غياب، وكأنّما قد انفصلا عن المشهد الغريب الذي يسري إزاءهما.

خلف زجاج النّوافذ، ظهر وجهان متواريان وراء نظارات شمسيّة عريضة تخفي قسماتهما الأوروبيّة. ثمّ، وبشكل غير متوقّع، ارتفعت فوّهات مسدّسات مزوّدة بكاتم للصّوت، لينطلق وابل من الرّصاص في اتّجاه مباشر وعن سابق إصرار وترصّد.

انهمرت الرّصاصات القاتلة مثل المطر. أنّ عمر في ألم حين أصابته الرّصاصة الأولى، ثمّ انكفأ على وجهه ليرتطم رأسه بلوحة قيادة السيّارة. أحصى عشرين رصاصة، ارتدّ بعضها بعد اصطدامه بهيكل السيّارة، في حين شقّ آخر زجاجها وعبره في اتّجاه الهدف.

قبل أن يغيب عن العالم، كان آخر ما وقعت عليه عيناه، صاحبه المضرّج بدمائه.

-٢٧-

ارتفع رنين الهاتف بصوت مزعج شقّ فضاء أحلامها. تمطّت رنيم في كسلٍ وهي تمدّ ذراعها لتلتقط هاتفها الذي يومض بإلحاح ويهتزّ على المنضدة القريبة عند رأسها. ألقت نظرة على السّاعة قبل أن تردّ على الاتّصال الوارد. التّاسعة والنّصف صباحًا.

- مرحبا!

غمغمت بصوت ملؤه النّعاس.

– رنيم، هل أنت نائمة؟

– نعم، لقد أويت إلى السّرير في وقت متأخّر.. ألم نتّفق على أن آخذ اليوم إجازة؟

هتف جورج في اعتذار:

– أعلم.. لم أنس ذلك. لكنّ المسألة عاجلة. وصلني اتّصال من المركز الصحيّ بالضّاحية الجنوبيّة. نُقل إليهم أحد عملائنا، مصابًا بطلق ناريّ. وجدوا بطاقتي بين متعلّقاته الشّخصيّة، ولم يتمكّنوا من الوصول إلى عائلته.. وأنا في طريقي إلى المحكمة. لن يمكنني أن أتفرّغ لمعاينة الوضع.

تمتمت رنيم وهي تستقيم جالسة:

– بالتّأكيد.. سأذهب. ما اسم العميل؟

– عمر الرّشيدي.

كانت تمسك قلمًا وتهمّ بتدوين الاسم على قصاصة ورق. لوهلة، التبس الأمر عليها. شعرت أنّها تختبر كابوسًا قديمًا، تهبّ نفحاته بقسوة مرّة أخرى.

– هل سمعتني؟

– نعم. بالتّأكيد.. سأتقصّى الأمر.

أنهت الاتّصال ثمّ زفرت بقوّة. طلق ناريّ؟ في أيّ مصيبة جديدة أقحمت نفسك يا عمر؟ ثمّ انقبض صدرها. لم يقل جورج أيّ درجة من السّوء كان عليها الوضع.

تململ شهاب على السّرير إلى جوارها، ثمّ فتح عينيه. بادلته بسمة ناعسة، ثمّ عادت إلى وضع الاستلقاء مجبرة أساريرها على استرخاء لا تشعر به.

كان قد وصل مساء الأمس إلى باريس، فتركت شقّتها مثل كلّ مرّة ليمضيا فترة زيارته في فندق يقع في الدّائرة التّاسعة، حيث الحياة اللّيليّة تتميّز بالحيويّة، والفرص كثيرة لقضاء مساءات ممتعة، بعد أن تكون قد صرفت معظم أشغالها. تحاول في كلّ مرّة تفريغ يومين أو ثلاثة بالكامل ليغتنما أكثر ما يمكن من الوقت معًا. لكنّ إجازة اليوم تبدأ بشكل سيّء.

همست في دلال وهي تداعب أطراف خصلاته بأناملها:

– عد إلى النوم، سأغيب ساعتين على الأكثر وأرجع حتّى نتناول الإفطار معا.

رفع حاجبيه في دهشة. لم يكن هذا ما أعلنته بالأمس، حال وصوله.

– ألست في إجازة؟

تنهّدت ثمّ قالت في أسف:

– إنّها حالة عاجلة. لن أتأخّر!

طبعت على وجنته قبلة سريعة، ثمّ انسلّت من السّرير. ارتدت ثيابها على عجل وسرّحت شعرها المتموّج وهي تطالع وجهها في المرآة بنظرات يسكنها القلق.

استقبلتها خارج مبنى المستشفى أفواج من الصّحفيّين الذين ينتظرون تصريحات طازجة بشأن حادث إطلاق النّار. شقّت طريقها إلى الدّاخل، يطاردها صوت مراسل إحدى القنوات التّلفزيّة ينقل المستجدّات في بثّ مباشر:

– وصل المصابان منذ ساعة إلى مستشفى الضاحية الجنوبيّة، ولازلنا ننتظر توضيحات أكثر من الجهات الأمنيّة عن حقيقة المنفّذين ودوافعهم...

تجاوزت الزّحام وهرولت عبر ممرّات المستشفى حتّى وصلت عند قسم الطّوارئ. هتفت لاهثة:

– عمر الرّشيدي.. كيف حاله؟

– هل أنت من عائلته؟

– محاميته.. لقد وصلنا اتّصال من طرفكم.

– انتظري رجاءً.

غابت الممرّضة لدقيقتين، ثمّ رجعت وبرفقتها أحد الأطبّاء. سألها في اهتمام من جديد:

– هل أنت من عائلة المصاب؟

أظهرت ببطاقتها المهنيّة وهي تقول:

- أنا محامية.

كانت تدرك ضرورة التكتّم الذي يلتزم به الطّاقم الطبيّ أمام الاهتمام الإعلاميّ الكثيف بالحادثة.

- لن أخفي عنك.. الحال سيّئة. لقد وصل مصابان بطلقات ناريّة عديدة لكلّ منهما.. أدخلنا الأوّل إلى الجراحة فورًا نظرًا لإصاباته الخطيرة.. السيّد عمر تحت الملاحظة، لكنّه فاقد للوعي. لم نستطع إدخاله إلى الجراحة على الفور.. لأنّ طاقمنا غير مكتمل اليوم. ننتظر قدوم الجرّاح في وقت قريب.

قاطعته في لهفة:

- كيف هي الإصابة؟

- لحسن الحظّ، الرّصاصات لم تصب الأعضاء الحيويّة.. رصاصتان على مستوى الكتف، ثالثة على الذراع.. وأخرى أصابت عظم الترقوّة.. لكنّه فقد دمًا كثيرًا.

- هل يمكن نقله إلى مستشفى آخر؟

- أخشى أنّ نقله سيزيد من تأزّم الحالة. من الأفضل أن ننتظر وصول الجرّاح.

أومأت في استسلام، ثمّ خطت في وهن نحو مقاعد الانتظار. شعرت بركبتيها تخونانها. ألقت بجسدها على الكرسيّ الأقرب إليها، ثمّ زفرت لتخفّف تشنّج أعصابها.

أيّ مصيبة هذه؟ أربع رصاصات؟ هذا يبدو مثل حرب عصابات! لم تستطع أن تفكّر في أيّ شيء آخر. كلّ ما خطر ببالها حين اتّصل جورج هو احتمال إصابته برصاصة طائشة، لا يمكنها توقّع ظروف وصولها إليه، لكنّه احتمال أقلّ تشاؤما. كيف

يمكن لشخص سويّ وطبيعيّ، دكتور محترم ومسالم أن يتلقّى ذاك العدد من الطّلقات دون أن يكون مستهدفا بشكل شخصيّ؟

مرّت الدّقائق طويلة وثقيلة. بعد نصف ساعة، عادت إلى مكتب التّمريض. سألت في توتّر:

- هل وصل الجرّاح؟

- للأسف، لديه جراحة مجدولة بشكل مسبق في مشفى آخر.. إنّنا نحاول إيجاد بديل.

- بسرعة أرجوك!

هزّت الممرّضة رأسها في تفهّم، ثمّ انبرت تجري اتّصالات شتّى بحثًا عن الجرّاح المنشود.

عادت إليها رنيم بعد أن انقضت ساعة كاملة على ترقّبها في صالة الانتظار. فهزّت الممرّضة رأسها في أسف وقالت:

- إن كان محظوظا، فستنتهي الجراحة الأولى في وقت قريب...

في تلك اللّحظة، لمعت في رأسها فكرة مجنونة. قالت رنيم في حزم:

- هل إذا جئتكم بجرّاح، تسمحون له بإجراء الجراحة؟

أجرت الممرّضة اتّصالا سريعا، ثمّ قالت:

- نظرًا للحالة الحرجة، وافقت إدارة المستشفى!

على الفور، تناولت رنيم هاتفها. قالت حين وصلها صوت مخاطبها:

- شهاب.. أحتاج منك معروفًا. هل يمكنك القيام بجراحة عاجلة الآن؟

*

هرولت لتلتقيه عند مدخل المستشفى. لم تكن تفعل شيئا منذ الصّباح غير المراوحة بين قاعة الانتظار والرّكض في الممرّات. في الخارج، لم يبرح الصّحفيّون مواقعهم رغم غياب أيّ جديد. هتفت وهي تشدّ ذراع زوجها في امتنان:

- شكرا لمجيئك بهذه السّرعة.

- ما الذي يجري هنا؟

- سأشرح لك لاحقا.. ليس أمامنا وقت نضيّعه.

كانت قد أرسلت إليه العنوان منذ نصف ساعة، فارتدى ثيابه على الفور وطلب سيّارة أجرة. كانت تلك الوسيلة الأسرع. لبّى طلبها دون تردّد ولم يسأل عن التّفاصيل. لقد بدت منهارة على الهاتف وعلى وشك البكاء. الآن، وهو يسير برفقتها في ممرّ المستشفى، يراوده فضول غريب تجاه هويّة المصاب الذي تتأثّر بسببه إلى تلك الدّرجة. لم يكن عميلا عاديّا.. هذا مؤكّد.

استقبله مدير المستشفى في مكتبه. تأكّد من وثائق هويّته وبطاقته المهنيّة، وسأله عن خبراته السّابقة، ثمّ جعله يمضي على تعهّد بتحمّل مسؤوليّة ما يجري في قاعة الجراحة كاملا دون محاسبة إدارة المستشفى. وقّع شهاب على مضض، لكنّه مضطرّ لاتّباع الإجراءات القانونيّة.

بعدئذٍ، توجّه إلى غرفة التّعقيم. وقفت بجواره ممرّضة، حيّته بإشارة من رأسها، ثمّ ساعدته على ارتداء سترة الجراحة المعقّمة وأدوات الحماية، ثمّ دلف إلى غرفة الجراحة. كان طبيب التّخدير بالدّاخل، والمصاب مسجّى على طاولة العمليّات.

- دكتور، كلّ شيء جاهز.. هل نبدأ؟

أومأ موافقا، ثمّ خطى باتّجاه ساحة معركته. تطلّع إلى وجه المريض الذي يختفي تحت قناع التّخدير، ثمّ عادت نظراته إلى جسده الذي كُشف جزؤه العلويّ، حيث علقت الرّصاصات. لو أنّه أخطأ ملامحه، فلا يمكنه أن يخطئ أمارات الحروق الباهتة التي خلّفتها عمليّات تجميل متكرّرة. تنهّد. ثمّ شرع في إعطاء أوامره إلى طاقم الجراحة المرافق له.

*

عادت إلى غرفة الانتظار مكرهة. ما حسبته زيارة سريعة وخفيفة قد غدا مشوارًا طويلا ومرهقًا. غاب شهاب بالدّاخل منذ ساعتين، اتّصل خلالها جورج ليطمئنّ إلى المستجدّات. ثمّ جاء رجلا شرطة ومحقّق. تحدّث المحقّق إلى الطّاقم الطبيّ، ثمّ جلس ينتظر هو الآخر.

اقتربت رنيم في هدوء وسألت:

- هل أنت هنا من أجل حادثة إطلاق النّار؟

- أنت تعرفين المصابين؟

- أنا محامية أحدهما.. الدكتور عمر الرّشيدي. هل عرفتم من الفاعل؟

هزّ رأسه علامة النّفي، ثمّ أردف:

– لقد أخذنا مواصفاتهم من شهود عيان، ونحن نسعى في إثرهم. هل تعلمين إن كان للضّحيّة عداوة معروفة؟

هزّت كتفيها وهي تقول:

– لا أظنّ أنّ لديه عداوات بتلك القوّة! أقصد، في مجال البحث العلميّ، قد تحصل مناوشات وتنافس على المشاريع.. لكنّ الأمر لا يصل إلى إطلاق النّار!

– ماذا عن المصاب الثّاني؟ لقد كانا يركبان سيّارته أثناء الحادثة.. هل تعرفين طبيعة علاقته به، هيثم الأندلسي؟

– من؟

فغرت رنيم فاها غير مصدّقة. هيثم؟ تأتأت في ذهول وقد رحلت أفكارها إلى ياسمين:

– إنّهما.. صديقان.. أنت متأكد؟ هذا اسم المصاب؟ يا إلهي.. عن إذنك!

غادرت المقعد على عجل. أمسكت هاتفها تحدّق في شاشته بكفّ متحجّرة. إنّها تجلس هنا منذ ساعات، ولم يخطر ببالها أن تسأل عن هويّة مرافق عمر. الآن، عليها أن تبلّغ ياسمين بالحادثة.. وهي لا تعرف كيف تفعل!

على الشّاشة العملاقة التي تتوسّط بهو المستشفى، كانت نشرة الأخبار تنقل مشاهد من موقع الحادثة. ظهرت سيّارة هيثم التي تهشّم زجاجها الأماميّ والأيسر من جهة السّائق كليّا، وعلقت رصاصات كثيرة بهيكلها. كان المراسل يحادث المارّة، لعلّهم يصفون تفاصيل الأحداث التي شهدوها. لكنّها لا تسمع شيئا فالصّوت مكتوم. تقرأ عنوان الخبر العاجل:

«إطلاق نار إرهابيّ في حيّ سكنيّ جنوب العاصمة».

كان عليها أن تعجّل بإخبار ياسمين، قبل أن يصلها النّبأ بطرق أخرى أشدّ قسوة!

***

لم تر هيثم ذلك الصّباح. خرج مبكّرا كعادته، بينما نامت حتّى وقت متأخّر كعادتها منذ بداية الحمل. تذكر بشكل مشوّش وجهه القريب وكلمات همس بها إليها قبل مغادرته. لم تكن واثقة، ربّما كون المشهد الضّبابيّ جزءًا من حلمها.

تركت سريرها، وخطت برفق باتّجاه المطبخ، وهي تدفع بطنها المنتفخ أمامها. أحسّت بوخزات مفاجئة وبتصلّب عضلاته. تأوّهت وهي تقترب من الأريكة وتلقي بجسدها عليها.

السّاعة قد تجاوزت العاشرة. تسمع ضوضاء قادمة من المطبخ. إنّها لا شكّ فاطمة، تحضّر وجبة الغداء. ابتسمت وهي تتمالك نفسها لتقف من جديد. أصبحت متواكلة جدّا منذ وصولها. سارت ببطء حتّى أشرفت على باب المطبخ. همست برفق:

- أنت مبكّرة كعادتك!

التفتت إليها أمّها وهتفت في دهشة:

- لماذا غادرت السّرير؟ الإفطار جاهز.. سأحضره إلى هناك.

- لقد أردت التحرّك قليلا.. أشعر بالخمول. هلّا جلسنا في الشّرفة؟ الطقس جميل اليوم...

هزّت فاطمة رأسها في استسلام. جفّفت كفّيها، ثمّ تناولت طبق الإفطار ولحقت بها إلى الشّرفة. جلستا متقابلتين، تحتسيان القهوة على مهل، وتقضمان من قطع التوست المدهون بالمربّى والزّبدة.

لم تكن الشّقة كبيرة، لكنّ فاطمة تحبّ أن تشعر بفائدتها، فتنشغل لساعات في أعمال البيت، ترتّب الغرف وتفتح نوافذها للتّهوية، تبسط الشّراشف في الشّمس وتنفض السّجاد، تكنس ثمّ تمسح الأرضيّة، تزيل الغبار، ثمّ تنشر الغسيل، ترتّب الملابس وتقضي معظم وقتها في المطبخ، بين طهو وغسيل أوانٍ وتجفيف وترتيب لها. كأنّها خلقت لتفعل ذلك طيلة اليوم بلا كلل أو ملل.

في الأثناء، تستلقي ياسمين على الأريكة، مجبرة على الرّاحة رغما عنها، بين كفّيها كتاب تتصفّح فيه قليلا، ثمّ تسرح طويلا عبر زجاج الشّرفة، ترقب الحمام وهو ينقر الحبّ الذي تنثره كلّ صباح من أجله. ومن حين إلى آخر، تداهمها آلام متقطّعة، فتحبس أنفاسها حتّى تنقضي.

قبيل الثّانية ظهرا، ارتفع رنين هاتفها. ابتسمت حين لمحت اسم رنيم على الشّاشة. ردّت وهي تنهج محاولة السّيطرة على ألمها:

- رنيم.. كيف حالك؟

فزعت رنيم حين وصلها صوتها ضعيفًا واهنًا. هتفت في شكّ:

- ياسمين.. هل وصلك الخبر؟

لعلّها حسبت أنّ أحدهم -أيّ أحد- قد كفاها مؤنة زفّ الخبر الأليم إليها، فلا تكون أوّل من يقذف الحزن في صدرها.

- أيّ خبر؟

تردّدت رنيم. لم يكن الأمر كما حسبت. صاحبتها في غفلة عن المصاب الذي حلّ بعائلتها. بحثت في عقلها عن الكلمات المناسبة لنقل الفاجعة. مهما حاولت الاستعداد، فإنّ فصاحتها ولباقتها لم تسعفاها أمام فداحة الموقف. همست بصوت مختنق:

- هيثم.. إنّه في المستشفى.

شعرت بصدمة ياسمين التي تاهت الحروف عن لسانها وتأتأت في اضطراب:

- هيثم؟ كيف..؟ ما الأمر؟

- هل بوسعك المجيء؟ سأمليك عنوان المستشفى...

دوّنت ياسمين العنوان بأنامل مرتجفة، ثمّ هتفت في قلق:

- ما الذي حصل؟ هل هو بخير؟

خمّنت رنيم أنّها كلّما عرفت أقلّ في الوقت الحالي، كان أفضل. قالت متمالكة نفسها:

- إنّه في الجراحة الآن. سنعرف أكثر حين يفرغون منها.

دوّت الكلمة في أذنيها كالصّاعقة. جراحة!

اقتربت فاطمة في اهتمام وهي ترمق سحنة ابنتها شديدة الشّحوب. همست وهي تعاينها:

- هل أنت بخير؟

كانت ياسمين تستمع إلى رنين مستمرّ في أذنها وتكرّر الاتّصال بهيثم رغم يقينها بانعدام الإجابة. انتفضت من استغراقها المظلم، وهبّت واقفة مغالبة وجعها:

- يجب أن نذهب إلى باريس الآن.. سنركب القطار!

كيف لمن هي في وضعها أن تخرج الآن وتركب القطار؟ لكنها كانت مصمّمة وعاقدة العزم. دخلت غرفتها، تضع عليها جلبابا ووشاحا بما وسعها من سرعة. لملمت دمعها قبل أن تتصّل بميساء. قالت في اقتضاب:

- هيثم في المستشفى.. سأرسل إليك العنوان. طمئنيني عنه حال وصولك!

في تلك اللّحظة، وهي تطالع وجهها المكفهرّ في مرآتها قبل الخروج، رنّت كلمات هيثم ذلك الصّباح في أذنها:

«يا أجمل ملاكين في حياتي، حفظكما الله».

***

لم تطمئنها ميساء. ظلّت طيلة رحلة القطار معلّقة البصر بشاشة الهاتف. لكنّه لم يرنّ. حاولت الاتّصال بهيثم مرارًا، لكنّ هاتفه مغلق. طبعا، إنّه في الجراحة! لم تقل رنيم أيّ نوع من الجراحات هي. لكنّها لم تكن مطمئنّة. خلال ساعة ونصف السّاعة، لم تتّصل ميساء ولا رنيم ولا هيثم.. ولم يردها أيّ خبر. مالت فاطمة نحوها وهمست بصوت ملؤه الجزع:

- ادعي له، فأنت على سفر.

تمتمت بخفوت، وكفّها على بطنها:

- يا ربّ، فليكن خيرًا.. يا ربّ!

ركبت سيّارة أجرة قبل القطار وبعده، وبعد ساعتين ونصف كانت تسير بساقين مرتعشتين عبر ممرّ المستشفى، تسندها فاطمة، حتّى أشرفت على قاعة الانتظار. طالعتها وجوه واجمة: والدي هيثم وشقيقيه، بالإضافة إلى رنيم. همست في جزع:

- كيف حاله؟

أجابتها العبرات المسترسلة على وجنتي زهور، والبحّة المتحشرجة في صوتها وهي تقول في أسى:

- الدّعاء الدّعاء يا بنيّتي!

تهالكت على مقعد قريب وقد استبدّت بها الرّجفة. اقتربت رنيم واحتضنتها بقوّة، تقاسمها لوعتها وحرقة فؤادها. بعد هنيهة، أفلتتها حين شعرت بتشنّجها. رنت إليها في قلق وهي تقول:

- ياسمين.. أنت بخير؟

لقد راودها ذاك الإحساس حين وصلها صوتها على الهاتف منذ ثلاث ساعات. لم تكن بخير. كان جبينها ينزّ عرقا باردًا، وكانت شفتاها مزرقّتين ومرتجفتين.

هبّت رنيم لتنادي إحدى الممرّضات، وحين عادت، تسمّرت نظراتها على جسد ياسمين المستسلم على المقعد، كأنّها على وشك الإغماء. لكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء. كان هناك خيط دقيق من الدّم الأسود يسترسل تحت مقعدها ويرسم بقعة يتّسع قطرها باستمرار. هتفت في هلع:

– إنّها تنزف!

-٢٨-

– هل بقي شيء من حلوى الفراولة؟

فتح هيثم الثّلاجة بحثا عن العلبة التي أحضرها بالأمس. كانت قد اختفت. نظر في شكّ إلى وجه ياسمين المتورّد حرجًا وذنبًا.

– هل التهمتها كلّها؟ القطع السّتّ؟

عضّت على شفتيها ثمّ رسمت ابتسامة معتذرة قبل أن تتمتم:

– طار عن جفنيّ النّوم ليلًا، وشعرت بالجّوع!

– فازدردت ستّ قطع من الكعك؟

حدّق فيها غير مستوعب، ثمّ وجّه بصره إلى بطنها وهمس:

– بدأ الوحم، سترك يا رب! بنيّ، هنيئا مريئا لك!

ضحكت في استمتاع، ثمّ قالت:

– تناول توست زبدة الفول السّودانيّ.. أنت تحبّها!

قال متذمّرا:

– أحبّها طبعًا.. حين لا يكون هناك حلوى فراولة في الثلاجة!

جلست إلى جواره ترقبه وهو يقضم شطيرته ويرتشف القهوة من حين إلى آخر، متظاهرا بالعبوس. قالت بعد لحظات:

– هل أخبرت خالتي زهور؟

ابتسم على الفور وقد ذهب انزعاجه:

– أريد أن أخبرها وجها لوجه، في استراحة الغداء!

أومأت في رضا، فأردف:

– هل تشعرين بالغثيان؟

ضحكت وقالت:

– ليس بعد!

– تشتهين شيئا إذن؟

ابتسمت ثمّ قالت في حرج:

– حلوى الفراولة، مرّة أخرى؟

*

فتحت ياسمين عينيها مفزوعة. يغمرها إحساس بالوهن. كانت تستلقي في استسلام على سرير المستشفى، تعلوها بطانيّة حراريّة ثقيلة. عند رأسها كانت فاطمة تقف بعينين دامعتين، وهي ترتدي مريلة المستشفى الزّرقاء وكمامة طبيّة.

– حمدًا للّه على سلامتك يا ابنتي!

كانت آخر ذكرى لها قبل أن تهوي في غيبوبة عميقة، الممرّضات وهنّ يهرولن ساحبات سريرها ذي العجلات، وهي مستسلمة لا حول لها ولا قوّة، ثمّ صوت طبيب التّخدير وهو يعلن في أذنها: «مضطرّون لجراحة عاجلة، ستنامين الآن».. قبل أن يطبق قناع التّخدير على وجهها.

همست بخفوت:

– عزّ الدّين؟

– إنّه بخير.. أخذوه إلى المحضنة الصّناعيّة. سترينه قريبا.

أومأت بضعف، والعبرات تتسرّب من مدامعها بلا إرادة منها. اقتربت الممرّضة لتطمئنّ إلى مؤشّراتها الحيويّة، ثمّ قالت:

- لقد انخفضت حرارتك أثناء الولادة القيصريّة، لكنّها آخذة في الصّعود الآن. استرخي قليلا بعد، ثمّ ننقلك إلى غرفتك.

- كيف هو الطّفل؟

- حصل على سبع علامات من عشرة في اختبار «أبغار» (Apgar) لحديثي الولادة.. وهذا يعتبر مرتفعا بالنّسبة إلى مولود سابق لأوانه! أهنّئك.. إنّه طفل بهيّ الطّلعة، وبصحّة جيّدة!

شكرتها ياسمين في تأثّر، ثمّ همست لفاطمة بصوت مرتعش:

- هيثم؟

هزّت فاطمة رأسها في أسف. لا شيء جديد.. قبل أن تنسحب ياسمين تدريجيّا إلى سبات عميق بفعل المخدّر الذي مازالت تحت تأثيره.

*

خرج شهاب من قاعة العمليّات بوجه شاحب وملامح مرهقة. هرولت إليه رنيم، فهزّ رأسه بابتسامة مطمئنة:

- ذهب الخطر.. فلننتظر استيقاظه الآن.

بعد دقائق، خرج الجرّاح الآخر الذي أنهى عمليّته المعقّدة بدوره. لكنّ ملامحه بدت أقلّ ارتياحًا. قال بصوت متعب:

– لقد أخرجنا الرّصاصات كلّها.. وحاولنا إصلاح ما أفسدته من أنسجة وأعصاب. لكنّنا لن نعلم يقينا مدى تأثيرها في وظائف الجسم الحيويّة حتّى يستيقظ!

لم يستفض الجرّاح في شرحه. كانت جراحة طويلة وشاقّة. استخرج خلالها رصاصتين من الصّدر ثقبت إحداهما الرّئة اليسرى ومرّت الثّانية حذاء العمود الفقريّ، واثنتين من البطن مزّقتا أحشاءه، وخامسة في الكتف فتّتت العظم، وسادسة في الذّراع ثقبت المفصل. كان من العسير بعد ذلك أن يُدلي بتصريح دقيق دون أن يبثّ في القلوب المرتجفة مزيدًا من الرّعب.

كان مستوى تفاؤل الجرّاحين متباينا، لكنّ العامل الأساسيّ في المسألة واحد.. أن يفيق المريض من تأثير التّخدير.

***

ساد الصّمت بينهما طويلا في غرفة الفندق. كان عقل رنيم غائبا في دهاليز أفكار متداخلة. لا يمكنها أن تجد تفسيرًا معقولا للحادثة التي تورّط فيها هيثم وعمر معًا.. بينما كان شهاب مهموما بخاطر يؤرقه مذ وقع بصره على وجه مريضه على طاولة العمليّات.

طلبا عشاءهما في الغرفة، وجلسا متقابلين، تعبث الملاعق في الصّحون بلا شهيّة. قال شهاب أخيرًا:

– هل تفكّرين في الحادثة؟

رفعت رنيم عينين قلقتين وحاولت أن تبتسم:

– أنا آسفة حقّا.. لم أتوقّع أن أفسد الإجازة بهذا الشّكل. لقد كان يومًا مرهقًا بالنّسبة إليك أيضا!

ثمّ أضافت متصنّعة المرح:

– أنا وأنت ثنائيّ متكامل، كلانا ينقذ الأرواح.. أنت في قاعة العمليّات وأنا في المحكمة!

استمرّ في صمته لحظات ثمّ قال في ضيق:

– أفهم إذن أنّ قضيّة ما تلوح في الأفق؟

قالت في استياء:

– تبدو مسألة معقّدة للغاية.. لو رأيت كيف كانت سيّارة هيثم! إنّها محاولة اغتيال صريحة.. ومن طرفٍ لا يعرف الخوف ولا يخشى العدالة!

لم ير شهاب السيّارة، لكنّه رأى حال المصابين. يعرف يقينا أنّ الحقائق لم تكشف بعد. وأنّ ما خفي كان أعظم. قال أخيرًا في رجاء:
– هل يمكن أن أطلب منك شيئا؟

رنت إليه في اهتمام، فأضاف:

– لا تترافعي في هذه القضيّة!

حدّقت فيه دهشة واستغرابًا. أيّ طلب غريب هذا؟ كيف يمكن للمحامي أن يتنصّل من مسؤوليّاته؟ لكنّها لم ترغب في الجدال. قالت في لامبالاة وهي تعود إلى الأكل:

– لماذا تستبق الأحداث؟ لا أحد يعلم إن كانت هناك قضيّة...

ثمّ أردفت مغيّرة الموضوع:

– هل رأيت هيثم؟ كيف بدا وضعه؟

أدرك شهاب تهرّبها، لكنّه لم يلحّ.

– إصاباته كانت مباشرة.. لقد نجا من موت محقّق بأعجوبة، غير أنّه من العسير التنبّؤ بالنّتائج.. أخشى أنّه سيعاني من خسائر جسيمة.. إذا استفاق!

قالت في قلق:

– إذا استفاق؟ هل تشكّ في حصول ذلك؟

– أخشى أنّ غيبوبته قد تطول.. وكلّما طالت، تقلّصت فرص النّجاة. وإذا حدث ونجا، سيعاني من قصور في الوظائف التنفّسيّة، وربّما من شلل نصفيّ...

– يا إلهي! هيثم مريض ربو أساسًا!

– سيكون ذلك أسوأ. لن يقدر على القيام بأيّ مجهود بدنيّ ذي بال.. وستكون الحركة عسيرة. ربّما يقضي بقيّة حياته على كرسيّ متحرّك.

*

عبرت رنيم الممرّ المؤدّي إلى غرفة العناية المركّزة، ثمّ توقّفت عند مكتب الاستقبال. كانت رانيا وسكينة قد سبقتاها إلى غرفة ياسمين، بينما أخذت على عاتقها تفقّد أحوال المرضى.

- عمر الرّشيدي.. هل استيقظ؟

هزّت الممرضة رأسها نافية.

- هيثم الأندلسي؟

تكرّرت الحركة نفسها. زفرت رنيم في ضيق وقالت وهي تخرج بطاقتها المهنيّة:

- اتّصلي بي رجاءً ما أن يستيقظ أحدهما.

ثمّ سارت حتّى غرفة الحضانة. وقفت تراقب الرضّع المعزولين في أسرّة زجاجيّة لبرهة، ثمّ سألت:

- طفل ياسمين عبد القادر؟

لم يكن أحد قد اهتمّ بتسجيل الطّفل بعد، لذلك يحمل اسم والدته. أشارت الممرّضة إلى سرير بعينه، فتطاولت رنيم لتحدّق في الرّضيع الضئيل الذي يستغرق في نوم عميق، وقد امتدّ إلى أنفه أنبوب التنفّس وإلى حلقه آخر للتّغذية. ابتسمت في عطف وهي ترقب أنامله الرّقيقة وأطرافه المنكمشة، ثمّ تنهّدت:

- لقد جئت إلى العالم في وقت حرج أيّها الصّغير!

ثمّ ابتعدت تحثّ الخطى إلى غرفة ياسمين.

كانت البنات مجتمعات هناك، يسرّين عنها ويخفّفن عن أنفسهنّ الأجواء الخانقة. هربت زهور وفاطمة إلى البيت، تدفنان مخاوفهما في المطبخ وتشغلان قلبيهما قبل أيديهما. بل لعلّ فاطمة كانت تعمل وتتحدّث، وزهور ترافقها رغم غرقها في الصّمت الحزين. تقول فاطمة وهي تحرّك القدر على النّار:

– سيكون جائعا حين يفيق.. سيحتاج أن يقتات جيّدا ليشدّ أوده. إنّه رصاص يا أختي، رصاص! يشقّ العظم واللّحم وينفذ منهما. لكنّ الطبّ الحديث يصنع المعجزات.. لم يقل الجرّاح ما يستدعي القلق.

لكنّ زهور ساهمة لا تكاد تصغي، قلبها يتمزّق جزعا على بكرها الذي قُصف عمره برصاص غادر. وهل كان ما يحصل ليخطر على بالها مهما استبدّت بها مخاوف الأمومة آنفًا؟ إنّ أقصى همومها كان حادثًا على الطّريق! تستمرّ تذكّره وتوصيه كلّما زارها في موعد غدائه أيّام الاثنين والثّلاثاء من كلّ أسبوع:

– سر على مهل وانتبه إلى الطّريق!

لكنّ الخوف لا يُجدي حين تضرب صاعقة مجنونة لا يمكن التّنبؤ أين ستنزل!

في الأثناء، تحاول رانيا أن تُضفي قليلا من المرح على الجلسة في غرفة ياسمين. هتفت في حماس:

– عزّ الدّين رقيق جدّا وظريف! متى يُخرجونه من المحضنة؟

همست ياسمين بصوت مبحوح:

– ربّما يمضي أسبوعين في المحضنة.. ريثما تنضج رئتاه.

هزّت رانيا رأسها في أسف، فقالت سكينة:

- أحضرت لك الكبّة التي تحبّينها.

شكرتها ياسمين بما قدرت من حرارة، ثمّ سيطر الصّمت من جديد. كانت تتمنّى أن تنفرد بحزنها، لكنّهنّ يأبين أن يتركنها لأنياب الكآبة تفتك بروحها.

زوجها وابنها، كلّ واحد منهما في غرفة من المشفى، وهي بثالثة. آلام الجراحة لا تسعفها لتلازم سرير أحدهما أو كليهما، تنتظر أن تتطلّع عيناه في عينيها أو يزيّن ثغره بسمة موجّهة إليها. مضطرّة إلى الرّقاد، حتّى انتهاء ساعات النّهار الأوّل بعد القيصريّة. بعد ذلك، سيكون بوسعها ترك السّرير وزيارة الأحبّة.

دخلت عليهنّ زهور وفاطمة محمّلتين بما لذّ وطاب، بينما توجّه عبد الحميد ووائل لتسجيل عزّ الدّين في دائرة الأحوال المدنيّة.

كانت فاطمة تخرج ما في قفّتها من مأكولات مغذّية للأمّ الجديدة وترصفها على المنضدة، حين ارتفع رنين هاتف رنيم. اعتذرت لتتلقّى المكالمة خارج الغرفة.

جاءها صوت الممرّضة التي غادرتها منذ نصف ساعة يقول:

- لقد استيقظ المريض!

*

ركضت رنيم في الممرّات، من قسم الولادة حتّى قسم العناية المركّزة. حين وصلت، كان الطّاقم الطبيّ يدفع سريرًا إلى الخارج. قالت الممرّضة تطمئنها:

– لقد عاينه الطّبيب منذ حين وسمح بنقله إلى غرفته!

مشت رنيم على أثرهم، وتحرّك برفقتها المحقّق الذي لقيته بالأمس. سألته وهما يسيران جنبًا إلى جنب:

– هل من جديد سيّدي المحقّق؟

– هناك نتائج أوّليّة.. سيعلن عنها رئيس شرطة «إفري» في ندوة صحفيّة بعد قليل...

– آه!

وقفا يترقّبان خارج الغرفة، ريثما تُهيّئ الممرّضات الغرفة للمريض، وقد بدا التوتّر على رنيم. حين خرجن، استأذنت لتدلف أوّلا.

كان عمر يستلقي على السّرير مغمض العينين. اقتربت لتهمس باسمه برفق، فاستجاب لندائها ورفع جفنيه المثقلين. تنهّدت في ارتياح:

– حمدًا لله على سلامتك!

قرأت الدّهشة في مقلتيه. لم يكن وجهها ضمن الوجوه التي قد يرجّح وجودها حوله حال استيقاظه. شرحت باختصار اتّصال المشفى بجورج وتفويضه المسؤوليّة إليها. جاءها صوته متحشرجا وهو يسأل في لهفة:

– هيثم؟

هزّت رأسها في ضيق:

- لم يستيقظ بعد.

عاد إلى إغماض عينيه برهة، كانت تسمع خلالها تنفّسه المضطرب. ثمّ التفت إليها فجأة وهتف كمن تذكّر شيئا:

- ياسمين؟

- لقد عرفت.. ووضعت مولودها. كلاهما بخير.

- حمدًا لله.

قدّمت نشرة موجزة بآخر الأنباء. لكنّها تحتاج منه إجابات أيضا. توضيحات بشأن الحادثة. غير أنّها تتريّث. لم يكن يبدو في كامل لياقته. قالت بعد هنيهة:

- المحقّق بالخارج، يودّ استجوابك بشأن الحادثة. هل هناك ما تودّ إخباري به قبل ذلك؟

- هاتفي!

- إنّه مع الشّرطة.

- إذن.. هل يمكنك زيارة هذا العنوان (...). تسكن هناك فتاة اسمها آية، ووالدها محمّد الغزّي.. أعلميهما رجاءً بما حصل.

أومأت في تفهّم، ثمّ خرجت تستدعي المحقّق. وقف الرّجل الخمسينيّ قبالة السّرير، وتناول دفتره ليسجّل الإجابات بشكل قديم الطّراز. قال بلهجة ودودة:

- حمدًا لله على سلامتك دكتور عمر.. أخبرني ما الذي تذكره بشأن الحادثة؟

سرد عمر على مسمعه أحداث يوم أمس الدّامية، بجمل متقطّعة، يلتقط خلالها أنفاسه من حين إلى آخر.

- هل تشكّ في أحد؟

- لا.

- هل هناك في نشاط شركة «ياسمين الأندلس» ما يستدعي عداوة جهات بعينها؟

- لا.

- أحتاج قائمة كاملة بموظّفي الشّركة.

- هناك ثلاثة في المقرّ الرّئيسي.. غيري أنا وهيثم. المهندسون أليكس وأدريان وداميان.. بالإضافة إلى عشرة عمّال في المستودع.. لا أحفظ أسماءهم!

- هل يمكن أن أحصل على قائمة بالأسماء قبل المساء؟

- بالتّأكيد.. إذا اتّصلت بالمهندس أليكس.. يمكنه أن يوفّرها.

هزّ المحقّق رأسه، ثمّ أردف وهو يبرز مجموعة من الصّور:

– هل يمكنك التعرّف على الأشخاص في هذه الصّور؟

رفعها واحدة إثر الأخرى أمام ناظري عمر. حدّق فيها بما أمكنه من تركيز واهتمام، لكنّ الملامح التي تمرّ أمامه لم تكن تعني له شيئا. توقّف فجأة أمام صورة امرأة شقراء. هتف:

– أذكرها.. إنّها الصّحفيّة التي أجرت لقاءً معنا بشأن منتجات الشّركة!

هزّ المحقّق رأسه في اهتمام، فعاجلته رنيم:

– هل تشكّون في طرف ما؟

– نشكّ في وجود صلة بين مجموعة من الأجانب، دخلوا الاتّحاد الأوروبيّ من منافذ جويّة مختلفة.. وكان لهم حضور في الضّاحية الجنوبيّة خلال الشّهور الماضية.

رافقت رنيم المحقّق خارج الغرفة. كانت رقعة الشّكوك داخلها تزداد اتّساعًا، لكنّ المحقّق بدا متكتّما. قال بابتسامة وهو يشير إلى الشّاشة العملاقة في بهو المستشفى:

– النّدوة الصّحفيّة تبدأ الآن!

انتحت رنيم ركنا هادئا، وشغّلت البثّ المباشر على هاتفها. أصغت في اهتمام إلى كلمات رئيس شرطة باريس:

– المعلومات التي بين أيدينا تشير بوضوح إلى تدخّل مسلّح من المخابرات الإسرائيليّة على التّراب الفرنسيّ.. حيث استهدفت فرقة محترفة بالأمس اثنين من المدنيّين.. الفرنسيّ هيثم الأندلسي والمغربي عمر الرّشيدي. ونحن لن نقف مكتوفي الأيدي تجاه

الاعتداء السّافر على السّيادة الفرنسيّة! لقد توجّهنا صباح اليوم بطلب توضيح رسميّ.. وسنفعل اللّازم بناءً على المعطيات التي ستردنا.

شحبت ملامح رنيم فجأة. غادرت مقعدها على الفور، وركضت باتّجاه غرفة ياسمين. توقّفت وهي تلهث حين أبصرت ميساء تغادر الغرفة قاصدة غرفة التّمريض. جذبتها من ذراعها وانتحت بها جانبا. قالت في لهجة حازمة:

– هيثم في حاجة إلى محامٍ.. ستكون هناك محاكمة.. لا أعلم ماذا حصل بالضّبط، لكنّهم لن ينتظروا استيقاظه.. اتّصلي بجورج، إنّه محامٍ بارع!

قالت ذلك وهي تدسّ البطاقة المهنيّة لجورج في كفّها. همهمت ميساء في فزع:
– ألا يمكنك أن تفعلي؟

– سأمثّل عمر. يحتاجان إلى دفاع منفصل لكلّ منهما.

– أنت تثيرين ذعري.. ما الذي يجري؟

– سنعلم قريبا.. حين يُعلنون لائحة الاتّهام!

أضافت محذّرة:

– لا تخبري ياسمين بعد.. حتّى تتّضح الرؤية. اجعلي والدك يتّصل بجورج.. سيكون هذا أفضل.

تركتها في حيرتها ورجعت إلى غرفة عمر. فتحت الباب في انفعال، ووقفت أمام سريره والحمم تتطاير من عينيها:

- المخابرات الإسرائيليّة! ماذا يعني هذا؟ ما الذي تورطّتما فيه؟

انفرجت شفتا عمر وهمّ بقول شيء ما، فقاطعته بإشارة من كفّها وهتفت بحزم:

- لا أريد أن أعرف!

استمرّت تذرع الغرفة جيئة وذهابا في عصبيّة، ثمّ قالت:

- ستتواصل الشّرطة الفرنسيّة مع الموساد، وسيتحصّلون على الأدلّة التي أدّت بهم إلى ترتيب عمليّة الاغتيال.. وهي أدلّة دامغة بالتّأكيد! ثمّ ستوجّه إليكما لائحة اتّهام مرعبة.. معاداة السّاميّة أو تهديد الأمن القوميّ، أو أيّ شيء رهيب آخر.. من يدري! لكنّ المصيبة هي أنّني أشعر أنّك لن تكون بريئا هذه المرّة!

حدّقت في ملامحه الشّاحبة ونظراته الزّائغة. لم يحاول الإنكار أو الدّفاع عن نفسه.. كأنّه يقرّ في استسلام بصدق حدسها.

أخفت وجهها بين كفّيها تخنق ذعرها وجزعها. كيف تخبر ياسمين، أنّ زوجها إن هو نجا من الموت، فإنّه سيواجه حكما بالسّجن لربع قرن أو أكثر! كيف تحمل إليها فاجعة الانفصال المحتّم للولد الرّضيع عن أبيه، سواء غيّبه الموت أو السّجن؟

فرّت من المستشفى. اختارت تأجيل المواجهة مع هواجسها. كانت تعبر بهو الفندق حين رنّ هاتفها معلنا اتّصالا من جورج.

- جاءني اتّصال من شخص ادّعى أنّه من طرفك.

- عبد الحميد الأندلسي؟

- نعم، هو بعينه.. ما حكايته؟ لم تكن كلماته واضحة.

- ابنه كان برفقة عمر الرّشيدي حين تعرّضا إلى إطلاق نار.. من طرف عملاء المخابرات الإسرائيليّة.

- يا إلهي!

- نعم، أعرف.. ستكون قضيّة ضخمة ومرعبة. هل أنت مستعدّ لمواجهة كابوس أسود مرّة أخرى؟

أطلق جورج ضحكة استمتاع وهو يقول:

- تعلمين أنّ هذه القضايا تثيرني، ولا تخيفني أبدًا.

- شكرا لك جورج. هيثم الأندلسيّ، إنّه زوج صديقة عزيزة عليّ.

- فهمت. سنفعل ما بوسعنا.

أنهت الاتّصال ثمّ ركبت المصعد. دلفت إلى الغرفة وهي تهتف محاولة إضفاء المرح على صوتها:

- عزيزي.. لقد عدت!

فوجئت بشهاب، يجلس في الصّالة وقد ارتدى ثيابه كاملة، وإلى جواره حقيبة سفره. حدّقت فيه غير مستوعبة:

- ما هذا؟ ما الذي تفعله؟

نظر إليها في حزن، وقال:

- لقد تابعت الأخبار منذ الصّباح. ستكون هناك قضيّة أليس كذلك؟

رفعت رأسها إلى السّقف، ثمّ أطلقت تنهيدة حارّة، وتقدّمت لتجلس إلى جواره. قالت في رفق:

- نعم بالفعل. أتوقّع لائحة اتّهام مفجعة. لن تكون قضيّة هيّنة!

- وأنت ستمثّلين عمر الرّشيدي؟

انتبهت إلى الحدّة في صوته. لقد حرصت على ألّا تأتي على ذكره أبدًا في حضوره. لكنّها تدرك بنظرة واحدة أنّه «يعرف كلّ شيء» كما أعلن منذ سنوات على الهاتف، حين أقنعها بالخروج من عزلتها. لا تدري كيف أسند اسمًا لصاحب القصّة الغامضة التي لم تخبر بها صراحة. ربّما بعد اللّقاء التّلفزيّ؟ كلّ ذلك لم يعد مهمّا. إنّه يعرف، ويعبّر عن غيرته بصراحة. قالت بهدوء:

- أنت جرّاح، وتعرف أنّ شرف المهنة يقتضي ألّا تفرّ من ساحة المعركة أبدًا.. خاصّة حين يكون المريض في حاجتك! وهذا ينطبق على مهنة المحاماة أيضا. لا يمكنني التخلّي عن موكّل يحتاجني!

- فليمسك جورج القضيّة! ألم يفعل من قبل في غيابك؟

- جورج سيمثّل هيثم.. من المحتمل أن يكون هناك تضارب مصالح. لذلك يحتاجان دفاعًا منفصلا.

قال في جفاف:

– إذن لن تتراجعي عن الدّفاع عنه؟ ألا يمكنكما تبادل المواقع أنت وجورج؟

هتفت في رجاء:

– شهاب.. أرجوك. لا أعلم لماذا تحاول إملاء رغباتك في ما يخصّ عملي! هل أتحكّم أنا في قائمة مرضاك؟ من يستحقّ أن تجري جراحة عليه أم لا؟

قال في سخرية:

– أنت تفعلين ذلك بالفعل.. تجعلينني أجري الجراحة على من تريدين!

امتقع وجهها وتصلّبت ملامحها. قالت في أسى:

– لقد أنقذتَ روحًا، قمتَ بعمل إنسانيّ.. هل أخطأتُ في استدعائك وطلب معونتك؟ هل كان علينا أنا وأنت أن نتركه يموت؟

أطرق شهاب وزفر في إعياء:

– لم أكن أقصد ذلك. لقد تجاوزتُ الحدّ.. أعتذر.

ثمّ أردف بلهجة حاسمة:

– لكنّ هذا لن يغيّر موقفي. ليست مسألة حياة أو موت الآن. إن أصررت على تمثيل عمر الرّشيدي مرّة أخرى.. فلن تريني مجدّدا!

وضع كفّيه في جيوبه في حركة صارمة، وأشاح بوجهه عنها. ترقّب ردّها لثوانٍ، ريثما قالت رنيم بصوت منكسر:

– كم أنت قاسٍ.. صدّقني الأمر لا يستحقّ!

– إنّه يستحقّ، في نظري.

ثمّ سار في اتّجاه الباب، ساحبًا حقيبة سفره بخطوات مصمّمة، وتوارى خلف الباب المغلق.
انهارت رنيم على الأريكة، وهي لا تكاد تستوعب.. أنّ أسوأ مخاوفها، قد غدا واقعًا.

-٢٩-

«لا أخبار، إذن أخبار جيّدة».

في كلّ مرّة اتّصلت بها ياسمين بوالدها، تسأل عن أخباره وأخويها، كان يكرّر المثل الفرنسيّ بتلك اللّامبالاة المعهودة لديه.

لم تكن العلاقة التي تجمع بينهما حميميّة إلى درجة كبيرة، ولا تشبه العلاقات الكلاسيكيّة التي تصل الآباء بأبنائهم. لم يكن له دور يُذكر في نشأتها، لكنّها ما تفتأ تذكّره بواجبه تجاهها.. هكذا يرى برّها.

غالبا ما تكون الاتّصالات من طرفها، ولم تكن تتجاوز الدّقيقتين في أحسن الأحوال. سؤال روتينيّ عن الصّحة والعمل والأخبار.. لكنّه يعترف أنّ اتّصالاتها –ولو كانت من قبيل الواجب– فإنّها تسرّه، بل تشعره بالأهمّيّة.. فقد رُزق من بعدها بشابّين، مازال يطاردهما باتّصالاته حتّى لا يُسقطاه من حياتهما!

يقول بنبرته الفلسفيّة العميقة:

«الخبر السيّء يسافر بسرعة. إذا لم يصلك عنّا نبأ، فهذا يعني أنّنا جميعا على خير حال».

خلال يومين، كان خبر الحادثة قد انتشر في الآفاق، حتّى وصل إلى كلّ المعارف والأقارب. في الصّباح، تسارعت خطوات الزّائرين في ممرّات المستشفى. وصل سامي كلود من ليون، بعد أن اتّصل به عبد الحميد لينبّئه بولادة ابنته وإصابة زوجها.

قبل ذلك، كان ريّان قد اتّصل في صدمة، يعلمه أنّ خبرًا غريبا يُعرض في نشرة المساء.

«رجل يحمل اسم زوج ياسمين.. أصيب بطلق ناريّ على يد المخابرات!».

بدا ذلك أشبه بمزحة ثقيلة وسخيفة. تساءل في سخرية، لماذا يفكّر ريّان في تدبير مقلب له من هذا النّوع؟ إنّ ذلك ليس مسليّا حتّى! ومع ذلك، فقد كلّف نفسه مشقّة التّقليب في القنوات التّلفزيّة، ليقف على حقيقة الأمر. لم يستمرّ بحثه طويلا، فقد كان الخبر العاجل يلقى تغطية كثيفة من مختلف المحطّات. جلست ناتاشا إلى جواره وهتفت:

– ما هذا؟

أجابها بشرود:

– حادثة إطلاق نار على مدنيّين في باريس.

– إطلاق نار من طرف واحد؟ هذا مملّ.. يجب أن تشاهد أفلام المافيا الرّوسيّة.. إطلاق النّار يكون من كلّ اتّجاه هكذا...

ثمّ أخذت تقلّد صوت الطّلقات وتشير بيديها مثل الأطفال وتضحك.

كان يكرّر في كلّ مناسبة، أنّ ما يشدّه إليها هي روح الدّعابة وخفّة الظلّ لديها التي تُحسّن مزاجه، لذلك تحرص على أن تكون نكتتها جاهزة في كلّ موقف، حتّى لا يملّها. وكانت قادرة على جعله يضحك بلا توقّف دون جهد، حتّى حين تتكلّم بتلقائيّة بلكنتها الرّوسيّة المعوجّة.

لكنّ سامي لم يبد متجاوبًا ولا مهتمًّا بمزحتها ذلك اليوم. رمقته في استغراب حين تركها ووقف مستأذنا ليردّ على اتّصال صهره، وقد غلب على مزاجه العبوس.

قاد سيّارته وحيدًا هذه المرّة، فلم يكن الوضع يحتمل سخافات ناتاشا وملاحظاتها الخرقاء. هكذا، انقلبت دعاباتها المسليّة عادة إلى عبء لا يسعه احتماله في ذلك الظّرف. جاء محمّلا بباقة ورود ضخمة للمصاب –فهو لا ينسى الواجب حتّى في أحلك الظّروف– وطقم ثيابٍ للوليد، وعلبة حلويّات فاخرة للأمّ.

عرّج على غرفة العناية المركّزة أوّلا، ليلقي نظرة على هيثم الذي لا يُبدي حراكا بعد. حدّق فيه في أسف، ثمّ أخذ يواسي عبد الحميد:

– الواحد منّا يظنّ أنّه قد حقّق كلّ ما يتمنّى، حين يكبر أولاده، يتزوّجون ويجدون وظائف مناسبة.. لكنّ الحياة دائما تخفي ما لا يخطر على قلب أحد منّا! من كان يعتقد أن هيثم الشابّ الرّصين العاقل، قد يتورّط في حادثة من هذا النّوع؟

أصغى إليه عبد الحميد في صمت وعجز. لم يكن يستوعب بعد حقيقة الأمر. لقد تحدّث بالأمس إلى المحامي، فأفزعته الاحتمالات المرعبة. هكذا.. فجأة، يتحوّل ولده البارّ والمثاليّ إلى مطلوب للعدالة!

وصلا عند غرفة ياسمين، فطرق سامي الباب، ثمّ دلف وقد علت ملامحه الكآبة. كانت الهدايا كلّها من نصيبها في نهاية الأمر، فلا هيثم ولا عزّ الدّين يستقبلان الزّوّار!

وقف الرّجلان في صمت.. بينما تتحرّك زهور وفاطمة حول سرير النّفساء، تحضّران طعامها وتساعدانها على الأكل، ثم ينزوي كلّ واحدٍ من أربعتهم في ركنه على أحد المقاعد، تعلو ملامحه علامات وجوم وسهوم.

يقطع سامي الصّمت من حين إلى آخر، لينطق بحكمة عميقة جادت بها قريحته الفلسفيّة الفذّة:

– لا تستلمي للكآبة.. هل تعلمين أنّ الرّضيع يشعر بوالدته ويتسرّب إليه حزنها؟

مطّت فاطمة شفتيها وهي تقول في تهكّم:

– كيف عرفت؟ أم تراك قد جرّبت في وقت ما الاهتمام برضيع؟

تبادلا نظرات ناريّة محمّلة برسائل اللّوم من الجانبين. ثمّ قال سامي في غيظ:

– لقد قرأت ذلك في مجلّة...

أزاحت ياسمين الغطاء عنها ونهضت مغادرة السّرير. قالت وقد أثقل الجوّ الخانق على صدرها:

– سأذهب إلى عزّ الدّين.

لم تنعم بفرصة إرضاعه طبيعيّا، نظرًا لضعف بنيته وعدم قدرته على التقام الثّدي. لكنّها تحرص على استخدام مضخّة كهربائيّة لاستخراج حليبها، كلّ ساعتين، فيتغذّى عليه

رضيعها بمحقنة تصبّ في معدته مباشرة. كانت مهمّة شاقّة، تضيف إلى حملها النّفسيّ والجسديّ عناءً من نوع آخر. ومع ذلك، فإنّها تبدو متماسكة أكثر منهم جميعًا.

سارت بهدوء عبر ممرّات المستشفى، حتّى الحضانة، ومشى على إثرها الكهول الأربعة، مثل حاشية كئيبة. كانت تتمنّى أن تصرفهم بأيّ طريقة، حتّى تنفرد بطفلها.. وتخلو بنفسها، فتترك العنان لدموعها. لكنّها مجبرة على الجَلَد في حضورهم، مرغمة على ابتلاع غصّتها ووضع قناع الثّبات.

حين وصلت إلى الحضانة وأبصرت صغيرها، انفرجت أساريرها على الفور. كان هناك شيء آسر في ذلك الكيان الضّئيل والهزيل، يجعل روحها تشعّ محبّة وهيامًا. ذلك الكائن ينتمي إليها، وهي تنتمي إليه. لقد كان جزءًا منها حتّى وقت قريب، ولعلّه كان ليستمرّ في جوفها أسابيع بعد، لولا الفاجعة. لذلك ينفطر فؤادها لذاك الانفصال القسريّ الذي لم تتحضّر له كما ينبغي.

دخلت بمفردها إلى غرفة الحضانة، بينما تابعتها أزواج عيون أربع من وراء الزّجاج. استقبلتها الممرّضة بابتسامة، وساعدتها على رفع عزّ الدّين بين ذراعيها. كانت تحمل زجاجة حليبها في وعاء حافظ، استلمتها منها الممرّضة ودوّنت عليها اسم الرّضيع، تاريخ اليوم والتّوقيت، ثمّ ضمّتها إلى رفيقاتها في الثّلاجة.

جلست ياسمين على المقعد المهيّأ لاستقبال الأمّهات الزّائرات. فتحت أزرار قميصها بعيدًا عن الأعين، ثمّ تركت الطّفل ينزلق على جلدها، يتكوّر على نفسه في وضع الجنين ويلتصق بها ويستكين.. تشعر بدفئه وهو يلامس بشرتها ويُلصق وجنته الملساء الغضّة بها، وأنامله الرّقيقة تتسلّل لتخمشها فيما يشبه الدّغدغة.

كان بوسعها أن تنسى العالم وكآبته، وكلّ ما يترصّدها من آلام خلف الباب المغلق، وتستغرق في لحظات وداعة هشّة وثمينة، تدفع أيّ ثمن لتستمرّ إلى الأبد.

***

وقفت رنيم أمام باب الشّقّة الواقعة في الطّابق الأرضيّ وقرعت الجرس. مرّت لحظات طويلة قبل أن تُشرع الدّفّة وتظهر شابّة في منتصف العشرينيّات، ترتدي جلبابا بيتيّا وحجابا عريضا. كانت جميلة، بيضاء البشرة وعيناها خضراوان. تأمّلتها رنيم في اهتمام، وفي ذهنها راحت تعقد مقارنات ومفاضلات معقّدة وبلا فائدة.

– آنسة آية؟ أنا رنيم شاكر.

بدت في عيني آية لمعة مفاجئة، كأنّها تعرّفت إليها. هتفت على الفور:

– أهلا بك، أستاذة رنيم.

أوسعت لها مدخلا وهي تضيف:

– تفضّلي أرجوك. فلنتحدث بالدّاخل.

أدركت رنيم أنّها تعرّفت إليها من خلال حلقات برنامج «الحقيقة الكاملة». بات عليها أن تتعايش مع واقع شهرتها، وكونها وجها مألوفا يعرفه القاصي والدّاني. تبعت مضيّفتها على مضض إلى مجلس داخليّ. كانت تستعجل إيصال الرّسالة والرّحيل، فلا وقت لديها تضيّعه. لكنّها استجابت إلى الدّعوة وقد تحرّك داخلها فضول تجاه فتاة عمر الجديدة.

حين جلستا متجاورتين على الأرائك المنخفضة، أنشأت آية تقول في قلق وهي تفرك طرف ثوبها:

– هل من جديد عن عمر؟ لقد تابعت نشرات الأخبار.. ما حصل لا يُصدّق. أنت تعرفين كيف هو الآن؟

أومأت رنيم بابتسامة مطمئنة، ثمّ قالت:

- لقد كانت الجراحة ناجحة.. وحالته مستقرّة الآن.

رفعت آية كفّيها إلى وجهها وهتفت في تأثر وهي تغالب دموعها:

- حمدًا لله! كم أنت كريم يا ربّ!

حبست رنيم ضحكة ساخرة أوشكت أن تفارق حلقها، وهي ترقبها بنظرة امتعاض. لم تكن لتصدّق أنّ صنف عمر المفضّل سيكون ليّنا ورقيقا إلى درجة تثير الغثيان. ما الذي جذبه في كتلة النّعومة تلك؟ قالت وهي تحاول الابتسام:

- هذا رقم عنوان المستشفى ورقم غرفته.. إن رغبت في زيارته.

أخذت آية منها القصاصة في امتنان. ثمّ همست في اعتذار:

- لقد كلّفت نفسك عناءً كبيرًا.. لا شكّ أنّك مشغولة!

- لا بأس.. لقد طلب منّي الدّكتور عمر إسداء معروف له، وهذا أقلّ ما نفعله في هذه الظّروف الصّعبة.

- هل تشربين الشّاي؟

اعتذرت رنيم بلباقة، ثمّ انصرفت. وهي تمشي في اتّجاه سيّارتها التي ركنتها عند المفترق، لازمها إحساس غريب بالضيق. فاقت آية توقّعاتها، من حيث درجة الجمال والرّقّة، وأثارت حفيظتها بتعبيرها السّافر عن مشاعرها.

طردت ترسّبات الكدر التي رانت على قلبها، وضغطت بعنف على مزوّد السّرعة لتنطلق عبر الشّوارع. إنّها لا تغار! لا يمكنها ذلك. لعلّه ميلها الفطريّ لتقييم معدن البشر الذين تقابلهم، وهي لا تشعر بالارتياح تجاه الفتاة.

قصدت الفندق أوّلا. لم تترك الغرفة بعد مغادرة شهاب. حسبت أنّه قد يغيّر رأيه ويرجع. حاولت الاتّصال بهاتفه، لكنّه تجاهلها، وظلّت محاولاتها بلا ردّ. انتظرت حتّى مساء اليوم التّالي. لكنّه لم يظهر.
انهمكت في جمع حاجياتها وقد تملّكها الاستياء. هل يكون غيّر موعد رحلته وسافر بالفعل؟ لم تكن على موعد مع «شهر عسل» جديد هذه المرّة. تحوّلت الإجازة إلى كابوس حقيقيّ. كان بوسعها التّنازل والاستجابة لطلبه لتحفظ الودّ بينهما، لكنّ العناد طبع متأصّل فيها. كان في كلماته شبح اتّهام حزّ في خاطرها.. فتصرّفت باندفاع! هل تثبت تلاشي تعلّقها السّابق بعمر هكذا أم تزيد الطّين بلّة؟ لم تشأ أن تكون في موضع دفاع، فتمسّكت بحقّها في استلام القضايا التي تراها مناسبة. تدرك الآن مدى غباء خطّتها، لكنّ وقت التّراجع قد مضى. لا يمكنها أن تستسلم لرغبة شهاب الآن، فتثبت صحّة ظنونه ضمنيّا!

دخلت الشقة وهي تسحب حقيبة سفرها. رمقتها رانيا وسكينة في دهشة لا تخفيانها.

– ما الذي جاء بك؟

بادرتها شقيقتها التي يروقها استئثارها بالغرفة في غيابها. لوت شفتها السّفلى في امتعاض، وسارت حتّى باب الغرفة. قالت مغالبة ضيقها:

– رحل شهاب.

– هل تشاجرتما؟

تجاهلت أسئلة رانيا الفضوليّة واللّجوجة، ودخلت لتغلق عليها الباب. لحقتها رانيا. وقفت على مقربة من سريرها وهمست:

- بسبب عمر؟

رفعت رنيم رأسها مبهوتة. هل كانت حياتها كتابًا مفتوحًا إلى تلك الدّرجة بالنّسبة إلى شقيقتها؟ أم أنّ أمرها مفضوح للجميع، منذ البداية؟ قالت متمالكة نفسها:

- لماذا تقولين هذا؟

هزّت رانيا كتفيها ثمّ قالت:

- لقد جعلته يجري جراحته، ثمّ انشغلت في المستشفى طوال الوقت.. ألا ترين أنّك قد أهملته؟

كانت الحقيقة صفعة قاسية خاصّة وهي تتلقّاها من شفتي رانيا. زفرت في إعياء وقالت:

- أحتاج إلى بعض الوحدة، رجاءً.

حين غادرت رانيا، حاولت الاتّصال به مرّة أخرى. لكنّ هاتفه كان مغلقا. لبثت تتأمّل الشّاشة المطفأة في شرود. هل تكون قد دقّت المسامير في نعش زواجها بنفسها، دون أن تدري؟

***

سارت رنيم برفقة جورج في ممرّ المستشفى في سكون. كانت شاردة منذ غادرا المكتب، تردّ بعبارات مختصرة، وتلتزم الصّمت معظم الوقت. سألها جورج وقد أهمّه أمرها:

- هل أنت متعبة؟ تبدين شاحبة اليوم!

ابتسمت لتبدّد شكوكه وقالت بثقة:

- لا تخف عليّ.. أنا بخير.

طوال الطّريق، كانت كلمات شهاب ترنّ في أذنيها في إلحاح. فتتعالى بداخلها أصوات متداخلة.. تارة يعلو صوت كرامتها، يقنعها بأنّها تفعل الصّواب. كان عليها أن تفصل حياتها الشّخصيّة عن المهنيّة، وزوجها لا يحقّ له نقاش من تنوب وعمّن تدافع! ثمّ تهدأ ثائرتها حين يتسلّل همس العقل.. عليها ألّا تتسرّع فتخسر زوجها، من أجل قضيّة مثل كلّ القضايا!

لكنّها تنتبه على صوت الحقيقة السّاطعة: إنّها ليست قضيّة مثل كلّ القضايا!

دلفا إلى الغرفة وجلسا على مقعدين متجاورين، قبالة عمر، ثمّ أعلنت رنيم بداية الجلسة:

- فلنحاول أن نربح بعض الوقت.. قريبا ستصبح الاتّهامات واقعًا.. لذلك نريد أن نسبقهم بخطوة، ونحضّر خطّتنا الدّفاعيّة.

أومأ جورج وهو يقول:

- سيكون دفاعنا مشتركًا ما أمكن ذلك، لكنّني أخشى أن نضطرّ إلى الانفصال في حال فرّقوا صفوفنا، بتقديمهم لمتّهم رئيسيّ وآخر ثانويّ.

أمّنت رنيم على قوله، وهي تستطرد:

– حتّى الآن لا نعرف فحوى الملفّ الذي بحوزتهم.. برأيك، ما الذي يعرفونه وقد يستخدمونه ضدّكما؟

تمهّل عمر قليلا، ثمّ أنشأ يقول:

– لقد زارتنا تلك السيّدة الشّقراء في مكتب الشّركة.. وأجرت حوارات صحفيّة مع الجميع.. هيثم وأنا، والمهندسين.

صمت لبرهة، ثمّ أضاف:

– لا شكّ أنّ تحرّكاتي الجويّة والبرّيّة معلومة لديهم، فالأختام التي على جواز السّفر واضحة.. أمضيت تسعة أشهر في سوريا، وأسبوعين في غزّة.

تغيّرت ملامح رنيم وهي تسأله:

– هل لهذا علاقة بنشاط الشّركة؟

– كان ذلك قبل بدء الشّراكة بيني وبين هيثم.. لكنّها البداية لفكرة المشروع، حيث حصلت على تصميمات طائرة التجسّس من المقاومة الفلسطينيّة، ثمّ عملت على تعديلها وتطويرها.

وقفت رنيم فجأة وقالت:

– جورج، هل يمكنك مغادرة الغرفة قليلا.. أحتاج إلى الحديث مع موكّلي بشكل خاصّ!

بُهت الاثنان، لكنّ أحدهما لم يعترض. أغلقت الباب ثمّ رجعت في اتّجاه عمر. همست في قلق:

– لقد حسبت هيثم المتّهم الرئيسي.. كونه مدير الشّركة، وإصاباته توحي بأنّه المستهدف! لكنّ ما ذكرته منذ حين يضرب بتوقّعاتي عرض الحائط!

قال عمر ببساطة:

– أنت لم تسألي.. وأنا لم أنكر. أنا المسؤول الأوّل عن المشروع. هيثم تعاون معي، أنشأ الشّركة باسمه.. لأنّه فرنسيّ الجنسيّة. في حين أنّني واجهت صعوبات جمّة مع الإدارة الفرنسيّة في وقت سابق. ثمّ عمل على البرمجة الخاصّة بتوجيه الطّائرة بدون طيّار.. لكنّني كنت الواجهة بالنّسبة إلى التّواصل مع المقاومة الفلسطينيّة.. وهو لم يكن يعرف أحدًا منهم!

زفرت رنيم في ضيق. هذا يقلب الوضع رأسًا على عقب. تعلم أنّ عمر لن يُحاول تزييف الحقائق إذا وُوجه بها في المحكمة، وسيفعل ما بوسعه لتحمّل المسؤوليّة كاملة ورفع العبء عن صاحبه. قالت في تحذير:

– لا تعترف بكلّ شيء هكذا أمام المدّعي العام والمحقّقين! دع لي مجالا لأضع خطّة دفاع مناسبة! أنت لا تريد أن تُمضي بقيّة حياتك خلف القضبان، هل تريد؟

قال في مرارة:

– لا أريد أن يدفع شخص آخر ثمن ما اقترفته يداي.. هذا كلّ ما في الأمر! يكفي ما طاله من أذى جسديّ حتّى الآن...

قاطعته رنيم في حدّة:

– في الوقت الحالي، الزم الإنكار.. أنت لا تعرف شيئا! إن سألوك عن نشاط الشّركة، يمكنك الرّدّ.. إن تحدّثوا عن تنقّلاتك إلى سوريا وغزّة، جد أعذارًا أخرى..

التّجارة مثلا! التّسويق لمنتجات الشّركة! لا تضع على عاتقك أيّ مسؤوليّة. وإذا ألحوا، الزم الصّمت!

– لكنّني أكون قد رميت المسؤوليّة على هيثم!

– لا تقلق على هيثم.. لديه محامٍ بارع يدافع عنه!

قالت ذلك، ثم دعت جورج إلى الدّاخل.

– هل انتهيتما؟

– انتهينا هنا.. لكنّني أحتاج منك خدمة. أرجو أن تنسى ما قيل قبل حين عن تصاميم الطّائرات الموجّهة، والتّواصل مع المقاومة!

حدّق فيها جورج لبرهة، ثمّ هزّ رأسه وهمس:

– فهمت. لم أسمع شيئا بهذا الصّدد.

– ممتاز. يمكننا أن نستأنف المقابلة إذن.

قاطعها عمر بشكل مفاجئ وهو يقول:

– قبل أن نخطو أبعد.. جورج، أريد منك أن تمثّلني في هذه القضيّة!

تسمّرت رنيم مكانها في دهشة وارتباك، بينما لم تكن مفاجأة جورج تقلّ عنها وهو يقول في انصياع:

– إن كانت هذه رغبتك.. فلا مانع لديّ.

ثمّ حوّل بصره إلى رنيم التي بدت مصدومة رغم ثباتها الظّاهريّ. قالت بصوت مهتزّ:

– طبعا.. هذا خيارك في نهاية الأمر. لكن.. هل لي أن أعرف السّبب؟

ابتسم عمر وهو يقول:

– سأشعر بالارتياح إن دافعت عن هيثم بالشّراسة التي عهدتها فيك!

تعالى لغط خارج الغرفة على حين غرّة، وتدافعت خطوات ثقيلة في الممرّ، قبل أن يقتحم المدّعي العامّ الجلسة وبرفقته عدد من رجال الأمن. تطلّع إلى رنيم وجورج بابتسامة وقال بلهجة ساخرة:

– أستاذة رنيم شاكر، سعدت برؤيتك.. المحامية «النجمة» لا تفوّت القضايا المميّزة.. هذا مؤكّد!

ثمّ تحوّلت نظراته إلى عمر وهو يردف بنبرة صارمة:

– دكتور عمر الرّشيدي، أنت رهن الاعتقال، بتهمة التّعاون مع جماعة إرهابيّة.. من حقّك الاحتفاظ بالصّمت، لأنّ كلّ كلمة تقولها قد تستخدم ضدّك في المحكمة.. من حقّك الحصول على دفاع، ويبدو لي أنّ لديك محاميين اثنين هنا.. أيّكما يمثّل المتّهم؟

تصدّى جورج على الفور:

- أنا.

- جيّد.. سنحدّد موعدًا لاستجواب المتّهم قريبا. ونظرًا للظّروف الصحيّة، سنضع حراسة على الغرفة.. حتّى يسمح الطّبيب بتسريحه. في الأثناء، يمكن للمتّهم تلقّي الزّيارات المعتادة.

حيّاهما بحركة من رأسه ثمّ استدار على عقبيه. أشار إلى رجلين بالبقاء عند الباب، بينما ابتعد برفقة بقيّة أتباعه.

همس جورج إلى رنيم:

- اذهبي.. إنّهم يتّجهون إلى غرفة هيثم!

***

رغم عدم ارتياحها إلى ما آلت إليه الأمور، فإنّها شعرت بالاسترخاء وهي تركب سيّارتها نهاية النّهار. لقد كانت أعصابها مشدودة طيلة الوقت. قدوم المدّعي العامّ أدّى إلى تسارع الأحداث.. وهي قد وجدت نفسها تمثّل هيثم في نهاية المطاف! لم تكن تلك رغبتها الصّميمة، لكنّ النّتيجة مناسبة من أكثر من زاوية.

زارت ياسمين في غرفتها في قسم الولادة، ثمّ -أثناء فحص الطّبيبة لياسمين- شرحت الوضع أمام والدي هيثم باختصار. ستكون هناك محاكمة، وهي ستدافع عن هيثم. ثمّ حاولت الاتّصال بشهاب مرّة أخرى، وحين لم يصلها ردّ كالعادة، كتبت إليه رسالة.

«لن أدافع عن عمر في هذه القضيّة».

حسبت أنّ ذاك القرار -وإن لم يكن قرارها- سيؤدّي إلى عودة المياه إلى مجاريها. فذاك كان مطلبه الوحيد، وسبب رحيله!

في مخيّلتها، كانت حياتها جزءًا لا يتجزّأ من «قصص الجنيّات» التي تُروى على مسامع الأطفال، حيث كلّ شيء مبالغ فيه، مميّز وساحر.

كانت ترفض العلاقات البسيطة والأحداث الرّتيبة، وتبحث عن الإثارة بلا هوادة. وقد عاشت تلك المشاعر المتأجّجة، في وقت ما، تجاه ميشال، فأهدته قطعة من جسدها، لينتهي عند قدميها وبين كفّيه باقة حمراء، بحجم فترة فراقها. ثمّ حسبت قصّة «المتّهم والمحامية» مصيرها المحتوم، فعاشت الدّور بانغماس تامّ، حتّى تبدّد السّراب فجأة. ثمّ كان لقاؤها وشهاب تجسيدًا لمتلازمة «فارس الأحلام» التي تسكن لا وعيها. وإن فشلت في إبداء مشاعر حبّ حقيقيّة رغم محاولاتها، فإنّها قد حظيت بكلّ ما ترنو إليه بطلات الحكايات: خاتم ماسيّ فاتن، حفل زفاف فاخر، شهر عسر مذهل، وأمير وسيم يقع في حبّها من أوّل نظرة، ويمضي حياته متيّما متفانيًا في إرضائها. لذلك فإنّها لم تشكّ قطّ في استمرار عاطفته تجاهها، مهما ندّ عنها من تصرّفات غير مسؤولة.

كانت في قرارة نفسها تضمن بقاء شهاب إلى جوارها.. إلى الأبد!

بعد دقيقتين، رنّ هاتفها. ابتسمت وهي تطالع رقم شهاب. كانت محقّة. هتفت في لهفة:

- أين أنت؟

لكنّ شهاب فاجأها بصوته البارد:

- ما الذي جعلك تغيّرين رأيك؟

- ما المهمّ في هذا؟ لقد غيّرت رأيي وانتهى الأمر.

- هل كانت تلك رغبتك؟ أم أنّك أجبرت على ترك القضيّة؟

ساد الصّمت لثوانٍ قبل أن يقول شهاب بلهجة ساخرة:

- هذا ما ظننته!

حافظت رنيم على ثباتها وهي تردّ:

- لقد سارت الأمور وفق هواك.. وهذا يفترض به أن يحلّ المشكلة.. أليس كذلك؟

- لا يا حبيبتي.. هذا لا يحلّ المشكلة! هذا يجبرني على أخذ موقف أكثر صرامة.. لأنّ الخيبة تغمرني! أنت لم تفعلي شيئا لإرضائي.. وتتوقّعين منّي الرّضا؟ بهذه البساطة؟

زفرت بقوّة، وتردّد نفس عميق في صدرها. بعد لحظات، كانت رنيم تقول في لين، محاولة تخفيف حدّته التي باتت تخشاها:

- ما الذي يرضيك إذن؟

- أن تتركي العمل في باريس.. أن نستقرّ معًا في القاهرة، مثل أيّ زوجين طبيعيّين، يتقاسمان تفاصيل الحياة الحقيقيّة لا قشورها!

سيطر عليها الذّهول. لقد أطلق العنان لعفريت القمقم. أصبحت مخاوفها تقف إزاءها، ترهبها وتملؤها رعبًا.

- لم يكن هذا اتّفاقنا...

- لم يكن.. صحيح. كنت أحاول طيلة سنة ونصف أن أكسبك إلى صفّي.. أن أجعلك تقتنعين تلقائيّا وتدريجيّا بمعنى الحياة كاثنين، لا كفرد منطلق وحرّ. لكنّني أقف

اليوم لأعلن استسلامي.. لقد أخطأت في تقديري. هذه الحياة ليست ممكنة. هذا الاتّفاق كان خطأ منذ البداية. وهذه فرصتنا للتّصحيح...

تنزل كلماته واحدة إثر الأخرى مثل الصّاعقة. التّصحيح؟ ما الذي قصده تحديدًا؟ الفراق؟ الانفصال؟

تابع بلهجة أكثر لينًا:

– رنيم بربّك.. ألا تريدين عائلة حقيقيّة؟ أنا أريد! أريد طفلة تشبهك.. أريد أولادًا يملؤون حياتنا بهجة. فكيف نحقّق أحلامنا بالذرّيّة ونحن غريبان يلتقيان في فندق كلّ حين وآخر؟

قالت في اعتراض:

– هذا ليس حلمي. ليس الآن! مازالت أمامي طموحات كثيرة.. والأطفال سيعطّلونها لا محالة!

زفر في إعياء، ثمّ قال بفتور:

– أظنّنا وصلنا إلى طريقٍ مسدودٍ إذن...

في الخلفيّة، سمعت صوت إعلان عبر مكبّر صوت ما، يدعو ركّاب رحلة القاهرة الدّوليّة للالتحاق بقاعة الرّحيل. ازدردت لعابها في توتّر وهمهمت:

– هل سترحل؟

– أنا ذاهب. ولا داعي لمجيئك الشّهر القادم.

تواصل الصّمت الثّقيل لحظات بعد، قبل أن يتابع شهاب في جفاء:

- الوداع.

تركت هاتفها في صدمة.

لقد حذّرتها ياسمين. لكنّها لم ترد أن تتنازل قطّ عن دور بطلة الحكاية.

-٣٠-

طرقت آية باب الغرفة بهدوء، بعد أن تأكّد رجل الأمن بالخارج من هويّتها ومهرت دفتر الزّيارات بتوقيعها. ترقّبت لحظات، وحين لم يصلها ردّ، دفعت الدّفّة وخطت إلى داخل الغرفة. كان عمر يرقد على سريره وحيدًا، وقد سكن الجوّ إلّا من صفير الآلات الطبيّة.

تملّكتها رغبة مستبدّة بالبكاء، وهي تطالع الضّمادات التي تلفّ كتفه وذراعه والجزء الأعلى من صدره. فتح عمر عينيه على صوت نهنهتها الخافتة. كانت عيناها محمرّتين والعبرات تسيل على وجنتيها دون توقّف. اقتربت حين انتبهت إلى نظراته نحوها، وحاولت أن تبتسم:

- كيف أصبحت؟

تمتم بصوت ضعيف:

- الحمد لله.

جلست على أحد المقعدين المنفردين بالغرفة، واستمرّت تنشج. كلّما حاولت السّيطرة على ارتجافها وتخفيف دمعها، بدأت نوبة جديدة من البكاء على أثرها. كانت قد تأخّرت في القدوم لزيارته، ولم يكن يجد لذلك تفسيرًا. بلّغته رنيم بتنفيذها للمهمّة التي عهد بها إليها.. فتوقّع ظهورها في أيّ لحظة. لكنّ الكلّ أتى، ما عداها. فكّر كثيرًا بأنّ ذلك أفضل. لم يكن يودّ توريطها، لكنّه لم يستطع الامتناع عن التّساؤل في حيرة حينا وفي قلق طورًا عن أسباب تأخّرها. أمّا وهو يرى بعينه مبلغ تأثّرها، فإنّ كلّ العتاب يتلاشى من قاموسه، ولا يجد في قلبه إلّا السّرور. قال مهوّنا عليها:

- أنا بخير.. كفكفي دمعك. ليس ما أصابني بالخطير.

ثمّ أضاف يمازحها:

- ظننتك أقوى من هذا.. تربّيت في بيت مقاومة وشهادة!

لكنّ العبارة التي رام بها شدّ أزرها زادت الطّين بلّة! بعد دقائق، بدا أنّها قد نجحت في إيقاف السّيل المتدفّق من مقلتيها أخيرًا. تنحنحت ليجلو صوتها، ثمّ قالت بهمس:

- ظننتُني تعوّدت المصائب فما عادت تؤثّر بي مثل السّابق.. لكنّني مخطئة. الابتلاءات درجات.

ساد الصّمت لبرهة، قبل أن تقول بصوت متهدّج يقطر حزنًا:

- لقد تردّدت في المجيء.

أصاخ السّمع في توجّس، فواصلت:

- لم أعرف، إن كانت زيارتي ستكون في صالحك أم عبئًا عليك. لعلّها تثبت علاقتك بالفلسطينيّين، وتورّطك أكثر! لعلّك في غنى عن هذا.

ملأه الارتياح وهي تلفظ تلك الكلمات. لقد أراد ابتعادها، خوفًا عليها. وتأخّرت في المجيء خوفًا عليه. قاطعها في حزم:

- علاقتي بالفلسطينيّين شرف لي، ولم يخطر ببالي قطّ أن أنكر!

تنهّدت بعمق، ترتّب أفكارها. لعلّها توقّعت موقفه ذاك. وهذا يجعلها تمرّ إلى الخطوة العمليّة التي جاءت من أجلها. قالت وقد استعادت رباطة جأشها:

- خالي عزّام يُقرئك السّلام.

تنبّهت حواسّه وقد أدرك أنّ ما بجعبتها يحتاج تركيزه، فأردفت:

- قال أنّهم سيستجوبونك قريبًا.. وأنت تحتاج توضيحًا لتحرّكاتك في سوريا وغزّة. إنّهم يعرفون علاقتك بالمقاومة.. لن يمكنك أن تنكر. لكن يخفّف عنك العقوبة أن تُمدّهم ببعض المعلومات.

هتف بصوت متحشرج:

- ماذا تقصدين؟

- ليست أكثر من بضع كنى معروفة لديهم.. لكنّها ستثبت صدقك وشفافيّتك. إذا ادّعيت أنّك مخدوع، وتمّ استدراجك، وكشفت تلك القائمة من المطلوبين.. تضمن حكمًا مخفّفًا. اسمع واحفظ!

أصغى إليها في انتباه، وهي تكرّر أسماء المجاهدين المعروفين الذين لا يخفون على الاستخبارات الدّوليّة. بعضهم سبق له لقاؤه وآخر غريب عنه. حين فرغت، كرّر

القائمة على مسامعها، فأومأت موافقة. زفرت من جديد، وقد انتهت من مهمّتها، فاسترخت ملامحها. قالت أخيرًا بصوت مهتزّ:

– لقد كنت أسمع عن شدّة الغزّاويّات ورباطة جأشهنّ، تحمّلهنّ للصّعاب وهنّ يتردّدن على السّجون، ويترقّبن عودة زوج أو خاطب أو شقيق.. لكنّني لم أتهيّأ لاقتحام التّجربة بهذا الشّكل.. لم أتوقّع أن تهبط الصّاعقة علينا في هذا الوقت، قبل أسبوعين من الزّفاف!

ران الصّمت طويلا عليهما، ثمّ قال عمر بفتور:

– أنت ما زلت حرّة، لست مجبرة...

قاطعته على الفور بلهجة قاطعة وهي ترنو إليه بقوّة:

– ليس هذا ما قصدته! سأنتظر.. مهما طال الأمد سأنتظر! لكنّني محرجة من ضعفي وقلّة حيلتي. لست أملك كلمات شافية، تخفّف عنك أو تواسيك.

ابتسم بوهن وقال:

– هوّني عليك. ما أصابني لم يكن ليخطئني.. وأنا راضٍ، رغم كلّ شيء. ولا أريدك أن تفكّري لحظة واحدة بأنّك مسؤولة عمّا آلت إليه الأمور!

ابتسمت بدورها وهي تقول:

– أرأيت؟ أنت تواسيني الآن! أنا حقّا بلا فائدة!

ضحك عمر، رغم المرارة التي تترع فؤاده، ثمّ قال:

- أقدّر لك مجيئك اليوم.. وأقدّر لخالك عزّام اهتمامه وتكبّده عناء استنباط مخرج لي. لكنّني لا أريد لأيّ منكم أن يطاله أذى بسببي.

- أنت لا تريد الاعتراف بهذا، لكنّها قضيّتنا قبل أن تكون قضيّتك!

قال بصوت جادّ:

- آية، أرجوك.. هلّا سافرت ووالدك لقضاء بعض الوقت في بروكسيل؟

سيطر عليها الذّهول لبرهة. لقد اقترح خالها الأمر ذاته منذ عُرف الخبر. قال أنّه سيرتّب لها ولأبيها مقرّ إقامة مناسبًا بالقرب منه. لم يكن بقاؤها في باريس مفيدًا بأيّ شكل. وها هو عمر يكرّر عليها الطّلب، كأنّما قد اتّفقا عليها. قالت في إباء:

- سأنتظرك!

- مدّة المحاكمة وحسب.. أرجوك! لا أريد أن تُستدعي للشّهادة، ولا أن تتعرضي للمضايقة. هل تفهمين؟

أومأت في إذعان، ثمّ هتفت وقد اغرورقت عيناها دمعًا من جديد:

- لكنّني سأنتظر!

*

في المساء، دخل المحقّق برفقة أحد أعوانه، وجلسا قبالة عمر، بينما لبث جورج واقفًا في ركن الحجرة. أعلن عن انطلاق الاستجواب موجّها سؤاله الأوّل إلى عمر:

- دكتور عمر الرّشيدي.. أين كنت في الفترة الفاصلة بين ديسمبر ٢٠٠٨ وسبتمبر ٢٠٠٩؟

- في سوريا.

- ماذا كنت تفعل هناك؟

- سياحة!

- من قابلت هناك؟

- أشخاصًا كثرًا، مثل أيّ سائح.. لا أستحضر قائمة بالأسماء.

- هل تدرّبت على حمل السّلاح في فترة إقامتك هناك؟

- لا!

- هل التقيت بأعضاء إحدى المنظّمات الإرهابية؟

- لا!

- في الفترة الفاصلة بين أوّل سبتمبر ومنتصف الشّهر ذاته، أين كنت؟

- كنت في فلسطين المحتلّة.

- ماذا فعلت في تلك الفترة؟

- ذهبت في زيارة لأهل الفتاة التي أفكّر بالزّواج بها.

- ما اسم الفتاة؟

- آية الغزّي.

- مقرّ إقامتها؟

- بروكسيل.

- هل حصلت على مخطّطات لصناعة طائرات بدون طيّار من أعضاء المقاومة؟

- لا!

انتهى الاستجواب خلال نصف ساعة، سدّد خلالها المحقق أسئلة غاية في الدّقّة والخصوصيّة، وأدرك عمر أنّ ما بحوزتهم من معلومات يعيد رسم تاريخه كاملا.. لكنّه أنكر إنكارًا تامّا كما أشارت رنيم. حين فرغ المحقّق، أغلق ملفّاته في حركة مستاءة وقال:

- لن تستطيع الإنكار طويلا.. لدينا سبلنا لاستخراج المعلومات مهما طال الأمد.

ألقى عمر نظرة قلقة على جورج، فأشار إليه أن أحسنت صنعا.

زفر بقوّة حين خلت الغرفة من الزوّار أخيرًا. ربّما سيأتي وقت يضطرّ فيه أن يعترف. لكنّه سيحاول كسب الوقت كما طلبت منه هيئة الدّفاع، لعلّهم يتمكّنون من إيجاد مخرج ما.

*

استمرّت الجلسة حتّى السّاعة الثّامنة مساءً، لليوم الثالث على التّوالي. انكبّ جورج ورنيم على مراجعة ملفّات القضيّة بتأنّ وتركيز. ينظران في الأدلّة بترو ويمحّصان التّهم بأناة. لكنّ أيّا من مسارات الدحض التي ناقشاها لم تسفر عن بصيص نور.

قالت رنيم وهي ترتشف كوب قهوتها الثّالثة لذلك المساء:

– تلحّ عليّ فكرة لا أتمكّن من طردها.. أنّ علينا التّضحية بأحدهما حتّى ننقذ الآخر! إنّ دخول قضيّة خاسرة بهذا الشّكل، يعني ضمان العقوبة القصوى لكليهما! ليس بيدنا أيّ خطّة دفاع محتملة. لكنّ وضع اللّوم على واحد فقط، قد يمكّن الثّاني من النّجاة. أحدهما يتحمّل اللّوم عن صاحبه.. فيكون هو الذي خطّط لكلّ شيء.. والثّاني كان شريكا في المشروع دون دراية بأبعاده كافّة!

هزّ جورج رأسه في تفهّم وهو يقول:

– عمر الرّشيدي هو صاحب الفكرة، وهو منسّق التّواصل مع الجهات الفلسطينيّة.. وهو مصمّم الطّائرة ومخترع البطّاريّة.. وقد دخل غزّة سابقا وتدرّب على أيدي رجال المقاومة في سوريا!

أومأت رنيم وهي تستطرد:

– العاطفة تقول أنّ هيثم يستحقّ النّجاة، لأنّه شريك بنسبة أقلّ أوّلا، وبسبب زوجته وطفله ثانيًا...

هزّ جورج رأسه موافقا، فأردفت:

– والعقل يقول أنّ عمر هو الذي يجب أن ينجو! حظوظ هيثم في استرجاع صحّته ضئيلة. تخيّل.. أنّنا نجعل عمر يتحمّل اللّوم كاملا –وهو لن يمانع– وأنقذنا هيثم.. ثمّ يموت هيثم! ألن نكون قد خسرنا خسارة مضاعفة؟

ضحك جورج في مرارة ثمّ قال:

– لا تنسي أنّك تمثّلين هيثم يا عزيزتي! هل هذا أقصى ما لديك؟

زفرت في ضيق وقالت:

– يؤلمني أن أقول هذا.. أحيانا أفكّر أنّ موت هيثم سيكون حلّا للمشكلة! إن كان لا بُدّ أن يموت، فأرجو أن يموت في الوقت المناسب.. لا بعد فوات الأوان!

لم ينبس جورج ببنت شفة، فأردفت رنيم بلهجة متهكّمة:

– هل فقدتُ أخلاقيّات المهنة برأيك؟

أخذ جورج يلهو بالقلم بين أصابعه في سرحان، ثمّ قال:

– أنت يائسة.. هذا كلّ ما في الأمر! والتّفكير اليائس يدفع نحو الحلول المتطرّفة والمجنونة.

– أنا لا أقول أنّني قد أتسلّل ليلا وأوقف جهاز تنفّسه.. لكنّني...

- لكنّك تتمنّين أن يموت تلقائيّا، قبل بدء المحاكمة.

- أنا فقط أدعو الله.. إن كان هيثم سيموت في كلّ الأحوال، فليكن ذلك الآن!

ابتسم جورج ثمّ تمتم:

- آمين!

***

وقفت ياسمين إزاء الحارس الذي ينتصب عند مدخل قاعة العناية المركّزة. سلّمته هويّتها ووقّعت دفتر الزّيارات، ثمّ دلفت إلى الغرفة ومن خلفها ممرّضة تدفع المحضنة الاصطناعيّة وبداخلها طفلها. همست شاكرة وهي تشير إليها بتقريب المحضنة من سرير هيثم. كانت قد حصلت على إذن استثنائيّ من قسم الولادة حتّى تأخذ ولدها لرؤية أبيه. استماتت في المحاولة، وداومت على طرق أبواب الأطباء والمسؤولين، حتى حظيت بالموافقة أخيرا. كان على الرضيع أن يزور والده المحتضر ولو مرّة وحيدة!

- لديك خمس دقائق.

أومأت ياسمين في استسلام مع إعلان الممرّضة الصّارم. خمس دقائق ثمينة هي كل ما لديها من أجل الاجتماع العائليّ الأوّل. جلست على المقعد، وقالت تخاطب هيثم كما تفعل منذ أيّام:

- لم أحضر بمفردي اليوم.. جئت بعزّ الدّين! تأخّر لقاؤكما حتّى الآن!

كانت تخزّن في أمنياتها صورة مختلفة للولادة المثاليّة. أن يُرافقها زوجها إلى غرفة الوضع، فيمسك بكفّها ويخفّف شدّتها بهمسات ونظرات.. ثمّ يحمل وليده بين ذراعيه،

فيؤذّن في أذن ويقيم في الأخرى. بعد ذلك يأتي به إليها، فتضعه على صدرها، تشعر بدفئه وملمسه النّاعم، ويتبادل ثلاثتهم نظرات حبّ وحنان.

لقد حُرمت كلّ ذلك. لكنّها ستصنع ذكريات أخرى، حتّى لو حالت الصّعوبات دون اجتماعهم في حضن عائليّ مشترك، فستسعى إلى تقريب المسافات. الآن، تمسك يُمناها كفّ هيثم المسجّى على السّرير بلا حراك، وتدسّ يُسراها داخل المحضنة لتلامس برفق كفّ عزّ الدّين الهشّة القرمزيّة. تغمض عينيها وتهمس:

- نحن عائلة.. سنتمسّك بأيدي بعضنا بعضا، وستنقضي هذه المحنة.

تتلألأ العبرات في عينيها. تدرك أنّ حالة عزّ الدّين مستقرّة، لكنّ وضع هيثم ليس كذلك. لم يقل الطّبيب المتابع أيّ شيء مطمئن. لم يتغيّر شيء منذ العمليّة. لا شيء يدعو إلى التّفاؤل، لكنّها تكثّف الدّعاء له في كلّ ساعة. إنّها تترقّب معجزة.. وتعلم أنّ معجزتها الأولى تحتاج ثانية تليها ليكتمل هناؤها.

يعتقدون أنّها في غفلة عمّا يدور حولها. يتجنّبون الحديث عن حقيقة الحادثة، مَن وراءها وما هي دوافعها، والنّتائج المترتّبة عنها. لكنّها تلتقط الكلمات الخافتة وتجمع العبارات المتناثرة، على ألسنة الممرّضات المتهامزات، والهمسات المتبادلة عند رأسها أيضا، حين يعتقدون خلودها إلى النّوم.

حين يستيقظ هيثم، سيكون عليه أن يواجه اتّهامات قاسية. تتقاذفها مشاعر شتّى، بين فخرها به واعتزازها بانتمائه إلى المقاومة الفلسطينيّة بشكل أو بآخر، وإشفاقها ممّا ينتظرهم جميعًا من مصير مجهول المسالك. لم يكن بوسعها أن تلومه، لأنّه لم يفكّر فيها وفي وليدهما. ليست تدرك على وجه الدّقّة ما كانت طبيعة نشاطه، لكنّها تعرف أنّه وطأ موطئا يغيظ الكفّار، ونال من العدوّ نيلا، حتّى جدّوا في أثره حتّى باريس.. فكيف بالله تلومه؟

استسلمت لأفكارها المتناقضة التي تمزّقها من الدّاخل وتدمي قلبها، حتّى شعرت بضغطة أصابع هيّنة على راحتها. انتفضت، والتبس عليها الأمر بداية. تنقل نظرها بين رجليها، الكبير والصّغير، ويتوه منها الإدراك. من منهما ضغط على كفّها بأنامله؟ الرّضيع الذي لا تحتمل لمسته أكثر من الدّغدغة، أو الرّجل الرّاقد في غيبوبة؟

مرّة أخرى، ضغطت الأصابع المستقرّة في يمناها، فحدّقت في وجه هيثم غير مصدّقة. تركت كفّ وليدها واستأثر والده بانتباهها. لمحت رموشه تتحرّك، تهتزّ برفق دون أن يفتح عينيه واسعتين، ثمّ أتاها همسه بصوت خفيض متحشرج:

- ياسمين!

اقتربت أكثر، وقلبها ينتفض بين ضلوعها. أصغت غير مصدّقة إلى همسه، تخال نفسها تحلم.. أو ربّما من فرط تعبها يُهيّأ إليها أن الأماني تتحقّق والمعجزات تصير واقعًا.

- كيف أنت؟

- أنا بخير.. حمدًا لله على سلامتك!

تشبّثت بذراعه، ترنو إلى عينيه نصف المغلقتين، وتفيض العبرات على وجنتيها بسخاء، بينما تتمتم شفتاها دون توقّف:

- اللّهم لك الحمد.. اللّهم لك الحمد!

جاءها صوته من جديد، مكدودًا، يكاد يخنقه الأنين:

- عمر؟

- عمر بخير.. جراحه ليست خطرة.

أسبل جفنيه، فقرأت علامات الألم على وجهه واضحة. تركت كفّه وهمّت باستدعاء الممرضّة، فقبض على معصمها فجأة. همس بصوت لا يكاد يُسمع:

- ابقي قليلا.

أومأت، رغم الخوف الذي يعتصر فؤادها. قالت وهي تشير إلى المحضنة:

- هل رأيت عزّ الدّين؟

- عزّ الدّين؟

في صوته رنّة لهفة ودهشة، وعيناه تبحثان في مجال رؤيته المحدود.

- أين هو؟

التقت العينان لبرهة، ففاضت الدّموع من عيني هيثم، وأصدر الولد صوتًا رقيقا معربًا عن ارتياحه في تلك الوضعيّة.

ابتسمت ياسمين وهي ترمقهما بحبّ. وتمنّت أن يتوقّف الزّمن طويلا عند تلك اللّحظة، لتملأ عينيها من مشهدٍ رائق رغم الإطار المحزن. تمنّت أن يختفي رجلا الأمن من أمام الباب، وتتلاشى الأنابيب الطبيّة والآلات المحيطة بهم، وأن تخزّن في ذاكرتها حلاوة المشهد وحدها، دون أوجاعه وأحزانه.

ارتفع بكاء الطّفل فجأة، بصوته الخافت الذي يكشف ضعفه وقلّة حيلته. همست:

- لعلّه يشعر بالبرد.. المحضنة تبقيه دافئا.

رفعته عن صدر أبيه وأعادته إلى المحضنة، فاستكان سريعًا واستسلم للنّوم. ثمّ سرعان ما دخلت الممرّضة لتصطحب الطّفل إلى الحضانة. رجعت ياسمين ببصرها إلى هيثم بعد أن ودّعت وليدها، ففاجأت للمرّة الثّانية أمارات وجع شديدٍ على ملامحه. هتفت في قلق:

- هل تتألّم؟

استدار إليها وقال:

- الغرفة باردة، هلّا خفضت التكييف؟

سارعت لرفع درجة حرارة الغرفة، ثمّ عادت إلى جواره، وهمست:

- والآن؟ هل تشعر بتحسّن؟

تعلّقت عيناه بوجهها وقال:

- تبدين أنحف.. لكنك أجمل.. من كان يظنّ أنّ الأمومة تليق بك!

أطلقت ضحكة قصيرة. تعلم مدى البشاعة التي تبدو عليها، بهالاتها السّوداء العميقة والعينين المحمّرتين المتورّمتين من أثر البكاء، والعظام البارزة والبشرة الشّاحبة لقلّة شهيّتها. عن أيّ جمال يتحدّث؟ أضاف أمام استطالة صمتها:

- لا تحزني.. ستأتي أيّام جميلة، ولو بعد حين...

عضّت على شفتيها، تغالب رغبة ملحّة في النّحيب، وهزّت رأسها بقوّة، تؤيّد كلماته.

- سأنادي الممرّضة.. يجب أن يراك الطّبيب.

همس بخفوت:

- أشعر بالنّعاس.. ابقي حتّى يغلبني النّوم.

جلست قربه، وقد احتفظ بكفّها في كفّه. أخذت أنفاسه تنتظم، فتنهّدت. كانت تشعر بالارتياح لاستيقاظه، لكنّها بعيدة عن الطمأنينة والاسترخاء. ما إن أغلق جفنيه حتّى سرحت أفكارها بعيدًا. لكن لا شيء يهمّ، ما دام هيثم إلى جوارها، ستكون قادرة على مواجهة بشاعة العالم بجسارة. يكفي أن يكون حيّا يتنفّس ويبتسم ويبثّها الدّفء والسّكينة.

حين تراخت أصابعه، أفلتت كفّه وهرولت إلى الممرّ. على الفور، اتّصلت بالجميع. زهور، ميساء، سكينة، رنيم.. كانت تريد أن يشاركها البشرى أكبر عدد ممكن من الأحباب.

***

ارتفع رنين هاتف رنيم وهي منهمكة في مطالعة ملفّ القضيّة للمرّة العاشرة. طالعت الشّاشة لتقرأ اسم ياسمين. رفعت حاجبيها دهشة، وشعرت بوخزة في صدرها، كأنّها مذنبة أُخذت بالجرم المشهود! جاءها صوت ياسمين تملؤه الفرحة:

- لقد استيقظ يا رنيم! هيثم استيقظ!

- يا إلهي! هذا مذهل.. تهانينا!

كانت تزفّ إليها النّبأ وهي تلهج بالحمد والشّكر، لأنّ المعجزة التي تمنّتها وترقّبتها تحقّقت. قالت رنيم وقد تداخلت في عقلها مشاعر الصّديقة وواجبات المحامية:

- أنا قادمة حالًا.

زفرت بحرارة بعد أن أنهت الاتّصال. تشعر بالارتياح الآن. لقد تخلّصت من عبء أمنيتها الخفيّة القبيحة التي تثقل ضميرها. لكن بات عليها أن تواجه الكابوس الثّقيل بكفّها العارية!

حثّت خطاها في ممرّ المستشفى. كان عليها أن تصل إلى هيثم قبل أن يطير خبر استيقاظه إلى المدّعي العامّ. يجب أن تُعدّه للاستجواب على انفراد، كما فعلت مع عمر. لكنّها تشعر بثقل في ركبتيها وخدر في ساقيها. لقد غدت المهمّة شائكة أكثر بهذا الشّفاء المعجز!

تعالى رنين هاتفها قبل أن تخطو عبر مدخل قسم العناية. رجعت أدراجها في توجّس وهي تطالع الرّقم المألوف المسجّل عندها.. مكتب المدّعي العامّ!

- أستاذة رنيم.. بلغني أنّ موكّلك قد استيقظ. تهانينا!

ابتسمت في تهكّم وهي تردّ:

- سيّدي المدّعي العام، أرى أنّ الخبر لم يتأخّر في الوصول.

- المهمّ.. أودّ أن أهديك هذا العرض الاستثنائيّ، قبل أن نلتقي وجها لوجه.

- عرض؟

زوت ما بين حاجبيها في تركيز واهتمام.

– أنا وأنت نعرف المنظومة القانونيّة جيّدًا.. إذا بدأت المحاكمة، فستستمرّ لسنوات ربّما. ستكون هناك ضغوطات دوليّة وتدخّلات خارجيّة، في حين أنّ الملفّ بسيط.. بإمكاننا الانتهاء من كلّ هذا بسهولة.

– هات ما عندك!

قال بلهجة حاسمة وواضحة:

– خمس سنوات نافذة. يعترف موكّلك على صاحبه، يُقدّم كلّ ما بحوزته من أدلّة.. ويُحاكم عمر الرّشيدي كمتّهم رئيسيّ.. ماذا قلت؟

هوى قلبها بين قدميها. غمغمت بصوت مرتجف:

– سأبلّغ موكّلي بعرضك.

– سأكون في الانتظار أستاذة رنيم.. العرض سارٍ لثمانٍ وأربعين ساعة فقط. بعدها، سيكون لقاؤنا في المحكمة!

ترنّحت خطوات رنيم في الممرّ. لا تدري إن كان عليها اجتياز المدخل في ذلك الوقت أم تأجيل اللّقاء. لقد كان عرض المدّعي العام مغريا ومزلزلًا في آن. كمحامية تمثّل هيثم، وتدرك حجم القضيّة والعقوبة المتوقّعة، كان عليها أن تشجّع هيثم على الاعتراف. لكنّها تدرك أيضا أنّ اعتراف هيثم سيؤدّي إلى غياب عمر وراء الشّمس!

غير أنّها تحسب هيثم لن يفعل ذلك بصاحبه.. مثلما لم يكن عمر ليقبل بعرض مشابه.

توقّفت فجأة وقد راودها خاطر ما. تناولت هاتفها من جديد. اتّصلت بجورج، فألفت الخطّ مشغولا. تزايدت نبضاتها في عنف. هذا ما كانت تخشاه. ترقّبت بضع ثوانٍ ثمّ كرّرت المحاولة. ما إن وصلها صوت جورج حتّى هتفت:

- هل اتّصل بك مكتب المدّعي العام؟

تريّث جورج قبل أن يسأل في حذر:

- هل اتّصلوا بك أيضا؟

زفرت بحدّة. هذا ما يسعون إليه إذن. زرع الشّقاق بين طرفي الدّفاع.

- ماذا كان العرض؟

- عشر سنوات نافذة.. مع الاعتراف على هيثم.

فغرت فاها دهشة. لماذا الاختلاف في المدّة؟ عرض هيثم أكثر من مغرٍ! خمس سنوات فقط؟ كأنّهم يسحبون عمر سحبًا نحو الكرسيّ الكهربائيّ! لكنّ هيثم لن يفعل.. تثق بأنّه لن يعترف! غير أنّ التّفويت في فرصة المساومة مع مكتب الادّعاء يعتبر غباءً.. خاصّة حين تكون فرص النّجاة معدومة!

تشعر برأسها يكاد ينفجر من التّفكير، وبالأرض تميد تحت قدميها. تنفّست بعمق، واستندت بذراعها إلى جدار الممرّ. قالت أخيرا بلهجة تبدو واثقة:

- لن نسمح للمدّعي العام بتفريق صفوفنا الآن.. هيئة الدّفاع ستظلّ متماسكة.

– بالتّأكيد. لم أخبر عمر بعد بشأن العرض، لكنّ أنت تعرفين كيف هو.. لا أظنّه سيهتمّ حتّى...

زفرت ثمّ قالت في انزعاج:

– أعرف. لكنّ مهمّة المحامي هي إقناع الموكّل بصالحه.. وأنا وأنت ندرك أنّ عرض الادّعاء يستحقّ التفكير.

سكت جورج لبرهة ثمّ أردف:

– هذه القضيّة.. لست متفائلا بشأنها.

ابتسمت في سخرية، ثمّ قالت باترة الحوار:

– أتركك الآن. لقد وصلت عند هيثم.

أنهت الاتّصال وهي تشعر بالعجز. لو كان المتّهم أيّ شخص آخر، لكانت الآن تستميت في إقناع هيثم وياسمين بالموافقة على العرض. لكنّها ليست قضيّة عاديّة.. إنّها متورّطة أكثر ممّا ينبغي!

حين أفضت إلى قاعة الانتظار، ألفت ياسمين تقف خلف النّافذة الزّجاجيّة، وقد تجمّع الطّاقم الطّبيّ حول سرير هيثم داخل غرفة العناية.

– هل كلّ شيء على ما يرام؟

استدارت ياسمين لتواجهها بابتسامة متعبة ووجه مكدود. قالت في وجل:

– لقد استسلم للنّوم منذ نصف ساعة...

– إذن دعيه يستريح، تعالي.. سأوصلك إلى غرفتك.

مشت برفقتها باتّجاه قسم الولادة. قالت رنيم وهما تسيران بتؤدة، لصعوبة المشي على ياسمين:

– كنت أودّ الحديث إلى هيثم.. عن القضيّة. أنت تعرفين؟

أومأت ياسمين في صمت.

– لم نرد الإثقال عليك بهذا الشّأن، لذلك كنت أخاطب والديه بهذا الصّدد.. لكن الآن، سيحصل استجواب وربّما محاكمة قريبة، وكنت ستعرفين الخبر عاجلا أم آجلا...

زفرت ياسمين في أسى وهمست:

– ما كدت آنس بعودته، حتّى فتحت في وجوهنا أبواب الجحيم! أيّ مصير ينتظرنا؟

لم تحاول رنيم طمأنتها. لم تكن بحوزتها الكلمات اللّازمة. في القديم، كانت ياسمين تعرف كيف تواسيها وتطيّب خاطرها.. لكنّها تخفق دومًا في دور الصّديقة. لم تملك إلّا أن تعانقها بقوّة، تمتصّ ألم روحها وتبثّها تعاطفًا وتضامنًا ودفئًا.

***

تركت ياسمين بعد أن بكت طويلا على كتفها. عادت أدراجها إلى قسم الجراحة. طرقت باب عمر ودلفت. وقفت قبالته، وهي تشعر بالحرج. لم يكن لحضورها أيّ

صبغة رسميّة منذ أعلن رغبته في استلام جورج مهمّة تمثيله في القضيّة. لكنّها رغمًا عنها، تسحبها خطواتها إلى مجاله، مثل قوّة جذب مغناطيسيّة مجهولة المصدر. كان سريره معدّلا في وضعيّة الجلوس، وبين كفيه كتاب ما. قالت محاولة أن تبدو مسترخية رغم توتّرها:

– أحضر لك جورج كتابًا؟

– طلبت من إدارة المستشفى.

– آه.

استعادت في صمت تاريخًا بعيدًا، حين كانت تحضر إليه كتبًا في غرفة مشفى آخر. قالت فجأة بنبرة اعتذار:

– تلك الكتب.. كانت من اختيار ياسمين.

عقد حاجبيه دهشة واستغرابًا. عن أيّ كتب تتحدّث؟ ثمّ استوعب أنّها تشير إلى الكتب التي أحضرتها إليه منذ ستّ سنوات. لماذا تعترف بهذا الآن؟ بدت كأنما تتخلّص من حمل يثقل صدرها. كانت مشوّشة وهي تنتقل من موضوع إلى آخر بلا تناسق:

– أين خطيبتك؟ اسمها آية.. أليس كذلك؟ لم أرها قطّ في الجوار.. ألا تزورك؟

شعرت بضيقه لبرهة، ثمّ قال في اقتضاب:

– لديها أشغالها...

لم يرضها ردّه. ما عدا ذلك، فإنّها قد لمست في سلوك الفتاة وانفعالاتها تعلّقا واضحًا بعمر، لذلك يبدو غيابها غير مبرّر أو متوقّع.

– لقد بدت لكنتها كأنّها.. فلسطينيّة. هل هي كذلك؟

– نعم.

– وهل لها علاقة ما بالمشروع؟

– لا.

ثمّ أضاف في ضيق:
– لماذا أشعر بأنّني في استجواب؟

رفعت كتفيها في براءة وقالت:

– نحن نتحدّث وحسب.

مرّت لحظات من الصّمت، قبل أن تردف بابتسامة:

– هل تذكر، كنّا نتحدّث كثيرًا، هكذا.. في السّابق.

عبس عمر وقد عادت إليه ذكريات يشقيه استرجاعها. قاطعها فجأة بصوت هادئ:

– أستاذة رنيم.. لماذا أنت هنا؟

شعرت بصفعة لا مرئيّة تهوي على صدغها فيرتجّ لها دماغها. حملقت في الأرض بعينين نديّتين. هي نفسها لا تعي ما الذي تفعله هنا في غرفته! ما الذي تريده منه بالضبط؟

لم تلتق موكّلها بعد، ولا رتّبت ملفّات قضيّة سكينة التي تبدأ في الغد، ولا صالحت زوجها الذي غادر مغاضبًا.. لكنّها تقف في غرفة رجل غريب وتستدعي ذكريات عاطفة قديمة.. من طرف واحد! ودّت لو تنشقّ الأرض وتبتلعها. لو تختفي من أمامه كأنّها لم تدخل قطّ.. لكنّ كبرياءها استمرّت تذود عن ذاتها في إباء:

– هل فعلت هذا من أجلها؟

– فعلته من أجل إيماني بالقضية!

قالت في عناد:

– لكنها ليست قضيتك! ما الذي يربطك بتلك الأرض البعيدة وناسها؟ كل شعب دافع على مرّ التاريخ عن أرضه، وردّ المحتلين.. مصر فعلت ضدّ الإنجليز.. والمغرب ضد الفرنسيّين. وستفعل فلسطين أيضا. فما علاقتك أنت؟ انظر.. الاحتلال مرحلة.. ثم يأتي الاستقلال. فلسطين تأخّر احتلالها عن باقي الدّول العربية.. في الوقت الذي كنا فيه نتحرّر، جاء دورهم ليذوقوا من كأس الاحتلال.. تلك سنّة الحياة!

ابتسم في مرارة:

– تفكير عجيب! كأنّ الاحتلال سنّة الحياة وقانونها الذي يتغيّر؟ كأنّ الاحتلال يجيء ويذهب تلقائيّا، فلا نحتاج أن نواجهه ونردّه!

هزّت كتفيها وهي تقول في بساطة:

– أهل البلاد يفعلون!

– لكنّ هذه البلاد مختلفة. إنّها مقدّسة في وجدان كلّ عربي ومسلم!

شعرت بنبرة الاتّهام في صوته. كأنّها لا تنتمي إلى تلك الفئة التي يتحدّث عنها. قالت باندفاع:

– كلّنا نعرف أنّ الفلسطينيّين باعوا أراضيهم لليهود. تنازلوا عنها عن طيب خاطر وقبضوا الثّمن.. فلماذا التّباكي الآن على الأرض المفقودة؟

تنهّد عمر، ثمّ قال:

– قد يكون ذلك حصل، في وقت ما من الماضي البعيد.. قبل النّكبة والنّكسة.. قبل وعد بلفور والمستوطنات. قبل التّهجير القسريّ والمخيّمات! لكنّ البعض يظلّ يؤاخذ الكثرة المضطهَدة، بفعل القلّة المستفيدة! إن كان البعض قد باع، فإنّ الأغلبيّة طردت من مساكنها وأرسلت إلى مصير مجهول! وهذا يا سيّدتي جرم، احتلال.. والاحتلال أنواع.

أصغت إليه في استسلام، كطالب بليد يلقّنه أستاذ التّاريخ درسًا:

– الحماية الفرنسية للمغرب الأقصى، كانت نوعًا من الوصاية الحضارية.. كأنما يقولون نحن سبقناكم بأشواط على طريق المدنية الحديثة، دعونا نعلمكم شيئا من مآثرنا العظيمة، أو هذا على الأقلّ ما يدّعونه. وهناك نوع ثانٍ. انظري إلى أراضي فرنسا التي تقع وراء البحار، تلك الجزر البعيدة والمنعزلة.. المارتينيك والموريشيوس والرييونيون، وغيرها.. ذاك احتلال يعتمد على طمس الهويّة واستبدال أخرى بها.. تغيير الدّين واللغة والانتماء. رغم عودة الفرنسيين إلى ديارهم، فقد هؤلاء استقلالهم وغدوا ولايات فرنسية لا تتّصل جغرافيا بالأرض الأم! غير أنّ ما يحدث في فلسطين هو نوع ثالث، الاحتلال الأكثر وحشية وقذارة.. وله سوابق في التاريخ... أرأيت حين دخل الإنجليز أمريكا وأستراليا؟ أبيد السّكان الأصليون واستوطن الأرض المحتلون حتى لم يعد للثقافة الأولى

وجود! بعد قرون من «اكتشاف» الأراضي المجهولة، أصبحت هويتها ممسوخة.. هذا ما يحصل حين يرتكز الاحتلال على الإبادة والتهجير، استئصال هوية وزرع أخرى واستبدال شعب أصلي بآخر وافد، تهجير المناهضين وتدجين القابلين بالبقاء. وهو ما حصل في الأندلس أيضا.. مع الوقت، لا تعود هناك فلسطين كما لم تعد الأندلس.. تتحوّل المساجد إلى معابد، كما حُوّلت إلى كنائس في إسبانيا.. غير أن المساجد لا تتساوى -وإن كانت كلها بيوت الله التي يجب الذّود عنها- لكن حين يتعلق الأمر بأولى القبلتين وثالث الحرمين الشّريفين ومسرى نبيّنا، فالأمر يتجاوز مجرّد الدّفاع عن أرض تخصّ مجموعة من البشر.. تتحوّل إلى قضية عظيمة تهمّ كل مسلم!

تنهّدت ثم قالت بنبرة متهكمة:

- عجيب أنّك تعلّمني درسًا في كل قضية!

ابتسم وقال بلهجة غامضة:

- ولكنّك لا تتعلمين الدّرس أبدًا.. أم أنّ اختلاف الرؤية بيننا شاسع إلى درجة لا يمكن معها التقاطع؟

توقفت عن التّنفس فجأة وغاص قلبها بعيدًا في صدرها. لم يكن التّقاطع ممكنا.. وهي لم تغفل عن ذلك يومًا. ما حسبته ثانويّا يمكن تجاوزه، يبدو في نظره أوّليًا لا تستقيم الحياة بدونه. اعتذرت بكلمات مقتضبة وفرّت من الغرفة لا تلوي على شيء.

حين صارت في الممرّ بمفردها، تناولت هاتفها واتّصلت بمساعدتها دينا. قالت بلهجة حازمة:

- آية ووالدها محمّد الغزيّ، أريد كل معلومة ممكنة عنهما.. خلال أربع وعشرين ساعة!

-٣١-

ظهر أمامها فجأة كما تعوّد أن يفعل في الآونة الأخيرة. لم تعد تحادثه أو تلهث خلفه مثل السّابق. تعرف مواعيد محاضراته وتفاصيل حياته التي يسكبها في مواقع التّواصل، لكنّها لا تبدي اهتماما. كانت تشعر بفتور وملل من سلوكه البارد. وقد كان عليها أن تذيقه من الكأس التي لطالما سقاها منها.

– أنت هنا اليوم أيضا.

تنهّدت رانيا، وقلبت صفحة كتابها، وهي تتجاهل حضوره قبالتها. ما دام لم يكن لطيفا تجاه سكينة، فهو غير جدير باهتمامها. جلس على المقعد وأطال تأمّله لكتابها.

– ماذا تدرسين؟

رفعت رأسها لتحدجه بنظرة صارمة ثمّ همس في استياء:

– ماذا تريد الآن؟ هيّا.. تكلّم!

شحبت ملامحه واكتست بعلامات الانزعاج. قال في عبوس:

– أشعر أنّك الشّخص الوحيد في العالم الذي يعرف عنّي أكثر ممّا أعرف عن نفسي.. وأنّ السرّ الكئيب الذي يسكن ماضيّ مكشوف أمام عينيك.. لذلك أجدني أبحث عنك كلّ يوم، وتقودني خطواتي إلى المكتبة حيث أتوقّع أن أجدك...

توقّف تدفّق الكلمات على شفتيه. زفر، ثمّ أضاف بنبرة متهكّمة:

– أحتاج من حين إلى آخر أن أتحدّث مع شخص يفهم ما أمرّ به.. ولا أجد أحدًا غيرك تنطبق عليه الشّروط!

رقّ قلبها لحاله، فلانت ملامحها. قالت بهدوء:

– أنا مستاءة، لأنّ صديقاتي يمررن بأوقات عصيبة. وسكينة.. لديها جلسة استماع في الغد. لا أستطيع حتّى أن أركّز على الدّراسة.. سأرافقها غدًا إلى «نانت»...

رفعت بصرها إليه وقالت في رجاء:

– لن ألحّ عليك.. لكنّ حضورك سيشكّل فرقًا. أعلم أنّ بداخلك رغبة في لقائها، لكنّك تقاومها.. كما فعلت يوم جراحتها. فهل ستقاوم أيضا هذه المرّة؟

حدّق فيها في شرود، ثمّ قال بطريقته المستفزّة التي تعوّدتها:

– ألم تيأس صديقتك بعد؟ ليس هناك ما يدعوني إلى رؤيتها. أنا لا أعترف بها أمّا.. لكنّني أودّ أن أعرف مصير سيلين.. هذا كلّ ما في الأمر!

زمجرت في غيظ:

– ستندم!

لوى شفتيه في سخرية وقال:

– أودّ أن أرى كيف سيحصل ذلك!

مرّة أخرى، تركت مقعدها وهي تقول في حدّة:

– لا فائدة.. الجلسة ستكون ظهر الغد، في محكمة الأسرة ب»نانت»...

ابتسمت وهي تسير إلى خارج المكتبة. تعرف الآن أنّ الفكرة ستسكن عقله، ولعلّه يستسلم لفضوله ويحضر الجلسة.. وذلك كلّ ما ترجو.

***

كنّ يتناولن وجبة الإفطار معًا، مجتمعات حول المائدة، وقد سرحت الأفكار في اتّجاهات شتّى. كان ذهن رنيم مشطورًا بين قضيّة هيثم الشائكة، وقضية سكينة المتباعدة جلساتها. كان يجدر بها أن تحرز تقدّما ملموسًا في جلسة اليوم لتختصر المسافات، ولا تضطرّ إلى تكرار الرّحلات إلى نانت. أمّا سكينة، فقد انصبّت خيالاتها كلّها على صغيرتها التي تتوقّع أن تلقاها وجهًا لوجه بعد سنواتٍ من التّباعد القسريّ، في حين كانت رانيا تتساءل إن كان جاسر سيفعلها ويحضر الجلسة!

فجأة، وقفت رنيم وركضت إلى الحمّام وعلى وجهها علامات الغثيان. أفرغت ما في جوفها، ثمّ عادت شاحبة والعرق يتصبّب منها. قالت سكينة في قلق:

- هل أنت بخير؟

هزّت رأسها تطمئنها، رغم ارتجافها ولهاثها. قالت وهي تتمالك أنفاسها:

- لعلّها نزلة معويّة.

تدخّلت رانيا تقول:

- هل يمكنك تحمّل السّفر حتّى نانت وأنت بهذه الحال؟

- والمرافعة بعد ذلك؟

أشارت إليهما في ثقة:

- لا تخشيا شيئا.. سأكون بخير!

تبادلتا نظرة متوجّسة، لكنّ إحداهما لم تحاول ردعها.

لقد ترقّبت سكينة بنفاد صبر وقلّة حيلة أن تحدّد المحكمة تاريخ جلسة الاستماع. لا يمكنها بعد ذلك أن تفوّت الجلسة مهما حصل. ثمّ رنيم شابّة بالغة، ويمكنها الاهتمام بنفسها. فكّرت أنّ تفويت الجلسة ليس خيارًا متاحًا لكلتيهما. لذلك لم تعلّق.

خرجن إثر ذلك وركبن السيّارة حتّى محطّة القطار. حملت سكينة سلّة ملأتها بالفواكه والمقبّلات الخفيفة، ليتسلّين بها خلال رحلة الذّهاب والإياب التي تدوم ساعتين ونصف في كلّ اتّجاه. لكنّ رنيم التي استمرّت انقباضات معدتها، امتنعت عن الأكل بعد ذلك.

دخلن قاعة المحكمة، ولزمن مقاعدهنّ في وجل، بينما أخذ الحاجب ينادي أصحاب القضايا واحدًا تلو الآخر للمثول أمام القاضية. تتالت المرافعات بين طلاق ونفقة وحضانة.. بينما كانت سكينة تسترق النّظر إلى الطّفلة الجالسة في طرف القاعة، إلى جوار راهبة عجوز.

كانت سيلين تقضم أظافرها في توتّر، بينما تتردّد نظراتها بين الحاضرات، بحثًا عن وجه مألوف. ثمّ توقّفت عند سكينة ورنيم. بدت عيناها مشتّتين زائغتين، لا تكاد تستقرّ على ملامحهما حتّى يفرّ بصرها إلى البعيد.. كأنّها تخشى أن يضبطها أحدهم وهي تتطلّع إلى الغريبتين.

أمّا رانيا، فكانت تلتفت إلى مدخل القاعة كلّ فينة وأخرى. مثلما حدّثها حدسها بمجيئه يوم الجراحة، تكاد تجزم بأنّه سيكون هنا اليوم. بدأت رحلة التّفتيش عنه على رصيف محطّة القطار في باريس. إن كان سيحضر، فهو سيركب القطار بالتّأكيد. غير أنّه لم يستقلّ الرّحلة ذاتها. أو على الأقل، لم تلمحه في مجال بصرها. إن لم يكن قد استقلّ قطار التّاسعة والنّصف، فسيكون في القطار التّالي، بعد ساعة واحدة.

- سيلين دينيس.. قضيّة حضانة!

همست رنيم وهي تسبق سكينة نحو منصّة القضاء:

- هيّا، جاء دورنا.

وقفتا على يمين المنصّة، بينما تقدّمت الرّاهبة العجوز وهي تمسك بكفّ سيلين ولا تفلتها إلى الجهة اليسرى. في الأثناء، انغمست القاضية في مطالعة ملفّ القضيّة على عجل. رفعت عينيها أخيرًا ورمقت سكينة في نبرة متعالية:

- أنت الأم؟

- نعم!

- وقد أخذت منك حضانة البنت؟

- نعم، منذ عشر سنوات.

- ما الذي تغيّر منذ ذلك الحين؟

- لقد تعلّمت درس عمري يا سيّدتي القاضية، لن أكون مهملة بعد اليوم.. إطلاقا! لن أنام اللّيل، وسأبيت أحرسها كلّ ساعة. سأكون إلى جوارها في كلّ لحظة، لن أتركها أبدًا!

تدخّلت رنيم وهي تضع على المنضدة ورقة كانت بحوزتها:

- هذه قائمة بالأشخاص الذين بوسعهم الشّهادة بحسن سيرة سكينة واستقامة حياتها.. بينهم زميلات عمل وحرفاء وشريكات سكن.

تناولت القاضية الورقة الممتلئة عن آخرها بأسماء كثيرة وضمّتها إلى أوراقها، ثمّ رفعت بصرها مرّة أخرى:

- أين زوجك؟

- انفصلنا.

- من يعيلك؟

- لقد عملت في السّنوات الماضية، وادّخرت كلّ ما جنيته تقريبا.. لم أكن أصرف الكثير على معيشتي، حتّى أحتفظ بمبلغ مناسب لمستقبل أطفالي.

- أين تسكنين؟

- أعيش في شقّة مشتركة مع بعض الصّديقات. محاميتي، وشقيقتها طالبة بالجامعة. نحن عائلة.

ألقت نظرة على رنيم ورانيا، ثمّ استدارت ناحية الرّاهبة:

- كيف هو حال الطّفلة؟

– إنّها مكتئبة ومنعزلة. منذ جاءت عندنا قبل سنة ونصف، لا تحادث أحدًا تقريبا.. تهتمّ بالأنشطة اليدويّة، وتنفر من الدّراسة. برأيي، إنّها تحتاج محيطا أسريّا مستقرّا حتى تتحسّن حالتها النّفسيّة.

هزّت القاضية رأسها ثمّ خاطبت سيلين:

– صغيرتي، هل تحبّين حياتك في الدّير؟

ببطء، وبحركة قاطعة، هزّت سيلين رأسها في علامة نفي حازمة. تدخّلت الرّاهبة:

– الرّاهبات مشغولات بأعمالهنّ طيلة الوقت.. أصغر الرّاهبات عندنا في العشرينيّات، ومهما حاولت التقرّب من الصّغيرة فإنّها لا تنفتح بسهولة. إنّها لا تتكلّم تقريبا.

ألقت القاضية نظرة حانية على الفتاة وقالت بابتسامة متعاطفة:

– هل تحبّين أن تنتقلي للعيش مع هؤلاء الفتيات؟

تلألأت في عينيها عبرة حبيسة وومضتا بتعبير غريب وهي تومئ بعلامة الإيجاب. نقلت القاضية بصرها بين الأمّ التي تبدو على مشارف الانهيار، والصّغيرة الهشّة التي تكاد تنكسر، ثمّ قالت:

– الاستماع إلى الشّهود والنّطق بالحكم خلال أسبوعين.

قاطعتها سكينة في رجاء:

– هل يمكنني أن أعانقها على الأقلّ؟

شرحت رنيم:

– سكينة ممنوعة من الاقتراب من طفلتها أكثر من مائة متر بحكم قضائيّ عمره عشر سنوات. وجودهما في نفس الغرفة يعتبر معجزة بالنّسبة إليها.

أشارت القاضية في تفهّم:

– تفضّلي.

نزلت سكينة على ركبتيها وفتحت ذراعيها، فخطت الطّفلة نحوها في وجل أوّلا، ثمّ بخطوات ثابتة ومتيقّنة، حتّى استكانت على صدرها. أخذت سكينة تمسح على شعرها وتذرف عبرات حرّى، وتهمس في أذنيها بصوت يقطّع نياط القلوب:

– يا صغيرتي.. يا حلوتي.. لقد كبرت. صرت عروسا جميلة.. يا حمامتي الوديعة.. هل تعلمين كم أحبّك.. هل تعلمين كم اشتقت إليك؟

لبضع دقائق، انحبست أنفاس كلّ من في القاعة، وهم يتابعون مشهد لقاء الأمّ بابنتها بعد غياب دام عقدًا كاملا، شابت خلاله الأمّ الشابّة، وغدت فيه الرّضيعة فتاة يافعة على أبواب المراهقة. تمتمت البنت في تردّد وحذر، كأنّها تتذوّق الكلمة على لسانها:

– أمّي؟

– نعم يا روحي.. أنا أمّك!

ردّدت من جديد، في يقين هذه المرّة:

– أمّي!

– يا حياة أمّك، يا كلّ دنيا أمّك!

هتفت رنيم منتهزة لحظة التأثّر العامّة:

– سيّدتي الرّئيسة.. نظرًا لظروف الفتاة العصيبة وحالتها النّفسيّة المتردّية، فإنّني أقترح على جنابكم التّعجيل بالنّطق بالحكم.. وذلك لمصلحة الصّغيرة. إسناد حضانتها إلى شخص يهتمّ لأمرها من صميم الفؤاد، وخاصّة أنّها من لحمها ودمها، من أهداف محكمة الأسرة الأولى.. ولا أرى داعيًا لإطالة الانتظار الذي لا معنى ولا فائدة منه!

تنهّدت القاضية وبدا عليها التّفكير لبرهة، نقلت بصرها بين الرّاهبة المتعبة، الفتاة الذابلة والأمّ الدّامعة، ثمّ تحرّكت ذراعها في حركة بطيئة.. توقّفت لثوانٍ تزن قرارها بعين العقل ثمّ تصغي لصوت العاطفة، لتضرب أخيرًا بمطرقتها على الطّاولة معلنة الحكم:

– أسندت الحضانة إلى الأم، سكينة البيطار!

تعالى صراخ رانيا في جذل غير مصدّقة، وقفزت من مقعدها لتحتضن سكينة وسيلين اللّتين لم ينفصل عناقهما بعد، بينما هتفت رنيم التي لم تعتقد أنّ محاولتها اليائسة قد تجد تجاوبًا عند القاضية بتلك البساطة:

– شكرًا لك سيّدتي الرّئيسة! ليس في الكلمات ما يكفي لشكرك على جمعك الأمّ بابنتها بعد انتظار دام عشر سنوات!

ثمّ سارعت تنضمّ إليهنّ في عناق جماعيّ اختلطت فيه الضحكات بالعبرات.

غادرن قاعة المحكمة، وسيلين لا تفارق حضن والدتها، في حين تمسك رانيا بكفّها الأخرى مثل شقيقة كبرى. تأخّرت عنهنّ رنيم بضع خطوات حتّى تخاطب الرّاهبة. قالت في امتنان:

– شكرًا لتعاونك، ولاهتمامكنّ بسيلين في الفترة الماضية. فتاة وحيدة وفاقدة للسّند العائليّ مثلها، كان يمكن أن تضيع عن الجادّة بسهولة.

تنهّدت الرّاهبة وقالت:

– لقد رأيت مدى تأثّرها بعد زيارتك السّابقة. وأدركت أنّها تريد هذه العائلة. لذلك فعلت ما بوسعي حتّى أحتفظ بها في انتظار جلسة اليوم.

– إذن، سأمرّ بعد قليل إلى الدّير لتجمع سيلين حاجياتها...

ضحكت الرّاهبة وقالت:

– لقد جمعت سيلين حاجياتها كلّها في حقيبة وأحضرتها. لقد خفت عليها هذا الصّباح من حماسها.. أخبرتها بأنّ الأمر غير مضمون بعد، وأنّها لن تغادر الدّير اليوم.. لكنّها أصرّت! من ألطاف الله أنّ أمنيتها لم تخب!

ابتسمت رنيم في سرور.. ثمّ تابعت بعينيها رانيا وهي تنفصل عن سكينة وابنتها فجأة وتركض في ممرّ المحكمة. بحثت في توتّر في مجال رؤيتها عمّا تتبعه رانيا.. حتّى حطّت نظراتها على شابّ يحثّ الخطى مبتعدًا، ويتلفّت في حذر.

كزافيي!

وقفت رانيا أمامه وهي تلهث، وقالت بظفر:

– لقد عرفت أنّك ستأتي! هل فوّتّ الجلسة؟

نظر إليها في انزعاج، وقد كشف أمره. قال في ضيق:

- لقد رأيت كلّ شيء.. أنا سعيد من أجل سيلين. لم أكن أتمنّى لها أن تكبر في الدّير...

قالت في رجاء:

- بما أنّك هنا.. لماذا لا تتحدّث إلى سكينة؟

اقتربت رنيم على عجل، وقالت في اهتمام:

- أنت كزافيي، أليس كذلك؟

اكتست ملامحه مسحة عدائيّة وهو يحدّق فيها وقال في نفور:

- من تكونين أنت؟

- أنا شقيقة رانيا.. وصديقة سكينة.

- آه، أنت المحامية.. لقد رأيتك بالدّاخل.

- لماذا لا نجلس جميعا ونتناول الغداء؟

غمغم في ضيق:

- يجب أن ألحق القطار...

- هناك رحلة على رأس كلّ ساعة، إذا فوّتّ رحلة، تلحق بالتّالية. ما دمنا جميعا هنا.. أراها فرصة سانحة.

ودون أن تنتظر، التفتت وراءها ونادت:

- سيلين تعالي.. تريدين لقاء شقيقك؟

تسمّرت سكينة في صدمة، وهي ترمق كزافيي بنظرات مهتزّة. كان حضور الصّغيرة بين ذراعيها قد استغرقها حتّى أنّها لم تلتفت إلى غياب الأختين. استفاقت حين تركت سيلين حضنها وتقدّمت إلى نصف الدّائرة التي وقف على حدودها كلّ من رانيا ورنيم وكزافيي. قالت البنت فجأة:

- لقد رأيتك. أنت تجيء للدّير كثيراً.

امتقع وجهه وقد أحيط به من كلّ جانب. فشرحت رنيم:

- أنتما أخوان شقيقان.. لكنّ كزافيي يعيش مع عائلة أخرى الآن.

رفع كزافيي بصره ليواجه نظرات سكينة المتضرّعة، وقال بقسوة:

- لديّ أمّ واحدة!

قالت سكينة في انكسار:

– لا بأس يا صغيري، لا بأس.

– لستُ صغيرك!

– أنت محقّ، أنا آسفة. من حقّك أن ترفضني.. لكن كم شقيقة لديك؟

أطبق شفتيه ولم يحر جوابًا. لم يعرف معنى الأخوّة. لقد نشأ وحيدًا بلا أشقّاء. وحتّى لو أنكر وجود تلك الأمّ الغريبة ولفظها، فإنّه يشعر بتعلّق لا إراديّ بتلك الصّغيرة البائسة اليتيمة! لعلّ اشتراكهما في المصير ووحدة مأساتهما تقرّبهما بشكل غريزيّ.

على حين غفلة منه، اقتربت سيلين وأمسكت كفّه وأخذت تشدّه وراءها. قالت بصوتها اللّطيف السّاحر:

– هيّا بنا.

لم تكن تتكلّم كثيرًا. لكنّ حروفها القليلة غالبًا ما تكون حاسمة وحازمة. وقد آتت أكلها سريعًا، إذ استسلم لذراعها تقوده، بل تقودهم جميعا وهي تسبق خطواتهم خارج بناء المحكمة. استلمت رنيم الحقيبة من الرّاهبة، ثمّ انضمّت إلى جمعهم حول مائدة مطعم صغير يقع قبالة المبنى الإداريّ. أشارت رانيا إلى النّادل، وطلبت طبقي بيتزا عائليّة للمشاركة.

هتفت سكينة وهي تخترق الصّمت المخيّم على الجلسة بنبرة متحمّسة:

– عندي مفاجأة لكما!

أخرجت ألبوم صور قديمًا لطالما ناجت أطياف ساكنيه في وحدتها في جوف اللّيل. لكنّ مشاركة ذكرياتها مع تلك الوجوه الحبيبة كانت أمنية بعيدة المنال، والآن هي ترضية

أبهى ممّا يتّسع له صدرها. وضعت الألبوم على المائدة في انتظار وصول البيتزا، وأخذت تتصفّح الصّور على مهلٍ وتشير إلى المشاهد التي تحفظها عن ظهر قلب وتتحدّث:

– هذا أنت يا جاسر، حين كنت في سنّ الثالثة.. هذه الدرّاجة الحمراء التي كنت تركبها في فناء البيت.. وهذه أنت يا ميار، بعد يومين من ولادتك. اشترى لك والدك هذا السّوار الذّهبيّ، فرحًا بمجيئك إلى الدّنيا...

سألت سيلين في دهشة:

– ميار؟

– اسمك هو ميار يا حبيبتي.. معناه بالعربيّة هو «جالبة الخير»، وبالفارسيّة «ضوء القمر».. وبالتّركيّة «وردة الجنّة»!

فغرت الطّفلة فاها بإعجاب، فاستطردت سكينة تقول:

– أمّا جاسر، فهو الرّجل الشّجاع!

كان جاسر يتابع كلماتها متظاهرًا بعدم الاهتمام. يجلس باسترخاء على مقعده، متّكئا إلى الخلف، عاقدًا ذراعيه أمام صدره، ويلقي من حين إلى آخر نظرة ممتعضة على الصّور التي تشرح سكينة تفاصيلها.. حتّى قالت وقال مال صوتها إلى البكاء:

– وهذا رامز.. شقيقكما.. أسأل الله أن يغفر لي، ويجمعنا به في الجنّة!

ران صمت عميق على المجموعة، واعتلى الضّيق ملامح كزافيي، بينما كانت سيلين تحدّق في ملامحه باهتمام، ثمّ هتفت:

- إنّه يشبهني!

ابتسمت سكينة وهي تشدّ على كتفها بيسراها وأومأت موافقة:

- أنت ورامز تشبهانني.. وجاسر يشبه والدكما. انظري...

فتحت صفحة ألبوم تحوي صورة لطليقها وجاسر يجلس بينهما. فتطلّع كزافيي بحذر لينظر إلى وجه الرّجل الذي تدّعي أنّه شبيهه. توقّفت عيناه طويلا على الشّابّ الثلاثينيّ الذي كانه والده زمن التقاط الصّورة. حدّق في الوجنتين البارزتين والأنف الطّويل الذي يحاكي أنفه، وإلى الشّارب الخفيف الذي يعلو شفتين غليظتين. انتبه إلى سكينة التي كانت ترمقه خفية وابتسامة حانية تزيّن مبسمها، فلملم نظراته وأشاح بعيدًا.

جاء النّادل حاملا البيتزا، فأشارت إليه رانيا وهي تناوله هاتفها:

- هلّا التقطت لنا صورة جماعيّة؟

استدار الجميع إلى العدسة بوجوه مشرقة، بينما حافظ كزافيي على جموده. شعر بضربة شديدةٍ تصيب ساقه تحت الطّاولة، فتأوّه بخفوت، وهو يبحث عن الفاعل بنظرات زائغة. اصطدمت عيناه بنظرة رانيا النّاريّة. كانت تتوعّده في صمت. حدجها في استياء، فأشارت إليه أن يبتسم! هزّ كتفيه استهانة وعاد إلى عزلته.

- عائلة مميّزة!

قال النّادل وهو يعيد إلى رانيا هاتفها، فابتسمت شاكرة، ثمّ قالت لسكينة:

- سأطبعها حين نصل إلى باريس.. هكذا يكتمل ألبوم صورك!

بادلتها سكينة نظرة امتنان، وتمنّت في سرّها أن يلين جاسر ويعود ليكون واحدًا من أفراد عائلتها حقّا.

***

تركتهنّ عند مدخل المبنى وقالت:

– أحتاج المرور إلى الصّيدليّة.. سآتي حالا.

ثمّ هرولت إلى رأس الشّارع. كانت معدتها قد هدأت، لكنّ هواجسها لم تخفت. غابت في الدّاخل لخمس دقائق، ثم رجعت إلى الشقّة.

في المطبخ، كانت سكينة تنشط في همّة، وإلى جوارها الطّاهيتان المتدرّبتان، رانيا وميار. ابتسمت وهي ترمق ثلاثتهنّ بنظرة راضية. كنّ يبدون مثل عائلة حقيقيّة. تركت حقيبتها، ودلفت على الفور إلى الحمّام.

– أين رنيم؟

هتفت سكينة، حين تأخّر ظهورها.

– العشاء جاهز!

كانت قد غابت في الحمّام منذ نصف ساعة أو تزيد. تقف أمام المرآة وتحدّق في ملامحها المجهدة بنظرات زائغة.. ثمّ تعود عيناها في صدمة، إلى اختبار الحمل السّاكن قرب المغسلة. كان ينبغي للإشارة أن تختفي بعد بضع دقائق، لتعلن فشل الاختبار. لكنّها باقية، واضحة وصريحة بما لا يدع مجالًا للشكّ!

- رنيم، أنت حامل! تهانينا!

قالت لنفسها بسخرية لاذعة. يبدو هذا مثل كابوس لعين. لم تصدّق أنّ هذا ممكن أصلا، فهي لم تهمل حبوب منع الحمل قطّ. لقد كانت مطمئنّة لاتّخاذها الاحتياطات اللّازمة، ولم يخطر ببالها أنّ الانزلاق إلى الهاوية محتمل. رمت الاختبار في سلّة المهملات، ثمّ انهمكت تفرك كفّيها ووجهها، كأنّما تريد الانتباه من الحلم المزعج.

-٣٢-

لم تكن قصص الجنيّات تتطرّق إلى حياة الأميرة بعد الزّواج. لا أحد يتحدّث عن خلافاتها مع الأمير، رفضها للإنجاب، أو تقلّباتها المزاجيّة. تبدأ الحياة الحقيقيّة من حيث تنتهي قصّة الأميرة في الحكاية!

لم تقصد المكتب في الصّباح التّالي. لم يكحّل النّوم جفنيها حتّى الفجر، وكانت آلام الرّأس رفيقتها حين صحت نحو التّاسعة. ارتدت ثيابها على عجل وخرجت إلى المشفى دون أن تحادث أحدًا. جلست في قاعة الانتظار من قسم العيادات الخارجيّة الخاصّة بالنّساء والولادة. ترمق بنظرات مرتعبة البطون المنتفخة التي تحيط بها، وتسير صاحباتها مثل السّرطانات العرجاء!

حين جاء دورها، تثاقلت في الوقوف، وكأنّ بطنها يسحبها إلى الأرض بعبء خياليّ. ثمّ استسلمت لمصيرها، ودخلت العيادة. استقبلتها طبيبة ذات اسم آسيويّ، بعينين ضيّقتين ووجه مجعّد. ابتسمت وهي تفحص بطنها، ثمّ أخذت تستمع إلى نبضات الجنين. كانت ملامحها تكتسي جدّيّة بالغة وهي تدقّق حتّى كاد حاجباها الرّقيقان يلتقيان.

سألت رنيم في توجّس:

- ما الأمر؟

- كلّ الخير يا عزيزتي.. كلّ الخير. لكنّني أريد التأكّد قبل ذلك.. تفضّلي إلى غرفة التّصوير بالموجات فوق الصّوتية!

على الشّاشة، ظهرت صورة تكشف عن دواخل رحمها. لم تكن تستوعب شيئا ممّا تراه، لكنّها تابعت حركات الطّبيبة في اهتمام. شعرت بجهاز الرّصد البارد يضغط بقوّة على بطنها، بينما سمعت صوت الطّبيبة تقول:

- هذا الرّأس...

حدّقت في الشّكل الكرويّ الذي يحيط به سواد كثيف وخيوط متداخلة.

- وهذا الرّأس الثاني!

نقلت عينيها من الشّاشة نحو وجه الطّبيبة في صدمة. يا للهول!

- تهانينا عزيزتي.. أنت حامل بتوأم. مدّة الحمل التقريبيّة، سبعة أسابيع!

غادرت العيادة، وهي تكاد تفقد توازنها. لقد دخلت بنيّة واحدة. أن تستفسر عن سبل آمنة للتخلّص من الجنين. لكنّ الصّدمة ألجمتها وأخرست لسانها. توأم! إنّ قتل جنين واحد كان حملًا يرزح تحته ضميرها فيسحقه، فكيف باثنين؟

عبرت المسار الفاصل بين العيادات الخارجيّة وقسم التّنويم. قادتها خطواتها نحو غرفة ياسمين، لكنّها لم تكن هناك. خمّنت على الفور أنّها ستكون إلى جوار طفلها.

لوّحت لها من وراء الحاجز الزّجاجيّ لغرفة الحضانة. كانت تحمل عزّ الدّين برفق وتهدهده، بعد أن تناول وجبته الصّباحيّة. ترقّبت حتّى انتهت من إشباع غريزة أمومتها وحاجته إلى الحنان، ثمّ جلستا معا في قاعة الانتظار. قالت رنيم وهي تخفي توتّرها:

- العناية بالأطفال أمر صعب!

تنهّدت ياسمين ثمّ ابتسمت:

– لكنّه تعب حلو! كلّ ثانية أمضيها إلى جواره لها طعم الشّهد.. كأنّها لحظات سُرقت من الجنّة!

حدّقت فيها رنيم في شكّ. إنّها تبدو منهكة ومستنزفة القوى. مازال جرح القيصريّة يجعلها تنثني ألمًا، لكنّها تبتسم وتشعّ قسماتها بشرًا، كلّما ورد ذكر وليدها على لسانها.

لكنّها لا تشعر بالأمر ذاته تجاه الكائن الذي بات يستوطن جوفها. بل الكائنين الاثنين! لا يمكنها أن تضمر غير الخوف والسّخط والغيظ! لم يكن الوقت مناسبًا لتصبح أمّا. لقد تشاجرت وشهاب لهذا السّبب بالذّات. وهي لا ترى انقلاب الموازين واردًا أو ممكنًا. لم تتغيّر ظروفها قطّ. مازالت العقبات ذاتها قائمة، لذلك.. لذلك لا تستطيع أن تحبّ الجنينين اللذين شرعا يتكوّنان في رحمها. سألت في حذر:

– هل أحببته منذ اليوم الأوّل؟ حين عرفت أنّك تحملينه في بطنك؟

ابتسمت ياسمين في شغف:

– لقد كانت لحظة ساحرة.. لحظة أيقنت أنّنا سنصبح «عائلة»! أنا وهيثم، كنّا سعيدين قبل ذلك.. لكنّ طعم الحياة اختلف، بوجود جنين نصفه منّي والنّصف الآخر من أبيه. بشكل ما، هذا الصّغير هو نتاج انصهار أحدنا في الآخر...

ابتسمت رنيم في حيرة. ياسمين العقلانيّة حين يتعلّق الأمر بالزّواج، تحوّلت إلى حالمة رومانسيّة في ما يخصّ الأطفال!

سرحت لبرهة، تتمثّل حياتها في وجود طفل من شهاب. انتفاخ البطن، وآلام الولادة، ثمّ ترهّل جسمها نتيجة الحمل والرّضاعة والهالات السّوداء من أثر السّهر، ورائحة

الحفّاظ! انتابها إحساس بالدّوار. إنّها لا تستطيع الوصول إلى بقعة الضّوء التي يفترض بها أن تظهر في نهاية النّفق المظلم. إنّها لا ترى سوى عتمة النّفق!

تنهّدت ياسمين، فسألت رنيم في قلق:

- ما الأمر؟

- أحمل همّ الأيّام المقبلة.. غدًا يجب أن أترك غرفتي في قسم الولادة. لكن أمام عزّ الدّين أسبوع بعد.. وهيثم...

- آه!

لم يكن وضع هيثم مستقرّا بعد. كلّما سألت عنه، قيل لها أنّه نائم! تلك النّومة التي تستمرّ منذ يومين توحي بشيء آخر. لكنّها لا ترغب في بعثرة اطمئنان ياسمين الهشّ. لا تريد أن تكون سببًا في تعكير صفوها. إن كان قد استيقظ أوّل أمس، فقد يستيقظ في أيّ وقت آخر.. عليها الانتظار بعد.

كان منزل زهور واقعًا في الضّاحية الشّمالية، والمشفى في الضّاحية الجنوبيّة. لا شكّ أنّ الرّحلة اليوميّة لعيادة ولدها وزوجها ستستغرق منها ساعة أو تزيد. وهي لا تستطيع بعد أن تتنقّل بمفردها، تحتاج إلى الرّفقة. إنّ في الأمر مشقّة لا محالة.

- لماذا لا تبقين في شقّة الشّركة؟ إنّها قريبة من هنا.

- الشّركة؟

- هل لديك نسخة من مفاتيح هيثم؟ سأهتمّ بترتيب المكان من أجلك.

- خالتي زهور معها بالتّأكيد.. هيثم يحتفظ بنسخة في منزل والديه، حتّى إذا أضاع مفاتيحه أو نسيها.. كان لديه بديل.

- جميل.. سأتّصل بميساء.

تعالى رنين هاتفها في تلك اللّحظة، فاعتذرت من ياسمين لتردّ. كانت مساعدتها. أصغت إلى تقريرها الذي طلبته بخصوص آية وعائلتها، ثمّ قالت على عجل:

- لديّ عمل الآن.. سأراك لاحقًا.

***

اقتحمت غرفة عمر وهي تلهث، مثل عاصفة هوجاء. هتفت دون مقدّمات:

- لقد اختفت!

حدّق فيها في عدم فهم.

- آية ووالدها.. اختفيا! لا أثر لهما في باريس، بل في فرنسا كلّها. البيت خاوٍ على عروشه.. ولا أحد من الجيران يعرف إلى أين مضيا. حتّى أنّ والدها ترك وظيفته بلا مبرّر.

أصغى عمر في صمت، ولم يعقّب. فأردفت رنيم في شكّ:

- لا تبدو متفاجئا!

قال بهدوء:

- لماذا تنبشين وراءهما؟

- لأنّني لا أشعر بالارتياح.. ما الذي يجعلهما يختفيان بعد الحادثة تمامًا؟

- لكلّ أسبابه!

تمهّلت لبرهة ثمّ قالت بحزم:

- هذا يثبت علاقتهما بالقضيّة!

عاجلها عمر بلهجة صارمة:

- لا أريد منك إقحامهما في الأمر! لا تأتي على ذكرهما أبدًا.. هل سمعتِ؟

لكنّها ألقت في تحدّ:

- أنت لا تفهم. السّبل كلّها مسدودة. إن كان لإثارة الشكّ تجاههما نفع في القضيّة فلن أتردّد في توجيه اللّوم إليهما! أيّ مجال للشكّ في طرف ثالث يعدّ فرصة لا تفوّت!

زفر في ضيق، ثمّ تريّث قبل أن يقول في حذر:

- ماذا لو كان هناك مجال لإلقاء اللّوم على طرف ثالث، دون أن يوجّه الاتّهام إليهما؟

– ماذا تعني؟

– آية، في زيارتها الأخيرة، قبل رحيلها.. ذكرت بضعة أسماء. قالت أنّ بوسعي —إذا ما اضطررت إلى الاعتراف— أن أنحّي جزءًا من اللّوم عن نفسي.

– أيّ أسماء؟

تنهّد، ثمّ قال:

– عائلة آية، ذات صلات عريقة بالمقاومة.. لكنّ والدها هاجر حين كانت في سنّ صغيرة. لقد أراد لها حياة طبيعيّة ومستقرّة.. وهذا ما يأمله كلّ من يرزقه الله بالذرّية. يرجو لهم حياة أفضل من التي عاشها.. لكنّها نشأت على حبّ فلسطين وتعلّق بتاريخها، وتطلّع للعودة إليها.

أعلنت رنيم في ظفر:

– إذن هي السّبب في كلّ ما حصل! لم أكن مخطئة!

– بل أنت مخطئة تمامًا. لقد نما وعيي بالقضيّة الفلسطينيّة بفضلها، هذا صحيح. ولقد سافرت إلى سوريا بتوصية من خالها، وهذا أيضا صحيح. لكنّني لا أُتّهم بهذا.. بل بسبب نشاط الشّركة! المشروع الذي أثار حفيظة الصّهاينة، لم يشر به عليّ أحد! لقد فكرت وخطّطت، ثمّ شاركت هيثم أفكاري.. وتعاونّا على الإنجاز في معزل عن آية وعائلتها. لم يكن لأيّ منهم معرفة مباشرة أو غير مباشرة بنشاط الشّركة! لقد سافرت إلى غزّة، وهناك أنشأت علاقات تخصّني.. تواصلت بشكل مباشر مع مهندسي المقاومة، وهي لم تكن تعلم بما فعلت هناك ومن قابلت وما أسفرت عنه الزّيارة!

صمت لبرهة، ثمّ واصل أمام وجوم رنيم:

– لكنّها –رغم ذلك– كانت تشعر بالمسؤوليّة تجاهي.. لأنّها فكّرت مثلك. أنّني لم أكن لأتورّط لولا معرفتي بها.. لكنّها لا تدرك أنّني كنت سأبقى بلا هدف، لولا ظهورها في حياتي! أنا لا أندم على شيء ممّا فعلت.. ولا أحسب هيثم يفعل، لولا أنّ مصاب عائلته به عظيم.

أخذ نفسًا وكتم عبرة ثم استطرد:

– لقد جاءت آية تمدّ يد المساعدة، وهي غير مجبرة. لكنّها لا تملك من أمرها شيئا. خشيت أن يلحقها أذى، وهي فتاة شابّة، لا يليق بها ارتياد المعتقلات ودخول التّحقيقات، وهي بريئة أساسًا. لذلك طلبت منها الرّحيل. لكنّها اتّصلت بخالها، وطلبت دعمه.. وهو لم يقصّر. كلاهما قام بواجبه وأكثر.

ثمّ رفع كفّه كأنّما يؤدّي القسم وقال بلهجة ساخرة:

– لقد فعلت ما فعلت عن وعي وقناعة تامّين.. وأنا في كامل قواي العقليّة!

ران الصّمت على الغرفة حين فرغ من شرحه. سألت رنيم بعد دقيقتين استوعبت خلالهما مراده:

– هذه الأسماء، ما نفعها؟

– إذا اضطررت إلى الاعتراف.. أقول أنّه قد غُرّر بي، وأنّني التقيت بتلك الشّخصيّات، فعرضوا عليّ العمل معهم وتزويدهم بمعدّات التجسّس.

– وهل ستفعل؟

ابتسم في تهكّم وقال:

- هل جاء أوان الاعتراف؟

ازدردت لعابها في توتّر. لو أنّ هيثم يعترف بأنّ عمر هو المسؤول الأوّل في المشروع، سيحصل على صفقة مع المدّعي العام. خمس سنوات نافذة. لكنّ عمر سيُحشر في الزّاوية. حتّى لو اعترف بتلك القائمة الاسميّة، فلن يسفر الأمر إلّا عن تخفيف طفيف للحكم. عشرون عامًا، بدل المؤبّد ربّما!

والآن تشعر أنّ الوقت ينفد منها، تتناثر حبّات الرّمل في ساعتها، والحلول تتناقص باستمرار.

***

سحبت رنيم قدميها عبر ممرّات المشفى بلا حماس. باتت تتقن الفرار أكثر من المواجهة. وقفت تراجع أفكارها عند مدخل قسم العناية دون أن تجرؤ على الولوج. هناك الكثير لتفكّر به.. حتّى لا تعود إلى سرّها الصّغير الذي تخفيه عن الجميع حتّى اللّحظة.

كانت قد عادت إلى المشفى بعد أن تأكّدت من جاهزيّة الشقّة لاستقبال ياسمين ووالدتها. أمضت ساعات طويلة في التبضّع والتّزويق منذ الصّباح. تنفق وقتها في نشاط يشغلها عن الأزمات العصبية التي لا تجد لها مصرفًا. لم تكن ياسمين في غرفتها حين وصولها، فمضت تقتفي أثرها. توقّفت عند غرفة العناية، لكنّها لم تدخل على الفور.

على امتداد الطّريق من الشقّة، كانت تحادث نفسها بأنّها بحاجة إلى الفضفضة. فكّرت بأنّها إن ألفت ياسمين بمفردها، فستفضي إليها بمكنونات صدرها. تخيّلت جلستهما على مقاعد الانتظار، تتسامران مثل الأيّام الخوالي، مع اختلاف الإطار المكاني!

لمحت طبيبًا يغادر غرفة هيثم، فاستوقفته للسّؤال:

- كيف أصبح هيثم الأندلسي اليوم؟

هزّ الطّبيب رأسه بابتسامة وقال:

- سيكون بخير.. لقد نام للتّوّ. لا يريد إزعاجًا. عن إذنك الآن.

طالعت ساعتها في ارتباك. تفصلها ساعتان عن انتهاء مهلة المدّعي العام. استدارت على عقبيها فورًا وهرولت في اتّجاه غرفة عمر. غابت في الدّاخل لدقيقتين ثمّ خرجت مفزوعة. تناولت هاتفها واتّصلت بجورج. قالت في انفعال:

- اتّصل بمكتب النّيابة واقبل عرضهم!

- ماذا تقولين؟

بدا جورج مشوّشا وغير مستوعب. فأضافت في استماتة:

- يجب أن تساوم على خمس سنوات فقط، مثل العرض الذي جاء لهيثم. أقنعهم أنّ عمر سيدلي بمعلومات وافرة عن جهات الاتّصال بالمنظّمة الإرهابيّة!

هتف جورج في دهشة:

- هل أنت واثقة؟ هل تعلمين أنّك تخاطرين بمصير موكّلك؟

- لا تقلق.. إنّها مخاطرة محسوبة.

زفر في توتّر ثمّ قال:

- ماذا عن عمر؟ هل وافق على هذا؟

قالت على عجل:

- ليس بعد.. لكنّه سيفعل.

أضافت أمام تردّده:

- لم يبق الكثير من الوقت. سأشرح لك لاحقًا. إذا أنهيت المساومة، اتّصل بي على الفور!

قال في استسلام:

- حسنا.

أخذت رنيم نفسًا عميقًا، ثمّ خطت إلى قسم العناية المركّزة.

-٣٣-

حين رجعت ميساء من رحلتها إلى «ليل»، حكت تفاصيل ما رأت في الشقّة المتروكة منذ أسبوع، وأناملها ترتجف. كانت قد سافرت في وقت مبكّر رفقة والدها إلى شقّة ياسمين وهيثم لإحضار ملابسهما، وحاجيات عزّ الدّين، مع اقتراب مغادرة ياسمين للمشفى.

لم يكن باب الشّقّة محكم الإغلاق. في البداية حسبت ياسمين قد غفلت عن ذلك إبّان رحيلها المستعجل.. لكنّها أدركت ما حصل ما إن خطت إلى الدّاخل وأضاءت الأنوار. كان متاع الشقة مبعثرًا في الأرجاء، وأثاثها منقلبًا رأسًا على عقب. بدا أنّ يدًا عابثة قد مرّت من هناك، وتركت المكان ركامًا لا يميّز بعضه من بعض.

حدّقت فاغرة فاها، وقد شلّتها الصّدمة. ثمّ أخذت تجمع ما تصل إليه يدها من ثياب وهي تنتحب بلا توقّف. عبّأت ما حسبته ضروريّا من المتاع في حقيبتي سفر، ثمّ جذبت الدفّة وغادرت لا تلوي على شيء.

أسرّت في تردّد إلى ياسمين بما شهدته بأمّ عينيها، فلحظت شحوبها المفاجئ. سارت بمحاذاتها في صمت باتّجاه قسم الحضانة، وقد شغلتهما الأفكار والهواجس. كان عزّ الدّين قد غدا في صحّة أوفر، لكنّهم يحتفظون به تحت الملاحظة ما دام لم يشرع وزنه في الزّيادة.

وهما تعبران باتّجاه غرفة هيثم، أبصرتا رنيم تقف في شرود في الممرّ. بدت ساهمة وغائبة في بوتقة أفكارها هي الأخرى. بادرتها ميساء على الفور:

- هل من جديد؟

زوت رنيم ما بين حاجبيها وهي مازالت تحاول استيعاب كلمات الطّبيب الغريبة:

- ما يزال نائما...

إنّه ينام منذ يومين. الكلّ يتحدّث عن غيبوبة جديدة ممكنة، لكنّ الطّبيب يبدو مطمئنّا أكثر ممّا ينبغي. سألت بدورها:

- هل عزّ الدّين بخير؟

- إنّه يتحسّن باستمرار.

أومأت ياسمين مطمئنة، فأردفت ميساء:

- لكن هناك شيئا آخر...

ثمّ سردت على مسامعها تفاصيل ما رأته في الشقة. أصغت رنيم في اهتمام وقلق متزايد، بينما تراءى الذّهول مسيطرًا على ملامح ياسمين، وقد زاغت عيناها محدّقة في الفراغ. لقد ظنّت أسوأ مخاوفها يقف إزاءها، فإذا بها تقف على عظيم جهلها بحقيقة الأمر.

بينما تقف ثلاثتهنّ في الممرّ، يتبادلن نظرات القلق والتوتّر، استرعى انتباه رنيم مشهد ممرّضة تركض في اتّجاه غرفة العناية وقد بدا عليها الارتباك. ما إن انفرجت دفّتا الباب حتّى سمعت رنيم الرّنين الآليّ الذي تصدره الآلات المتّصلة بهيثم.

هرولن في ذعر في اتّجاه الغرفة. تذكّرت رنيم كلمات الطّبيب المريبة منذ حين، بينما بلغ نداء الممرّضة للطاقم الطّبيّ لتدخّل عاجل. وقفت في تردّد، تنقل بصرها بين الغرفة ووجه ياسمين الشّاحب، وبين الممرّ الذي اختفى منه الطّبيب الذي تحدّثت إليه. انتابها هلع مفاجئ ودوّت صافرات الإنذار في رأسها، فتركت صاحبتيها وانطلقت تركض إثر الطّبيب.

حين صارت في الممرّ الخالي، أدركت أنّها فقدت أثره، لكنّ حدسها أنبأها بوجهته. حثّت الخطى وهي تدعو أن تصل قبل فوات الأوان. لم تكن قد أشرفت على قسم الجراحة بعد، حين لمحت الطّبيب ذاته وهو يهرول مبتعدًا عن غرفة عمر. هتفت برجل الأمن عند الباب:

- اقبض عليه! ذلك الطّبيب.. إنّه مدّع!

حدجها رجل الأمن في استغراب ونقل بصره بينها والمنعطف الذي اختفى منه الطّبيب في حيرة، ولم يبرح موقعه. خلال ثوانٍ أدركت أنّ الرّجل قد لاذ بالفرار لا محالة. قالت بسرعة وهي تخرج بطاقتها:

– أحتاج إلى رؤية المتّهم في الحال.

حين ولجت إلى الغرفة، لم تر عمر على السّرير. تسمّرت مكانها.. لم يكن عمر قد ترك سريره قطّ حتّى تلك اللّحظة. تساءلت في وجل.. أين يمكن أن يكون؟ همّت بالطّرق على باب دورة المياه، لكنّ أنينًا خافتًا جعلها تخطو لتلقي نظرة على الجانب الآخر من السّرير. فوجئت بعمر ملقى على الأرض، وإلى جواره حقنة محطّمة.

هتف ما إن رآها بصوت متحشرج:

– هيثم!

– سأنادي الممرّضة على الفور!

كرّر في إلحاح:

– هيثم.. إنّه في خطر!

هزّت رأسها في أسى:

– أخشى أنّه قد فات الأوان...

***

مضت ساعات النّهار بطيئة ورتيبة. لم يكن يقطعها سوى زيارة الطّاقم الطبيّ تارة ودخول رنيم العاصف طورًا، ليرجع عمر بعد ذلك إلى مناجاة السّكون ومعاقرة الملل.

ترك كتابه ذلك العصر، وقرّر فتح التّلفاز. لم يكن يهوى التّقليب بين الفضائيّات الفرنسيّة غالبًا، وقد بات الأمر أسوأ بعد أن غدت قضيّته الشّغل الشّاغل للمنصّات الحواريّة والنشرات الإخباريّة.

كانت الشّمس قد مالت إلى الغروب، حين دخل عليه الطّبيب. لم يكن موعد الزّيارة المسائيّة المعتادة قد حان. لكنّ الرّجل كان يبتسم وهو يسأله بأريحيّة:

– كيف أنت اليوم؟

– أفضل.. شكرا لك.

بدا وجه الطّبيب مألوفًا، غير أنّ الاسم المدوّن على صدر مئزره الأبيض كان مجهولًا لديه. الطّاقم الطبيّ يتغيّر بضع مرّات في اليوم، ومن الطّبيعيّ ألّا يحفظ الأسماء كلّها.. لكنّ شيئا ما بدا مريبًا بشأن ذاك الطّبيب. سأله باهتمام:
– دكتور، عنقي يؤلمني.. حين أحاول الالتفات إلى اليمين. هل لهذا علاقة بكسر الترقوّة؟

– بالتأكيد.. سأحقنك بمسكّن يساعدك على النّوم، ويشعرك بتحسّن.

بدا ذلك مفاجئا لعمر. لم يكن ذلك هو البروتوكول الطبيّ المعتاد. لم يكن الطّبيب يزوره منفردًا قطّ، بل يكون برفقته ممرّضة أو اثنتان، وفرد آخر من الطّاقم الطبيّ. كانوا يأتون في مجموعة في كلّ مرّة. ولم يكن الطّبيب يفعل أكثر من الفحص وتفقّد الإصابات.. بينما يعهد بتغيير الضّمادات وتعليق المحاليل وتجهيز الحقن إلى الممرّضات حصريًا.

تلك الزّيارة في موعد غير متوقّع، لطبيب منفرد ومجهول، وبحوزته حقنة جاهزة.. كانت مثيرة للشّكوك!

كان الطّبيب يهمّ بتفريغ محتوى الحقنة في المحلول المعلّق عند رأسه والسّاري في عروقه، حين قاطعه عمر:

- أشعر بتحسّن الآن.. لقد كان ألمًا عابرًا. لا داعي للمسكّن.

لكنّ الطّبيب ألحّ:

- لا بأس، المسكّن لن يضرّ على أيّ حال.

- شكرا لك.. لكنّني لا أحتاجه الآن. هلّا تركته لوقت لاحق؟

بدا على الطّبيب الانزعاج، وتابع:

- بما أنّني هنا، سأضع لك العقار.

وضع عمر كفّه على ذراعه ليوقفه، فنظر الطّبيب في عينيه بحدّة. في تلك اللّحظة، تذكّر عمر أين رأى وجه الطّبيب في السّابق. كان على إحدى الصّور التي عرضها المحقّق!

اتّسعت عيناه في ذهول وقد أدرك مدى الخطر الذي يحيق به، وبدا أنّ الطّبيب أيقن بدوره أنّ قناعه قد سقط. أزاح ذراع عمر بعنف، ودفع بإبرته لتنغرس في أنبوب المحلول. بحركة قويّة، اقتلع عمر الأنبوب من ذراعه ليتخلّص من تدفّق السّوائل إلى جسده.

بادله الرّجل نظرة شرسة، ثمّ انتزع الحقنة التي لم تفرغ من محتوياتها، وهوى بها على ذراع عمر مباشرة. لكنّ عمر كان أسرع. أمسك بمعصم خصمه وتشابكت الأيدي في التحام ساخن، كان من الواضح أنّ الغلبة فيه لن تكون للمصاب الذي يلازم سريره منذ أيّام.

هوى عمر على الأرض، لكنّ سقطته دفعت الطّبيب إلى الوراء، فأفلت الحقنة التي تهشّمت على البلاط وسالت محتوياتها. حدّق فيه في غيظ، وقد أجهضت مهمّته. مال على عمر يهمّ بخنقه بيديه العاريتين، فركل عمر ساقه وهو ممدّد على الأرض بكلّ ما تبقّى في جسده من قوّة، ثمّ التقط الإبرة المنفصلة عن حطام الحقنة التي استقرّت غير بعيد عنه، وغرسها في قدمه. تأوّه الرّجل وانقبضت ملامحه. ألقى على عمر نظرة متوعّدة، ثمّ انسحب من الغرفة مخفيا عرجه.

***

طالعت رنيم ساعتها في ارتباك. تفصلها ساعتان عن انتهاء مهلة المدّعي العام. تناولت هاتفها واتّصلت بجورج. قالت في انفعال:

– اتّصل بمكتب النّيابة واقبل عرضهم!

– ماذا تقولين؟

بدا جورج مشوّشا وغير مستوعب. فأضافت في استماتة:

– يجب أن تساوم على خمس سنوات فقط، مثل العرض الذي جاء لهيثم. أقنعهم أنّ عمر سيدلي بمعلومات وافرة عن جهات الاتّصال بالمنظّمة الإرهابيّة!

هتف جورج في دهشة:

- هل أنت واثقة؟ هل تعلمين أنّك تخاطرين بمصير موكّلك؟

- لا تقلق.. إنّها مخاطرة محسوبة.

زفر في توتّر ثمّ قال:

- ماذا عن عمر؟ هل وافق على هذا؟

قالت على عجل:

- ليس بعد.. لكنّه سيفعل.

أضافت أمام تردّده:

- لم يبق الكثير من الوقت. سأشرح لك لاحقًا. إذا أنهيت المساومة، اتّصل بي على الفور!

قال في استسلام:

- حسنا.

أخذت رنيم نفسًا عميقًا، ثمّ خطت إلى قسم العناية المركّزة. كانت تدرك سلفًا أيّ نوع من المشاهد سيقابلها. كانت ياسمين منهارة، تحتضنها ميساء وتتقاسمان اللّوعة. في الدّاخل، لم تتوقّف محاولات إنعاش قلب هيثم الذي توقّف منذ دقائق، بمفعول عقار مجهول سمّم جسمه وأوقف نبضاته.

توقّفت إلى جوار رجل الأمن الذي يتابع المشهد ويتهيّأ للاتّصال بمكتب الادّعاء في حال تغيّرت المعطيات الحياتيّة للمتّهم. قالت بهدوء وهي تمرّ حذاءه:

– إنّها مجرّد نوبة.. ستمرّ على خير كما مرّت سابقاتها.

ابتسمت وهي ترنو إليه بثبات، وأملت أن تخدعه ثقتها فلا يتسرّع في الاتّصال قبل أن تُحسم الصّفقة التي يساوم عليها جورج في الوقت ذاته. إنّها في سباق مع الزّمن.

تعالى رنين هاتفها، فتراجعت خطوتين وردّت على الاتّصال من مكتب النّيابة العموميّة:

– أستاذة رنيم، هل تعرفين أنّ زميلك قد اتّصل بي للتوّ لإبرام صفقة لموكّله؟

قالت بنبرة ساخرة:

– حقّا؟ لا أصدّق كلمة من هذا.. أعرف أنّ جورج لن يخونني!

– صدّقي أو لا تصدّقي.. لقد وافق عمر الرّشيدي على خيانة صاحبه والاعتراف عليه.. وهذا يجعل موكّلك في وضع لا يُحسد عليه!

قالت متظاهرة باللامبالاة:

– أعرف ما تحاول فعله.. أنت تزرع الشكّ بيننا حتّى يقنع كلّ منّا موكّله بالاعتراف.. ولصالح من هذا؟ لصالح الادّعاء بالتّأكيد! وفّر أساليبك الملتوية، هيثم الأندلسي لن يعترف!

جاءها صوت المدّعي العام مشبعًا بالحنق:

- هذا غباء غير مسبوق أستاذة رنيم.. أنت تفوّتين فرصة ذهبيّة على موكّلك! لقد انطلق المحقّق لأخذ أقوال عمر الرّشيدي منذ حين.. إذا شئت، يمكنك لقاؤه في المشفى قبل أخذ شهادة المتّهم، وتكون الصّفقة من نصيبك...

قاطعته بلهجة حاسمة:

- يبدو أنّك لم تسمع جيّدا ما قلته. لا صفقة بالنّسبة إلينا. شكرًا لاقتراحك!

صرخ في غيظ:

- إذن قولي وداعًا لموكّلك.. سيسكن طويلا، طويلا جدّا خلف القضبان!

أنهت الاتّصال وهي ترتجف. اقتربت من رجل الأمن الذي كانت المكالمة تحت سمعه وبصره، وقالت بلهجة متهكّمة:

- هل هو هكذا دائما؟ يحاول فرض رأيه على الجميع؟

ابتسم رجل الأمن لملاحظتها، ولم يعلّق. فأضافت بلهجة واثقة:

- هيثم الأندلسي لن يعترف.

ثمّ سارت حتّى غرفة الانتظار. وقفت تترقّب ظهور أحد أفراد الطّاقم الطبيّ من الدّاخل، وهي تتلفّت في توتّر. إن حصل شيء لهيثم، فلا يجب أن يصل الخبر إلى المدّعي العامّ الآن. عليها أن تؤخّر انتشار الخبر بقدر ما يمكنها.

خرجت ممرّضة مرتبكة بعد حين، فاستوقفتها رنيم. قالت على عجل:

- نحن نفعل ما بوسعنا...

- هل سينجو؟

هزّت الممرّضة كتفيها في قلّة حيلة. أومأت رنيم في تفهّم، ثمّ عادت إلى حيث تجلس ياسمين. وقفت تفرك أصابعها في عصبيّة. تشعر بثقل الثّواني التي تمرّ على كتفيها. كلّ لحظة تمرّ تقرّبها من النّهاية المحتومة. وحدها تعلم أنّ أمر هيثم قد حُسم.

ارتفع رنين هاتفها من جديد. ردّت في لهفة:

- جورج، ما الجديد؟

- سأصل خلال دقائق.. المحقّق في الطّريق. أنت واثقة من اعتراف عمر؟

- سأحرص على ذلك.

تركت موقفها عند قسم العناية المركّزة وعادت إلى غرفة عمر. بادرها فور دخولها:

- هيثم؟

قالت بلهجة حاسمة:

- لقد نجح في حقنه.. انتهى أمره!

- هل.. مات؟

كانت تعلم أنّ أيّ أمل في نجاة هيثم سيجعل عمر يتقاعس عن الاعتراف. لن يمتلك الشّجاعة للمضيّ في الصّفقة إذا ساوره أيّ شكّ في ظلم صاحبه.

هزّت رأسها بحركة بطيئة موجبة. لقد مات. أخفى وجهه بين كفّيه، وأجهش بالبكاء. لم تره يبكي قطّ. لقد كان متماسكًا إلى درجة مدهشة، طيلة فترة محاكمته الأولى. لم يثبّطه الألم ولا قصر الأمل. لكنّه اليوم يبكي صاحبه، فتنهمر العبرات على وجهه دون مواربة.

طالعت ساعتها في ضيق. الوقت ينفد. سيكون المحقّق عنده خلال دقائق قليلة. قالت في رجاء:

– يجب أن تعترف! المكان الوحيد الآمن لك في الوقت الحالي هو خلف القضبان!

كان يجب أن تُدرك ذلك في وقت أبكر. الموساد لا يترك مهمّة غير منتهية! كيف للاغتيال أن يفشل بتلك البساطة؟ سيظلّون خلفه، حتّى ينتهي أمره. في تلك اللّحظة، تبخّر من رأسها حلم البراءة الخياليّ والمرجوّ. لم يعد مغريًا أبدًا. البراءة تتساوى والإعدام. كان يجب أن يبقى في السّجن، حتّى تهدأ الأوضاع وتصبح القضيّة طيّ النّسيان. أضافت في اندفاع:

– لقد تحدّثت إلى ياسمين. لا بأس بوضع اللّوم على هيثم...

نظر إليها في صدمة:

– تحدّثت إليها.. في مثل هذا الظّرف العصيب؟

ازدردت لعابها في توتّر، تداري كذبتها. سيتفهّم الأمر لاحقًا حين يدرك دوافعها. ياسمين أيضا ستتفهّم. قالت بحزم:

- الحيّ أولى من الميّت!

الحيّ والميّت! من الحيّ ومن الميّت؟ كلّ ما يعرفه هو أنّ هيثم حيّ.. إنه أكثر حياة من أي وقت مضى، شهيد عند ربه.. (بل أحياء عند ربّهم ولكن لا تشعرون)! غامت عيناه بدموع حسرة ولوعة، واكتست قسماته فرقًا وشوقًا. فرقًا لفراق صاحبه.. وشوقًا لشهادة حازها دونه. أردفت تستعجله:

- المحقّق يصل خلال عشر دقائق. عليك أن تعترف وتوقّع.. قبل أن يستشري خبر وفاة هيثم. حينها يصبح الاعتراف بلا قيمة! هل فهمتني؟ حين يصل المحقق إلى هنا وتوقّع الصفقة، يمكنك أن تعلن الحداد على صديقك.. أما الآن فعليك أن تتمالك نفسك!

لم يردّ عمر. بدا منفصلًا في عالمه، نظراته غائبة وقد اختفت الدّماء من وجهه. استدارت رنيم لتغادر الغرفة في صمت. ستمنحه بضع دقائق ليستوعب الوضع. قالت قبل أن تغلق الباب خلفها:

- لا تدع تضحية هيثم تذهب هباءً.. يكفي أن يدفع أحدكما الثّمن.

وقفت في الممرّ، تذرع المسافة جيئة وذهابًا، حتّى أبصرت جورج مقبلا.

- هل أقنعته؟

- آمل ذلك.

التفت الاثنان حين رنّت خطوات المحقّق خلفهما. تبادلا نظرة قلقة، ثمّ تقدّم جورج ليسبقه نحو غرفة عمر.

- هل المتّهم جاهز للاعتراف؟

- نعم سيّدي المحقّق.

ثمّ غاب الاثنان وراء الباب المغلق.

*

- ساعة الوفاة.. السّادسة مساءً واثنتان وعشرون دقيقة.

أعلنها الطّبيب وهو يسحب قناع التنفّس عن وجه هيثم، ويطفئ أجهزة الإنعاش واحدًا إثر الآخر. لقد انتهى صراعه مع الموت بهزيمة ساحقة. ذاك كان قدره.

هرولت رنيم في الممرّات، وقفت على مبعدة، تطالع الوجوه الكالحة في ذعر. لقد انتهى الأمر. على المقعد قبالة الغرفة، انهارت ياسمين في استسلام، بين أحضان ميساء.. تبكي إحداهما زوجها والأخرى شقيقها. شعرت بغصّة في حلقها. تأمل أن يكون عمر قد أصغى إلى صوت العقل واعترف. حين يخرج المحقّق من الغرفة، سيعرف بوفاة هيثم. ما لم يكن عمر قد وقّع الصّفقة بالدّاخل، سيكون كلّ شيء قد ضاع.

خلال دقائق، وصلت زهور وفاطمة وعبد الحميد، واندلعت مناحة جماعيّة في قاعة الانتظار. لم تتمالك رنيم نفسها، فتركت العنان لعبراتها هي الأخرى وانضمّت إلى جموع النّائحين. كان الثّقل الذي يرزح تحته صدرها قد فاض بها. لقد فعلت ما بوسعها لتحافظ على رباطة جأشها، وحرصت على بقاء صفاء ذهنها حتّى تخرج من الأزمة بأخفّ الأضرار.

لكنّ كأسها قد فاضت الآن. أخذت تنشج في استسلام، من أجل هيثم وياسمين وعزّ الدّين، ومن أجل المخاوف التي كبتتها داخلها.. فقدان شهاب، والتوأم الذي يسكن أحشاءها.. ومن أجل عمر الذي لا تعلم يقينًا إن كان سيترك مجهوداتها تذهب هباءً بعناده المعهود!

كانت طاقتها قد نفدت، كأنّ إعلان وفاة هيثم يسدل السّتار على فصل المعاناة الذي عاشته خلال الأسبوع الماضي. والآن سيكون عليها معاينة الخسائر.

تركت قاعة الانتظار التي تغرقها الدّموع وعادت أدراجها إلى قسم الجراحة. وقفت في توتّر تطالع الباب المغلق. إنّها تتمنّى أن تكون بالدّاخل الآن، تستمع إلى ما يقال. لكنّها لا تملك إلّا أن تدعو.

اقتربت من رجل الأمن الذي لم يبرح موقعه وسألت في اهتمام:

- هل ما زال المحقّق هنا؟

هزّ رأسه بعلامة الإيجاب، فتنهّدت في ارتياح. امتداد الجلسة يدعو إلى التّفاؤل. لو أنّ عمر رفض الاعتراف، لكان قد غادر على الفور. استدارت على عقبيها، وسارت في اتّجاه مكتب مدير المشفى.

استقبلها الرّجل باحترام واهتمام. لقد بات يعرفها الآن، بعد أن أحضرت شهاب من أجل جراحة عمر. قالت بلهجة جادّة:

- هذه القضيّة، إنّها حسّاسة للغاية. أنت تدرك ذلك.

هزّ المدير رأسه في انتباه، فواصلت:

- هل يمكنك تأخير الإعلان الرّسميّ لوفاة هيثم الأندلسي حتّى صباح الغد؟

- عفوًا؟ ما السّبب؟

– لقد كانت هناك محاولة اغتيال ثانية –ناجحة هذه المرّة– داخل المستشفى! لقد تسلّل شخص ما، منتحلًا صفة طبيب، وحقن المريض بشيء ما. قبل أن تعلن سبب الوفاة، أرجو منكم التّعاون معنا في هذا الصّدد...

حدّق فيها في ارتباك:

– ما المطلوب منّي؟

– صور كاميرات المراقبات في الممرّات المؤدّية إلى قسم العناية المركّزة وقسم الجراحة.. بالإضافة إلى المداخل الرّئيسيّة للمباني. لا شكّ أنّها ستظهر مرتكب العمليّة.

– بالتّأكيد.. لديك إذن للاطّلاع عليها.

صافحته رنيم في امتنان، ثمّ غادرت وبحوزتها إذن مختوم من المدير.

حال عودتها بعد عشر دقائق، أبصرت جورج برفقة المحقّق، يقفان في الممرّ. تصافحا بحرارة ورضا، ثمّ ابتعد المحقّق مستعجلا. هرعت رنيم إلى جورج، فابتسم مطمئنا إيّاها:

– سار كلّ شيء على ما يرام.

– هل اعترف؟

– لقد فعل.

زفرت في ارتياح واسترخت قسماتها. على الأقلّ، لم يضع كلّ شيء. قبل أن يسألها جورج، همست بنبرة حزينة:

- مات هيثم.

- يا إلهي! لهذا كنت مستعجلة.. لو أنّنا تأخّرنا دقائق قليلة...

استند جورج إلى الجدار، وقد اتّسعت عيناه في دهشة وعدم تصديق. لقد كان ذلك وشيكًا. لكنّ رنيم حظيت بسرعة البديهة الكافية لقلب الموازين قبل اللّحظة الحاسمة.

همست رنيم ثانية في توتّر:

- هل تعتقد أنّ المدّعي العامّ قد يتراجع عن العرض.. حين يصله خبر هيثم؟

- يمكننا الطّعن أمام المحكمة.. لقد وقّع المتّهم على الصّفقة واعترف. أيّ محاولة للالتفاف على الاتّفاق ستوقع مكتب النّيابة العمومية في مأزق أخلاقي.

زفرت بحرارة. لم تكن تستطيع أن تستسلم للاطمئنان بعد. ليس قبل النّطق بالحكم النّهائيّ. لكنّها قطعت شوطًا لا بأس به حتّى الآن. أضاف جورج:

- لقد اتّفقنا على نقله صباح الغد إلى السّجن المدنيّ.

- سيكون ذلك أفضل.

قالت وهي تضع إذن الاطّلاع على صور المراقبة بالمبنى بين يدي جورج:

- ستحتاج هذا.

ثمّ أضافت وهي تشير إلى نهاية الممرّ:

– عليّ الانصراف الآن.

*

رحل هيثم.

كانت تدفع عن قلبها إحساسًا مريعًا، مؤلمًا وملحّا بأنّها قد فقدته، منذ يومين. تلك الجلسة العائليّة غير المأمولة التي جمعت ثلاثتهم، بدت مثل لحظات وداعٍ. لكنّها لم تستشفّ ذلك على الفور. احتاجت ليلتين من الترقّب، ودفقًا غزيرًا من دمع العين، لتدرك أنّه استيقظ ليلقي نظرة على ولده، ويزوّدها بدقائق قليلة من صحبته، قبل أن يعود إلى غياهب الظّلمات التي ابتلعته.

تستلقي على محفّة الطّوارئ التي جيء بها من أجلها، بعد أن انخفض ضغطها وفقدت وعيها. تهمس فاطمة في أذنها من بين نشيجها وشهقاتها:

– إنّها الشّهادة يا صغيرتي.. الشّهادة. لقد نال ما يُدفع العمر في سبيله وما يبذل الرّجال فيه الغالي والنّفيس. لقد أبدله الله دارًا خير من داره، مع النبيّين والصّدّيقين والصّالحين. لا تحزني عليه، فقد غدا إلى نعيم...

كانت تُصغي إلى صوتها الدّافئ النديّ، بنصف وعي، وقد استولى الضّباب على عقلها ووهن جسدها. استكانت على السّرير، لا تحرّك ساكنًا، إلّا من عبرات استمرّت في الهطول بلا إرادة منها.

ثمّ غفت. وفي غفوتها، رأته.

كان وجهه أبيض مضيئا، وفي عينيه إشراقة نابضة بالحياة. كانت ما تزال ممدّدة بلا حراك على سريرها، فاقترب منها هيثم حتّى جثا على ركبتيه بالقرب منها. شعرت بملمس راحته وهو يتحسّس جبينها، ثمّ يهمس مواسيًا:

– كوني قويّة.. من أجل عزّ الدّين.

يتنامى الألم المبرح في صدرها، فيشقّه. تتصاعد الآهة قادمة من أعماقها، حتّى إذا لفظتها شفتاها، خرجت طويلة وخافتة مثل أنين المحتضر.

– لست قويّة.. لقد كنت قويّة بك، فمن أين تأتيني القوّة الآن؟

رنت إلى عينيه في ضعف، فبثّها في نظرته ثقة وشجاعة:

– من الأمومة. أنت أمّ.. إذن أنت قويّة!

فتحت عينيها فجأة، فتبدّدت الرؤيا وتلاشى خياله من بين عينيها. تلفّتت حولها في شبه هذيان، ثمّ همست في ضياع:

– عزّ الدّين.. أين عزّ الدّين؟

– في الحضانة يا حبيبتي.. هل نذهب إليه؟

أومأت في إصرار، فرافقتها فاطمة إلى غرفته. وقفت تراقبها خلف النافذة الزّجاجية، كما فعلت دائمًا. رأتها تجلس على المقعد الوثير المهيّأ للأمّهات، ثمّ تتلقّف وليدها الذي أحضرته الممرّضة من الحاضن الخاصّ به. ألصقته بصدرها وألقمته ثديها، للمرّة الأولى. تابعتها في دهشة. ما الذي تحاول فعله؟

شدّت ياسمين على كفّ رضيعها في عنفوان، واحتضنته بقوّة، وهي تهمس في أسى:

– لقد بتنا وحدنا الآن.. أنا وأنت. سنكون أقوياء. يجب أن نفعل.

تساقطت عبراتها لتبلّل وجه الطّفل، وتنساب على وجنته، كأنّها عبراته.. بينما يلتصق وجهه بصدرها، وتتحرّك غريزة الامتصاص داخله، فيأخذ فجأة في استدرار اللّبن. حدّقت الممرّضة مأخوذة وهتفت:

– هذا مذهل.. لقد غدا قادرًا على الرّضاعة بنفسه! هذا مدهش!

ابتسمت ياسمين، ثمّ ابتلعت الشّهقات فرحتها. تمتمت والألم يسحق صدرها، فيزداد ضغطها على جسد الطّفل كأنّما تروم أن تعيده إلى أحشائها:

– لقد أضحيت رجلًا، يوم رحل أبوك. هكذا يولد الأبطال.

***

حدّقت رنيم في عدسة التّصوير بنظرات زائغة. كانت تجد صعوبة في إبقاء ذهنها متيقظا والمحافظة على تركيزها طيلة البثّ المباشر.

– فاصل قصير ونعود!

أعلنت ماتيلد دوبري بابتسامتها المعتادة، وجمدت ملامحها، حتّى أعطى المخرج إشارة انقطاع البثّ. زفرت وهي تستدير إلى رنيم في قلق:

– تبدين مشوّشة اليوم.. هل كلّ شيء على ما يرام؟

– آه، كان أسبوعًا مرهقًا في المكتب.. هذا كلّ ما في الأمر.

– بالتّأكيد.. ستحدّثيننا عن ذلك في وقت لاحق.

ابتسمت رنيم في حرج ولم تعلّق. كان من المربك أن تضطرّ إلى ترك ياسمين وعائلة هيثم في المستشفى وتسارع إلى المحطّة التّلفزيّة من أجل حلقة «الحقيقة الكاملة». ودّت لو امتلكت رفاهية الاعتذار والانسحاب.

بل لعلّها لم تمتلك الشّجاعة.

ليست الشّجاعة في مواجهة ماتيلد، بل في البقاء إلى جوار ياسمين.

استنشاق الألم الذي تعبق به الأجواء من حولها. ابتلاع الحزن على معدة خاوية، واجترار الوجع والدّموع. لم تكن قادرة على ممارسة طقوس المواساة. لم تعرف قطّ كيف تكون سندًا. إنّها لا تحتمل كمّ البؤس الذي يستجلبه موت المقرّبين.. لذلك اتّصلت برانيا وسكينة لتقوما بواجب العزاء، وفرّت متحصّنة بالتزاماتها المهنيّة!

– عدنا أعزّائي المشاهدين.. مرحبا بكم مرّة أخرى.

انتبهت من شرودها على صوت ماتيلد يصدح من جديد معلنًا استئناف الحلقة.

– تابعنا جميعًا خلال هذا الأسبوع، ببالغ الدّهشة والأسف، حيثيّات حادثة إطلاق النّار على مدنيّين بالضاحية الجنوبيّة.. ورأينا كيف انقلبت الضحيّتان إلى موقع الاتّهام! لو تذكرون، برنامج « الحقيقة الكاملة» كانت له الأسبقيّة في لقاء الدّكتور عمر الرّشيدي منذ سنتين، بعد إخلاء سبيله.. إثر قضيّة التّفجير في مختبر الكيميائيّات...

نقلت الشّاشة صورًا من الحوار السّابق الذي جمع عمر ورنيم بفريق البرنامج.

- يبدو أنّ الدّكتور عمر لا يخرج من مأزق إلّا ليتورّط في غيره! من حسن الحظّ، معنا الأستاذة رنيم شاكر، التي تعتبر مطّلعة أكثر من غيرها على ملابسات القضيّة.. أستاذة رنيم، هل يمكنك مشاركتنا معلومات حصريّة عن المستجدّات؟

كانت رنيم ترقبها في صدمة، ولم يبد عليها استيعاب أنّ الحديث موجّه إليها.

- أستاذة رنيم!

- عفوًا؟

قالت ماتيلد متضاحكة:

- يبدو أنّ طلبي منافٍ لمبدأ السرّيّة المهنيّة بين المحامي وموكّله.. أعتذر منك على الإحراج أستاذة رنيم، لكنّنا نطمع في تلميحات حصريّة للبرنامج، إن أمكن!

مرّة أخرى، لم تتجاوب رنيم بشكل سريع. سكتت طويلا، كأنّما فقدت سرعة البديهة التي تميّزها، ثمّ قالت أخيرًا بصوت مختنق:

- لقد كان.. أسبوعًا مليئًا.. بالمفاجآت!

شجّعتها ماتيلد بنظرة وهزّة رأس. التفتت رنيم إلى الكاميرا، ازدردت ريقها، ثمّ داهمها خاطر مفاجئ. كان بوسعها تحويل المأزق إلى فرصة. قالت مستعيدة ثباتها الانفعاليّ:

- في الحقيقة، كانت هناك محاولتا اغتيال.. لا محاولة واحدة!

- يا إلهي! هذا سبق صحفيّ حقيقيّ!

– المحاولة الثّانية، كانت مساء اليوم...

– معقول؟!

– أثناء احتجازهما على ذمّة العدالة، تعرّض المتّهمان إلى الاعتداء من قبل نفس المجموعة الأجنبيّة.. ولذلك قرّر عمر الرّشيدي الاعتراف وقبول عرض المدّعي العام، خوفًا على حياته!

-٣٤-

هرولت الأقدام في الممرّ متعجّلة لاهثة. وصل جورج وبرفقته سيّدة في منتصف الأربعينيات، تسحب حقيبة سفرها وتلهث خلفه. قال حين أصبحا عند قسم الجراحة:

– لقد وصلنا.. لم تأت عربة التّرحيل بعد.

تنفّست عائشة بصعوبة. لم يكن هذا ما خطّطت له. لقد كان في البرنامج جولة سياحيّة بين معالم العاصمة الفرنسيّة، ثمّ زفاف خلال أسبوع واحد. لكنّ اتّصال المحامي كان غير متوقّع. قال باقتضاب:

– عمر يمرّ بظرف طارئ، طلب منّي أن أبلّغك بإلغاء الرّحلة. لن يكون بوسعه استقبالكم الآن. شكرا لتفهمكم.

كانت في معزل عن الأنباء الفرنسيّة، تنأى بنفسها عن القيل والقال ولا تتابع من نشرات الأخبار إلّا النّزر اليسير ممّا يسلّيها، ولا تهتمّ بالعبارات الرنّانة التي تفوق إدراكها. لم تتوقّع قطّ أن تجد فيها ما يعنيها. لكنّها ألحّت حتّى يخبرها الحقيقة، قلبها أخبرها أنّ خطبًا ما قد وقع. أعلنت أنّها لن تلغي الرّحلة مهما حصل.. «حتّى لو كانت ستعود بجثّة أخيها»، فهي ستأتي لا محالة! أثّرت به لوعتها وبكاؤها الشّديد. كانت تعلم، بحدسها أنّ مصيبة ما قد حلّت بعمر.. مرّة أخرى. أرادت أن تكون إلى جواره هذه المرّة.

ألغت تذاكر طفليها، وسافرت بمفردها. والآن، تقف عند الغرفة، تستظهر وثائق هويّتها إلى رجل الأمن، بكفّ مرتجف، ثمّ تلج إلى الدّاخل.

حدّق عمر بها غير مصدّق. كانت الممرّضة تساعده على الانتقال إلى الكرسيّ المتحرّك، استعدادًا لمغادرته المستشفى. صرخت عائشة في ارتياع:

- هل قدماك بخير؟ ألا تستطيع المشي؟

احتواها عمر بين ذراعيه في حنان، فاستمرّت تنتحب في حضنه. أخذ يربّت على ظهرها مهوّنا ثمّ أبعدها عنه قليلا ليقول:

- يمكنني الوقوف.. انظري!

استند إلى جانبي المقعد ليستقيم واقفًا، ثمّ خطا ببطء حول الغرفة، ليهبها برهانًا لا مجال لدحضه على سلامة أطرافه.. ثمّ عاد ليلقي بنفسه على المقعد في إعياء. قال مغالبا ألمه:

- أنا بخير.. أرأيت؟

تمتمت في حسرة:

- أيّ خير أنت فيه يا أخي! لا تخرج من مصيبة إلّا لتقع في أخرى!

تنهّد في حرارة. لا يمكنه أن ينكر أيّ شيء، وقد اعترف بالأمس أمام المحقّق. لقد بات كلّ شيء محسومًا الآن. خمس سنوات نافذة، سيضطرّ خلالها إلى الغياب. قال معتذرًا:

– لم أشأ أن أشغلك بأمري.. هذه حياتي، وقد تعوّدت على زلازلها وأعاصيرها.. وقد كان يهوّن عليّ الأمر ألّا أخلّف ورائي وجوها دامعة. لم أرد أن تريني بهذا الشّكل...

قالت في حزن:

– كم الحكم هذه المرّة؟

– خمس سنوات.

زفرت بقوّة، ثمّ قالت بلهجة صارمة تداخلها الدّموع:

– ستعود بعدها إلى المغرب، هل سمعت؟ وستبقى إلى جواري حتّى آخر أيّامي.. لا غربة بعد الآن!

جاراها ليطمئن فؤادها المكلوم. لقد كانت أمّا له على الدّوام، لا أختًا وحسب:

– لا غربة بعد الآن...

في تلك اللحظة، تعالت طرقات على باب الغرفة. أطلّ جورج ليعلن بصوت حزين:

– لقد حان الوقت!

على الفور، دخل رجلا شرطة. تولّى أحدهما تقييد معصمي عمر، ثمّ دفع الثّاني كرسيّه المتحرّك عبر ممرّات المستشفى. هتفت عائشة وهي تلهث خلفه:

- سوف آتي لزيارتك!

فاستدار ليلقي عليها نظرة آسفة، متجاهلًا تحديق النّاس في موكبه غير الاعتياديّ. حانت منه التفاتة حين لمح لافتة تشير إلى قسم العناية المركّزة. تمنّى لو كان بوسعه إلقاء نظرة أخيرة على هيثم، تودعيه، وتقديم العزاء لأهله، والاعتذار منهم. تمنّى أن يحدّثهم عن هيثم الذي يعرفه ويجهلونه. عن إخلاصه وقوّة عزيمته.. عن حبّه للخير، ومبادراته في الحقّ.. عن ثباته وشجاعته، عن كفالته للأيتام ودعمه للطلّاب المغتربين...

تمنّى أن يعرف الكلّ ما كان عليه من بطولة وشهامة.. لكنّ الموكب تقدّم بثبات حتّى عربة التّرحيل الرّابضة عند مدخل المستشفى.

***

يرحل الرّاحلون، والحياة تستمرّ.

هكذا هي الدّنيا.

بعد العزاء، انتقلت ياسمين وفاطمة إلى شقّة الشّركة. إن كان هيثم قد تركها، فلديها عزّ الدّين، وهو بحاجتها. بل لعلّها بحاجته أكثر ممّا هو بحاجتها.

إنّ وجوده في حياتها يبقيها صامدة، ويحفظ عقلها من الجنون، وفؤادها من الانشطار. لولا تلك السّاعات التي تمضيها برفقته، تهدهده وترضعه، ترثي أباه في مسمع منه، لأذهب الحزن لبّها. كانت في غاية الامتنان، لأنّ الله رزقها طفلًا يبدّد وحشتها ويحفظ ذكرى زوجها في وجدانها. قطعة منها ومنه.. مزيج من كيانين كُتب لهما الافتراق، لكنّ أثر اجتماعهما باقٍ في ذاك الكيان الثّالث.

جاءت الفتيات لزيارتها، في المساء. وقد فعلن كلّ يوم تقريبًا. كانت تجلس بينهنّ في سكون، تستمع إلى مواساتهنّ وتهزّ رأسها في استسلام وثبات. تمتنّ لدفء جلستهنّ وتغلق على الحزن أبواب صدرها، فلا تسكبه إلّا في خلواتها بربّها.

غير أنّها استقبلت حضور ميار في فرحة حقيقيّة. لقد بات أكثر ما يحرّكها عاطفة الأمومة، وقد دبّ في شراينها الحماس من أجل سعادة سكينة بطفلتها. احتضنتها بقوّة، كما تحتضن عزّ الدّين تلك الأيّام، حتّى تكاد تمتزج ضلوعهما، ثمّ رنت إلى سكينة في دعم:

- هنيئا لكما اجتماع شملكما أخيرًا.

وفي تلك الأمسية، انتحت بها رنيم جانبًا وهمست في اعتذار:

- كان يجب أن أخبرك بهذا منذ أيّام.. لكنّ الوضع لم يكن مناسبًا، والوقت ضيّق.. فاضطررت إلى التصرّف من تلقاء نفسي.

حدّقت فيها ياسمين في تساؤل، فشرحت رنيم في خجل فعلتها. ثمّ أكملت بنبرة آسفة:

- لم يكن عمر ليقبل بالاعتراف، لولا موافقتك.

ابتسمت ياسمين وقالت مهوّنة:

- لقد أحسنت التصرّف.. كان ذلك ما يجب فعله.

ثمّ اغرورقت عيناها وهي تضيف:

- هيثم لم يكن ليرفض.

ما تزال تتحدّث عنه كأنّه شخص غائب بشكل مؤقّت، أو حاضر رغم تواري جسده. لم تكن تشير إليه بالرّاحل أو الفقيد أو المرحوم أو حتّى الشّهيد. لقد كان حيّا، في فؤادها. تستمرّ تردّد في صبحها ومسائها: هذا يعجب هيثم، وذاك لم يكن ليرضيه.. سيفرح بكذا، أو يعجب بكذا، لو أنّه يراه.

إن كانت رنيم قد شكّت يومًا في حبّ ياسمين لزوجها، واضطرارها إلى ارتباط يحكمه العقل وليس للعاطفة منه نصيب، فإنّ تلك الشّكوك كلّها قد تبخّرت منذ أمد.. وقد ازدادت يقينًا بعد الفاجعة. لعلّها تمنّت في سرّها ألّا تكون ياسمين قد تعلّقت به إلى تلك الدّرجة، حتّى يكون رحيله أخفّ وقعًا عليها! لكنّ المشاعر لم تكن قطّ طوع بنان صاحبها –فضلا عن أصحابه– تتشكّل لتوافق متطلّبات المرحلة، فتارة تعلو وأخرى تخفت.

وفي تلك الأمسية أيضا، استجمعت رنيم شجاعتها لتقف أمام جمعهنّ، لتتنحنح فيجلو صوتها، ثمّ تعلن أخيرًا في شكل مسرحيّ:

– أنا حامل.. في توأم!

تعالت الهتافات الحماسيّة غير مصدّقة، ثمّ التّهاني والأماني. لم تكن رنيم قد تقبّلت الوضع بعد، لكنّ الإعلان كان جزءًا من طقوس القبول. هل تحرّكت غريزة الأمومة داخلها وهي ترقب ياسمين تهتمّ بعزّ الدّين وتشرق قسماتها ما إن تقع عليه نظراتها أو تأتي على ذكره؟ أم أنّ عودة ميار إلى سكينة وما أضفته من حيويّة على أجواء الشقّة جعلها تتوق إلى حياة العائلة التي لم تعرفها قطّ؟ تركت جانبًا تجربتها الشخصيّة مع عائلة مفكّكة الأواصر، لترنو في أمل إلى حياة عائليّة دافئة ممكنة. لكنّها لم تخبر شهاب بعد، ولم تكن تنوي إخباره في القريب. همست لرانيا محذّرة:

– احتفظي بالخبر لنفسك. لا أريد أن يعرف شهاب الآن.

حدّقت فيها رانيا في دهشة وسألت:

– لماذا؟

أخذت رنيم نفسًا عميقًا ثمّ قالت:

– لا أريد أن يستغلّ فرصة الحمل كورقة ضغط. لم يتغيّر شيء بشأن خططي المستقبليّة. لن أرجع إلى مصر.. هذا أمر مفروغ منه.

تعالت طرقات محتشمة على باب الشقة، فوقفت رنيم على الفور. قالت في حماس:

– لا شكّ أنّها عائشة.. لقد دعوتها لمسامرتنا.

فتحت الباب ورحّبت بشقيقة عمر في حفاوة، ثمّ قدّمتها للحاضرات. دخلت عائشة في وجل، ووضعت طبق « بسطيلة» بالدّجاج والفواكه الجافّة منزليّ التحضير على المائدة، ثمّ جلست بينهنّ. كانت قد استقرّت في شقّة عمر الواقعة في الطّابق الأسفل بعد أن تمكّن جورج من الحصول على نسخة من مفاتيح عمر من أجلها.

لقيتها رنيم ذلك اليوم في المستشفى، حين أحضرها جورج من المطار لتوديع عمر قبل زجّه في الزنزانة. كانت تجرّ حقيبتها ويبدو عليها التّوهان والتشتّت. أن تصل إلى بلاد غريبة لا تكاد تعرف فيها أحدًا، لتجد نفسها بعد لحظات وحيدة وبلا سند، لم يكن بالشّيء الهيّن. تطوّعت رنيم لمرافقتها إلى الشقة، ثمّ طمأنتها إلى إقامة ياسمين في الشقة فوقها. قالت بنبرة أسى:

– كلّنا شركاء في المصاب.. لذلك، يجب أن يدعم بعضنا بعضا.

لم تفهم عائشة لماذا ضمّت رنيم نفسها إلى جمع المصابين، لكنّها تقبّلت تضامنها بامتنان. وهي تجلس بينهنّ في تلك الأمسية، عرفت بحدسها أنّهنّ «عائلة واحدة» رغم اختلاف الأصول والانتماءات الجغرافيّة.

كانت قد زارت ياسمين مرّة واحدة، منذ يومين، لتقدّم عزاءها. لم يستمرّ اللّقاء سوى دقائق معدودة، اعتذرت بعدها على تطفّلها ومضت. ذهبت بعدها لزيارة عمر في سجنه، كما تفعل بشكل يوميّ، في حين غادرت ياسمين إلى المشفى، حيث تمضي سحابة يومها برفقة رضيعها الذي تزداد بنيته قوّة يومًا بعد يوم.

همست رنيم قبيل نهاية السّهرة:

– غدا ستكون الجلسة.. لعلّها تكون الفرصة الأخيرة لرؤيته وجهًا إلى وجه.

أومأت عائشة موافقة. غدًا سيكون النّطق الرّسميّ بالحكم. بعد ذلك، يبدأ العدّ التّنازليّ لعودتها إلى الدّيار. لقد خلّفت زوجًا وولدين، لم يكن بوسعها إطالة الغياب عنهم. كان بودّها أن تسفر رحلتها عن زفّ شقيقها الأصغر إلى بيت الزّوجيّة. لكنّ سفرتها الأولى إلى أوروبا كانت لتشهد سقوطه المدوّي والمتكرّر بشكل مفجع.

***

تزاحم الخلق داخل قاعة المحكمة وخارجها، صحفيّون ومصوّرون بالأساس، بالإضافة إلى الفضوليّين والمتعاطفين. دخل عمر يمشي على قدميه. بدا أنّ إصاباته قد تماثلت للشّفاء خلال الأسبوع المنصرم. أم لعلّها ظروف الحبس، تجبر الجسد على التأقّلم، فيخشوشن وتزداد صلابته.

وقفت عائشة، ولوّحت له في شوق ولهفة، فابتسم قبل أن يتّخذ مجلسه عند منصّة الدّفاع. لم يكن جورج قد وصل بعد. لقد طمأنه بالأمس. الجلسة لن تكون إلّا إجراءً شكليّا. سيسقط المدّعي العام التّهم بناءً على الاعترافات المدوّنة، فتعلن المحكمة الصّفقة مُلزمة، وينتهي الأمر.

في الخارج، وقف جورج يترقّب قدوم المدّعي العام. كان يشعر بمراوغته، وقد تسلّح بخطّة «ب» رسمت رنيم تفاصيلها ببراعة. لمح الرّجل يقترب محفوفًا برجال الإعلام والمصوّرين. تصافحا أمام العدسات، ثمّ قال جورج بصوت خافت:

– اتّفاقنا سارٍ، أليس كذلك؟

ضحك المدّعي العام وهو يقول بنبرة ساخرة:

– هل تظنّ مساعدتك المتحذلقة أنّ التّصريح بالصّفقة في البرنامج خاصّتها سيلوي ذراعي؟ ما الذي يجعلني أتهاون مع عمر الرّشيدي الآن وقد فقدت المتّهم الرّئيسي؟

– أخلاقيّات المهنة؟ احترام المواثيق والعهود؟

تعالت قهقهات الرّجل من جديد، ثمّ قال:

– هل هذا كلّ ما لديك؟

– بالتّأكيد لا...

ابتسم جورج، ثمّ لوّح بملفّ مكتنز في قبضته:

– هذه دعوى قضائيّة نعتزم رفعها على الفور إذا لم تتمّ الصّفقة في الدّاخل حسب الاتّفاق.. شبهات حول تعاون مؤسسّة النّيابة العموميّة مع مأجورين أجانب، لتيسير اغتيال موكّلي وصاحبه.. مرّة أخرى!

– ماذا تعني؟

– الحراسة الكرتونيّة عند غرف المشفى لم تكن كافية لحماية هيثم الأندلسي من القتل المتعمّد.. لدينا هنا تقرير الطبّ الشّرعي، شهادات أفراد الطّاقم الطبّي، وصور كاميرات المراقبة في أقسام الجراحة والعناية المركّزة...

منحه جورج دقيقتين ليتفقّد محتويات الملفّ ويتيقّن صدق التّهديد، ثمّ أضاف بنبرة متشفّية:

– أنت تعلم أنّ قضايا كبيرة قد تنهار تمامًا بسبب «عيب إجرائي».. لذلك لا تحاول التّلاعب الآن، فقد تدفع ثمنًا لا تقدر على تحمّله!

اكتست ملامح الرّجل قناعًا من الجمود، ثمّ سبقه إلى داخل القاعة بخطوات واسعة. تنهّد جورج وهو يلملم أوراقه. يعلم أنّ التّهديد الذي بين يديه قد يتحوّل هباءً منثورًا، بعد سنوات من المرافعات والمراوغات. والمدّعي العام يعرف ذلك أيضا. كلاهما يقف أمام «عصفور في اليد»، ويراقب «العشرة التي تلوح فوق الشّجرة». سجن عمر الآن لخمس سنوات يعتبر عصفورًا واحدًا، في حين أنّ المضيّ في القضيّة قد يُكسب الادّعاء حكمًا طويلا جدّا.. لكنّ الدّعوى الثّانية قد تضرب شموخ مؤسّسة النّيابة العموميّة في مقتل.

غير أنّها مخاطرة أيضا بالنّسبة إلى الدّفاع، فنتائجها غير مضمونة.. لكنّها إن أفلحت، فقد يكسب عمر براءته لعيب في الإجراءات! إلّا أنّ جورج لا ينوي إفلات العصفور الذي بين يديه. خمس سنوات، خير من المؤبّد الذي يلوح شبحه في الأفق.

ضرب القاضي بمطرقته معلنًا بدء الجلسة، ثمّ أشار إلى منصّة الادّعاء لتلاوة لائحة الاتّهام. وقف المدّعي العام، ناقلا نظراته بين جورج وموكّله، ثمّ استدار إلى القاضي وألقى بأسلوب مسرحيّ:

– نظرًا لتعاون المتّهم وإقدامه على الاعتراف، وإدلائه بمعلومات قيّمة تخصّ الجماعة الإرهابيّة.. فإنّ الادّعاء يرجو من سيادة القاضي إسناد حكم مخفّف، وإغلاق ملفّ القضيّة.

– هل من حكم مقترح؟

- خمس سنوات، سيّدي الرّئيس.

- خمس سنوات إذن!

ثمّ ضرب القاضي مرّة أخرى معلنًا تثبيت الحكم.

***

تعالت طرقات ملحّة على باب الشّقة ذلك الصّباح. لم تكن تشبه طرقات عائشة المحتشمة، ولا نغمات رنيم الموقّعة. كانت ضربات صارمة وحازمة، تتضمّن تهديدًا خفيًّا، تدركه بقلبها.

تطلّعت ياسمين من العين السحريّة قبل أن تفتح، فتسمّرت مكانها وهي تحدّق في البزّات الرّسميّة للشّرطة الفرنسيّة. أفرجت دفّة الباب في توجّس، فبادرها الضابط بنبرة آلية:

- سيّدة ياسمين عبد القادر؟

أومأت علامة الإيجاب، فأضاف على الفور:

- تفضّلي معنا رجاءً.

التفتت إلى فاطمة التي أطلّت من الغرفة الدّاخليّة فزعة، وقالت تطمئنها:

- سأرافق الضابط لبعض الوقت، وأعود سريعًا.

لم تكن واثقة ممّا تقول، لكنّها حاولت أن يبثّ صوتها المهتزّ طمأنينة تفتقدها إلى والدتها. لم تكن تعلم أنّ مرحلة من المحن الجديدة تبدأ في التوّ واللّحظة.

وصلت إلى مركز الشّرطة في عربة التّرحيلات، مثل سجين أو متّهم، فاقتادها الضّابط إلى غرفة التّحقيق. هناك، لبثت ثلاث ساعات لم يخاطبها خلالها بشر. تركوها فريسة لهواجس ومخاوف لا حصر لها ولا عدّ، ثمّ دخل ضابط ثانٍ، ليستمرّ الاستجواب ساعتين أخريين.

انهالت عليها الأسئلة، سطحيّة بسيطة أوّلا، ثمّ شائكة متربّصة بدقائق حياتها ثانيًا.

- منذ متى تلبسين الحجاب الإسلاميّ؟

- عشر سنوات.

- هل أجبرك زوجك على ارتدائه؟

- لم أكن أعرفه حتّى آنذاك!

- والدك إذن؟

- لقد عشت برفقة والدتي، وهي مطلّقة.. في حين تزوّج والدي بفرنسيّة، وعاش الثلاثين سنة الماضية كلّها في فرنسا.. وقد كان مواطنا صالحًا جدّا، حسب المعايير الفرنسيّة!

- ما الذي دفعك إلى ذلك إذن؟

- قناعة شخصيّة!

ثمّ يغيّر الموضوع فجأة:

- هل كنت تعرفين عن نشاط زوجك الإرهابيّ؟

تمالكت نفسها، حتّى لا تنفجر في وجهه، وتشرح له بلغته الفجّة ماهية الإرهاب الحقيقيّ! أخذت نفسا، وحبست عبراتها لتقول بصرامة:

- لا!

- هل سبق له السّفر إلى الشّرق الأوسط؟

قالت في سخرية:

- أنتم تعرفون أكثر منّي، أين ذهب ومن أين أتى!

- أجيبي على قدر السّؤال.

- لا!

- هل كان يتحدّث عن المشروع أمامك؟

- نحن عائلة تقليديّة جدّا.. النساء لا يتحدّثن في مسائل العمل!

حدجها بنظرة مستاءة، ثمّ واصل:

- ما هو رأيك في نشاط حركة المقاومة الفلسطينيّة؟

- لا رأي لي.. لا أهتمّ بالسّياسة!

- اسم ولدك، عزّ الدّين.. أليس كذلك؟

- نعم.

ارتفع وجيب قلبها عند ذكره.

- من اختار اسمه؟

- والده.

- هل تعرفين من هو عزّ الدّين القسّام؟

- لا أعرف!

- هل تعتقدين أنّ زوجك قد اختار الاسم تيمّنا به؟

- لا أعرف!

عادت إلى الشّقة مساءً وهي ترتعد. غيّرت ثيابها، تتخلّص من رائحة الخوف والظّلم التي تلتصق بها، وسارت إلى المستشفى على الفور. احتضنت ولدها الذي لم تتأخّر عنه

قطّ منذ ولادته، وأخذت تبكي بحرقة. لأوّل مرّة، منذ رحيل هيثم، كانت تشعر بأنّ ولدها في خطر. لا تدري ما وجه التّهديد الذي يحيق بهما، لكنّه تستشعره بكلّ مسامّ جلدها، مثل رادار أمومة يعمل بالتقاط أشعّة غير مرئيّة.

ولم تكن واهمة.

تكرّر استدعاؤها في الأيّام التّالية. ما إن يتعالى الطّرق العنيف على بابها، حتّى يسقط قلبها بين قدميها. تسير إلى حتفها مستسلمة، تحتمل ساعات الانتظار الفارغة مثل كلّ كرّة، ثمّ تردّ على الأسئلة ذاتها بسماجتها ووقاحتها المعهودة.

قال الضابط ذات مرّة، وهو يستمتع بارتجاف أطرافها أمام نظراته الماكرة:

- أنت فرنسيّة؟

- نعم.

- منذ متى؟

- منذ ولادتي.. كان والدي قد تجنّس، فأصبحت فرنسيّة أيضا.

- لكنّك لم تعيشي طويلا في فرنسا.

- لقد غادرتها في سنّ صغيرة.. ثمّ رجعت لأتابع دراستي الجامعيّة.

- زوجك فرنسيّ أيضا.

- نعم.

- هل تعلمين أنّ الجنسيّة الفرنسيّة مثلما توهب لمن يستوفي معايير المواطنة، فإنّها قد تسحب ممّن لا يستحقّها!

هزّت كتفيها في لامبالاة. كان الأمر بالنّسبة إليها سيان. لم تسعَ إلى اكتساب المواطنة الفرنسيّة، ولن يضرّها أن تُسحب منها.

- الدّولة تمنحك فرصة إثبات ولائك واستحقاقك للمواطنة.. تغيّرين اسم ولدك، بإمكانك نسبه إلى نفسك.. ثمّ تتبرّئين من هيثم الأندلسي، تسجّلين اعترافًا تقولين فيه أنّك لا تعرفين شيئا عن نشاطه، ولا تشاركينه قناعاته...

عقدت الصّدمة لسانها. جفّ حلقها، واجتمعت العبرات في مقلتيها. همهمت في ارتباك:

- وهل يكفي هذا؟ لن يتمّ استدعائي بعد ذلك؟

هزّ الضّابط كتفيه في استهانة، ثمّ قال:

- ربّما. لو كنت مقنعة!

تزدرد ريقها بصعوبة، إنّها تفكّر في ولدها. من له إذا حصل لها شيء.. أيّ شيء؟ لكنّها تثوب إلى رشدها. لقد كان هيثم قويّا في الحقّ، وعلّمها ألّا تنحني أمام الإهانة، وألّا تهب خدّها الثّاني لمن يصفع خدّها الأوّل. قالت في ثبات:

- نحن شرقيّون جدّا سيّدي الضابط.. إذا تبرّأت من زوجي، فلن تغفر لي عائلتي أبدًا.. سأصبح منبوذة بينهم، ويكبر ولدي بلا نسب ولا أهل!

افترّ ثغره عن ابتسامة صفراء ثمّ قال:

– أرى أنّك لم تسأمي زياراتنا بعد! أراك في المرّة القادمة!

وفي كلّ مرّة تمضي فيها ساعات المهانة في مركز الشّرطة، كانت تلازمها الكوابيس. ترى نفسها في غرفة التّحقيق المظلمة، وقد شدّ حجابها عن رأسها، ومزّق ثوبها. ترى أهوالا سمعت عنها في سجون أخرى، لمناضلات تحمّلن الويلات، وثبتن في وجه جلّاديهنّ.. فانتهين منتهكات الكرامة أو الجسد.

تبيت ترتعد، يتفصّد جبينها عرقًا، وقد يجافيها النّعاس حتّى ساعة متأخّرة، فيطلع عليها النّهار وهي لم تذق من النّوم إلّا النّزر اليسير، وتجرّعت الكثير من مرارة الكوابيس وانتفاضات الذّعر المتكرّرة.

كان عليها أن تحتمل، حتّى يشتدّ عود عزّ الدّين، ويسمح له بمغادرة الحضانة. لقد ترقّبت ذلك اليوم بفارغ الصّبر، ظنّا منها —عبثًا— أنّ مأساتها ستنتهي حين تترك الشقة.

كان يوم جمعة، احتفلت فيه بعودتها وصغيرها إلى منزل جدّه. استقبلتها زهور بالأحضان، وأخذت عنها عزّ الدّين الذي كان في نظر الجميع عوض الله عن فقدان هيثم. تحتضنه زهور وتطبع قبلتين سخيّتين على وجنتيه، وتبكي. ثمّ يحتضنه عبد الحميد، يشتمّ رائحة الفقيد فيه، ويبكي. كان قد أتمّ شهره الأوّل منذ أيّام قليلة، واقترب وزنه من الكيلوغرامات الثلاثة. اكتمل نموّ رئتيه، وغادرته علامات اليرقان وبرودة الأطراف. كان مولودًا كامل النموّ، بهيّ الطّلعة، وقد أخذ يتجاوب بقدر طفيف مع مداعبات المحيطين به، فيستجلب البسمات والآهات.

كانوا يجتمعون على وجبة غداء عائليّة، يغالبون الألم والحزن الرّابض على قلوبهم، ويأملون خيرًا قد يحطّ على أوجاعهم فتطيب.

على الشّاشة، كانت النّشرة تنقل أخبارًا عن «ثورة الياسمين» التي اندلعت منذ أيّام في الولايات التّونسيّة واستشرت في الشّوارع والسّاحات. انبرى الجميع يناقشون ويحلّلون

حيثيّات الانتفاضة الشّعبيّة التي أوقد شرارتها بائع متجوّل أضرم النّار في جسده، احتجاجًا على ظروف العيش المزرية.

لكنّ ياسمين كانت ترقب الباب في وجوم، وتترقب زوّار الصّبح الذين لم تتوقّع انقطاعهم عنها بتلك السّهولة. تمتدّ يد فاطمة، لتربّت على كتفها وتبتسم مطمئنة:

– لن يأتوا إلى هنا.

كانت تريد أن تصدّقها. تأمل أن تنتهي فقرة الاستجوابات وتنتهي إلى أيّام رتيبة لا رعب فيها ولا إثارة. ذلك كلّ ما ترجوه.

باتت ليلتها الأولى في غرفة هيثم القديمة، تصارع الأرق الذي مازال يهزمها، فإذا هزمته أخيرًا، صرعتها الكوابيس. تفتح عينيها فجأة في جوف اللّيل، تستقيم جالسة وهي تلهث، تحدّق في الفراغ والظّلمة، ثمّ تضمّ طفلها إلى صدرها وتأخذ في البكاء.

يوقظ نحيبها المتقطّع في الدّهماء سكّان الدّار، فتتجدّد أوجاعهم، ويستسلمون واحدًا إثر الآخر إلى الألم ينخر صدورهم. ينشجون في صمت، كلّ في سريره، مخفين العبرات عن جيران الغرفة.

تهمس فاطمة إلى زهور وهما تقفان جنبًا إلى جنب إزاء أواني الطّبخ التي تغلي في جوفها وجبة الغداء:

– أنا خائفة على ياسمين!

تتنهّد زهور وهي تقول مؤمّنة:

– لقد تحمّلت الكثير.. قيصريّة وافتراق عن زوجها ورضيعها وتردّد على المستشفى كلّ يوم، ثمّ الزّيارات المفاجئة للشرطة والاستجوابات التي لا تنتهي، والكوابيس التي توقظها كلّ ليلة...

– لعلّه اكتئاب ما بعد الولادة؟

هزّت زهور رأسها:

– لا أشكّ في هذا.

– هل تراها تقبل الذّهاب إلى طبيب نفسيّ؟

– لن نخيّرها. سأتّصل وأحصل لها على موعد. هناك عيادة قريبة في شارع المحطّة...

تعالى رنين جرس المنزل فجأة، فتبادلت السّيدتان نظرات متوجّسة.

– هل تنتظرين زوّارًا؟

– كلّا.

تركت زهور ما بين يديها، جفّفت كفّيها في مريلة المطبخ ثمّ سارعت لتفتح الباب. تسمّرت مكانها أمام مرأى ضابط الشّرطة الذي طالعها بنظرة متعالية:

– السّيدة ياسمين عبد القادر هنا؟

مساء الخامس عشر من يناير ٢٠١١، كان أفراد العائلة جميعًا غائبين عن المنزل، باستثناء ياسمين وطفلها. كانوا قد انضمّوا إلى المظاهرات التي نظّمتها الجالية التّونسيّة لمساندة الثّورة الشّعبيّة، لتتحوّل الحركة الاحتجاجيّة إلى مسيرة فرح عارمة بعد الرّحيل المفاجئ للرّئيس التّونسيّ وتخلّيه عن السّلطة.

انطلقت المظاهرات الحاشدة بحضور نحو ثمانية آلاف من التّونسيّين المقيمين بباريس وضواحيها من ساحة «الجمهوريّة» انتهاءً إلى ساحة «شاتليه».

سارت زهور وفاطمة وميساء وعبد الحميد، بالإضافة إلى الصّغير وائل، رافعين الأعلام التّونسيّة، منتشين بتحقيق حلم بعيد المنال. لم تكن زهور وعائلتها قد زاروا موطنهم منذ عشرين عامًا، بعد أن أصبح عبد الحميد مطلوبًا لدى النّظام السّابق، إثر انتخابات ١٩٩١.. والآن، فتحت أبواب الوطن على حين غرّة.

همست زهور إلى فاطمة باكية، وهي تلوّح بالرّاية الحمراء الموشّاة بالنجمة والهلال فوق رأسيهما:

– هل كان يجب أن أفقد ولدًا لأستعيد وطنًا؟ كأنّ السّعادة الكاملة لا تجتمع للمرء أبدًا!

ربّتت فاطمة على ظهرها مواسية وقالت:

– لقد فقدت ولدًا وكسبت آخر.. «الولد سرّ أبيه»!

تنجح تلك الحيلة كلّ مرّة في تحويل وجهة أفكارها. تستحضر عيني عزّ الدّين المتألّقتين وراحتيه المنكمشتين على سبّابتها، فتلين ملامحها وتبتسم رغمًا عنها.

*

كانت تزور ياسمين لأوّل مرّة منذ انتقالها إلى منزل والدي هيثم. مضى أسبوعان الآن. لكنّها لم تمتلك الشّجاعة لمواجهة الحزن العائليّ المتوقّع. لعلّها استغلّت فرصة غيابهم لتنفرد بها أخيرًا.

جلست رنيم إلى جوار ياسمين على الأريكة. يتغيّر المكان، لكنّ الجلسة تحتفظ بروحها الدّافئة.

- لماذا لم تخبريني.. بشأن الاستجواب؟

رفعت ياسمين كتفيها، وقالت رغم ألمها:

- ظننت أنّ الأمر سينتهي.. إذا كنت متعاونة...

- في المرّة القادمة، اتّصلي بي على الفور! حالما يطرقون الباب، سأسبقك إلى مركز الشّرطة.. أيّ منطقة؟

حرّكت ياسمين رأسها يمينا وشمالا.

- لا أعرف!

- لا بأس.. في أيّ وقت يأتون؟

- العاشرة صباحًا.. غالبًا. ليس بشكل يوميّ.

- سأرابط عند الباب، العاشرة صباحًا.. كلّ يوم.

همست ياسمين في أسف:

- لست مضطرّة لذلك!

- بلى.. هذا سلوك غير دستوريّ ولا يمكن السّكوت عليه! لست مجبرة على مخاطبتهم، وحضور المحامي من حقّك في صورة الاستجواب!

تنهّدت ياسمين في إنهاك وتمتمت:

- أريد فقط أن ينتهي هذا الكابوس...

مسحت رنيم على رأسها في تعاطف وسألت:

- هل ذهبت إلى الطّبيب النّفسيّ؟

أومأت ياسمين ثمّ قالت:

- لم يأت بجديد.. اكتئاب حادّ!

هتفت رنيم بحماس:

- يجب أن تغادري المنزل.. تغيّرين الجوّ، تتمشّين تحت أشعة الشّمس!

- لا يمكنني ترك عزّ الدّين!

كان ذلك هاجسها الأوحد. أن يصاب ولدها بسوء. في كلّ مرّة تأتي عربة الشّرطة لتأخذها، يلازمها ذلك الهاجس الممضّ، أن تغفل عنه جدّتاه، أو يخطفه غرباء...

- خذيه معك!

- أخاف عليه من البرد.

تأفّفت رنيم من مماطلتها، فغيّرت ياسمين الموضوع على الفور:

- خبّريني.. ما الجديد عندكنّ؟

تنهّدت رنيم وقد أدركت ما ترمي إليه.

- سكينة تحلّق على أجنحة السّعادة. لقد أنهت وثائق حضانة ميار.. نقلتها إلى مدرسة قريبة، ترافقها كلّ صباح إلى دروسها، ثمّ ترجع لاصطحابها.. حتّى أنّها تداهمها في فترة الاستراحة، لتشاركها وجبة خفيفة. إنّها تلازمها كظلّها!

ابتسمت ياسمين في رضا. لقد عانت سكينة طويلا، وقد منّ الله عليها أخيرًا بالاجتماع بصغيرتها. من حقّها أن تقدّس كلّ لحظة تمضيها إلى جوارها الآن. قالت بلهجة ذات مغزى:

- الأمومة.. إنّه شعور مدهش!

تحسّست رنيم بطنها بشكل غريزيّ، وشردت نظراتها لبرهة، ثمّ استطردت:

– إنّهما تتابعان معًا حصص علاج أسريّ.. البنت تعاني من تشتّت رهيب، نستيقظ على صراخها كلّ ليلة. تنتابها نوبات غضب، تتهم سكينة بأنّها ستتخلّى عنها.. كما فعل الآخرون. إنّها فاقدة للثقة في مؤسّسة «العائلة».

ابتسمت ياسمين في مرارة وقالت:

– كلّنا فقدنا الثّقة بشكل أو بآخر.. أتمنّى لو كنت حضرت هذا النّوع من الجلسات في صغري!

رنت إليها رنيم في استغراب. لم تكن تتحدّث كثيرًا عن طفولتها، وافتقادها لحضور أبيها في حياتها. إنّها تفصح الآن، لأنّها تخشى على ولدها المصير ذاته. ثمّ تسلّلت خواطرها إلى عائلتها.. والديها ورانيا.. شهاب وهي. كلّهم بحاجة إلى إعادة تأهيل. همست:

– صدقتِ!

*

حين رجع جموع المتظاهرين إلى المنزل، كان هناك شيء غريب في الأجواء، وفي النّظرات التي يتبادلونها.
شيء آخر، غير الفرح الذي حطّ بين جنبات القلوب منذ نهار الأمس الأسطوريّ، لرحيل زعيم عربيّ بعد خروج شعبه يحتجّ في الشّوارع في سابقة فريدة من نوعها! شيء غير الحزن، الذي عشّش في الصّدور واستوطن، منذ رحيل الابن والأخ الغالي، فبهت طعم كلّ شيء.. حتّى جاء الفرح منقوصًا، كأنّما هو جرعة ماء خفّفت طعم ليمون لاذع، دون أن يقضي على الحموضة تمامًا.

شيء يشبه خيوط حكاية، أخذت تنسجها أصابع خفيّة، لكنّ بساطها لم يكتمل بعد. وحتّى يستوي النّسيج، انعزل عبد الحميد مع زهور وفاطمة في الشّرفة الخلفيّة وأوصدوا الباب على مجلسهم.

همست ميساء إلى ياسمين وهي ترنو إلى الباب المغلق:

– قرار مصيريّ يتخمّر.. أشتمّ رائحته!

حين خرجوا بعد ساعتين، اجتمعت العائلة في الصّالة. كانت زهور من تكلّم أوّلا:

– لقد منّ الله علينا برفع الظّلم عن بلادنا.. ونظنّ –أنا ووالدكم– أنّ الأوان قد حان، لنكون جزءًا من قصّة الوطن، مرّة أخرى!

تبادلت ميساء ووائل نظرات مرتبكة، فأردفت زهور:

– لقد حرمنا من دخول تونس طيلة هذه السّنين.. اليوم، تفتح الأبواب على مصراعيها، فهل نولّيها ظهرنا؟ وماذا كسبنا في حياة الغربة المديدة هذه، غير وجع القلب وفقد الولد؟

تأتأت ميساء:

– تقصدين.. العودة نهائيّا؟

أومأت زهور موافقة، ثمّ أخذت فاطمة الكلمة:

– آن الأوان ليجتمع شملنا في وطننا. لقد كنت أتمنّى أن ينشأ حفيدي بالقرب منّي.. وأن تؤنس ضحكاته شيخوختي ووحدتي. ولم أكن أتخيّل أن ترفع الحواجز التي فرّقتنا في القديم بين يوم وليلة.. لكنّه عوض الله الكريم!

رنت إلى ياسمين وهي تضيف:

– ثمّ يا ابنتي، لم يعد يجدر بك البقاء في هذه البلاد. لن تشفي إلّا إذا ابتعدت عن هذه الأرض المشؤومة وناسها الملاعين!

قال عبد الحميد:

– أرضنا ودارنا في «طبرقة» موجودة.. تشرف على جبال وسهول وبحر وخضرة.. جنّة على الأرض! سيعجبكم المكان هناك.

تمتمت زهور وهي تغالب دمعها:

– لم أعد أحتمل هذه البلاد التي تعتبر ولدي إرهابيّا! أريد أن أكون أمّ الشّهيد، وأفتخر به على رؤوس الملأ!

كأنّ عبراتها استدعت بكاءهنّ، ولعلّ عبراتهنّ مهيّأة للهطول في كلّ آن، فقد انهمرت على الفور بضغطة زرّ. تنحنح عبد الحميد مقاطعًا وصلة النّشيج الجماعيّة:

– على بركة الله.. ياسمين وفاطمة وعزّ الدّين، اسبقونا بالسّفر في أقرب وقت.

– وأنا أيضا!

هتفت ميساء في حماس، فهزّت زهور رأسها أن لا بأس. واصل عبد الحميد:

– قد نحتاج شهرين أو ثلاثة، لتصفية كلّ أمورنا هنا.. ثمّ نلحق بكم.

بعد أربع سنوات (مارس ٢٠١٥).

خرجت رنيم من المبنى على عجلٍ وهي تقود طفليها أمامها في اتّجاه السيّارة. لقد استغرق منها تغيير ثيابهما وتسريح شعريهما ثمّ تجهيز الإفطار وحزم وجبات خفيفة من أجل النّهار الطويل، وقتًا ثمينًا لا تمتلكه. أجلست كليهما في المقاعد الخاصّة في القسم الخلفيّ، وربطت حزامي الأمان، ثمّ سارعت إلى عجلة القيادة. السّاعة تقترب من العاشرة، وهي متأخّرة عن دوامها في مكتب المحاماة.

ارتفع رنين يعلن تلقّيها اتّصالًا مرئيّا، فشبكت هاتفها على جهاز العرض الخاصّ بالسيّارة، ليظهر وجه ياسمين على الشّاشة.

- صباح الخير!

كانت تبدو في مزاج جيّد، في ثياب بيتيّة مريحة، وبين كفّيها فنجان قهوة يتصاعد بخارها.

- أنت تقودين؟

تذمّرت رنيم وعيناها تركّزان على الطّريق أمامها:

- يوم سيّء! لقد تأخّرت على موعد هامّ.. ولا أحد في الشقّة لمراقبة الطّفلين!

لوّحت ياسمين للتّوأمين في تودّد، فألقيا التحيّة بصوت عالٍ.

- عزّ الدّين.. تعال. تريد التحدّث إلى صديقيك؟

ملأ وجه الطفّل ذي السّنوات الأربع ونيف الشّاشة، وهو يقرّب أنفه من العدسة ويهتف:

- كيف الحال؟

شدّت ياسمين الجهاز من بين يديه، وأجلسته في حجرها، ليظهر وجهاهما متجاورين. همست:

- تكلّم بهدوء.. إنّهما يسمعانك.

- هل تذهبان إلى المدرسة اليوم؟

أجابت رنيم:

- اليوم هو الأربعاء يا حبيبي.. لا مدرسة!

تلك العطلة الأسبوعيّة الخاصّة بالمدارس الفرنسيّة كانت مصدر إرباك لنظام عملها.

رفع عزّ الدّين رأسه إلى والدته وقال في احتجاج:

- لا مدرسة لي أيضا ماما!

ضحكت ياسمين وقالت:

- حسنا.. سننظر في ذلك.

ثمّ أضافت وهي ترقب وجه رنيم العابس:

– ماذا فعلت بشأن السّكن؟ هل وجدت شقّة الأحلام؟

– ليس بعد.. لكنّنا نحاول!

بدت نظرة مشبعة بالحنين في عيني ياسمين وهي تهمس في حسرة:

– هل تتركن الشقة (٤٠٤) حقّا؟ لا أتخيّل باريس بدونها!

ضحكت رنيم وهي تقول بسخرية:

– لقد صارت مثل علبة سردين الآن! أتوق إلى اليوم الذي يصبح فيه لكلّ منّا فضاؤه الخاصّ.

عرّجت إلى طريق فرعيّ مبتعدة عن زحام الشّوارع الباريسيّة، ثمّ هتفت وقد تذكّرت شيئا:

– كيف حال عروسنا؟

– إنّها على وشك الجنون! وستجنّنني معها!

ضحكتا معا، ثمّ قالت ياسمين:

– قودي على مهل.. اتّصلي بي لاحقا، حين تأخذين استراحة.

- بالتّأكيد.. أراك لاحقا.

وصلت رنيم إلى المكتب في وقت متأخّر. إنّه واحد من تلك الأيّام التي تضطرّ فيها إلى لخبطة نظام يومها، والعناية بالطّفلين بنفسها. منذ ولادتهما، عهدت إلى سكينة بمهمّة رعايتهما، لتستأنف عملها بشكل طبيعيّ بعد إجازة وضع قصيرة.

كان ذلك مناسبًا للجميع. سكينة كانت تحتاج مصدر دخل ثابتا لا يتطلّب كثرة خروج وتنقّلات، فقبلت عرض رنيم بسرور بالغ. لم تعد ترافق ميار ذهابًا وإيابًا إلى المدرسة، بعد أن تطوّعت رانيا للنهوض بتلك المهمّة. كان ترتيبًا عائليّا مثاليّا، حيث بعضهنّ يهتمّ ببعض.

كنّ يبدون مثل عائلة ذات ثلاثة أجيال متعايشة في شقّة واحدة. تبدو سكينة مثل جدّة يافعة، لما تخطّ التّجاعيد بشرتها. رنيم ورانيا وميار بناتها، رغم فروقات السنّ، والتّوأمان حفيداها.

يرتاد الطّفلان المدرسة التمهيديّة الآن. في فرنسا، المدرسة إجباريّة منذ سنّ الثالثة. غير أنّ اليوم هو الأربعاء —يوم إجازة أسبوعيّة لطلّاب المرحلة الابتدائيّة— وسكينة غائبة.

- سيّد برنار، آسفة على التّأخير.. تفضّل أرجوك إلى المكتب، سأتبعك في الحال.

أجلست رنيم الطّفلين عند مقاعد غرفة الانتظار وتلفّتت حولها. لم تكن مساعدتها في مكتبها. انحنت لتكون في مستوى رأسيهما وهمست:

- كونا عاقلين.. ستأتي لوسي خلال دقائق. ماما ستكون بالدّاخل.. لديّ عمل. لن تحدثا الفوضى، أليس كذلك؟

قالت الفتاة بلهجة تفوق حجمها وسنّها:

- لا تخافي يا ماما.. سنكون بخير.

جلست الطّفلة ذات السّنوات الثلاث والنّصف، وساعدت أخاها على اعتلاء مقعده، ثمّ أخرجت من حقيبتها الصّغيرة قطعة كعك وجلست تقضمها بهدوء.

ابتسمت رنيم في رضا، ثمّ غابت داخل المكتب.

بعد دقائق، وصل رجل في منتصف الثلاثينيات إلى غرفة الانتظار. لم تكن لوسي قد عادت إلى موقعها. من خلف الباب المغلق، كانت أصوات حديث مكتوم تتسرّب من المكتب إلى الخارج. تلفّت حوله، ثمّ اتّخذ مجلسًا إلى جوار الطّفلين.

بادرته الطّفلة بلهجة واثقة:

- أنت هنا من أجل ماما؟ لديها عمل...

رفع حاجبيه في دهشة ثمّ قال في اهتمام:

- ماما بالدّاخل؟

هزّت الطّفلة رأسها علامة الإيجاب. كان يجب أن يدرك أنّها نسخة مصغّرة من رنيم. شعرها الكستنائيّ القصير، وعيناها العسليّتان الواسعتان.. وتلك الأناقة الفطريّة التي تليق بها، وتبديها أكبر من سنّها.

- ما اسمك يا حلوة؟

- أنا سمر.. وهذا أخي.. عمر!

تبدّت الصّدمة في عينيه، ثمّ قال في دهشة:

- أنتما توأمان؟

- أنا أكبر منه.. بعشر دقائق.

بينما اهتمّت سمر بمحادثة الرّجل الغريب، كان عمر الصّغير منشغلا بأزرار معطفه. يفكّها ثمّ يفشل في إغلاقها. بعد محاولات مضنية، استرسل في بكاء طفوليّ متذمّر.

- لا تغضب يا صديقي.. سأزرّره من أجلك.

هبط الرّجل على ركبتيه أمام الولد، وأحكم تزرير المعطف بالكامل. توقّف الطّفل عن البكاء ليراقب الغريب في انتباه، وتتحوّل تكشيرته تدريجيّا إلى ابتسامة واسعة.

- انتهينا!

فتح باب المكتب فجأة، وظهرت رنيم وهي تصافح موكّلها مودّعة. خطى السّيد برنار مغادرًا، بينما تسمّرت رنيم مكانها في صدمة. حدّقت في الرّجل الذي استوى واقفًا قبالتها في تشوّش، ثمّ هتفت غير مصدّقة:

- عمر!

أجاب الولد على الفور:

- نعم ماما!

ارتبكت الكلمات على لسانها، ولم ينقذها إلّا دخول لوسي. قالت على عجل:

- تعال يا حبيبي.. اجلس أنت وأختك بجانب لوسي حتّى أنتهي من العمل.. اتّفقنا!

ثمّ التفتت إلى عمر وقالت بنفس مقطوع:

- تفضّل!

سبقته إلى داخل المكتب وهي تحاول أن تتذكّر تاريخ اليوم، وتقارن بفترة الحكم التي عوقب بها. لكنّ حساباتها لم تفلح. قالت في ارتباك:

- متى خرجت؟

- اليوم...

أضاف بنبرة متهكّمة:

- لقد أطلق سراحي مبكّرا، لحسن السّيرة والسلوك!

- آه!

لذلك لم تكن الحسابات صحيحة.

- تفضل.. أرجوك!

جلس قبالتها في استرخاء، ثمّ قال:

- لم أجد جورج في مكتبه.

- تريد أن تترك له رسالة؟

بدا عليه التردّد، ثمّ قال أخيرا:

- ربّما يمكنك المساعدة؟

- بالتّأكيد.

- هل تعرفين مكان ياسمين؟

- ياسمين؟ لقد سافرت إلى تونس منذ أربع سنوات.. لكنّنا على اتّصال.

- جميل.

همّت تقول بأنّها حادثتها للتوّ. لكنّها عدلت. ستجيب على قدر السّؤال. راقبته وهو يخرج ظرفا من جيب سترته، ثم يضع على المكتب أمامها صكّا بنكيّا ويضيف:

- هل يمكنك توصيل هذا إليها؟

تناولت رنيم الصكّ بين يديها في شكّ:

- ما هذا؟

- فلنقل.. أنّها أرباح الشّركة، للسّنوات الماضية.

غمغمت مبهوتة:

- أرباح الشّركة؟ أيّ شركة؟ الشّركة التي صودرت منتجاتها وأتلفت؟ أيّ أرباح قد تكون لها؟

ابتسم عمر وقال:

- لا داعي لتعرف ياسمين شيئا عن هذا.

حدّقت رنيم في الرّقم المدوّن على الصكّ، فازدادت عيناها اتّساعًا. هتفت غير مصدّقة:

- هذا مبلغ ضخم! هذه قيمة التّعويض الذي حصلت عليه، في قضيّة الانفجار.. أليس كذلك؟

لم يكن ما صرفه على المشروع يتجاوز نصف المبلغ. مازال حسابه مكتنزًا، والرّقم الذي يظهر على الصكّ يشهد بذلك. أيّ شخص لا يعرف الرّقم الحقيقيّ —مثل رنيم— سيتوقّع أنّه لم يلمس التّعويض قطّ. وذلك يثقل كاهله بشكل لا يوصف.

زفر في ضيق وقال:

– لقد حصلت على تعويض سخيّ، لكنّ زوجة هيثم وابنه لم يحصلا على شيء على الإطلاق! لم يعوّض خسارتهما أحد.. وإن كنت قد خسرت صحّتي، فقد خسر هو حياته!

هتفت رنيم في حرارة:

– أنت تحاول التّكفير عن ذنب وهميّ! ما حصل لهيثم لم يكن ذنبك! أنت ضحيّة.. مثله تمامًا!

ابتسم في مرارة، وقال:

– ليس هناك من كلام قد يغيّر ما أشعر به.. وما رافقني طيلة سنوات الحبس. وفّري جهدك!

أطرقت رنيم في تفكير ثمّ قالت:

– حسنا. لا يمكن لأحد إيداع مبلغ كهذا.. لن يقبل أيّ بنك صرف صكّ بهذا الحجم، ما لم يكن مصدره جهة معروفة! ستتعرّض ياسمين للتّحقيق، وتتّهم بتبييض الأموال...

حملق في الفراغ وقد انتابه الضّيق. لقد كان كلّ همّه أن يتخلّص من العبء الذي ران على صدره، ولم يفكّر في الحيثيّات. قال ببساطة:

– أنت محامية.. ستجدين طريقة ما!

أطرقت رنيم برهة لتفكّر، ثمّ قالت:

– أقترح أن تفتح حسابًا باسم عزّ الدّين وتودع فيه مبلغًا معقولا.. سأخبرها أنّ هيثم أنشأ حسابًا للتّوفير بنفسه منذ بداية المشروع.. وأنّ أرباح الشّركة كانت تحوّل إلى ذلك الحساب في السّنوات السّابقة!

رفع حاجبيه في دهشة، ثمّ أومأ في استحسان:

– ممتاز!

– يمكن أن أخبرها أنّنا وجدنا الوثيقة البنكيّة في ملفّات القضيّة حين كنّا نتلف الأوراق القديمة.. حتّى أبرّر معرفتي بالأمر، وأفسّر أيضا ظهور الحساب المفاجئ بعد كلّ هذه السّنوات.

– لا بأس.. هذا يبدو معقولا.

– لا تنس.. يجب أن يكون مبلغًا مقبولا! قدّر أرباح الشّركة الطّبيعيّة الممكنة في السّنة الواحدة، ثمّ أودع القيمة المناسبة...

فكّر لبرهة، ثمّ قال:

– دعي الأمر لي! سأرسل إليك بيانات الحساب حين أنتهي من المهمّة.

وقف فجأة، وقد كست ملامحه علامات الارتياح. سألت في دهشة:

– هل يعلم أحد بإطلاق سراحك؟

– لا.. باستثناء إدارة السّجن طبعا.

قالت في توجّس:

- أنت تعلم.. فرنسا ليست آمنة بالنّسبة إليك.

زفر وهو يخفي كفّيه داخل جيبي بنطاله:

- أعلم. لن أبقى طويلا.
- أين نويت الذّهاب؟

هزّ كتفيه في استهانة وقال:

- أرض الله واسعة!

ابتعد في اتّجاه المخرج، ثمّ استدار فجأة ليقول:

- أنا مدين لك مرّة أخرى.. لم توات الفرصة لأشكرك على إنقاذ حياتي مرّة ثانية! لولا حسن تصرّفك وسرعة بديهتك.. كنت لأدفع فاتورة مشطّة، من سنوات عمري!

ابتسمت وقد التهبت وجنتاها فجأة، وقالت في سرور:

- هذا ما يفعله المحامي!

شعرت بتردّده برهة، كأنّ على لسانه حديثًا يكتمه. ثمّ ألقى وهو يمضي في سبيله:

- بلّغي سلامي إلى الدّكتور شهاب.

***

تصفّحت رانيا الصّور الجديدة مرّة أخرى، وهي تبتسم في رضا، ثمّ أرفقتها إلى الرّسالة الإلكترونية وضغطت على زرّ الإرسال. تنهّدت وهي تغلق جهازها وتلتفت إلى ميار المستلقية إلى جوارها على السّرير. قالت بلهجة آمرة:

– أحضري كتبك، لنبدأ مراجعة درس الإنجليزيّة!

تأفّفت ميار وهي تلقي جهازها اللّوحي الذي تنشغل عليه غالب أوقات فراغها، ثمّ تناولت دفاترها ووضعتها على المنضدة. كانتا قد رجعتا إلى الشّقة منذ دقائق قليلة. تنهي رانيا مقرّراتها المسائيّة في الجامعة، ثمّ تمرّ لاصطحابها من المدرسة.

تفقّدت رانيا رسائلها مرّة أخرى، ثمّ عادت لتركّز مع ميار في دروسها. كانت قد شارفت على إتمام رسالة الماجستير الخاصّة بها في تخصّص الحضارة الفرنسيّة، وتعمل بدوام جزئيّ كـ «وسيط اجتماعيّ»! كانت تطلق ذلك اللّقب في سخرية على مهمّاتها الجانبيّة التي أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من نشاطها اليوميّ.

مع انفصال رنيم وشهاب بشكل رسميّ، كانت حلقة الوصل الوحيدة بين شهاب وطفليه أثناء وجودهما في باريس. توصّل أخبارهما باستمرار، وتخضعهما لحصص تصوير احترافيّة كلّ أسبوع، حتّى لا يفوته شيء بخصوص نموّ ولديه وتفاصيل حياتهما. كانت رنيم تصرف الكثير لاقتناء أزيائهما المميّزة، وتحرص على نزهتهما الأسبوعيّة في واحد من الفضاءات المفتوحة في العاصمة الفرنسيّة، ولم يكن على رانيا إلّا أن ترافقهما وتلتقط الصّور.

– هل سيأتي كزافيي غدًا؟

– لا أعلم.. دعينا ننتهي من هذا أوّلا.

عبست ميار وهي تضغط على القلم في ضيق لتخربش على الدّفتر. الواجبات أوّلا. لكنّها تتوق إلى أمسية الغد. مساء الجمعة يحضر كزافيي ليقضي بعض الوقت برفقتها. كانت تشتاق إلى زياراته التي تباعدت في السّنة الأخيرة، منذ التحق بالعمل مدرّسَ رياضيّات في مدينة «رُوون»(Rouen) بمقاطعة «النورماندي» (Normandie).

في السّابق، كان يأتي لرؤيتها كلّ يوم تقريبًا. يجلسان بعد ساعات مدرستها في مقهى يقع قبالة محطّة المترو، تحت إشراف رانيا. كانت تسمح له بعشرين دقيقة فقط، وقد تمدّدها إلى نصف ساعة، إذا ما استعطفتها ميار بعينين بريئتين مثل عيون القطط اللّامعة والمرقّقة للقلب، وتخفي ذلك بحرص عن سكينة.

لكنّها لم تكن تعلم أنّ رانيا في صفّ سكينة قبل أن تكون في صفّ أيّ أحد آخر! لم يكن بوسعها تبرير التّأخير اليوميّ عن مواعيد المدرسة أمام سكينة.. خاصّة وهي الحريصة على فتاتها أشدّ الحرص، فكيف يفوتها تغيّر المواعيد بمجرّد أن وضعت رنيم طفليها، وتولّت رانيا مهمّة التّوصيل؟ لم تكن رانيا تنوي خداعها منذ البداية. وسكينة لم تكن لتمانع أصلًا. لكنّهما منحتا الصّغيرة امتياز الإحساس بالإثارة، وهي تلتقي أخاها سرّا!

– تأخّرت سكينة!

تململت ميار في مقعدها. فطمأنتها رانيا:

– لعلّها على الطّريق الآن.

أخفت قلقها، وانكبّت تشرح الدّرس رغم تشتّت ذهن الفتاة وسرحانها المتكرّر.

كان هناك وجه آخر لنشاطها كوسيط اجتماعيّ! مثلما تقف على مسافة متساوية من رنيم وشهاب، كانت تسعى خفية إلى تقريب وجهات النّظر بين جاسر وسكينة. لم يتغيّر موقف جاسر –أو كزافيي– من والدته. لقد أدركت منذ وقت طويل أنّ

إعراضه عنها مبدئيّ، وليس ظرفيّا. وكان على سكينة أن تتقبّل فشلها في استمالته، وتكتفي بكونها جسرًا بينه وبين شقيقته.

فتح باب الشّقة فجأة وتسارعت الخطوات الصّغيرة في الصّالة. تركت ميار مقعدها وهرولت لاستقبال رنيم والتّوأمين.

– هل رجعت سكينة؟

هزّت ميار رأسها نافية:

– ليس بعد.

– حسنًا.. إلى المائدة جميعًا. أحضرت وجبة جاهزة.

وضعت الأطباق المعلّبة في المطبخ، ودخلت غرفتها لتتخلّص من معطفها ولباسها الرّسميّ. خطت فوق الألعاب التي تملأ الأرضيّة وصارت تتكدّس في كلّ ركن بشكل لا يطاق. تأفّفت وهي تزيحها لتشقّ طريقها نحو خزانة ثيابها.

منذ مجيء التوأمين، تنام رانيا على أريكة الصّالة. لقد أخذت الشقة تضيق بهنّ إلى درجة عالية. إنّها تحاول منذ أكثر من ثلاث سنوات البحث عن شقّة أكبر، تليق بعائلة ممتدّة، يزداد عدد أفرادها باستمرار. قرّرت أنّها تودّ الشّراء الآن، وترك شقة الإيجار (٤٠٤)، رغم مكانتها المعنويّة في نفوسهنّ جميعًا.

لكنّها لا تجد الوقت الكافي للتردّد على الوكالات العقاريّة والتفرّج على الشّقق. وسوق العقارات في باريس ضيّق للغاية. عروض المساكن العائليّة قليلة، والطّلب عليها غزير.

خلال ثلاث سنوات، لم تنل شقّة واحدة رضاها. إنّها متطلّبة، هذا أكيد. بحثها ينحصر في محيط محدّد: عدد قليل من الأحياء الباريسيّة الباهظة، أربع غرف على الأقل

—واحدة لها، ثانية لسكينة، ثالثة لرانيا وميار، ورابعة للتّوأمين— بالإضافة إلى شرفة خارجيّة، غرفة معيشة واسعة بمطبخ مفتوح، مسكن عصريّ ومجدّد بالكامل!

لعلّها لا تريد الانتقال. لعلّها تستتر خلف التّعلات، لتبقي على الحميميّة الدّافئة التي تجمعهنّ في تلك الشّقة الضيّقة. لو انفردت كلّ منهنّ في غرفتها، ربّما تفتر حرارة العلاقات...

لقد تحدّثت سكينة عن الرّحيل، منذ سنوات، بعد أن استعادت ميار. كان من الطّبيعيّ أن ترغب في الاستقلال بحياتها وطفلتها، في شقّة خاصّة بهما. وفي وقت آخر، كانت تفكّر في ترك فرنسا كلّها والعودة إلى وطنها سوريا. لكنّ الظّروف تغيّرت فجأة. وما كان ممكنا غدا مستحيلا مع استمرار الحرب الأهليّة السّوريّة منذ ٢٠١١، وتشرّد أهل البلد في أصقاع الأرض.

أقنعتها رنيم بالبقاء. كانت بحاجتها، لرعاية الطّفلين. وقد استجابت سكينة. لكنّ الطّفلين يكبران، وأصبحا يرتادان المدرسة الآن. خمّنت أنّ سكينة قد تعود إلى موضوع الانتقال من جديد. لكنّ ظروفها الصحيّة حالت دون اتّخاذ خطوة جادّة بذلك الشّأن.

انفتح الباب مرّة أخرى، وظهرت سكينة. تركت كلّ منهنّ ما بيدها وتحلّقن حولها. كانت تبدو منهكة ومفرغة من الطاقة. تهاوت على الأريكة، فسارعت رانيا تحضر كوب ماء من أجلها، في حين تأبّطت ميار ذراعها وأسندت رأسها إلى صدرها. سألت رنيم في قلق:

– أنت بخير؟

أومأت بابتسامة واهنة، وربّتت على رأس صغيرتها المرتعبة. قالت بصوت مبحوح:

– أنا هنا يا حبيبتي.. لقد جئت!

كانت تعود على تلك الحال من الضّعف، بعد كلّ جلسة علاج كيميائيّ. لقد كانت الجراحة مجدية إلى حدّ كبير، وقد مرّت سنوات هادئة وهانئة حسبت خلالها أنّها قد عادت تنعم بالصّحة الوافرة. لكنّ الوضع عاد ليتعكّر في الآونة الأخيرة. والآن، تضطرّ إلى تلقّي حصص العلاج الطّويلة، مرّة كلّ ثلاثة أسابيع.

وقفت فجأة بعد أن أخذت نفسًا:

– لعلّكنّ لم تأكلن؟ سأعدّ العشاء!

– مكانك يا سكينة.. هذا اليوم لا مطبخ بالنّسبة إليك.

همست ميار في حماس:

– رنيم أحضرت عشاءً من المطعم!

تحلّقن حول المائدة، تزيّن وجوههنّ البسمات. يخفين قلقهنّ بشأن مستقبل موحش لا يرغبن في التفّكير فيه.

-٣٧-

وقف عمر على مبعدة من المبنى المرتفع، يتأمّل المئذنة الباسقة والقبّة الضخمة. تفصله عن زيارته الأخيرة للمركز الإسلامي ببروكسيل ستّ سنوات ونيف، ومخيّم ومشروع وقنص وحبس! لكنّه يرنو إلى المنشأة المألوفة، وكأنّه كان هنا بالأمس.

لم تعد للزّمن القيمة ذاتها، بالنّسبة إلى الغرباء أمثاله، الماضين في اتّجاه يعاكس عقارب السّاعة.. على هامش الحياة والواقع.

اجتاز المدخل وقد اقتربت السّاعة من موعد أذان العصر. توجّه مباشرة إلى قاعة الصّلاة الفسيحة. جلس وقد غشيته السّكينة، يترقّب إقامة الصّلاة. صلّى مع الجماعة

الأولى، ثمّ نهض. سار بين الأروقة، يبحث في الوجوه عن ملامح مألوفة. لكنّها لم تكن هناك.

طرق باب المكتب الذي تناول ذات ظهيرة كوب شاي مع صاحبه، ثمّ دخل. قابلته وجوه بشوشة، أصحابها غرباء. سأل في لهفة المشتاق إلى أهله:

- أبحث عن عزّام.. رجل في الخمسين، فلسطينيّ.

- آسف.. أنا حديث عهد بالعمل هنا. لا أعرف عمّن تتحدّث.

وقف الشّاب وهو يشير إلى عمر بالجلوس:

- تفضّل انتظر هنا.. سأستفسر عن طلبك، لعلّ أحد الإخوة يمكنه الإفادة.

غاب لدقائق قليلة، ثمّ عاد وبرفقته رجل أربعينيّ، يلتحف بالكوفيّة الفلسطينيّة. صافح عمر بحرارة، ثمّ سأله في استغراب:

- أنت تعرف عزّام؟ لقد رحل منذ سنتين، وترك مظروفا مغلقا. قال أنّ أحدًا سيأتي للسّؤال عنه.. وقد مضى وقت طويل حتّى نسيت الأمر، لم أحسب أن يأتي أحدهم حقّا!

- هل الظّرف في حوزتك؟

- إنّه محفوظ في مكتبي. ثواني، سآتي لك به.

غاب الرّجل برهة ثمّ عاد وقد تهللت أساريره:

- هاك الأمانة!

شكره عمر بابتسامة ممتنّة، ثمّ احتضنت كفّاه الرّسالة المغلقة. ترقّب حتّى بات وحيدًا ليفضّ المغلّف ويقرأ الكلمات القليلة التي حوتها الصّفحة البيضاء. تنهّد في ارتياح، ثمّ مضى.

سار في طرقات بروكسيل طويلا بلا وجهة. لم يكن يبحث عن آية وخالها، فقد عرف العنوان والبريد الإلكتروني. عنوان في مدينة «بون» الألمانية. لا شكّ أنّ الكثير قد فاته. أخذ يرصف كلمات الرّسالة التي سيرقنها حال عودته إلى غرفة الفندق في ذهنه. سيعرف كيف انتهى بهم المطاف في ألمانيا حين يصله ردّها. يتخيّل لحظات اللّقاء المرتقب ويبتسم.

في الأثناء، يستمرّ يبحث عن نفسه.. عن ذاته القديمة التي تتّقد حماسة وتعرف هدفها. لقد لفظه السّجن، مثل طفل تائه تركته أمّه على قارعة الطّريق ورحلت. كان يطوف بالبقاع القديمة التي تبعثر وجدانه بينها، يحاول لململة شتات نفسه والاستواء رجلا شامخًا من جديد. لكنّه لا يفلح بعد. سيحتاج زمنًا، لا يسعه تقديره، حتّى يخلّص دواخلها ممّا خالطها من أدران.

من هنا بدأ.. ومن هنا يستأنف الرّحلة.

***

فتحت ياسمين نافذة غرفتها المطلّة على باحة المنزل، ورفعت السّتائر، ثمّ عبرت الرّواق المسقوف في اتّجاه المطبخ. كانت الغرف كلّها تفتح على السّاحة المبلّطة، على الطّراز التقليديّ لدور القرية. لكنّ عبد الحميد قام بتجديد المسكن القديم ليلائم العائلة، وزوّد كلّ غرفة بحمّامها الخاصّ، لتوفير قدر مناسب من الرّاحة.

في مسقط رأس هيثم، قرب مدينة «طبرقة»، شمال البلاد التّونسيّة، انتهى بها المطاف. قرية صغيرة، مناخها جبليّ منعش، تحدّها غابات البلّوط والفلّين، ومرتفعات مثلجة، وشواطئ البحر المتوسّط الصخريّة.

كانت زهور قد سبقتها إلى المطبخ، وقد جلس عزّ الدّين إلى المائدة، يرتشف حليبه الدّافئ مثل قطّة وديعة وناعمة. ربّتت على رأسه وهمست:

- لم تنتظرني هذا الصّباح!

كان ولدها يشاركها الغرفة ذاتها. لكنّه ينسلّ من السّرير خلسة ما إن ينتبه إلى استيقاظ جدّته. ابتسم في اعتذار وقال:

- كنت جائعًا.

منذ عودتها إلى تونس، برفقة عائلتها، كانت تشعر بمزيج من الارتياح والحنين. لقد كانت حياة القرية المسترخية تلائمها.. كأنّما هي الخطوة المنطقيّة التالية. بعد انتقالها من العاصمة الفرنسيّة الصّاخبة، إلى مدينة «ليل» الهادئة، كان التطوّر الحتميّ هو القرية! لم تكن تحبّ زحام وقت الذّروة ولا عجلة السيّارات المسرعة. كانت تستمتع بقضاء حاجاتها سيرًا على الأقدام. في القرية، يعرف كلّ النّاس بعضهم بعضا، والمحلّات التي تقصدها تجتمع في شارع واحدٍ مركزيّ، لا تملك خيارات غيره، ولم يكن ذلك يضايقها.

لكنّ نوبات الحنين تعكّر صفاء قلبها.

تماثلت للشّفاء سريعًا بعد تركها فرنسا. لقد كانت تلك الخطوة ضروريّة، لهم جميعًا. تعافت أرواحهم التي زادت الغربة من وطأة الحزن عليها.

- صباح الخير!

انضمّت إليهم ميساء على مائدة الإفطار. بدت عيناها متورّمتين وشعرها منكوشًا. رنت ياسمين إلى ملامحها العابسة وهمست:

- أنت بخير؟

تنهّدت وهي تقول في وجوم:

- لم أنم جيّدا!

- تشاجرتما؟

كانت ميساء قد خطبت لابن عمّها منذ سنتين. بدا لقاؤهما مثل «حبّ من النظرة الأولى». لم يكن أحدهما يعرف شيئا عن الآخر تقريبًا، بحكم نشأتها في الغربة منذ نعومة أظفارها. وقد استحسن الأخوان ارتباط الأبناء وتوثيق عرى المودّة الأسريّة.

كان الشابّ يكبرها بثلاث سنوات، مهندس زراعيّ، اهتمّ باستصلاح أرض جدّه، وأنشأ مزرعة حديثة استثمر فيها كلّ أعمامه مدّخراتهم، ووضعوا عليها آمالا كبيرة.

- إنّه مصرّ على السّكن مع أهله!

قالت بتكشيرة من شفتيها وتقطيبة تغزو جبينها. ابتسمت ياسمين في إشفاق. لم يكن يخطر ببالها، حين تزوّجت هيثم، أنّها سترضى بالسّكن مع عائلته. لقد كانت استقلاليّتها أمرًا مفروغًا منه. لكنّ الظروف التي لم تخطر على قلب أحدهم أدّت إلى تلك المساكنة.

لم يدر بخلدها قطّ أن تحرم زهور وعبد الحميد من صحبة حفيدهما. كانت تدرك يقينًا أنّهما بحاجته، مثلما هو بحاجتهما. في غياب والده، كان جدّه يكمّل النّقص الذي يلقي بظلاله على وجدان الطّفل. لقد كبرت هي دون أب، وتعرف كيف يكون الأمر. ولم تكن لتسدّ بمفردها فراغه. كان عبد الحميد يأخذه إلى السّوق، يعلّمه الصّيد وتسلّق

الأشجار، ركوب الدّوابّ وصنع الفخاخ.. يشاركه الأنشطة الرّجاليّة، ويمنحه جرعة من حنان من نوع آخر، يختلف عن حنان الأمّ.

لقد كانت اللّحمة التي تولّدت بينهم، بعد الفاجعة، تلقائيّة. كان مصابهم واحدًا، وتكاتفهم حتميّا. كانت تستشعر ذلك الفراغ في روحها، وكانت رؤية أحبّاء هيثم، كلّ يوم، تملؤها ارتياحًا، كأنّ عبير ذكراه معلّق دائمًا في الجوّ، لأنّ سيرته لا تنقطع على ألسنتهم، وصوره تزيّن جدران غرفهم، والحنين إلى أوقاتهم معه يجمعهم.

لقد كان ذلك مكانها الطّبيعيّ.

تكلّمت زهور وهي تملأ فناجين القهوة:

- لست مضطرّة لإتمام الزّيجة.. إذا لم تجدي الارتياح، سيتحدّث والدك إلى شقيقه وينهي هذه المسألة!

خبطت ميساء بكفّها على الطّاولة في استياء:

- لقد عرفت ذلك! أنت لا تريدين لي أن أتزوّج، أليس كذلك؟ كلّ خلاف بالنّسبة إليك مسوّغ كافٍ لإلغاء الزّفاف! لقد صرت في الثلاثين، هل تدركين؟ أم تراك تفضّلين الاحتفاظ بي.. مثل عروس الخزف في ركن الموقد؟

مطّت زهور شفتيها وهي ترشف من فنجانها:

- لست أنا صاحبة الشّكوى! كنت أحاول المساعدة وحسب.

- طبعا.. المساعدة!

تمتمت ميساء في استياء قبل أن تترك مقعدها، لتضيف ملعقتي سكّر إلى فنجانها، ثمّ أضافت:

- سيأتي هذا المساء.

- ما الدّاعي؟

- يجب أن نفضّ هذا الخلاف.. هل يمكن لأبي أن يشترط مسكنًا منفصلًا؟

- بالتّأكيد.. سأتحدّث إليه.

كانت العلاقة معقّدة بينها وبين نساء العائلة. في نظرهنّ، كانت الفتاة الفرنسيّة المدلّلة. لا تفهم التقاليد ولا تُراعي العادات. وقد جلدنها بألسنتهنّ السّليطة الحادّة حين حاولت أن تأخذ بزمام الأمور في تلك العلاقة. ثمّ كان عليها الانصياع وترك التصرّف بيد والدها.

- لا يمكنه الرّضا لابنته الوحيدة بالمهانة.. أليس كذلك؟

- بالمناسبة، حين تزوّجت والدك، سكنت في منزل العائلة سنتين.. ثمّ جاءت ظروف السّفر إلى فرنسا.

عبست ميساء وقالت في توتّر:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنّ هذا التّدبير قد يكون مؤقّتا.. حتّى يشيّد زوجك منزلًا خاصًّا. لقد تزوّجت في غرفة ياسمين! والآن قد خلا منزل العائلة من سكّانه وهجره أهله.

إنّها تطمئن نفسها بأنّ ذلك التّدبير مؤقت. إنّها تحنّ إلى حياتها المستقلّة الرّائقة. لقد تركت عملها، ولم تطمع في إيجاد فرصة مناسبة في فضاء القرية، حيث لا جامعات ولا مراكز بحثيّة ولا مؤسّسات ثقافيّة. بوسعها التّقديم على وظيفة مدرّسة. لكنّها تترقّب الوقت المناسب، حتّى يكبر عزّ الدّين ويرتاد المدرسة بدوره.

لم يكن العمل هدفًا في ذاته. إنّها تحبّ ما تفعل، وتستمتع بالتّجارب الاجتماعيّة التي تخوضها. لكنّ ما يعوزها الآن هو الاستقلال الماديّ. لقد أنفق عبد الحميد جزءًا من مدّخراته لاستصلاح منزل العائلة القديم، وقسّم ما تبقّى من ثمن بيع البيت الفرنسيّ بين ميساء ووائل وعزّ الدّين، بعد أن احتفظ بما يكفيه وزوجه في أيّام شيخوختهما. في الأثناء، يستعيد أيّام مجده السّابق في مضمار الفلاحة، ويشارك إخوته مشروع المزرعة العصريّة الواعد! لكنّها لا تجرؤ على لمس ذاك المبلغ أبدًا.

قالت وهي تشير إليه أن يمسح رغوة الحليب عن شفتيه:

– سأنتظرك في الغرفة، من أجل الدّرس الصّباحيّ.

كانا يمضيان ساعات الصّباح في أنشطة تعليميّة مختلفة. تقرأ له قصصًا وتعلّمه الحساب والعدّ بأدوات مقتبسة عن أسلوب «مونتيسوري»، بما يتوفّر لها من أغراض منزليّة الصّنع. كانا يتسلّيان كثيرًا. ثمّ تترك له العنان ليلهو في الحوش المشمس، أو يرافق جدّه لقضاء بعض الحاجات، بينما تنهمك في أعمال المنزل التي لا تنتهي.

رنّ هاتفها معلنًا عن اتّصال صوتيّ من رنيم. ابتسمت وهي تردّ في استغراب:

– استراحة مبكّرة؟

– ليس تمامًا.. ما زلت في المكتب، لكنّني لم أستطع الانتظار. عندي لك مفاجأة!

– مفاجأة؟ تصالحت وشهاب؟

عبست رنيم وقالت في ضيق:

- مفاجأة تخصّك يا عزيزتي!

- تخصّني أنا؟ كيف؟

- اسمعي.. كان جورج يرتّب ملفّات القضايا القديمة، فوجد وثائق تخصّ هيثم، رحمه الله.

- آه!

أعلنت رنيم بشكل مسرحيّ:

- احزري ماذا؟ لقد اكتشفنا وجود حساب توفير فتحه هيثم، باسم عزّ الدّين!

- حساب توفير؟ لم يخبرني هيثم عن هذا قطّ!

- لعلّها كانت مفاجأة.. أبقاها حتّى يحين موعد الولادة؟

تمتمت في عدم اقتناع:

- ربّما...

واصلت رنيم في حماس:

– المهمّ.. لقد كنت في البنك منذ حين، وتحقّقت من الحساب. أصغي إلى هذا.. هناك مبلغ أكثر من ممتاز في رصيد عزّ الدّين!

– غريب.. من أين أتى؟

– يبدو –من حركة الإيداعات المتكرّرة– أنّ أرباح مشروع الألعاب كانت تنقل بشكل مباشر على الحساب!

هتفت ياسمين في دهشة:

– أنت واثقة؟ هذا لا يصدّق!

– هنيئا لك عزيزتي! لا شكّ أنّ هيثم كان ذا نظرة استشرافيّة ثاقبة، حتّى يفكّر بمستقبل عزّ الدّين بهذا الشّكل الحكيم!

دمعت عينا ياسمين في تأثّر. بينما عضّت رنيم على شفتها السّفلى في توتّر. لم ترد أن تفتح محادثة مرئيّة، حتّى لا تفضح ملامحها كذبتها. لكنّها تفعل هذا من أجلها.

– هل تودّين أن أحوّل المبلغ إلى حسابك الشّخصيّ؟

– لا أدري.. إن كان هيثم يريد توفير مبلغ لدراسة عزّ الدّين لاحقا.. أليس من الأفضل أن أبقيها هناك؟

قالت رنيم في حرارة:

– لقد خصّص جدّه ميراث والده من أجل هذا الغرض. من رأيي، استفيدي من المبلغ لإنشاء مشروعك الخاصّ. أنت في حاجة إلى مدخول لك ولولدك.. استثمري المال الآن، حتّى تنمو قيمته في المستقبل. حتّى لو اشتريت عقارًا وأجّرته، سيكون ذلك أفضل من إبقاء المبلغ جامدًا...

سرى حماسها إلى ياسمين.

– أنت محقّة. لقد كنت أفكّر منذ جئت إلى القرية في مشروع محدّد.. لكنّني لم أكن أملك رأس المال الكافي.. هذا الخبر، إنّه يحلّ المشكلات جميعها. لست أدري كيف أشكرك!

أنهت رنيم الاتّصال. تنهّدت، ثمّ أخذت ترقن رسالة نصيّة: «تمّت المهمّة بنجاح». ثمّ ضغطت على زرّ الإرسال.

***

وقف عمر أعلى التلة. ألقى نظرة شاملة على المشهد تحت قدميه. كانت الدّور ذات السّقوف القرميديّة الحمراء تظهر متراصّة حينًا ومتباعدة حينًا آخر، تفصلها مساحات خضراء وحقول أشجار مثمرة. وفي البعيد، تتلألأ مياه جدول ضيّق تحت أشعّة الشّمس، يلتفّ مجراه حول التجمّع السكنيّ ويواصل تدفّقه نحو الجنوب.

اقترب الوكيل العقاريّ وقال:

– ماذا قلت سيّدي.. هل قرّرت الشّراء؟

ابتسم عمر وقد التمعت في عينيه نظرة رضا:

– أودّ تقديم عرض.

- جميل.. اتبعني أرجوك.

كان المنزل التقليديّ الواقع أعلى التلّة، مطلّا على ضاحية سكنيّة تبعد مسافة ساعة واحدة عن مركز «لوزان»، على أبواب الرّيف السويسريّ، قد استحوذ على لبّه.

تجوّل في أنحاء البناء القديم الذي يعود إنشاؤه إلى مطلع القرن الثّامن عشر. سحره الطّراز العتيق المشبع بالتّاريخ: الأعمدة الخشبيّة المكشوفة، الأرضيّة الباركيه الأصليّة، وموقد الحطب الذي يتربّع في صدر فضاء الاستقبال الواسع. كان المنزل المجدّد بالكامل، مع الحفاظ على الطّابع الأصيل، يفي بحاجته ويزيد، بغرفه الثلاث المشرفة على حقل ممتدّ من الجهة الخلفيّة.

جلس الرّجلان في الفناء، وأخذ عمر يخطّ عرض الشّراء. لقد تنقّل كثيرًا في الشّهور الماضية، بين مدن أوروبيّة عدّة. منذ غادر باريس، كانت بروكسيل محطّته الأولى، ثمّ زار آية وعائلتها في بون الألمانية، ثمّ فرانكفورت وميونيخ، لكنّه لم يعد يجد الرّاحة في المدن الكبيرة الخانقة. تجربة السّجن جعلت صدره يضيق، وفؤاده يتكدّر في الفضاءات المغلقة والمكتظّة. استمرّ يبحث عن ضالّته، حتّى قاده المسير إلى تلك التلّة.

وقّع العرض، وسرحت نظراته نحو الأفق. قريبًا تكون تلك الأرض له، وسيكون بوسعه إرسال بصره نحو البعيد، فلا يحدّه عمران ولا يردّه جدار. تلك هي الحرّيّة!

وصل سويسرا منذ أسبوعين. كانت وجهة مثالية على الورق. واحدة ضمن عدد محدود من «الملاذات الضريبيّة» في قلب أوروبا. لم يكن يحتاج تهريب ثروة أو تبييض أموال، ولم يكن يفرّ من سطوة الجباية.. لكنّه يقدّر مدى تكتّم البنوك السّويسريّة وحمياتها لمعطيات عملائها الشّخصيّة.

طلب موعدًا مع مدير فرع البنك الفيدرالي السّويسريّ في أحد أحياء «لوزان»، فتلقى إجابة بالقبول خلال أسبوع واحد. استقبله الرّجل بحفاوة وهو يقول مصافحًا:

– أعرف من تكون.. أنت مشهور هنا!

رفع عمر حاجبيه في دهشة، ثمّ سأل متهكّما:

– هل هي شهرة إيجابيّة أم سلبيّة؟

مطّ الرّجل شفتيه ثمّ قال ضاحكا:

– ما دامت لديك أموال للاستثمار، فهي إيجابيّة!

شاركه عمر الضّحك، ثمّ جلسا متقابلين. أنشأ عمر يقول بلهجة جادّة:

– لقد تركت فرنسا، خوفًا على حياتي.. وبحثًا عن ملجأ آمن، لتطوير مشاريع علميّة وبحثيّة.. دون مضايقات أو أعطال متعمّدة.

– أنت في المكان المناسب يا سيّدي. نحن نحترم مشروعك الخاصّ، ويسعدنا أن نكون طرفًا في تيسير عملك. اطمئنّ، سويسرا لا تنتمي إلى الاتّحاد الأوروبيّ.. والقرارات السيّاسيّة التّابعة عنه غير ملزمة لها.. وليس هناك ما نبغضه أكثر من الاعتداء على الحريّات الشخصيّة، والمساس بالسّيادة الوطنيّة على أرضنا! ما حصل في فرنسا، من المستحيل أن يتكرّر هنا!

كان الرّجل مطّلعًا على حيثيّات قضيّته بشكل وافر. أخذ البنك الوقت الكافي للتقصّي والتحرّي قبل أن يرسل إليه بالموافقة على الموعد. زفر عمر في ارتياح، ثمّ أضاف:

– ليس هذا كلّ شيء.. لا أريد أن يرد اسمي مطلقًا على لائحة عملائكم.

– اطمئنّ يا سيّدي.. هويّات عملائنا أصحاب الحسابات «المرقّمة» لا تكشف لأيّ كان. هذا مبدأنا قبل كلّ شيء. علاقة البنك السّويسري بالعميل، لا تختلف عن السرّ المهنيّ بين المريض والطّبيب، أو بين الموكّل والمحامي. لا شيء يغادر هذه الجدران.. وحتّى وجود الحساب من الأساس، لن يعلم به أحد.. باستثنائي أنا شخصيّا، والموظّف المتصرّف في الحساب.. كن مطمئنّا.

***

تحرّكت الفتيات الأربع خلف الوكيل العقاريّ، يتفرّجن على أرجاء الشّقّة، بينما جلس الطفلان بهدوء على الأريكة كما أمرت والدتهما.

كانت غرفة المعيشة مميّزة، بشرفتها ذات الإطلالة المباشرة على ساحة المبنى الدّاخليّة المشجّرة، ومطبخها العصريّ والمجهز. أمّا الغرف، فكلّها ذات مساحات مناسبة، مزوّدة بالتّدفئة الفرديّة ونوافذها واسعة توفّر إنارة نهاريّة طبيعيّة. قال الوكيل العقاريّ منهيًا الجولة:

– الشقة مطلوبة جدّا.. لديّ أربع زيارات مجدولة صباح الغد، بالإضافة إلى زيارتين هذا المساء. إن كنتنّ تردنها، فعليكنّ بالعجلة!

سألت رنيم رفيقاتها في اهتمام:

– ها.. ما رأيكن؟

تدخلت رانيا في حرج:

– قبل أن نناقش بشأن الشقة، هناك ما عليّ إخباركنّ به.

قالت سكينة على الفور:

- وأنا أيضا!

حدجتهما رنيم في استغراب:

- ما خطبكما؟ نحن نحاول معاينة الشّقة الآن. ألا يمكن التأجيل حتى نرجع إلى البيت؟

قالت رانيا بتردّد:

- أفضّل إخباركن الآن. حتى تكنّ على بيّنة.

- ما الأمر؟ قولي!

- لقد وجدت فرصة عمل.

- هذا رائع! تهانينا! أين؟

- مؤسسة ترجمة.. في الإسكندرية.

- آه!

- سأبدأ العمل خلال شهرين. لذلك لا حاجة لاعتباري بخصوص الشقة الجديدة.

حاولت رنيم تخفيف وطأة الخيبة وهي تقول بابتسامة مخاطبة ميار:

– هنيئًا لك يا حلوة.. أصبحت لديك غرفة خاصة!

تنحنحت سكينة وهي تقول:

– يجب أن أفضي لك بشيء بدوري.

التفتت إلى ابنتها وقالت:

– ميار هلا أخذت مقاييس الغرف رجاء؟

تناولت الفتاة المتر المعدنيّ وانصرفت إلى مهمّتها دون نقاش، فتابعت سكينة بصوت خافت:

– لا أريد لها أن تسمع هذا.. لكنّني أعلم أن أيامي قد باتت معدودة.

قاطعتها رانيا في ضيق:

– لا تقولي هذا!

أشارت سكينة بكفها تستوقفها:

– دعيني أواصل حتى النهاية. لقد أردت أن آخذها إلى سوريا لتلتقي عائلتها.. لكنّنا فقدنا كل شيء هناك. شقيقي ووالدتي استقرّا منذ بضعة أشهر في اسطنبول.. سأنتظر انتهاء العلاج، حتى تكون حالتي الصّحية أفضل قليلا، ثم آخذها لننضم إليهما. إذا حصل لي أيّ شيء، لا أريد أن تبقى ميار وحيدة.. لذلك يجب أن تلتقي بأهلها.

سكتت الأختان، وكأنّ على رأسيهما الطير. لقد أحبّت كل منهن تلك العائلة الجديدة المختلفة، مثل لوحة فسيفساء. لكن تلك سنّة الحياة. شريكات السّكن لا يدمن إلى الأبد. إن كانت العائلات الحقيقية تتفرّق سبلها وينفرط عقد أفرادها للدّراسة والعمل والزواج، فما بالك بالعائلات المركّبة التي تجمعها ظروف الغربة؟

همست رانيا إلى شقيقتها بابتسامة متعاطفة:

– أظن أن عليك الاحتفاظ بالشقة (٤٠٤).. إنها كافية لك وللطفلين. لعلّ المالك يفكر في البيع؟

حين خلت رنيم بنفسها، بعد أن خلد الولدان إلى النّوم إلى جوارها على السّرير المزدوج العريض، تنهّدت في حسرة. لقد حسبت أنّ الحفاظ على الوضع الرّاهن ممكن. ومشروع الشّراء العقاريّ المشترك ذاك كان في نظرها تتويجًا لمسيرة سنوات من الصّعاب التي اجتزنها معًا وتمجيدًا لعلاقة شريكات سكن استثنائيّات.

تدحرجت العبرات على وجنتيها في صمت. لقد كان الحلم في مخيّلتها وحدها. لقد غفلت عن رغباتهنّ ومشاريعهنّ الشخصيّة. والآن تكتشف أنّها كانت واهمة، واهمة جدّا.

ارتفع رنين هاتفها فجأة. السّاعة تشير إلى الثامنة والثلث مساءً. طالعت الشّاشة ثمّ ردّت بسرعة، حتّى لا يزعج الصّوت نوم الطّفلين.

– شهاب، كيف حالك؟

كانا من ذاك النّوع من الأزواج المنفصلين. ظلّت علاقتهما وديّة وناضجة، رغم الخلافات التي فرّقت بينهما. كان بوسعهما الحديث بشكل مسترخ الآن، مثل صديقين قديمين. لقد احتاجا وقتا طويلا، لتسوية حساباتهما، ووضع أساسات تلك العلاقة العصريّة والمنفتحة. لكنّهما بخير الآن. ما بينهما لم يكن من الممكن مسحه أو تجاهله..

بينهما طفلان رائعان ومذهلان، يمثّلان أجمل شيء في الزّواج. لا تخلّد علاقة إلّا حين يكون هناك أطفال في الوسط.

- هل تبكين؟

- لا.. لا، إنّه.. البصل!

ضحك شهاب وقال بلهجة غير مصدّقة:

- بصل؟ في هذا الوقت؟ رنيم شاكر.. متى كانت آخر زيارة لك إلى المطبخ؟

تنحنحت وهي تطرد العبرات وقالت:

- ربّما.. ذرّات الغبار.

- أين أنت؟

- في غرفتي...

- ذرّات غبار إذن؟ رنيم.. أنت تبكين. ما الأمر؟ مشكلة في العمل؟

ابتسمت، تعلم أنّه لن يمانع الإصغاء إلى شكواها إن هي استرسلت في الحديث، لكنّها لم تعد تريد استغلال طيبته أكثر. قالت مغيّرة الموضوع:

- أنت في باريس؟

- نعم.. وصلت منذ ساعة واحدة.

- آه، تريد رؤية الطّفلين؟

- سيكون ذلك رائعًا.. اشتقت إليهما أكثر من أيّ شيء في العالم! أنا متفرّغ السّبت والأحد، ثمّ سأنشغل في بداية الأسبوع في المؤتمر العلميّ.

- يمكنك اصطحابهما للنّزهة بعد المدرسة أيضا.

- سيكون ذلك مناسبًا جدّا.. شكرا لك.

- على الرّحب.

استمرّ الصّمت لبرهة. فكّرت لوهلة أن تستفسر عن الشّائعات التي نقلتها إليها ناريمان بلهجة شماتة لم تخف عليها. «شهاب سيتزوّج! ابقي أنت وحيدة كالبومة!»

لقد تركت شهاب. كانت هي البادئة، والآن لا يمكنها أن تلومه أو تُسائله إذا ما أبدى اهتمامًا بامرأة أخرى. لكنّ الفضول يقتلها. من هي؟ كيف شكلها؟ ما هي مميّزاتها؟

كان هو من قطع الصّمت أخيرًا:

- أين وصلت في مشروع العقار الباريسيّ؟

قالت بنبرة تهكّم:

- ألم تنقل إليك رانيا المستجدّات؟ لقد صرفت النّظر عن الخطّة كلّها.

- لا شيء ينال رضاك؟

- بل لم يعد هناك شركاء محتملون.. الجميع يفكّر في بدء مرحلة جديدة، بعيدًا عن هنا.

- لعلّها الخطوة المناسبة.. لك أيضا.

- تقصد أن أترك باريس؟

- أعني الاستقلال عن شريكات السّكن، والاستقرار في مسكن عائليّ منفصل.

تنهّدت. تجد صعوبة في تقبّل الوحدة التي عليها مواجهتها قريبًا. صوت في داخلها يصرخ: أحتاجك إلى جواري.. لكنّ إرادتها تخرسه وتبقيه ساكنًا في الأعماق. يمكنها تدبّر أمرها بمفردها. لقد فعلت في السّابق، وستفعل في المستقبل.

- بعد غدٍ.. العاشرة صباحًا؟

- نعم. سيكونان جاهزين.

أغلقت الخطّ، ثمّ انهارت على وسادتها، تنشج بصوت متقطّع. تبكي فشلها على الأطلال المهجورة لعلاقة كانت تمتلك كلّ مقوّمات النّجاح، والفراغ الهائل الذي يلتهم جوفها. لقد ضيّعت شهاب بعنادها، ولا شيء ممّا أحرزته في غيابه يخفّف عنها عبء تلك الخسارة.

نزلت رنيم إلى الطّابق الأرضيّ للبناية، وقادت الطّفلين أمامها باتّجاه بهو الاستقبال. لمح+ت شهاب يقف في انتظارهم في الخارج. فتحت الباب وأرسلت الولدين. قالت وهي تلوّح لهما من بعيد:

– استمتعا!

راقبته وهو يساعدهما على الرّكوب في المقاعد الخلفيّة للسيّارة المستأجرة، يربط أحزمتهما، ثمّ يعود إليها. نظرت إليه في حرج. لم يلتقيا وجهًا لوجه منذ سنتين ربّما. كان ذلك بعد شجار عنيف فجّرا خلاله كلّ الألغام المتبقيّة على أرض معركتهما، ونفّس كلاهما عن غضبه بالقدر الكافي. ثمّ هدأت الأجواء بينهما ومالت إلى المسالمة.

كان يبدو مختلفًا اليوم. ربّما تلك الشّعيرات البيضاء التي أخذت تزحف على فوديه، لم يسبق لها ملاحظتها. وتلك النّظارات الشّمسيّة، إنّها علامة تجاريّة جديدة، وشكلها البيضاويّ الذي يتّسع نحو الأعلى يناسب ملامحه ويزيده وسامة. بادرها فجأة:

– هل تودّين المجيء؟

ارتبكت. لم يجمعهما فضاء واحد، منذ الطّلاق الرّسميّ. كانا قادرين على تسوية خلافاتهما عن بعد، وتنسيق أوقات العناية بالطّفلين على الهاتف. مكالمات قصيرة، عمليّة وهادئة. لم يلتقيا، حتّى خلال زياراتها لمصر في الإجازات الصّيفيّة. كانا يتعاملان بوسائط. رانيا أو والدتها ناريمان، توصل التّوأمين إلى بيته، أو تستقبله حين يأتي لتوصيلهما. لكنّ الدّعوة كانت مغرية. قالت في تردّد:

– أنت واثق؟

– بالتّأكيد.. إن لم تكن لديك أشغال.

نظرت إلى بنطالها البيتيّ الأسود وبلوزتها الواسعة، ثمّ قالت بلهجة معتذرة:

- خمس دقائق.. حتّى أغيّر ثيابي!

عادت بعد عشر دقائق. ارتدت فستانا طويلا بطبقات من الشيفون وسترة من الجينز، وانتعلت حذاءً رياضيّا. وقفت دقيقتين تختار أقراطها، ثمّ انتقت قطعتين على شكل قطرة ماء لامعة، تتدلى منها خيوط رقيقة مثل شلال ذهبيّ ناعم. رفعت شعرها، وتركت خصلاتها المتموّجة تنهمر بشكل جذّاب. لقد أسرعت، بقدر طاقتها. لكنّ كلّ أنثى تحتاج وقتًا لتكتمل أركان جمالها. هرولت في الممرّ، وهي تتخيّل ملامحه المنزعجة لتأخيرها. لكنّه فاجأها بابتسامة صافية، كادت تنسى تأثيرها عليها.

جلست إلى جواره، ثمّ استدارت تتفقّد الطفلين، وهي تغالب إحساسًا آسرًا بالإثارة. كانت تلك المرّة الأولى التي يجتمعون فيها ك»عائلة». في العادة، هناك «وقت ماما» و«وقت بابا». ماما وبابا لا يلتقيان في جملة واحدة، فما بالك في سيّارة واحدة!

توقّف شهاب عند رصيف السّين، حيث تنطلق الرّحلات البحريّة. غاب لدقائق قليلة، ثمّ عاد بالتّذاكر. هتفت رنيم في جذل، ما إن وطئت قدماها سطح السّفينة:

- المطعم العائم!

استقرّ أربعتهم على المائدة المخصّصة لهم في الفضاء المكشوف. كان النّسيم منعشًا والسّماء شديدة الزّرقة فوقهم، وأشعّة الشّمس تدفئهم بسخاء. عند السّاعة الحادية عشرة، أبحرت السّفينة، من أجل الغداء المبكّر.

كان شهاب يجلس قبالتها، إلى جواره سمر، بينما كان عمر الصّغير يشغل المقعد المجاور لها. تناولا الغداء دون أن يتبادلا حديثًا كثيرًا، فقد شغل الطّفلان اهتمامهما.. يجرّبان أنواع الطّعام الغريبة ثمّ يلفظانها، يتقاذفان قطع البطاطس أو يتشاجران من أجل حبّات الفراولة، ثمّ يبكي أحدهما أو كلاهما. كان غداءً صاخبًا ومليئًا بالشّغب، لكنّهما ضحكا كثيرًا.

بعد ساعة ونصف، كانت السّفينة ترسو في الميناء. غادرتها العائلة، ثمّ انطلقت السيّارة في اتّجاه آخر. توقّفت بعد نصف ساعة، عند حدائق «فرساي» الخلّابة. استقبلتهم النّافورات المائيّة العملاقة، والمتاهات المشجّرة، والممرّات الواسعة المفروشة حصى ومساحات العشب الشّاسعة. خلال دقائق، كان التّوأمان قد انطلقا يرومان الحريّة.

جلست رنيم على مقعد خشبيّ، ترقب لهوهما، فيما غاب شهاب فجأة، ليعود وبين كفّيه كوبا عصير. شكرته بابتسامة، فاتّخذ مجلسا إلى جوارها. قال دون أن ينظر إليها:

– ما هي أخبار عمر الرشيدي؟

فاجأها سؤاله الغريب. لقد تجنّبا خوض الحديث في تلك القضيّة بشكل كامل، كلّ هذا الوقت. لكنّه لم يغفر لها أن أطلقت اسم عمر على طفلهما. لقد كان غائبًا، ولم يعلم بولادتها إلّا بعد أسبوع. حتّى إن لم يتمكّن من تغيير الاسم في وثائق الهويّة الرّسميّة، فقد رفضه بشكل قاطع. أسماه «إياد». كانا سمر وإياد بالنّسبة إليه.

حافظت على ثباتها وهي تقول:

– لقد غادر السجن.

– آه!

– ثمّ غادر البلاد.

– إلى أين؟

هزّت كتفيها وهي تقول:

- لا أدري!

ثمّ عادت إلى ارتشاف عصيرها بهدوء ظاهريّ، وباطنها يغلي قلقًا وشكّا. لم يكن بوسعها تخمين ما يدور بخلده في تلك اللحظة.

- وكيف حال ماتيلد؟

قالت في ضيق:

- بغيضة.. كعادتها!

- ألا تفكّرين في ترك البرنامج؟ لقد مضت سبع سنوات! حسبتها حماسة مؤقتة.. لكنّك استمررت أكثر مما توقّعت.

تنهدت وسرحت نظرتها إلى البعيد، حيث يلهو الولدان على العشب.

- لقد فكرت بالتّوقف.. كثيرًا. في كلّ مرّة اضطررت فيها إلى تغطية قصّة سخيفة، أو حُشرت فيها في الزّاوية، كي أدلي بتصريحات تناقض مبادئي! لكنّني كنت أفكّر بكلّ العائلات التي ساعدها البرنامج، وكلّ الحقائق التي كشفناها للرّأي العام.. فترجح كفّة الاستمرار. لقد تمنيّت في وقت ما أن أمسك بزمام الإنتاج.. أن أفرض وجهة نظر مختلفة، وأضع لمسة خاصّة.. لكنّ الظروف حالت دون ذلك!

- تقصدين الحمل والولادة؟

- تعرف أنّني أقصد ذلك!

تبادلا ابتسامة متواطئة، ثمّ أضافت رنيم:

- أفكّر حقّا في طيّ الصّفحة. أعتقد أنّ مرحلة جديدة تنتظرني.

- ما الذي تصبو إليه رنيم شاكر الآن؟

- مواصلة الدّراسة!

- حقّا؟

- لطالما رغبت في التّدريس الجامعيّ.

- الدّكتوراه إذن؟

- أفكّر في ترك البرنامج عند نهاية الموسم.. والتّسجيل في الجامعة العام المقبل.

هزّ رأسه مؤيّدًا وقال:

- يبدو ذلك جيّدا. رنيم شاكر، أتمنّى لك التّوفيق في مرحلتك الجديدة!

اتّسعت ابتسامتها. كانت راضية، عن حديثهما الجميل الهادئ، وعن قراراتها النّاضجة المرتّبة، وعن المشهد العائليّ الدّافئ. لكنّها كانت تنتظر أكثر من تلك النّزهة. فجأة تعالت جوقة موسيقيّة قرب النّافورة المركزيّة. وقف شهاب وأشار إليها أن تتبعه:

- سيبدأ العرض!

أخذا الطّفلين وحثّا الخطى إلى موقع عرض النّافورة الموسيقيّة. وقفا بين الجمهور الكثيف، يرقبان قاذفات الماء ترتفع وتنزل تباعًا في نسق مدروس، متوافق والعزف المبثوث عبر مكبّرات الصّوت. كان الولدان يتابعان بشغف مرفق بتصفيق ووثبات مرحة، في حين قال شهاب وعيناه ترقبان حركات الرّقصة المائيّة:

– والدتي تبحث لي عن عروس منذ فترة.. ولم أكن لأتّخذ هذه الخطوة قبل أن أحادثك في الأمر...

انقطع تنفّسها فجأة، كأنّ طعنة سدّدت إلى صدرها. هل يستشيرها بشأن زواجه؟ هل اختار أكثر أوقات النّزهة رومانسيّة كي يفسد يومها؟ همهمت في تشوّش:

– طبعا.. هذا أمر يخصّك وحدك.

– أردت أن تعلمي أنّ هذا لن يؤثّر على اهتمامي بالتّوأمين.

– أعرف أنّك لن تقصّر.

ابتلعت غصّتها وركّزت عينيها على النّافورة. لم تنظر إليه بعد ذلك أبدًا. سارت باتّجاه السيّارة فور انتهاء العرض، في صمت مطبق. كان الولدان متعبين، فغفيا ما إن تحرّكت السيّارة. وساد السّكون طيلة رحلة الإياب بينها وبين شهاب.

حين وصلت إلى مبنى سكناها، حملت عمر بين ذراعيها، ثمّ تبعها شهاب وهو يحمل سمر. لم يقل شيئا. ترك البنت بين ذراعي رانيا، ثمّ حيّاهما في اقتضاب وانصرف.

دخلت الغرفة، واستلقت إلى جوار الطّفلين النّائمين. كان الألم يعتصر صدرها. لم تعن له تلك النّزهة العائليّة شيئا، بينما كانت الفراشات ترفرف داخلها طيلة اليوم! لم تشعر قطّ بالنّبذ والخذلان والهوان، كما تفعل الآن. هل كان عليه أن يفتح باب الأمنيات أمامها، يغريها بالولوج، ثمّ يصدّها؟

انهمرت عبراتها في سخاء على الوسادة.

***

جلست رانيا وميار متقابلتين إلى مائدة المقهى. طلبتا كوبي عصير ليمون، وأخذتا ترتشفان في صمت. كانت عينا ميار معلّقتين بالمدخل، تترقّب ظهور كزافيي بين لحظة وأخرى، بينما انكبّت رانيا على هاتفها، تعبث في مواقع التّواصل الاجتماعيّ على غير هدى.

- لقد وصل!

هتفت ميار في جذل، فوقفت رانيا على الفور وقالت بلهجة جادّة:

- سأعود خلال ساعة.. اتّفقنا؟

- ساعة ونصف؟ أرجوك!

زفرت في استسلام، ثمّ اتّجهت إلى المخرج. التقت بكزافيي الذي كان يعبر البوّابة الزّجاجيّة في الوقت ذاته. ألقى بلهجة ساخرة:

- هل رأيت شبحًا؟

هزّت كتفيها في تجاهل وسارت مبتعدة. لكنّه سارع يمسك ذراعها يستوقفها. حرّرتها بحركة حادّة وحدجته باستياء.

- ماذا تريد؟

- لماذا تتصرّفين كالأطفال؟

- ولماذا لا تتصرّف كرجل؟

احتقنت ملامحه وتطاير الشّرر من نظراته.

- إيّاك، أن تكرّري هذه الكلمة!

- اذهب.. شقيقتك في انتظارك.

حانت منه التفاتة ليلمح ميار تلوّح له بحماس. زفر في ضيق، ثمّ سار إلى الدّاخل للقياها.

ابتعدت رانيا عن المقهى بخطوات واسعة. تسكّعت في الجوار، تتأمّل واجهات المحلّات، تتوقّف لتعاين حقيبة يد أو تجرّب قطعة ثياب، ثمّ تستأنف هيمانها الحرّ. كانت تشعر بالانزعاج. لكنّها لا تستطيع البوح لأحد.

لقد كانت تفعل ذلك من أجل سكينة. طيلة الوقت. لم تهتم به بشكل شخصيّ، فهو لا يناسبها من كل النواحي. إنه «فرنسي جدًا» في شكله وسلوكه وعاداته.

لكنّه لا يتركها وشأنها.

يستمرّ يرسل إليها تلك الدّعابات الجريئة على هاتفها. يعاملها أحيانا كصديقة مقرّبة، يفضي إليها بهمومه، يشاركها مشاريعه المستقبلية، ويطلب مشورتها. لكنّ ما يثير غيظها هو الغموض الذي يتلبّس علاقتهما. كلّ تصرّفاته تحتسب على سبيل التلميح. لم يطلب ودّها بشكل مباشر، حتى تمتلك ترف الاختيار.. القبول أو الرفض!

ينتابها إحساس بغيض بأنه يبقيها معلقة، لشيء في نفسه. لو أنها تصدّه، سيتّهمها بثقتها المبالغة في نفسها وتأويلها المغلوط لتصرّفاته. ولو أنها تتقرّب إليه، فستجده يهينها ويسخر من عاطفتها. لذلك وجدت الحلّ الأمثل في التجاهل. إنها راحلة خلال شهرين على أي حال.

ارتفع رنين هاتفها فجأة. لم تكن قد مضت سوى نصف ساعة على تركها ميار برفقته. جاءها صوت الطفلة العابسة وهي تقول:

- هل يمكنك المجيء الآن؟ كزافيي على موعد هامّ.

تعجلت في العودة إلى المقهى. ما إن أشرفت على الواجهة، حتّى لمحت ميار تجلس بمفردها، وقد علت ملامحها علامات الحزن.

- ماذا حصل؟

- لا أدري.. لقد وقف فجأة وقال أنّ عليه الرّحيل!

- هل أغضبته؟

- بالتّأكيد لا.. كنّا نتحدّث عنك، ثمّ تذكّر موعده فجأة.

تسارعت نبضات رانيا في ذعر. همهمت في استغراب:

- تتحدّثان عنّي؟

- أخبرته أنّك ترحلين قريبًا إلى مصر.

- آه.

كانتا قد اقتربتا من المبنى السّكنيّ، حين وردت رسالة نصيّة على هاتفها. «هل يمكننا أن نتحدّث؟».. المرسل: كزافيي.

- اصعدي أنت.. سألحق بك.

اطمأنّت إلى ولوج ميار إلى المصعد، ثمّ عادت أدراجها إلى المقهى. كان يقف في الخارج، مستندًا إلى الجدار مثل شابّ متسكّع. قالت في ضيق:

- لقد كسرت خاطر البنت. كانت تنتظر الموعد منذ أسبوعين!

قال في لهجة جادّة لم تتعوّدها منه:

- هل نحن صديقان؟

- أنت شقيق ميار، وابن سكينة.. وهما صديقتاي!

- لم تكوني لتخبريني برحيلك، صحيح؟

هزّت كتفيها متظاهرة باللامبالاة وقالت:

- حين يحين الوقت، كنت ستعرف بشكل أو بآخر.

– لكنّ الأمر ليس مهمّا في نظرك؟

زفرت في ملل، ثمّ قالت:

– هل تعرف ما هي مشكلتك؟ أنت غير قادر على اتّخاذ قرار واحد بمفردك! كزافيي، لقد كبرنا.. أنا كبرت على كلّ حال، أنا في الخامسة والعشرين.. في هذه السنّ، يتحمّل المرء المسؤوليّة، يجد عملًا، يتزوّج أيضا، ينجب أطفالًا.. وأنت غير قادر بعد على تحديد ما تريده بالضبط!

قال في صدمة:

– ستتزوّجين؟

ضحكت رغمًا عنها، ثمّ قالت:

– أنت ميؤوس منك! عليّ الذّهاب...

خلّفته وراءها وسارت على الرّصيف، فتبعها بخطواته الواسعة. قال فجأة:

– ما رأيك لو نبدأ صفحة جديدة؟ أريد أن نكون صديقين...

حدجته بنظرة شاملة، ثمّ قالت بلهجة ساخرة:

– جاسر السّوريّ قد تكون له فرصة.. لكن كزافيي الفرنسيّ، لن ينفع!

– ماذا تقصدين؟

قالت في تصميم:

– ما فهمته. إن أردت أن ترى ميار بعد الآن، فستكون سكينة برفقتها. ولتعلم أنّهما سترحلان أيضا.. خلال أشهر.

– إلى أين؟

– تركيا! العالم يتحرّك يا صديق، وأنت ساكن مكانك.. عليك أن تجاري الحركيّة من حولك، وإلّا خلفك الآخرون وحيدًا!

ثمّ لوّحت بكفّها وهي تبتعد دون أن تلتفت.

إنّها تعرف ما تريده الآن. ولن تقدّم تنازلات أبدًا.

***

لم تخرج للقائه في الغد. رافقت رانيا الطّفلين إلى مدخل البناية. وكذلك فعلت في اليومين التّاليين، حين جاء لاصطحابهما بعد المدرسة. كانت سمر تثرثر في المساء: بابا قال، بابا فعل. لكنّ رنيم لم تكن تتجاوب مع حكاياتها.

سألتها سكينة في قلق:

– تبدين شاحبة.. هل هي مشكلات في العمل؟

كانت ساهمة طوال النّهار، تركيزها مشتّت وذهنها غائب. لم تدع قطّ حياتها الشخصيّة تؤثّر في نشاطها المهنيّ. لكنّها على شفير الانهيار. معنويّاتها في هبوط مستمرّ. قبل أن تنطق، ارتفع رنين هاتفها. تطلّعت إلى الشّاشة، ثمّ اعتذرت لتدلف إلى غرفتها. ردّت بصوت مبحوح:

– أهلا شهاب.

قال دون مقدّمات:

– أنا أمام المبنى.. هل يمكنك النّزول؟

ارتدت معطفا طويلا فوق ثيابها، وغادرت الشقة دون تفكير. لمحت خياله يروح ويجيء في توتّر على الرّصيف. اقتربت لتهتف في قلق:

– هل كلّ شيء على ما يرام؟

حدّق في عينيها في حزم ثمّ قال:

– رنيم.. هل يمكن أن نعقد اتّفاقًا، ونكون أكثر نضجًا هذه المرّة؟

هتفت في استياء:

– هل توهم نفسك الآن بأنّني من خرق اتّفاقنا الأوّل؟

– لم يكن اتّفاقًا معقولًا. حتّى نتمكّن من احترامه، يجب مراعاة الواقعيّة ابتداءً.

شبكت ذراعيها أمام صدرها وقالت في لهجة دفاعيّة:

- أنت تحاول وضع اللّوم عليّ، في حين أنّك من قبل الشّروط، ثمّ تراجع!

- حسنًا.. هلّا تركنا هذا الخلاف العقيم وراء ظهورنا؟ لنضع أسسًا جديدة.. من أجل الطّفلين.

لم تكن تستوعب طبيعة طلبه. قالت وقد استبدّ بها الذّعر فجأة:

- لا تريد أن يستمرّا في زيارتك في الإجازات المدرسيّة فقط؟ إنّهما دون سنّ الرّشد، لا يمكنك طلب الحضانة الكاملة الآن!

أشار إليها بكفّه أن تهدأ، ثمّ قال بتأنّ:

- ما أريده هو.. أن نهب أنفسنا فرصة جديدة.. كعائلة.

تسمّرت مكانها غير مصدّقة. كان يطالعها في اهتمام، مترقّبا ردّة فعلها. لكنّ الصّمت الذّاهل كان ردّها الوحيد، فتابع يشرح:

- لقد رأيت البهجة في عينيك، نهار السّبت، حين كنّا معًا.. وقد أحيت تلك السويعات الرّائقة مشاعر في داخلي.. حسبتها ماتت. ولقد لحظت كيف غادرت البسمة شفتيك حين أعلنت مشروع زواجي. لقد تيقّنت في تلك اللّحظة أنّ كلّ شيء لم ينته.. وأنّه من الجنون أن نكابر دون مراعاة وجود طفلين بيننا. ألا توافقينني؟

كان أمامها خياران: أن تلتزم العناد الذي هو طبعها، أو تستسلم لنداء قلبها. لكنّها بدل ذلك، انهارت باكية. قالت بين دموعها:

- وكيف سنفعل؟

- نفكّر في حلّ.. قلت أنّك ستتركين البرنامج؟

- نعم.. لكن ماذا عن رسالة الدكتوراه؟

- ألا يمكنك العمل عليها عن بعد؟ وتزورين باريس مرّة كلّ شهر؟

قالت في تذمّر:

- أنت لا تبحث عن حلّ.. بل تطلب منّي التّنازل!

قال في انزعاج:

- أنت تعلمين.. لو كانت لديّ خيارات، لما تردّدت. كلّ ما أريده هو أن نجتمع تحت سقف واحد.. مثل أيّ عائلة طبيعيّة!

سكتت في امتعاض، ثمّ زفرت. لقد منحت نفسها أربع سنوات مستقطعة، افتقدت خلالها اهتمامه وشغفه ومرحه مرّات، وتمنّت حياة أكثر استقرارًا وهدوءًا لطفليها مرّات أخرى. لقد كرهت إحساسها بالخيبة، بعد صفعة يوم السّبت. ولا يمكنها أن تولّي اقتراحه ظهرها ببساطة، دون أن تتجرّع كؤوس النّدم بعد ذلك. قالت أخيرًا:

- دعني أفكّر...

أخرج علبة مخمليّة حمراء من جيب سترته وقال باسمًا:

- هل تساعدك هذه على التّفكير؟

حدّقت فيه ذاهلة، ثمّ انفجرت ضاحكة. تأمّلت الخاتم الماسيّ الذي يخطف الأبصار وقالت:

- شهاب صادق.. أنت لن تتغيّر أبدًا!

-٣٩-

فتحت ياسمين جهازها، ولبثت تحدّق في الشّاشة، حتّى أضاءت باتّصال مرئيّ وارد. ظهرت أوّلا صورة رنيم من القاهرة، ثمّ شطرت الشّاشة نصفين، لتنظمّ إليها صورة رانيا من الاسكندريّة. وأخيرًا انشقّ عنها قسم ثالث حوى صورة سكينة وميار معًا من اسطنبول. هتفن بصوت واحد:

- مبارك!

فضحكت ياسمين في جذل.

- هل آخذكنّ في جولة حول المكتبة؟

وقفت وبين كفّيها هاتفها، وأخذت تتمشّى بين الغرف وتشرح لصديقاتها وظائف الفضاءات المختلفة. كانت المنشأة أكثر من مجرّد مكتبة. كانت قد اشترت البناء الواقع في طابقين. في الطّابق الأوّل، غرفة قراءة مفروشة بمقاعد وثيرة وإضاءة خافتة، لأجواء تركيز حميميّة وهادئة، وقاعة اجتماعات، بالإضافة إلى ورشة حرف يدويّة وقاعة عرض. أمّا الطّابق الأرضيّ، فيضمّ المكتبة الهائلة المكوّنة من أقسام عدّة: القرطاسيّة والأدوات المدرسيّة ثم الكتب العلميّة والأدبيّة المحليّة والعالميّة. قالت في حماس:

- سأشرع على الفور في التّواصل مع مدرسة القرية والقرى المجاورة.. سيكون من الرّائعض ندوات ثقافيّة ونقاشات أدبيّة لطلبة الثانوية هنا!

شاركتهنّ أحلامها والفخر يشعّ من عينيها. أخيرًا أمكنها أن تُنشئ مشروعها الخاصّ والعزيز على قلبها. منذ حدّثتها رنيم عن حساب الادّخار الذي تركه هيثم وذهنها في غليان مستمرّ، تخطّط وتصمّم وتتخيّل. الآن، أصبح الحلم حقيقة، ولم يكن هناك أغلى من شريكات الغرفة (٤٠٤) ليقاسمنها الفرح.

- كيف حال رسالة الدّكتوراه؟

تنهّدت رنيم، ثمّ قالت في وجوم غير متوقّع:

- سيكون عليّ السّفر إلى باريس يوم السّبت!

كان الإتيان على ذكر باريس دومًا مبعث سرور لديها، أمّا الآن وقد اجتمع شملها وشهاب والطّفلين في القاهرة، وتفرّقت شريكات السّكن، فقد خفت حماسها تجاهها. كانت قد اشترت الشّقة، منذ ستّة أشهر، لتكون موطئ قدم لها في باريس، كلّما زارتها من أجل متابعة رسالتها مع المشرف.

لقد بات روتينها الحياتيّ مزدحمًا بالكثير، تتعاقب السّهرات المسهدة والأيّام المضنية بين مكتب المحاماة في القاهرة، وواجبات الأسرة ومسودّة الرّسالة. لكنّ الشهور الماضية اتّسمت بالهدوء. استقالت من مكتب المحاماة الباريسيّ على مضض، وتركت برنامج «الحقيقة الكاملة» غير آسفة.

غير أنّ السّفر الشّهري يظلّ مربكًا لنظام حياتها الجديد، برفقة شهاب والطّفلين. لم تكن قد عرفت معنى الحياة الأسريّة الطبيعيّة حتّى ذلك الحين. لكنّ الشّهور الأولى لاجتماعهم تحت سقف واحد في صائفة ٢٠١٥، كانت مثل حلم ساحر. كانت أروع من «أشهر العسل» السّابقة كلّها مجتمعة! وحين تعيّن عليها في مطلع السّنة الدّراسيّة أن تتركهم وتغادر بمفردها إلى باريس لأسبوع واحد، عانت من أعراض انسحاب «الدّفء العائليّ» بشدّة.

كانت تستيقظ كلّ يوم وفي عينيها نظرة رضا. لقد حازت الحياة المثاليّة التي أرادتها، ولم تكن لتستبدل بها أيّا من كنوز الدّنيا.

- ماذا ستفعل ميار بشأن الجامعة؟

سألت ياسمين، فأجابت سكينة في فخر:

- ستدخل كليّة الطبّ!

تعالت هتافات التّهنئة والفرح، ثمّ قالت رانيا بلهجة الأخت الكبرى:

- أخيرًا، ستكون لدينا طبيبة في العائلة!

كان مفهوم «العائلة» مختلفًا عن المعتاد بالنّسبة إليهنّ، ومثيرًا للدّهشة عند الغرباء. العائلة تتفرّق في أصقاع الأرض، لكنّ أفرادها يتشاركون الأفراح والأتراح، ولا يتخلّفون عن المناسبات العائليّة، حتّى لو كان الحضور افتراضيًا. بقي «ميثاقهنّ» الذي وقّعن عليه ذات أمسية صافية نصب عيونهنّ وملء قلوبهنّ، في اتّفاق صامت وضمنيّ.

قالت رنيم في تهكّم:

- شهاب طبيب.. هل نسيت؟

هزّت رانيا كتفيها وراوغت:

- قصدت الإناث.. ليست لدينا طبيبة أنثى!

قالت ميار فجأة بحماس لا يخفى:

- جاسر قادم لزيارتنا الأسبوع القادم!

لم يكن جاسر قد رضي نهائيًا بأمومة سكينة، لكنّه لم يعد يعارض وجودها في حياته. كانت والدة ميار وحاضنتها، وهو مضطرّ للتعامل معها. بعد رحيلهما إلى إسطنبول، زارهما خلال الإجازة الصيفيّة. وفي أوقات أخرى، تسافر ميار وحدها لإمضاء بعض الوقت برفقته. قالت رنيم وهي تلحظ تغيّر تعابير رانيا في حذر:

- مناسبة جيّدة للاحتفال. استمتعا!

ضحكن في مرح، ثمّ امتدّت الجلسة ساعة بعد، تشاركن فيها الأخبار ومستجدّات الحياة الخاصّة بكلّ منهنّ، مثل أيّ جلسة اجتماعيّة سبق وظلّلتهنّ بظلّها، في الشقة الباريسيّة القديمة.

***

تأمّلت رانيا الرّسالة المغلقة الواردة إلى بريدها الإلكتروني دون أن تجرؤ على فتحها. مازال «بطل حرب النّجوم» يطاردها، مثل مراهق لم ينضج بعد. لم تعد تلك المحادثات الصبيانيّة تثير اهتمامها. تنهّدت وهي تقذف بها إلى سلّة المهمّلات بنقرة على جهازها. انتبهت إلى الاتّصال الوارد من رنيم. لقد كنّ يتحدّثن منذ حين في لقاء جماعيّ. أما زالت في جعبتها حكايات أخرى؟

- رانيا، هل يمكن أن نتحدّث بصراحة؟

توجّست رانيا من لهجتها الصّارمة، لكنّها قالت في انتباه:

- بالتّأكيد.

- هل هناك شيء بينك وبين كزافيي؟

زفرت رانيا في امتعاض. لم تعرف أنّ الأمر مكشوف حتّى تلك اللّحظة. قالت في فتور:

- لا تشغلي بالك.. ليس هناك ما يستحقّ الاهتمام.

لكنّ رنيم ألحّت:

- أنت شقيقتي ومصلحتك تهمّني. أعرف مدى تعلّقك بسكينة وميار.. وربّما تكون علاقتك بكزافيي جادّة...

قاطعتها رانيا بضحكة ساخرة:

- كزافيي والجدّية.. في جملة واحدة؟ إنّه يفتقر إلى الوضوح والمباشرة.. وأنا فقدت الشّغف والثقة!

استمعت إليها رنيم في اهتمام ثمّ قالت:

- فهمت. أردت فقط أن تعرفي أنّني أدعمك مهما كان خيارك.

أصغت رانيا في سكون وألم. إنّها تعرف ما تعنيه رنيم. في ذلك الوقت، لم يدعمها أحد. لقد سحق والداها إرادتها وأمليا شروطهما. ذلك الإحساس القاسي بالوحدة والهوان، كانت رنيم تريد حمايتها منه. ابتسمت في امتنان وقالت:

- أعلم أنّك تفعلين.

***

دخلت مدبرة المنزل البرتغالية البدينة ذات السّنوات الخمسين ونيف غرفة المعيشة، ورفعت صوتها لتقول:

– سيدي، العشاء جاهز.. هل أضع المائدة الآن؟

رفع عمر رأسه عن كتابه وقال بابتسامة:

– شكرًا لك.. سأتصرّف بنفسي بعد حين.

تنهّدت بصوت عالٍ، ثمّ انبرت تمسح الغبار عن اللّوحات المعلّقة على الجدار الرّئيسيّ للغرفة خلفه. كان قد انسجم في القراءة من جديد، ونسي أمرها. إلّا أنّها انتشلته من استغراقه وهي تقول في فضول:

– هذا الولد.. إنّه لا يشبهك. من يكون؟

التفت عمر ليطالع صورة طفل صغير في الثالثة أو الرّابعة، يقف وحيدًا قرب شجرة معمّرة. ابتسم وهو يقول:

– إنّه ابن أخي.

أشارت إلى صورة أخرى، يعلوها شريط أسود، وقالت:

– أخوك الرّاحل؟ إنّه يشبهه فعلًا!

أومأ في صمت وعاد إلى كتابه. لكنّها بدت مصرّة على الثّرثرة:

– لماذا لا يأتي إلى زيارتك؟ لقد جاءت شقيقتك وأولادها الصّيف الماضي...

كانت تشير إلى صورة ثالثة، تظهر عليها عائلة جميلة.. هو وعائشة وولداها. التقطها في حديقة المنزل، حين جاؤوا جميعًا لقضاء أسبوعين برفقته. كان يشعر بالأسى، لإفساده الرّحلة الباريسيّة التي انتظرها ثلاثتهم كثيرًا. لذلك أراد أن يعوّضهم. «لوزان» ليست باريس.. لكنّ المتعة كانت في الموعد. والطّعم الأوّل للمناخ الأوروبيّ يبقى ساحرًا، خاصّة على أبواب الرّيف السّويسريّ! انطلق أربعتهم في رحلة شملت المناطق الجبليّة الشماليّة ومقاطعة البحيرات الخلابة.

شرد في أفكاره ولم ينتبه إلى سؤالها المعلّق، فهزّت كتفيها وعادت إلى عملها في صمت. «إنّه غريب الأطوار».. همست في نفسها. شابّ وسيم –لولا النّدبة التي تظهر على جانبه الأيسر –وحيد، وغريب الأطوار!

– متى تصل سيّدة المنزل؟

– قريبًا يا لويزا.. قريبًا.

ابتسم. لقد أصبح كلّ شيء جاهزًا الآن لاستقبال العروس. لقد انتظرته آية طويلا حتّى يلملم شتات نفسه وتثبت قدماه من جديد. زار «بون» الألمانيّة منذ شهرين، واتّفقا على تفاصيل الزّفاف. قريبًا تنتهي وحدته.

– هل تحتاج منّي شيئا بعد، سيّدي؟

قال دون أن يرفع رأسه:

- لا، شكرًا لك لويزا.

- إذن أستأذنك في الانصراف.

خطت لويزا نحو المدخل، حيث علقت مريلتها وارتدت معطفها ثم غادرت. كانت تحضر كل يوم، ترتّب الغرف، تعدّ الوجبات وتهتمّ بالغسيل والتنظيف، ثم تنصرف. إنّه الزّبون المثاليّ في نظرها. شابّ أعزب، وثريّ. لا أطفال يجعلون البيت في فوضى دائمة. ولا سيّدة بيت تدقّق خلفها وتتبّع الأخطاء. وفي نهاية الأسبوع، يدفع لها بسخاء.

تناديه «سيّدي»، ويعرفه الجميع بالجوار بـ»المغربيّ». كانت تلك صفته المميّزة والفريدة في تلك القرية السّويسريّة التي قلّما يستقرّ فيها الغرباء. كان لديه جار فرنسيّ، يقطن على مبعدة شارعين. يُعرف بـ»المتكبّر»! تلك صفة ملاصقة للفرنسيّين في سويسرا عمومًا. الفرنسيّ كسول، متعجرف ومتطلّب. هكذا تحاكمه النّظرة السّويسريّة الثاقبة!

التقيا وجهًا إلى وجه أمام كشك الجرائد ذات مرّة، فبادره الفرنسيّ بالتّحيّة، مثل غريبين يتآلفان من نظرة. قال متذمّرًا:

- لا شيء يحصل في القرية.. إنّها الحياة المملّة ذاتها، كلّ يوم. أفكّر في الانتقال إلى «لوزان» حيث أعمل.

ابتسم عمر وقال بلباقة:

- حسنًا تفعل!

ثمّ حيّاه مبتعدًا. إنّه يتجنّب الاحتكاك بالنّاس. يحافظ على مسافة أمان، ويتجنّب الصّداقات والعلاقات الحميميّة. لقد بات يدرك أنّه مصدر خطر على المحيطين به. يفضّل أن تبقى هويّته مجهولة وحياته باردة وخالية من البشر.

ترك عمر مجلسه عند الموقد التّقليديّ الذي تضطرم نيرانه في الحطب الجافّ الذي قطعه بيديه الأسبوع الماضي، ثمّ وضع الكتاب على المنضدة.

استدار نحو الجدار الذي كانت تتعهدّه لويزا بالتنظيف منذ حين. كانت ذاكرته كلّها تجتمع على تلك الرّقعة الصّغيرة. «حائط مبكاه» الخاصّ. عصارة آلامه وخلاصة كوابيسه. كان المنزل المنعزل قد غرق في السّكون في تلك الآونة من النّهار، بعد انصراف المدبّرة الثرثارة، فيمتلئ صدره وحشة وتزداد وطأة الوحدة على روحه.

يتّجه إلى النّافذة العريضة المطلّة على الحديقة، ويفتح الدّفتين على مصراعيهما. يقف على الشّرفة المرصوفة بخشب أشجار استوائيّة، يتأمّل المساء الهادئ والمظلم الذي يتربّع على عرش القرية، ثمّ يأخذ نفسًا عميقًا باردًا لاذعًا. يقف وحده مع اللّيل والسّماء والسّكون، ويتنهّد بقوّة في شكوى صامتة. ثمّ تغشاه سكينة تطبطب على وجدانه، فينسحب إلى الدّاخل.

يبدأ نهاره في وقت مبكّر. كلّ صباح، يقصد المكتب الواقع في مركز «لوزان». اختار هذه المرّة أن يقف على الدّرجة الأولى من سلّم تطوير الأجهزة الكهربائيّة. يعمل المختبر على تصميم نماذج مختلفة من البطاريّات، حسب حاجة الحرفاء. يتعامل بالأساس مع مصنّعي الآلات المنزليّة، من المنبّه إلى المكيّف الصحراويّ. كلّ آلة تعتمد على نوع مغاير من البطاريّات. لقد فرض معيارًا جديدًا على السّوق، وتسابق المنتجون لتوقيع عقود حصريّة تمكّنهم من الاستفادة من البطّارية المميّزة.

منذ أربعة أشهر، تعمل خمسة خطوط إنتاج في مصنع صينيّ في الشّرق الأقصى بشكل حصريّ وبطاقة قصوى، لتصنيع البطّاريّات عالية الكفاءة.

أعلنت شاشة حاسوبه المحمول عن رسالة واردة. ابتسم وهو يطالع اسم وليد. قرأ على مهل الكلمات المرصوفة على الشّاشة. يحدّثه الشّاب عن تفاصيل أسبوعه بسخاء. منذ وصوله إلى بريطانيا من أجل التّحضير لرسالة الدّكتوراه في القانون الدّوليّ، يتراسلان بانتظام. ترك المخيّم أخيرًا وحلّق نحو آفاق أخرى، لعلّه يومًا ما يتصدّر المشهد الإعلاميّ مدافعًا عن حقوق المهجّرين ويرفع في فخر اسم فلسطين.

كانت ساعة من أهنأ ساعات يومه، حين يتلقّى تلك الرّسائل المنعشة والمفعمة بالأمل.

لقد كانت فكرة هيثم، كفالة شابّ في المهجر حتّى يستكمل الدّراسات العليا في واحدة من أفضل جامعات العالم. منذ حدّثه عن مخيّم اليرموك، وطموح الشّباب هناك، عاهد نفسه على أن يكفل شابّا كل عام. وها هو يحمل المشعل من بعده.

قبل أن يغلق الجهاز، توقّف ليتأمّل الاسم المجهول الذي ظهر في صندوق البريد. تردّد لحظة، ثمّ ضغط على الرّسالة، وقرأ فحواها بعينيه في صمت. لقد تعوّد على هذا النّوع من الرّسائل مؤخّرا، بعدما كانت تفاجئه في المرّات الأولى.

لقد أصبح «بطاقة محروقة» الآن، بعد المحاكمة والاعتراف. لم يعد بوسعه السّعي أو التنقّل مثل السّابق دون أن يستجلب الشّكوك لكلّ من حوله. لكن هناك سبيلا دائمًا لمواصلة الرّحلة...

منذ الحادثة، تلقّى عشرات الرّسائل على بريد الشّركة، من علماء مسلمين من مختلف أنحاء العالم. كلّهم يريدون التّعاون مع المقاومة الفلسطينيّة!

يستهلك وقتًا غزيرًا قبل أن يردّ على أحدهم. يتثبّت من خلفيّة كلّ منهم قدر المستطاع، وبكلّ الأساليب المتاحة. يحاول التّأكّد من هويّته ومساره المهنيّ ومحيطه المباشر، ليضمن عدم السّقوط في فخاخ المندسّين. ثمّ يصله بغيره من المتطوّعين الذين يشاركونه الاختصاص والاهتمامات. قريبًا، ستكون هناك شبكة في مختلف أنحاء العالم من العلماء والمهندسين، الحاملين لهمّ القضيّة، قادرين بتعاونهم على تغيير شكل العالم.

يؤمن بأنّ هذا اليوم سيأتي قريبًا. وحينها، لن تكفي عمليّة اغتيال واحدة، ولا عشر عمليّات، لقطع شرايين المقاومة.

لقد أرادوا أن يكون هيثم «عبرة»، لكنّه كان «قدوة» رغم أنوفهم!

تنهّد، ثمّ سار باتّجاه المرآب المتّصل بالمنزل عبر بوّابة داخليّة. أدار المفتاح في القفل ثمّ دفع الدّفّة ليشرف على مستودعٍ واسعٍ، تتوقّف داخله سيّارة حديثة، يستخدمها في تنقّلاته الضّروريّة إلى المدينة، وفي ركنه الخلفيّ أنشأ ورشة ورفوف تخزين عريضة.

على الطّاولة الخشبيّة المرتفعة، كان نموذج تجريبيّ للطّائرة الجديدة التي شرع في صنعها منذ أسابيع. كان حذرًا. لم يكن يدخل المستودع في حضور مدبّرة المنزل. ولم يكن يسمح لأحد بالولوج إليه. لا البستانيّ الذي يحضر مرّة كلّ أسبوع لاقتلاع الأعشاب الضارّة وتعهدّ الأشجار بالرّعاية – فقد احتفظ بأدوات البستنة في الرّكن الخارجيّ المسقوف– ولا السبّاك الذي استأجره لتجديد شبكة التّطهير الخاصّة بالمنزل.

أنهى تعديل المحرّك منذ يومين، وها هو يقضي مساءاته الطّويلة يحاول تشغيل برنامج هيثم عليه. ضغط على زرّ فتح البوّابة الآليّة، فارتفعت الدّفّة مفرجة عن الطّريق المؤدّي إلى الشّارع. حمل طائرته ولفّ حول السّور لينفذ إلى الحقل الخلفيّ السّاكن. ضغط على زرّ التّشغيل، فانطلقت الطّائرة الصّغيرة لتحلّق فوق رأسه.

يتخيّلها وهي تمضي في مهمّتها الميدانيّة الأولى، تعبر مساحات شاسعة من حقول البرتقال والزّيتون، ثمّ تنزل بخفّة حتّى تقترب من الأرض النّديّة، فتنبجس ذراع معدنيّة من جوفها، تقبض قبضة من تراب بلدة «صويريف» في رام الله، تسحبها إلى الدّاخل بعناية، ثمّ ترتفع مجدّدا لترجع أدراجها.

لم يرضه قطّ أن يعود بتراب غزّة وحدها. لقد رضيت أمّ محمّد، لكنّه لم يرض. بكت بحرقة، حين حمل إليها كيس التّراب ذاك. أدرك وهو يرقب تأثّرها أنّ المهجّرين قد باتت طموحاتهم هزيلة، حتّى أنّهم يكتفون بالفتات من رائحة الوطن! فيحزّ ذلك في نفسه ويزيد من تصميمه.

راقب الطّائرة النّموذجيّة بابتسامة خفيفة وهي تؤدّي سلسلة الحركات التي أمرها بها، قبل أن تعود لتحطّ عند قدميه بهدوء.

على جانبها الأيسر، تظهر حروف عربيّة واضحة: الرّمز (هـ أ — ٢).

تمت بحمد الله

شكر

إلى لورا فاطمة ابراهيم أحمد عدوان

المعلومات الخاصة بمخيم اليرموك وفلسطينيي المهجر مستقاة من رسالة الماجستير الخاصة بها، في برنامج علم الاجتماع من كلية الدّراسات العليا في جامعة بيرزيت، فلسطين.

دراسة بعنوان: «صورة فلسطين في روايات اللاجئين الفلسطينيين (دراسة مقارنة بين مخيم قلنديا في فلسطين ومخيم اليرموك في سوريا)»، صادرة في أغسطس ٢٠٠٩.

تنويه

بعض أحداث الرواية مستوحاة من قصّة حياة الشّهيد

محمّد الزّواري

تونس (١٩٦٧ – ٢٠١٦)